

مكتبة الدراسات الأدبية

٧٨

الدكتور عزيز فهمي

المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي
في العصر الأول

تحقيق

محمد قنديل البقاي



دار المعارف

هذا الكتاب

الأدب المقارن يحتاج من الكاتبين إلى جهد كبير
ومعرفة واسعة وقدرة خاصة في التحليل والنقد
لا يستطيعها إلا ذوو العبقرية الأدبية الذين لهم ضلع
في الأدبين العربي والأجنبي .

وقد تجلّى في هذا البحث قدرة المرحوم عزيز فهمي
فكان من واضعي الأصول النفسية والأدبية لمن
يريدون أن يزاولوا هذا النوع من البحوث والمقارنات
بين أدبين مختلفين . فنراه قد مهد له باستقراء واسع
فقد عرض أولاً للحديث عن فنون الشعر الأموي
بفروعه ، فتحدث عن الشعر القبلي ثم الشعر الغزلي
رابطاً ما قيل هنا في العصر الأموي والعصر الجاهلي
مدللاً بالشواهد لفنون الشعر المختلفة منذ العصر
الأموي إلى نهاية العصر العباسي ، ثم تحدث عن ماهية
الشعر وعن التجديد جاعلاً هذا التجديد مدرسة على
رأسها أبو نؤاس ثم تكلم عن أثر الفلسفة اليونانية في
الشعر العباسي وعن مقارنة الأسلوب بين الشعراء .

المقارنة
بين الشغرا الأموي والعباسي
في العصر الأول

مكتبة الدراسات الأدبية

٧٨

المقارنة
بين الشعر الأموي والعباسي
في العصر الأول

تأليف

دكتور عزيز فالح

تحقيق وتقديم

محمد قنديل البقاعي



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

١

أما كيف وقعت لي هذه الدراسة : « المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول »
للمرحوم الدكتور عزيز فهمي ، فهذا حديث أحب أن أحدثك به قبل أن آخذ في الحديث
العام عن البحث وصاحبه .

ففي زورة لي للمرحوم الأستاذ أحمد الشايب - وكنت كثيراً ماأزوره الفينة بعد الفينة -
دفع إليّ مخطوطة ضخمة تقع في نحو ثلثمائة وسبعين صفحة من القطع الكبير ، هي هذه
الدراسة ، ولم يحدثني كيف انتهت إليه ، ولكنه حدثني أنه قرأها وحازت إعجابه ، وتمنى عليّ
أن لوأشرفت على تحقيقها وعزو كل قول إلى قائله ، ورد كل نص إلى مرجعه ، وتقويم ما بها من
تصحيف وتحريف .

وفي الحق لقد كان البحث قبل أن يأخذ صورته تلك الأخيرة كثير الأغلاط الإملائية مما
يدل على أن صاحبه أملاه على غيره ، وكان هذا المملى عليه سيئ الأداء ، كما كان كله أقوالاً
غير معزوة إلى مراجعها ، ونصوصاً غير مشارفها إلى مظانها ، وكانت إساءة المملى عليه إلى هذا
وذاك تجعل من البحث على ما فيه من نفع كبير شيئاً يكاد يُعدّ غامضاً ومبهما لا يفيد منه الملم به
إلا القليل .

ولقد كانت الدراسة شيئاً جليلاً عندي ، كما كانت شيئاً جليلاً عند أستاذنا أحمد
الشايب . من أجل هذا كان حرصى على نشرها .

وإذا عرفت أني تسلمت هذه الدراسة منذ سنين أربع أو أكثر قليلاً ، أدركت كم وقتاً
قضيت وأنا منكبٌ عليها لتحقيقها وكتابتها وتصويبها ، ورد كل شيء إلى أصله .
وهأنذا أطلع القراء بها راجياً أن أكون قد حققت رغبة للأستاذ أحمد الشايب ، وأدّيت

واجبا نحو العلم والتراث الأدبي ، ووفيت لأدينا الراحل المرحوم الدكتور عزيز فهمي ببعض ما يؤديه الأحياء للأموات من الوفاء ، ثم أكون آخر الأمر قد أرضيت نفسي بإنجاز هذا العمل الكبير وإخراجه للقراء في صورة طيبة ليستمتعوا به كما استمتعت .

٢

وأحب - قبل أن أدخل إلى موضوع هذه الدراسة - أن أعرف بصاحبها فعرفة المؤلف يجب أن تكون أسبق من معرفة المؤلف ، فقد تلقى المعرفة الأولى ضوءاً على المعرفة الثانية ، فعمل المرء صورة من حياته بجميع مظاهرها ، ولكي تتضح لك تلك الصورة يجب أن تتبين أنت صاحبها .

وعلى الرغم من أن المرحوم الدكتور عزيز فهمي كان معاصراً فإن تقصى تاريخ المعاصرين اليوم من الصعوبة بمكان وبخاصة هؤلاء الذين بغتهم الموت في ريعان الشباب . ويبدو أن حياة المتقدمين كانت أيسر على الجامعين من حياة المعاصرين بدليل ما نجده للمتقدمين من تراجم وافية تجمع الصغيرة إلى الكبيرة ويتناقلها مترجم عن مترجم بإضافات وتعليقات ، فإذا نحن أمام تراجم وافية مستفيضة لا يكاد يغيب منها على القارئ الباحث شيء ، بل كثيراً ما نشكو ثقل هذه التراجم وما فيها من حشو واستطراد .

وعلى العكس من ذلك لانجد للمعاصرين هذه العناية الحافلة . بما بين أيدينا ، فيمضي الأديب المعاصر أو الشاعر أو الكاتب أو غيرهم ممن لهم شأن وبال ، فلا نجد بين أيدينا مرجعاً يترجم تلك الحياة لهؤلاء أو يكشف عنها ، اللهم إلا بعض سجلات تحتفظ بها الهيئات والنقابات والصحف أو ملفات الحكومة إن قدر للشخص أن يكون موظفاً ، وهذه كلها إن وجدت لا تكاد تغني شيئاً لأنها من القلة بحيث لا تفصل الحياة تفصيلاً يغني ، ولعل هذا هو الذي دفع - أخيراً - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يعدّ سجلاً للمعاصرين يجمع فيه ما استطاع جمعه من أصوله الموثوق بها .

وقد رأينا نفراً من المؤرخين الذين عنوا بتلك الدراسات التاريخية للأفراد يجمعون شيئاً من هنا وشيئاً من هناك عن المعاصرين ، وهذا - كما نرى - شيء ليس فيه استقصاء ، وإنما هو كلمات غير وافية مستوحاة من سجلات غير وافية ، وكم عانى قبلي من الذين عرضوا لترجمة

شخص من المعاصرين مثل ما أحسُّ أنا ما أعانيه وأنا أترجم للمرحوم الدكتور عزيز فهمي .
لقد عاصرته وقرأت له حين كان يكتب في البلاغ كلمات تكاد تكون منتظرة يوماً يوماً أو
أسبوعاً بعد أسبوع ، ولم يكن عزيز كاتباً اجتماعياً ، وإنما كان كاتباً وقف نفسه على الحياة
السياسية ، وكان يكتب في الأدب ، ولقد كانت كلماته الأدبية أقل من كلماته السياسية ، لقد
كان عزيز حزبياً ينتمى إلى حزب الوفد ، وكانت معاركه صاحبة لاتكاد تهدأ ، وكتاب هذا
الحزب ومن جملتهم عزيز لا يكادون يهدءون أيضاً .

ولعل الذى رعى عزيز فى أتون السياسة وفى الحزبية أن أباه المرحوم عبد السلام فهمي
جمعة كان من كبار شخصيات هذا الحزب بل رئيس مجلس النواب ، لم يغيب عن رئاسته
دورة من الدورات التى كانت لحزب الوفد (الحكومة) .

ولد عزيز لهذا الأب الغارق فى السياسة إلى الأذقان ، وكان مولده فى مدينة طنطا سنة
١٩٠٩ م ، وبذلك نعرف كم كانت سنه عندما شبت ثورة ١٩١٩ ، وإذا عرفنا مشاركة أبيه
فى السياسة منذ نشبت هذه الثورة ، عرفنا غذاء عزيز الثائر ، فلقد كان غذاء سياسياً بحثاً ،
رضعه واستساغه وطعمه وهو صبي واستزاد منه وهو ناشئ ، وكان أبوه من ورائه يشركه فى رأى
ويلقنه كل ما يهم الوطن ، وما يهم كل مواطن ، فكانت هذه هى حياة المصريين جميعاً ،
عاشوا لوطنهم تلك الحقبة السياسية المريعة ما قبل الثورة يعدون ، وما بعد الثورة يتابعون . ولقد
كان والد عزيز رجلاً من رجالها ، لهذا كان ألصق من غيره بالثورة إعداداً ومتابعة ، وكما كان
الوالد كان الابن ، ومن شبَّ على شيء شاب عليه .

هذه الرعاية السياسية من الأب ملأت عزيزاً بتلك النزعات السياسية وجعلته ذاحظ كبير
يفوق حظ الناشئين الذين عاصروه .

قضى عزيز فى مدرسة طنطا الابتدائية أربعة أعوام ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية فى
تلك المدرسة التحق بمدرسة طنطا الثانوية ، ويبدو أنه لم يلبث بها طويلاً وتركها والتحق
بمدرسة الجيزة الثانوية وحصل منها على شهادة البكالوريا فى سنة ١٩٢٦ ، أو ١٩٢٧ ،
لا أكاد أجزم ، فما بين يديّ من مراجع لا يعطيني بياناً محدداً ، ويعينني هنا أن أشير إلى أن
حصول عزيز على البكالوريا كان فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، وهذا العمر
إذا قيس بأعمار من زاملوه ممن حصلوا على هذه الشهادة فى فرقة يعد عمراً مبكراً ، والحاصل
عليها فى مثل هذه السن يعد من النابهين المجدين .

وإذا عرفنا أن الثورة التي نشبت سنة ١٩١٩ ، كان قد مضى عليها نحو سبع سنوات أو ثمانى سنوات عرفنا كم من السنين شارك عزيز في تلك الثورة ، فلقد كان للطلبة حين ذاك - طلبة المدارس الثانوية ، وطلبة المدارس العليا بل طلبة المدارس الابتدائية مشاركة في الثورة ، فهم الذين كانوا يتظاهرون ، وهم الذين كانوا لا يهدءون ، ولا يهدأ لهم بال ، ويتعرضون لرصاص المستعمرين وبطش الحاكمين والسجن والتعذيب .

وما من شك في أن عزيزاً كان واحداً من هؤلاء ، بل كان بارزاً من المبرزين في ذلك الميدان ، شارك بنصيب كبير في جمعيات الطلبة ، وفي كتابة المنشورات وفي التحريض وفي إلقاء الخطب الحماسية ، كما يقول بعض عارفيه .

والنزعات الوطنية إن لم تساندها نزعات أدبية لم يكتب لأصحابها التصدر والتزعم حتى يؤيد البيان الوجدان ، ويكون القول المبين إفصاحاً عن الوجدان المتين .

ولقد رزق عزيز فهمي حظاً من الأدب موفوراً وهو في صباه إلى جانب حظ من الوطنية غزير وقد أشرت إلى أسبابه ، فلقد كان خطيباً تشهد بذلك خطبه التي لا يزال صداها في آذان معاصريه من طلبة مدرسة الجيزة الثانوية ، ولقد كانت له كلماته التي نشرت الفينة بعد الفينة في الجرائد حين ذاك ، إلى جانب هذا وذاك ملكة الشعر ، فلقد كان شاعراً موهوباً وهو في سنى حياته الأولى ، ويبدو أن الوالد كما غذاه بوطنيته غذاه بأدبه أو على الأقل فتح له صفحات الأدب يتغذى منها ويرتوى ، إذ بعيد أن يرزق ملكة الشعر شاعر في هذه السن المبكرة إلا إذا سبق ذلك تدريب للقريحة . بمحفوظ من الشعر كثير ، وقصيدته التي قالها في صباه ، وإن كنا لاندرى على وجه التحقيق متى كانت ، ولكنها على أية حال لم تعد السنين الأولى من مرحلة التعليم الثانوى تشهد بشاعريته ، تلك القصيدة بعنوان : « يافتاني » ويقول فيها :

سلام الله مالكة الفؤاد وكل تحية دون المقام

سلام الله يا أختي سلام سلام من أسيرك في الغرام^(١)

ولعل حب عزيز للأدب مع وجدانه الوطنى هما اللذان رسما أمامه الطريق لكى يلتحق بكليتين معاً ، كلية الحقوق وكلية الآداب ، وهما كليتان تجمعان بين نهجين متقاربين ، نهج الفكر ونهج البيان ، ويبدو أن عزيزاً أراد أن يكون رجل فكر ورجل بيان يمكن الفكر للبيان ويدعم البيان بالفكر .

التحق عزيز بكلية الحقوق بعد حصوله على الثانوية العامة (البكالوريا حين ذاك) في سنة ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ ، وفي العام نفسه انتسب إلى كلية الآداب ليجمع بين دراستين - كما قلت لك - يمكنان لمهبتين هما : موهبة القانون وموهبة الأدب .

حتى إذا ما كانت سنة ١٩٣١ ، تقدم عزيز لامتحان ليسانس الآداب أولاً ثم ليسانس الحقوق ثانياً ، وكان هذا البحث الذي تقدمه للمطبعة اليوم : « المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول » هو ما يسمى في الاصطلاح الجامعي بأعمال السنة ، وكان الأستاذ المقدم إليه هذا البحث هو الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو الذي أهدى إليه عزيز هذا البحث بقلمه .

لأستاذنا "عبد الوهاب عزام"
مع تسمية تلميذ و تلميذة عارف
عزيز قاسم

وما إن حصل عزيز على هاتين الإجازتين معاً ، إجازة الآداب ثم إجازة الحقوق حتى شدد الرحال إلى باريس يريد أن يحصل على مزيد من علم في هذين الحقلين معاً : حقل الحقوق - أى حقل السياسة - وحقل الآداب .

ويحقق عزيز في سنة ١٩٣٨ إحدى هاتين الرغبتين فيحصل على دكتوراه في القانون في تلك السنة ، وكان موضوع البحث الذي حصل به على هذه الإجازة - إجازة الدكتوراه هو : « الامتيازات الأجنبية ومعاهدة ١٩٣٦ » .

وهذه لفظة تسترعيك إلى ما كان عند الرجل من وطنية ، وما كان يشغله من أمر مصر ومستقبل مصر .

وفي باريس دفعه طموحه أن يجمع بين دراستين أيضاً ، دراسة القانون ودراسة الآداب ، تماماً كما فعل في مصر غير أنه في هذه المرة حصل على إجازة القانون قبل حصوله على إجازة الآداب ، فإذا هو يحصل على دكتوراه في الآداب من السوربون بعد حصوله على دكتوراه في القانون ، لاندري في أى سنة كان ذلك على وجه التحقيق ، ولكننا نكاد نجزم أنه كان قبل

نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .

وشبت الحرب العالمية الثانية فاضطر عزيز أن يتخلف في فرنسا أعواماً ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى مصر في سنة ١٩٤٨ ، يحمل هاتين الشهادتين : دكتوراه في الحقوق ودكتوراه في الآداب .

وفي مصر غرق عزيز في الحياة السياسية إلى الأذقان ، وشغلت وقته ، فكان الكاتب المناضل ، تنشر له صحيفة البلاغ مقالات متتابعة لا يكاد يمضي يوم دون أن يكون له مقال . وتتحدث المجتمعات السياسية عن مواقفه المشهودة ، فما إن يقبض على متهم سياسي حتى يكون عزيز أول المدافعين ، وما تكون محنة في أى بلد عربى يرزح تحت نير الاستعمار إلا كان عزيز أول المدلين فيها بآرائه ، يشارك فيها بالدفاع عن المظلوم أو بقلمه الجريء إذا كان الأمر لا يحتاج إلا إلى ذلك .

وشارك عزيز في مجلس النواب سنة ١٩٥١ منتخباً عن دائرة الجمالية ، فكانت له في هذا المجلس جولات وصولات تشهد بها مضابط المجلس حين ذاك ، وتدلنا في صراحة على أنه لم يكن ذلك الحزبى الذى ينطوى في حزبه بل جعل حزبه ينطوى فيه ، فكان صاحب رأى الذى يعتقده ، لاصحاب الرأى الذى يجبر عليه ، وحسبنا أن نشير إلى موقفه الجريء في دفاعه عن حرية الصحافة ، وكان الوفد - وهو الحزب الذى كان ينتمى إليه عزيز - يريد أن يقيدها .

ولقد كان عزيز إلى جانب جولاته في القول صاحب جولات في المبادئ التى كانت تستأهل التضحية ، وكأنه لم ينس شبابه الأول أيام كان طالباً يعرض حياته للتهلكة في خروجه على رأس المتظاهرين ، من أجل هذا رأيناه يشارك في معركة القنال ضد الإنجليز في سنة ١٩٥١ بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ .

ولم يطل الأجل بعزيز بعد ذلك كثيراً ، ففي سنة ١٩٥٢ سقطت به سيارة كان يستأجرها ذاهباً بها إلى الفشن ليحضر قضية كان عليه أن يدافع فيها ، فمات عزيز ونجا السائق ، وكتب لمصر أن تفجع في ابن عزيز عليها كريم عندها هو « عزيز » كانت آمال كثيرة معقودة عليه لو امتدت له الحياة .

٣

هذه حياة عزيز كما أملت على المصادر المجملة التي وقعت لنا ، ولكنها على إجمالها تعطينا فكرة جلية واضحة عن عزيز وطنياً وسياسياً وخطيباً وشاعراً ، وكان بودي أن أسوق إليك نبذاً مما كتب لكى أجلو لك رأى والفكر عند عزيز ومنطقه وأسلوبه ، ولكنى رأيت ذلك يطول بى وبك ، وأنا أجتزئ هنا بشيء من شعره فهو يدل على الكثير من كتاباته ، وأنه كما عاش كاتباً لمصر عاش شاعراً لها ، فديوانه فيه الكثير من شعره الوطنى ، حسبك منه قصيدته التى عنوانها : اسلمى مصر ، والتي يقول فى مطلعها :

اسلمى مصر على مر القرون حسبك الله نصيراً ومعين
ثم حسبك منه قصيدته فى مشروع القرش والتي يقول فى مطلعها :
وطنى لو بدلت به الدنيا ولى الخلد اخترت ثرى وطنى
ثم كم من قصائد أخرى شارك بها عزيز فى حركات سياسية واجتماعية^(١)

وشعر عزيز ، كما رأيت ، من تلك النماذج صورة من حياته وصورة من كتاباته ينبثق عن أن عزيزاً ذو فكرة وذو رأى وذو عمق وذو فلسفة لاشاعرولا كاتب يرتجل ويقول القول على عواهنه .

وأنا أريد بهذا أن أمهد لهذا الموضوع الذى اختاره عزيز لبحثه الذى بين أيدينا اليوم ، وإذا ما تصفحنا البحث : « المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول » انتهينا إلى أن عزيزاً فى اختياره هذا الموضوع لم يختره ليسد به فراغاً ، وإنما اختاره امتداداً لما يحس به من تفكير ، ولما يحده فى نفسه من عمق ومن فلسفة أراد أن يصنع بها بحثه .

٤

والمقارنة بين الشيئين تقترن بأمور ثلاثة :

- ١ - ماسبق وجودها ، وهو الذى يقال عنه السبب .
- ٢ - الحال التى وجد عليها ، وهو ما يقال عنه المسبب .

(١) انظر الديوان - طبعة دار المعارف .

٣ - النتائج التي تترتب عليها ، وهو ما يقال عنه الأثر.

يستوى هذا في الأشياء الحسية والمعنوية ، والحسيات تقتضى حسيات مثلها . أما المعنويات فقد تقتضى إلى المعنويات حسيات ، من أجل ذلك كان استقراء المعنويات والمقارنة بينها وبين بعضها تقتضى أشياء مختلفة حساً ومعنى ، وإذا كانت الظواهر الأدبية من المعنويات فهي تقتضى استقراء أشياء مختلفة حسية ومعنوية .

والمقارنة بين الشعرين الأموي والعباسي الأول ظاهرة أدبية لاشك في ذلك ، تقتضى استقراء معنويات وحسيات ، وإذا كانت مقارنة بين عهدين حفلا بالغزير والكثير من المقول ، ولقد كانت هاتان الحقتان من أغنى الحقب إنتاجاً ، وإذا كان أمرهما في الغزارة والكثرة الأدبية معروفاً ، فالاستقراء هنا أوسع والمجال أفسح ، فالمستقرى لا يقف عند قول دون قول ، ولا عند كلمة دون كلمة ، ولا بد من تتبع المقول كلا وجملة ، وكلما كان المستقرى أحرص على هذا الجمع كان أقرب إلى الصواب وأعدل في الحكم وأصوب في الرأي ، ثم إن الاستقراء ، كما قلت ، في الظواهر الأدبية محتاج لكي تكون المقارنة سليمة إلى التفكير في أسباب وأسباب ودواع ودواع وآثار وكلما كان المستقرى واعياً دارساً متتبِعاً للأسباب أولاً ، الحارقة أولاً ، ثم للصورة التي وجد عليها الشيء ثانياً ، ثم لأثر تلك الصورة فيما حولها ، وكلما كان هذا كله موفوراً للمستقرى كان الاستقراء كما قلت ، سليماً دالاً على عمق سليم واستنباط ممكن . وإنا لو نظرنا في ذلك المنهج الاستقرائي الذي اختطه لنفسه الدكتور عزيز فهمي في دراسته تلك عن المقارنة بين الشعر الأموي والشعر العباسي في العصر الأول نجده قد مهد لدراسته باستقراء واسع ، فقد عرض أولاً للحديث عن فنون الشعر الأموي بفروعه ، فتحدث عن الشعر القبلي ، ثم عن الشعر الغزلي رابطاً ما قبل هنا في العصر الأموي والعصر الجاهلي ليخلص إلى نتيجة كان عليه أن يخلص إليها ، فقد يكون الحديث عن هذين الغرضين هنا هو الحديث عن العصر الجاهلي ، وهنا يختلف الحكم ، فكان لا بد من تلك الوقفة الاستقرائية ليخلص منها إلى أن المقول هناك صفته الأموية لاصفته الجاهلية .

أما عدا هذين الغرضين من أغراض سياسية واجتماعية تناولت الحياة السياسية والكلام عن الزبيريين والحديث عن الخوارج ، ثم أمر الشيعة وأمر المرجئة ، فما قيل في هذا كله فهو أموي بحث لا يحتاج إلى تلك النظرة الرجعية ، أعني التي يرجع فيها المؤلف إلى العصر الجاهلي ، فهي أغراض أموية بحثة نشأت وترعرعت وآتت ثمرتها في ظل بني أمية .

ولم يترك الدارس الدكتور عزيز فهمي الحديث عن هذه الأغراض دون أن يدلل بالشواهد الغنية المجزئة التي تؤيد رأيه وما ذهب إليه وما استنبطه .
ولقد جعل الدكتور عزيز الحديث عن هذا كله قسماً من الدراسة ، جعله كتاباً وسماه الكتاب الأول .

وبعد هذا الكتاب الأول أخذ كتابه الثاني أو القسم الثاني من دراسته فهد للشعر العباسي بمقدمة ثم تحدث عن المظاهر التي جدت على الشعر العباسي فأفاض في الكلام على التوليد وأثره العام وأثره الخاص في نفوس الشعراء . وهذه أمور جديدة على الشعر العربي تميز بها الشعر العباسي عن الشعر الأموي .

وكما عرضت للشعر الأموي نزعات سياسية وأخرى اجتماعية كذلك عرضت للشعر العباسي تلك النزعات السياسية والاجتماعية ، وكما كانت هناك في العصر الأموي فرقة الخوارج كانت هنا في العصر العباسي فرقة المعتزلة ، ثم فرق جديدة من المتصوفة . وما من شك في أن هذه الفرق الجديدة اجتمعت حولها ظواهر أدبية أشار إليها الشعراء من قرب حيناً ومن بعد حيناً آخر .

ولم يفت الدارس (عزيز فهمي) النظرة إلى ما حفل به العصر العباسي ظاهرة انتشرت وهي ظاهرة الرق ، وحين عرض عزيز لهذا لم يفته موقف الإسلام من الرق ليؤلف بين ما قيل على ألسنة الشعراء وبين ما قاله الفقه الإسلامي في ذلك . والجديد بعد ذلك في العصر العباسي إن لم يكن جديداً خالصاً هو الحديث عن الغناء والموسيقى .

هذه كلها مظاهر تحدث فيها عزيز في كتابه الثاني أو القسم الثاني من دراسته ، وهي مظاهر تتفق في إطارها العام مع الإطار العام الأموي ، غير أنه كانت لاشك ثمة فوارق وثمرات لمحات فاصلة أشار إليها الدارس في عرضه وهو يسوق النماذج الشعرية في عرضه ، وحين انتهى عزيز من هذا العرض الذي يكاد يكون مشتركاً بين العصرين ، خلص إلى أن ثمة فنوناً جديدة طرأت على الشعر العباسي ، ولم يكن لها وجودها في العصر الأموي ، وهذه الأغراض هي :
الخمريات والغلمانيات والنظم التعليمي وتدوين العلوم ودخول الثقافات الأجنبية وأثرها في الشعر العباسي .

وبعد هذا العرض ، أعني عرض العصرين الأموي والعباسي الأول ، وما أورده الدكتور عزيز من الاستشهاد بكثرة من الشعراء تكاد تلك الكثرة تستوعب شعراء العهدين جميعاً ،

وتكاد تستوعب الشعر عن الغرض المقول فيه ، بعد هذا ختم الدكتور عزيز دراسته بالكتاب الثالث أو القسم الثالث وخصه بالمقارنة الفنية بين الشعرين الأموي والعباسي ، وهنا نرى فكر عزيز يطغى واستقرأه يتصف بالشمول مما يدل على أن هذا العمل ، كما قلت قبل في صدر حديثي ، صورة من مؤلفه ، فهو يحدثنا عن ماهية الشعر وعن التجديد جاعلاً هذا التجديد مدرسة على رأسها أبو نواس ، ثم يتكلم عن أثر الفلسفة اليونانية في الشعر العباسي وقارن بين الأسلوب في الشعر هنا وهناك ، أي بين أسلوب الشعر في العصر الأموي وأسلوب الشعر في العصر العباسي الأول . وحين عرض لهذا تكلم عن المحسنات اللفظية وعن مكانة النحو وعن اختلاف اللغات وعن الخيال وعن الواقعية ثم عن بحور الشعر وما جدّ فيها . هذا كله في استفاضة تم عن إلمام شامل واستيعاب جامع واستقراء كامل .

٥

وبعد فقد أشرت في أول كلامي إلى ماعنّاني عن عملي في هذه الدراسة تحقيقاً ، وأن أكثر ماعنّاني فيها هو إهمال ذكر المراجع التي أخذ عنها الدارس . وأضيف هنا أن هذه الدراسة الواسعة المستوعبة المستفيضة والتي تكشف عن الجهد الضخم الذي بذله الدكتور عزيز فهمي في مستهل حياته الأدبية ، والتي تم عن استعداده لحياة عريضة مليئة بالإنتاج لولا اختطاف الموت له ، كان لابد أن يصحبها شيء من الزلل وشيء من الأخطاء فكم جاء فيها من نسبة قول إلى غير قائله ، وكم جاء فيها من إشارات خاطئة فرددت هذا وذاك إلى الصواب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، كما أسندت الأقوال غير المعزوة إلى قائلها وكثيراً ما جاء في البحث من أقوال غير معزوة . وأرجو أن أكون قد وفيت للبحث حقه مما يعوزه ، ووفيت لعزير حقه علينا . وقد ذيلت عملي هذا كله بفهارس عامة تنتظم فهارس جامعة . والله الموفق والمعين .

مقدمته المؤلف

في دراسة الشعر دراسة للنفس الإنسانية عامة - ولقد فطن إلى هذه الحقيقة بعض علماء النفس - فاستعانوا في أبحاثهم بدراسة ما أنتجه الإنسان من فن جميل ، وما فتى « (Dougall) » ينادى بهذا الرأي حتى انتبه إليه الكثيرون ، واعتبرت هذه الوسيلة من أنفع الوسائل التي يجب أن يعول عليها علم النفس فيما يعول : وكأني بهذا الاتجاه الفلسفي الجديد ، وكأني بجهود النقاد المحدثين قد ضاعف عناية الناس بدراسة الآثار الأدبية ، فكان من نتائج ذلك نشوء « علم الأدب المقارن » ، ولا يزال العلم وليداً في أوروبا وإن يكن في بعض الجامعات الآن منصب لأستاذ الأدب المقارن .

وأهمية الدراسة المقارنة غير مقصورة على الأدب بل هي نافعة جداً في سائر العلوم والفنون - انتبه إليها علماء النفس فنشأ علم النفس المقارن Comparative Psychology ، كما انتبه إليها علماء القانون ، وأول من نبه إليها R. Vm. Shering الذي حمل على المذهب التاريخي ونادى بمذهب مقارنة الشرائع فانتصر لرأيه جماعة من أعلام القانون وأنشئت في باريس سنة ١٨٦١ « جمعية مقارنة الشرائع La Société de legislation » .

ولها صحيفة خاصة ، وزعماء هذا المذهب التشريعي في فرنسا :

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية باريس سابقاً Raymond Salleiles.

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية باريس H. Léoy Usllman.

أستاذ علم مقارنة الشرائع بكلية ليون Esl. Lambert.

- وبعد فيسرنى أن أقدم هذا البحث الصغير في الأدب المقارن ، وكل ما أرجوه أن تتضاعف عناية الباحثين بهذا الفرع من الدراسة الأدبية ، فهو فضلاً عن لذته نقد استقصائي مفيد .

سبيلنا في البحث

المقارنة بين شاعر وشاعر أمر يسير لأن لكل شاعر ، كما أن لكل إنسان نفسه الخاصة ومزاجه الخاص ، فهو يختلف اختلافاً بيناً عن غير معاصريه .

أما المقارنة بين الشعراء في عصرين فأمر عسير لهذا السبب الذي يسهل المقارنة بين شاعر وشاعر ، عسير لأن لكل شاعر نفساً ومزاجاً يخالفان نفس معاصره ومزاجه ، ومع ذلك فليست المقارنة مستحيلة ، ليست مستحيلة لأن لكلا البيئتين الزمانية والمكانية أثرهما القوي على أبناء العصر الواحد والمصر الواحد ، وإذن فبين شعراء العصر تشابه يسهل المقارنة أو قل يجعلها ممكنة - ثم إن بين الشعراء الأمويين ، وشعراء العصر العباسي فارقاً آخر له آثاره هو الوراثة . فالشعراء الأمويون عرب خالصون - والشعراء العباسيون - أغلبهم - مولدون ، ثم هذا الامتزاج بين العرب والأمم المغلوبة في العصر العباسي - ذلك الامتزاج الذي كان من آثاره اصطباغ الدولة العباسية بصبغة علمية - فارق آخر كان له آثاره المختلفة .

على أنه ليصبح المقارنة استحالة إيجاد فاصل واضح الحد وضوح الرسم البياني لعصرين من عصور الأدب ، إنما يكون ذلك في التاريخ السياسي وفي الحساب الزماني . وبالرغم من ذلك كله فنحن قائلون اليوم مع أفلاطون «سبيل الاكتشاف وعمر مظلم كثير الشعب ولكن يجب أن نتقدم» .

وقبل أن ألقى أوراقى على المائدة أحب أن تأذن لى فأبين لك السبيل التى سأسلكها فى البحث أو أسير إليها حتى نلتقى عندها على ميعاد :

أولاً : أأدرس الشعراء فأنتهى إلى فهم العصر أم أدرس العصر فأنتهى إلى فهم الشعراء ؟ أما النقاد فالخلاف حول منهاج البحث قائم بينهم ، فجول لمترو سانت بوف وشيعتهم

يسرفون فى الاعتداء على السيكولوجية الفردية Individual Psychology

ولو أننا اعتمدنا فى دراسة الجماعة على هذه الطريقة لكانت دراسة الجماعة أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، وعندنا أن الأمر كما يقول Laine :

“Il faut ...Comprendre, le genie national. La genie peut peut-être remené lui-meme à trois elements: La race, le milieu, les cirenitances.”

لكنه يخيل إلينا أن «تين» أسرف في تطبيقه كما يتضح من كتابيه :

“Histoire de la litterature anglaise”.

“Essais de critique et d'histoire”.

وهذا الخصام حول الدراسة الفردية والدراسة الجماعية ليس مقصوداً على الأدب ، بل هو قائم بين علماء النفس ، فجمهورهم يعتمد في دراسة « لسيكولوجية الأطفال » على طريقة الدراسة العامة . ومنهم من يؤثر الطريق الفردي ومن هؤلاء Renard Persy ^(١) و Miss millicent Sedimn ^(٢) ودارون ^(٣) .

ومهما يكن فنحن لا نشارك أحداً وإنما نتخذ لأنفسنا طريقاً معتدلاً معتقدين أن الدراستين - دراسة الفرد ودراسة الجماعة - عونان يساعد أحدهما الآخر .
قد نتخذ في هذا البحث جماعة من شعراء العصر مقياساً لسائر الشعراء اعتقاداً بأن هذه الجماعة تمثل عصرها ، وقد نسهب في تصوير شاعر واحد اعتقاداً بأن هذا الشاعر يصور عصره من ناحية معينة أو نواح معينة وليس علينا في ذلك حرج - الناس كثيراً ما يلهجون بكلمة الشذوذ ، ولكن هذا الشاذ لا ينشأ من لا شيء بل هو نتيجة لظاهرة أو ظواهر لعل أو علل - ولو أنهم انصرفوا إلى دراسة هذا الشاذ دراسة دقيقة مستقصية قوية المنهج لعرفوا أن لا شذوذ .

أنا أعتقد أن دراسة الفرد تعين على دراسة الجماعة ، كما أن دراسة الجماعة تعين على دراسة الفرد . كذلك أن دراسة الجزء تعين على فهم الكل والنظر إلى الكل يعين على فهم الجزء .

(١) في كتابه : The first three years of Children.

(٢) في كتابها : Notes on the development of Child

(٣) في أبحاثه التي نشرتها لأول مرة مجلة Mind سنة ١٨٧٧

حرية البحث

اشتد النزاع في القرن الماضي بين أنصار الأدب المثالي وأنصار الأدب الواقعي ، ولا يزال النزاع بينهما شديداً يتجاوب أصداؤه في أندية الأدب ، ولا تزال تشتجر حوله الأقلام في الصحف السيارة والمؤلفات الجامعية .
والواقع أن النزاع يمتد إلى أبعد من القرن الماضي - لكننا نجترئ ونجمل فنقول : إن زعماء الواقعية في فرنسا وهي بحق موطن المعركة هم :

Alexandre Dumas fils; Alphonse Daudet; Edmond et Jules; Goncourt; Flaubert; Zola et Mousassant.

أما Dumas فقد مثلت لنا جرأته وأمانته في التصوير
أما الأخوان : Demi-monde, la question d'argent, Une père prexigue
Edmond, Jules Goncourt.

فكانت طريقتهم تدوين ما يسمعانه من الناس في مختلف المجتمعات ومختلف الشئون ، فإن اجتمعت لها طائفة من « الكلام » جمعها في كتاب وأنطقا بها شخصاً ؛ فمجموعاتها « واقعة » إلا أن عيبها في التناقض ، أفقد الشخص نفسه غير مرة ، ذلك أنه يفضي بآراء أشخاص مختلفين فهو شخص بلا شخصية .

أما Alphonse Daudet فقد اعتمد على طريقة الآخرين إلا أنه اتسق في موضوعاته .
أيها القارئ في مختلف الموضوعات إن محدثك رجل معين عرفته أم لم تعرفه .
أما Zola فقد تناهت إليه الجرأة ووصف أبطاله بأبشع الصور وأشنعها وجرى قلمه بأحرج العبارات وأبعدها عن المباح وقد جنى عليه مذهبه كما تجنى المذاهب والمبادئ فطرد من الأكاديمية الفرنسية وحرم امتيازات وحقوقاً مكتسبة . وربما وانه أو جاراه في جرأته فليسوف روسيا « تولستوى » .

المثالية الكمالية

أنصار الأدب المثالي كثيرون في مختلف البلاد ، وقد اشتط بعضهم وغفل عن مهمته فكان أقرب إلى الوعاظ منه إلى الأدباء ، ولا عجب فجماع رأيهم أن الأدب وظيفته النهوض بالأخلاق ، وبث الفضيلة في النفوس ، فكان الأدب عندهم وسيلة لا غاية . أما الأولون فتتلخص حججهم في أن وظيفة الفن ترجمة الحياة وتصويرها بما فيها من خير وشر .

أما أنا فأحدثك في غير احتشام ولا تهيب عما قد يعرض في البحث من أمور لا ترتضيها الأخلاق ، فأنا إن حدثتك عن المجون في الشعر العباسي فإنما أعرض عليك صوراً مختلفة من هذا الشعر على ما فيها من فحش ، وأحدثك في حرية لأنبي في هذا البحث مصور فني ولست واعظاً أخلاقياً ، سأحدثك هذا الحديث السافر لأمرين :

أولها : لأنني ممن يعتقدون أن الفن للفن ، وليس الفن للأخلاق كما وهم أنصار الأدب .
ثانيهما : قد يكون في الشر جمال أفيحتاج هذا إلى برهان ؟ أفليس بين العاهرات جميلة ؟ وإذا صور « مشيل أنجلو » أو « روفائيل » امرأة عارية في وضع مثير فهل ينبغي ذلك كسر ريشته ؟

والحمد لله فقد انتبه إلى ذلك منذ ألف عام ونيف « قدامة بن جعفر » قبل أن تنبه ويتنبه إليه زولا وتولستوى إذ يقول في كتابه « نقد الشعر »^(١) :

فثلثك حُبلى قد طرقت ومرضع فألحيتها عن ذى تمائم مُحول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشقّ وتحتى شقها لم يحول

ويذكر أن هذا معنى فاحش ، وليس فحاشة المعنى في ذاته مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته .

وهب أن كل ما عرض عليك من الشعر الداعر والشعر المجونى ليس فيه جمال فنى ، فأنا

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص ١٤ - طبعة مصر ١٩٤٨ والشعر لأمري القيس (أبو هلال العسكري : الصناعتين

ص ٢٨٧ من طبعة الآستانة ١٣٢٠هـ)

لا أكتب بحثاً موضوعه «الجمال في الشعر الأموي والعباسي» لكنني أكتب بحثاً في الشعر الأموي والعباسي .

لأن الأخلاق معنى شائع في النفوس ليس له حدود ورسوم
ما الأخلاق؟ إلى السادة الأخلاقيين أوجه السؤال
الأخلاق مجموعة من الصفات الخاصة بكل إنسان .

فالأخلاق عندنا ليست الأخلاق عند أسلافنا ، ولا عند حقدتنا ، والأخلاق عندنا
نحن المصريين ليست الأخلاق عند الإنجليز ، بل الأخلاق عندي ليست الأخلاق عندك
يا مواطني !

نعم : إن الناس قد اصطالحوا على أشياء معينة يسمونها «الأخلاق» لكن الناس كثيراً
ما ينافقون .

ما الفضيلة ؟ وما الرذيلة ؟

إنك لتفهمها فهماً وأفهمها أنا فهماً آخر ولم نشرك في ذلك Idealisme إلا إذا تقمصت
روحي وتقمصت روحك .

يقول الشاعر :

وما الحقدُ إلا تَوَهُّمُ الشّكرِ في الفَتَى وبعضُ السّجّايا يَتَسَيَّنُ إلى بعض
فحيثُ تَرى حِقْداً على ذى إساءة فثم تَرى شُكراً على سَالِفِ القُرْصِ
إذا الأرض أدّت رُبْعَ ما أنت زارعٌ من البَذْرِ فيها فهي نَاهِيكَ من أرض

أرأيت الشاعر يفلسف الأخلاق فيمجد «الحقد» قائلاً إن من ينسى الإساءة ينسى
الجميل ، فالنفس التي لا تعرف الحقد لا تعرف الشكر فهي أرض موات !
ذلك نحو من الأخلاق يقابله نحو آخر ، ففي بعض التشريع أن العفو أقرب إلى التقوى .
وعند بعض الناس أن غفران الإساءة أو نسيانها دليل على صفاء في النفس وطهارة في القلب
ونبل في الإحساس .

والشاعر العربي يريد أن يظلم الناس لئلا يظلم :
ومن لا يذُدُّ عن حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ ومن لا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ^(١)

(١) من معلقة زهير بن أبي سلمى

وآخر يرى أن سفك الدماء يحقن الدماء

بسفك الدما يا جارقى تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل
فذلك نحو من الأخلاق يقابله نحو آخر ، ففي بعض التشريع أن من صفع على خده الأيسر
وجب أن يدير للصفع خده الأيمن .

ومالى أحاول التدليل ؟ إن النزاع لقائم بين الفلاسفة والاجتماعيين حول ماهية الأخلاق ،
لم يتفقوا على تعريفها ولم يضبطوا ما يحددها .

وإذا كانت الخمر عند المدمنين رجسا من عمل الشيطان فقد ملأ بها إخوانهم من شعراء
المسلمين شعرهم فخراً أو تباهاً .

وإذا كان الناس قد اختلفوا في ماهية الصفات النفسية - وقد أشرت إلى بعض ذلك فيما
أشرت إليه - فأحرى بهم أن يختلفوا في ماهية الصفات والعادات المادية كالخمر وغير الخمر ،
وإذا كنت أنا وكنت أنت تستنكر الغزل بالغلام ويستحى منه معاصرونا على فرض أن عصرنا
قد خلا من هذه الرذائل .

إذا كنا نحن نرى الغزل بالغلام أمراً معيباً ونرى الاتصال به شاذاً مقبهاً تستنكره الإنسانية
فإن غيرنا لم يره كذلك . ومن هذا الغير ؟ « الشعراء » العباسيون الذين تغزلوا بالغلمان ،
وأنا لا أكتب عن عصرنا ، وإنما أكتب عن العصر العباسي ، فكيف يأبى السادة الأخلاقيون
أن نتحدث عن غلمان العصر العباسي وقد ازدحمت بهم دواوين الشعر وغاصت في بحر من
أخبارهم كتب الأدب . وبين يدي نحو عشرين شاعراً تغزلوا بالغلمان ، ومنهم من قال أغلب
شعره في الغلمان . بين يدي طائفة من الشعر القبلي من أفحش الشعر على الإطلاق ، ولكن هذا
الفحش هو مادة الشعر القبلي .

ألا أحدثك عن هؤلاء وأولئك ؟ إن فعلت فكيف يقال إنني قارنت الشعر الأموي بالشعر
العباسي ، أو كيف أزعم أنني فعلت ؟

البحث الأدبي شيء والأخلاق شيء آخر ، الفن شيء والأخلاق شيء آخر ، كما أن
الموسيقا شيء والمنطق شيء آخر . فهل يفهمنا السادة الأخلاقيون ؟

الدراسات المختلفة في هذا البحث

لن يوفق باحث إلى دراسة شاعر من الشعراء دراسة متقنة إلا أن يدرس البيئة الزمانية والمكانية اللتين عاش فيهما ، فما بالك بدراسة عصر من عصور الشعر؟ أما نحن فسندرس عصرين معاً ثم نقارن بينهما .

وإذن فسندرس الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية للعصرين ، ثم نعرض عليك هذه الدراسات المختلفة عرضاً موجزاً ومركزاً ، كما يقول الكياويون والصيدلة ، فما أشق البحث وما أكثر تشعبه والتواءه !

سنعرض في بحثنا للتاريخ الإسلامي أو هو سيعترضنا ، إذ لا سبيل إلى دراسة الشعر إلا أن تدرس التاريخ ، كما أنه لا سبيل إلى دراسة التاريخ إلا أن تدرس الشعر فهو - ما صح منه - مصدر من أوثق مصادره .

غير أن الآثار الباقية وكتب التاريخ تعطيك صوراً من الزمن ماسخة خرساء . أما الشعر فهو الذي يظهر على صورة حية ناطقة . ولو أنه قدّر للشعر العربي أن يؤرخ وأن يصاب من عبث الزمان وعبث الرواة والمؤرخين والنحاة والفقهاء وأصحاب النحل والأهواء والشرائح لاستطاع المؤرخ أن يعتمد عليه اعتماداً كبيراً جداً في دراسة الدول الإسلامية ، فإن الشعر ديوان العرب كما قال العرب^(١)

غير أننا نرجو ألا نسرف فنعتمد في تقرير أمر تاريخي على النصوص الشعرية كيفما كانت وكيفما اتفق لنا العثور عليها .

نرجو ألا نسرف في هذا إسراف القدماء بل لا بد أن تُرجَّح لدينا صحة النص بسلامته من المظان المختلفة .

سنعرض للتاريخ الإسلامي وسنحدثك عن الحياة العقلية إذ لا سبيل إلى دراسة الشعر إلا أن ندرسها والأمر كذلك في الحياة الاجتماعية ، ثم نستأذنك في أن نستطرد أحياناً فنحدثك أحاديث خاصة بالطب وبعلم الإنسان Anthropology وبالفلسفة أحاديث قد نرى أنها تكشف

(١) عبارة شائعة في الكتب القديمة قالها ابن عباس

غامضاً أو تزيل لبساً . ومن حقنا بل واجب علينا أن نستعين بهذه العلوم الجديدة ، ولئن كان قدامة بن جعفر وابن قتيبة وابن رشيق قد نقدوا الشعر لقد كانت أبحاثهم سطحية - أو هي تبدو لنا اليوم سطحية - فقد تغير الزمن وأصبح لنا من وسائل البحث ومصادره ما لم يكن لديهم .

وإنه لمن الكنود والغفلة ألا نستعين بهذه العلوم الجديدة ، كما أنه من الكنود والغفلة ألا نستعين بجهود النقاد المحدثين .

لكننا نعدك بالأنا نذهب في هذه الاستطرادات ونحن نعد بذلك لأننا مضطرون إلى عدم الإسهاب فيها ، فنحن نقدم هذا البحث ولسنا نعرف بالضبط رأى أساتذتنا في مدى الاستعانة بمثل هذه العلوم ونرجح أنهم أميل إلى القصد والاعتدال في التعويل على هذه العلوم المختلفة والأبحاث الأدبية الفنية .

سيتناول بحثنا بيان أثر الثقافات المختلفة في الشعر بياناً تتسع له رسالة يكتبها صاحبها في شهور معدودات - ليت هذه الشهور كانت وفقاً عليها بل هي مقسمة بينها وبين فروع الدراسة المختلفة ونفس صاحبها - مشته بين مشاغل الحياة وأعباء الدرس .

وإذن فلن نعمد إلى الاستقصاء فليس إلى هذا الاستقصاء سبيل . وسنقف عند هذه الثقافات وقفة تطول أو تقصر على حسب ما يتسع الوقت .

لا يزال يعتقد كثير من الناس أن الشعر بل الأدب العربي لم يتأثر بثقافة أجنبية بل نما وحده وترعرع . وما ينبغي له أن يتأثر . ولغة العرب أشرف اللغات وأفصحها . والعرب أشعر من أظلت السماء وهم يحسبون أن مجد العرب في إثبات هذا الذي يزعمونه استقلالاً أدبياً فيحرصون على الاعتقاد ويأخذون به أنفسهم أخذ الغريم بذيل ثوب المعسر .

ضمني وأحد الفضلاء مجلس جرى فيه ذكر الأدب العربي وتشعب الحديث فقلت إن الفلسفة اليونانية أثرت في الشعر العباسي تأثيراً واضحاً فغضب الأديب وأنكر على دعواي قائلاً :

أتريدون أن تطمسوا فضل العرب فتقولوا هذا يوناني وهذا فارسي ؟ لقد أخذ الناس عن العرب ولكن العرب لم يأخذوا عن الناس !

فقلت لمحدثي في شيء من الأدب قصدته لأنه يكبرني بسنين ولأنه رجل فاضل . لا لأن له بين الناس مقاماً وصيتاً ، ولا لأن الأستاذ (زكي باشا) عرّفني به في هذه الجلسة قائلاً « إنه أكبر بحاجة في الشرق على الإطلاق » .

قلت : لقد أخذ العرب عن الفرس ، وليس ينقص ذلك من شأنهم . العلم لا وطن له ، والفن لا وطن له .

لوى الأديب شفّيته ودار بكتفيه ، ثم قال : هذا كلام يقوله الجامعيون في مصر ، لقد أفسد علينا أساتذتكم الأدب وظلموا العرب ، وستفسدون .

ظلم الأديب الأدب وظلم العرب وما ظلمتها الجامعة لو كان يعلم لكنني آثرت الصمت وأضمرت في نفسي ما أضمرت .

إلى ذلك الفاضل وإلى المتعصبين جميعاً نسوق الكلام فنقول هيات هيات أن يكون فخراً للعرب في انقطاع صلّتهم عن الناس وأن تكون ميزة الأدب العربي في استقلاله عن آداب الناس كما يزعمون .

امتزاج الفكر حاصل بين الأمم لا مفر عنه ، وليس في هذا الامتزاج ما يغض من شأن أمة . إن الإنسان ليعلمه ويصقله الاختلاط بالناس وإن أديباً ينمو وحيداً في أرض منقطعة منبئة عن الثقافات الأجنبية لأدب بعيد عن المثل الأعلى أي بعداً

تأثر الشعر بثقافات مختلفة سنيها أو نشير إليها ، ولكن أين لنا بالوقت فنوضح ما نريد إيضاحاً .

وإذن فسندرس الحياة السياسية والحياة العقلية والحياة الاجتماعية ونستأنس بالحياة الاجتماعية ونستأنس بالحياة الاقتصادية في العصرين . وسنشير إلى الثقافات المختلفة ، وسنعرّج في طريقنا على مباحث أخرى فرعية عامة . وستتجه في البحث اتجاهين ، فنقارن بين فنون الشعر في العصرين ، أي أننا ستحدث عن نشأة كل فن وظروفه ، ثم نقارن بين الشعر الأموي والعباسي من الوجهة الفنية .

* * *

فها أنت ذاتري أنا مقبلون على دراسة شاحخة عسيرة بل مضنية ، وما كنا نجهل بذلك يوم بدا لنا أن نقارن بين الشعر العربي في أزهى عصوره ، إنما خشينا أن يمر الوقت ونحن تائهون في مهامه الجزيرة أو مدجون في أحياء البصرة والكوفة أو في عرصات جلق وبغداد ، لكننا تجاسرنا

فأقدمنا ، وهل الشباب إلا جرأة مستهترة ؟
أقدمت وأقدمت بي عزيمة الشباب ، عزيمة أرجو ألا تهن فتلين
تقدمت وأقدمت يحدو بها وبى الأمل .
ها أنا ذا مقبل فيارب يسر ولا تعسر !

الكتاب الأول

الشعر الأموي

تمهيد

جاء الإسلام فبدّل نفوسا بنفوس وعقولا بعقول ، لكنه لم يمح الجاهلية محوا . فما الإسلام إلا ثقافة من الثقافات ، ونور من الأنوار . وما الجاهلية إلا طبيعة رسخت في نفوس العرب مع الأجيال فتوارثوها جيلا بعد جيل . ومن هنا نشأت فنون جديدة في الشعر العربي وتطورت فنون قديمة تطورا .

أما الفنون القديمة فأجمعها في باب واحد هو الشعر القبلي . فالحماسة والفخر والهجاء شعاب لموضوع واحد هو صدى لهذه المعارك القبلية .

أما الجديد في العصر الأموي ففن الغزل وفن السياسة . وقبل أن أحدثك عن الشعر القبلي أقرر أنه تطور تطورا عظيما ، لأن الهجاء تطور هذا التطور العظيم فقد دفع الإسلام بالشعراء إلى هذا الفن فافتنوا فيه وأوجعوا . تعرف أن الشعراء النصاري واليهود والقرشيين قاوموا الإسلام مقاومة عنيفة جدا حتى أن القرآن تصدى لحربهم فقال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون)^(١) . وكان فيهم بلا ريب شعراء فحول وقفوا حجرا خشنا في سبيل الإسلام . ولكن الهوى الديني عصفت بشعرهم كما عصفت الأهواء والأحداث بشعراء فحول في العصور الإسلامية على اختلافها .

بقى لنا شيء من شعر عبد الله بن الزبّعرى وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . أفتحسب أن الله جل جلاله كان يوصي بهذه الآية على لسان جبريل لولا خطر هؤلاء الشعراء .

أفتحسب أن النبي ﷺ كان يحمل عليهم ويتوعددهم وعيدا لولا ذلك الخطر . لقد توعددهم النبي ﷺ وإلا فكيف تفسر قول كعب بن زهير^(٢) :

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

وكان للمسلمين شعراء ثلاثة جاهدوا جهاد الصادقين وأبلوا بلاء المؤمنين في نصرة الدين

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٢) مدح كعب بن زهير النبي ﷺ سنة ٩ هـ على طريقة أهل البادية (كارل نالينو : تاريخ الآداب العربية ص ٨٧)

وفي الدفاع عن النبي الأمين . وقف حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة تحت راية القرآن يدافعون عن النبي والإسلام ويقارعون شعراء نصارى ويهودا وأحزاباً أشد كفراً ونفاقاً (١) .

وهؤلاء الثلاثة (٢) هم الذين استثناهم القرآن من الآية الكريمة (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (٣) . ثم كانت الخلافة فنشأت الخصومة بين الأنصار وقريش ، وكان للشعر في هذه الخصومة أثر كبير ولا سيما نقائض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت وعبد الرحمن بن الحكم .

(١) على أن منهم من اشترك بسيفه أيضاً فعبد الله بن رواحة قتل شهيداً في غزوة مؤتة وحسان يحدثنا شعره بأنه اشترك في القتال ، ولست أدري لم يأبى الأستاذ «Horschfeld» أن يصدق دعواه فيتهمه بالكذب ويصر على ذلك إصراراً . (٢) يروى أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت اهجهم - يعني قريشا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام اهجهم ومعك جبريل روح القدس (ابن رشيقي : العمدة ج ١ ص ١٢ - طبعة مصر) ويروى أبو الفرج الأصفهاني « كان يهجوهم (يعني قريشا) ثلاثة نفر من الأنصار يهجونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إلى الكفر ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة » (الأغانى ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق)

(٣) الشعراء ، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ .

العصبية القبلية

العصبية أن يعمل الرجل لعصبته ويدعو لها ظلمة أو مظلومة .
والقبلية نسبة إلى قبيلة والقبيلة جمعها قبائل ، واشتق الزجّاج القبائل من قبائل الشجرة
وهي أغصانها ، وأتى في ثوب قبائل أي رقاع^(١) . ويقال : رأيت قبائل من الطير أي
أصنافا^(٢) ، فالحمّام قبيلة والغربان قبيلة ، قال الراعي :
رأيت ردافى فوقها من قبيلة من الطير يدعوها أحمر شحّوج^(٣)
والعصبية تمت بأوثق الأسباب إلى نزعة السيطرة وإن شئت فقل هي وليدتها . وحب
السيطرة نزعة غريزية في الإنسان مهيمنة على كل فكرة من أفكاره ، وحركة من حركاته وعمل
من أعماله ، ولذلك عدّ بعض الفلاسفة هذه الغريزة التي سماها « ريبو » فتبعه الكثيرون :
الوجدان الشخصي الإيجابي أقوى غرائز الإنسان . وإنه لذلك فما نزعات الحرية والإرادة
والعزم والنشاط والأناية والظلم إلا مظاهرها أو بعض مظاهرها .
في ظلها تطاحت الشعوب ولا تزال وبين نارها وأوارها تفنى شعوب لتسيطر شعوب .
والقبيلة عند العرب هي الشعب عند الأمم^(٤) .

زعم النسابون - إن صدقا وإن كذبا - أن العرب بائدة ومتعربة ومستعربة ، وأن البائدة :
عاد وثمود وطسم وجديس . وأما المتعربة : اليمانية^(٥) والقحطانية ومنزلها اليمن - أي جنوبي
الجزيرة - وقحطان أبوها نسل قبيلين هما كهلان وحمير ، وكهلان تنقسم إلى عدة قبائل

(١) دائرة معارف وجدي

(٢) لسان العرب

(٣) الغربان فوق الناقة . شعر الراعي ص ٢٩ من طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق

(٤) الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العشيرة ثم البطن ثم الفخذ - (لسان العرب) وأضاف النويري : العشيرة .

الفصيلة . الرهط - نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ .

(٥) نسل إسماعيل بن إبراهيم

أشهرها : طيئ وهمدان ومذحج وعاملة وجذام والأزد . وكذلك حمير تنقسم إلى عدة قبائل أشهرها : قضاة وتنوخ وكلب وجهينة وعذرة .

وتفرق الثالث عرب الشمال وهم العدنانيون أو التزاريون أو المعديون ويقسمونهم إلى قبيلين^(١) : ربيعة ومضر . وعندهم ربيعة تنقسم إلى أسد ووائل ، ووائل تنقسم إلى بكر وتغلب .

وأما مضر فتقسم إلى قيس وتميم وهذيل وكنانة ، وأشهرها : قيس ، وينسبون إليها قبائل كثيرة ، أشهرها عبس وذبيان وغطفان وهوازن وتميم . أما قريش فينسبون إليها إلى كنانة .

وما يزعمه جمهور النسابين لاجتماعهم ، فقد تناقضت وتضاربت ، وإذن فنحن لا نؤمن بهذا التقسيم ، إذ لا نميل إلى الإيمان ولكن إلى الترجيح . ومهما يكن فقد آمن العرب بهذه الأنساب : اليمن وربيعه ومضر إيماناً ليس يخالطه فيما نعرف ريب . وليس يعني أن نبحت في هذه الأصول والفروع ، ويكفي أننا متفقون في نظام المجتمع الجاهلي .

كان العرب الجاهليون تحت راية النظام القبلي وحول محور الخصومة القبلية دارت حياتهم السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

كان الصراع شديداً كل الشدة عنيفا كل العنف وحسبك قوله تعالى يخاطب رسوله (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)^(٢) . ويدولى أن هذا التعصب كان شائعاً في الجماعات الأولى ، وهو أمر يتلاءم مع الفطرة . ويحدثنا صاحب مروج الذهب فيقول « إن الفرس كانوا أشد حفظاً لأنسابهم من العرب بل إن منهم من كان أحفظ لأنساب العرب من العرب أنفسهم^(٣) » فمن العرب بل من القرشيين وهم أشرف القبائل من كان يذهب إلى بعض الفرس فيسأله عن بعض أجداده .

وذلك الحرص من الفرس على حفظ الأنساب يدلنا على أن نوعاً من العصبية الداخلية كالذي كان عند العرب شغلهم كما شغل العرب . ولقد كان للسياسة الخارجية أثر في تاريخ العرب الجاهلي بعيد . فكانت دولة المناذرة على حدود العراق ، وكان بين المناذرة والعرب

(١) القبيل غير القبيلة - القبيل الجماعة من قوم مختلئ الجنس أو من أبناء أب واحد . وقال تعالى في سورة الأعراف آية

٢٧ (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) أى هو من نسله ويقال لكل جماعة من شيء واحد قبيل والجمع قبل

(٢) سورة الأنفال آية ٦٣ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٤٦ - المطبعة البية - مصر ١٣٤٦ هـ .

حلف . فهؤلاء كانوا يتخذونهم في صد غارات الرومان . وكان على حدود الشام دولة عربية أخرى هي دولة الغساسنة أو الضجاعة كما يسميها بعض المؤرخين . وكان بين الروم وبين الفرس ^(١) مثل ما كان بين الحيرة والفرس ، فعلى حساب هاتين الدولتين العتيقتين - الفرس والروم - اشتد النضال بين الدولتين العربيتين في تاريخ ذكره يطول .

ثم لا تنس أن لطبيعة بلاد العرب أثراً في هذه المشاهدات القبلية فهي أرض صلبة كثيرة الحرات والقفاف في بعض جهاتها ، وهي في جهات أخرى صحراوية ، وأوديتها قليلة وعيونها نادرة يفيض معظم الماء لطبيعة الأرض الرملية فلا ينتفع به الناس . وربما نزل الغيث فأنبت مرعى ، فرحل إليه البدو وتشاحنوا عليه .

أما في اليمن فالحال على عكس ذلك فقد نشأت به مدن عظيمة كصنعاء ومأرب وعدن وزيد وشبام وصعدة ، وكان لها حضارة من أفخم الحضارات ، ذلك لأنها لم تكن فقيرة من الماء (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) ^(٢) أرسل الله العرم وتصدع سد مأرب وكان ذلك في سنة ١٢٠ قبل الميلاد كما يقول بعض المستشرقين . فرحلت كثير من القبائل اليمنية وتفرقت في أنحاء الجزيرة ، فقاسمت أهلها مراعيها ونازعتهم فيها ، فكان ذلك فيما نحسب باعثاً من بواعث العصبية المضرية اليمنية التي سيطرت على التاريخ الجاهلي وجزء من التاريخ الإسلامي ، وكان من بواعث هذه العصبية فيما ترى اختلاف العرب .

أولاً : في الدين فمنهم من دان بالثنوية ^(٣) ، ومنهم من عبد الجن (قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ^(٤) ومنهم من عبد الملائكة ^(٥) (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) ^(٦) ومنهم من عبد

(١) وكان سلطان الروم مبسوطاً على الشام في ذلك الوقت

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٥ و ١٦

(٣) كانت الزندقة في قريش أخذوها عن الحيرة - أحمد أمين : « فجر الإسلام ص ١٢٨ » نقلاً عن ابن قتيبة في كتابه

« المعارف » .

(٤) سورة سبأ آية ٤١

(٥) وهم بنو عبد المليح

(٦) سورة سبأ آية ٤٠

الشمس^(١) (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)^(٢) ، ومنهم صابئون ومنهم نصارى ومنهم يهود ومنهم مجوس (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد)^(٣) ، ومنهم من عبد الأصنام وتفرقوا في ذلك فرقا عبدوا العزى وهبل وعبدوا وداً وسواعاً^(٤) ويغوث ويعوق ونسرا ، وفي الكتاب الكريم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)^(٥) ، ومن أشهر أصنامهم اللات ومناة ونهم وسعير واليعسوب وابتنى والعزى^(٦) ، وكانوا يقربون إلى أصنامهم القرابين :

ذهبت إلى « نهم » لأذبح عنده عنيزة نسك كالذى كنت أفعل^(٧) والمجوس^(٨) كانوا يتجملون أو يحملون بعض آلهتهم فيقذفون بأنفسهم أو بهم في النار . ومنهم من عبد الماء ومنهم من عبد الشمس ومنهم من عبد القمر ومنهم من عبد النجوم . ثانيا : اختلافهم في الأصل يدل عليه اختلافهم في اللون ، ويقولون : إن أصل اليمانيين حبشي وأصل المضريين سامي .

ثالثا : اختلافهم في نوع المعيشة ، فبعضهم يحتقر الزراعة ، قال ذو الرمة :
نِصَابُ امرئِ القَيْسِ العَبِيدُ وَأَرْضُهُمْ مَجْرُ المَسَاحِي لَا فَلَاةٌ وَلَا مِصْرٌ^(٩)

(١) بلقيس وقومها

(٢) سورة النمل آية ٢٤

(٣) سورة الحج آية ١٧

(٤) صنم بني هذيل ، قال الشاعر :

تراهم حول قببها عكوا كما عكفت هذيل على سواع

(٥) سورة نوح آية ٢٣

(٦) ولها جميعا ذكر في الشعر الجاهلي

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٨ ص ٣٥١ من طبعة الخانجي

(٨) أخذوا عبادة النار عن الفرس أو الهند إنما كان أكثر اتصال العرب بالفرس ، وعبد النار جماعات من قبائل مختلفة

أغلبها من تميم .

(٩) الديوان ص ٢١٩ من طبعة كمبردج ١٩١٩

وقال يشير إلى يوم كلاب :

تُثِيرُ بِهَا نَقَعَ الْكُلَابِ وَأَنْتُمْ تُثِيرُونَ قَيْعَانَ الْقُرَى بِالْمَعَارِقِ^(١)
أى تحرثون الأرض .

ومنهم من كان يحتقر الصناعة ويقول : هل فى أهل الجنوب إلا مالك بُرد أو سائس فرد أو دابغ جلد . وأشهر صناعات الفقراء من قريش : الحدادة والنجارة ودبغ الجلد ، ومن الأغنياء من جعل الربا صناعته ، ومنهم من عاف الزراعة والتجارة واكتفى بما تنتجه ماشيته ، وهؤلاء هم البدو ، ومساكنهم خيام من صوف أو وبر أو شعر أو جلد ، فإن شح السباد ونضب الماء ويبس الكلاً نقلوا خيامهم فضربوها حيثما وجدوا مرعى . ومنهم من عاش على الغارة والسلب^(٢) .

فَمَنْ تَكُنَ الْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رَجَالٍ بَادِيَةٍ تَرَانَا
وَمَنْ رَبَطَ الْجِحَاشَ فَإِنْ فِينَا قَنًّا سُلْبًا وَأَفْرَابًا حِسَانَا
وَكُنَّ إِذَا أُغْرِنَ عَلَى قَبِيلٍ فَأَعُوْزُهُنَّ نَهْبٌ حَيْثُ كَانَا
أُغْرِنَ مِنَ الضُّبَابِ عَلَى حِلَالٍ وَضَبَّةٌ إِنَّهُ مَنْ حَانَ حَانَا
وَأَحْيَانَا نَكِرَ عَلَى أَحْيَانَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا^(٣)

ومنهم من اشتغل بالتجارة وهم بعض الأطراف وأهل مكة وكان لهم رحلتان : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »^(٤) .

رابعاً : نظاميون وفوضويون .

كان نظام الحكم فى اليمن أوتوقراطيا ، وكان فى مضر أقرب إلى الديمقراطية الفوضوية ، فكان للملك اليمن المتوجين سطوة أى سطوة وسلطان أى سلطان . وأما فى مضر فكان للقبائل رؤساء لا يبلغ سلطانهم مبلغ ملوك اليمن .

(١) الديوان ص ٤٠٨ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٢) وأغلبهم من البدو

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ١٩١ من طبعة دار الكتب ١٩٢٥ وهى من شعر القطامي - أحمد أمين : فجر

الإسلام ص ١٠ من طبعة مطبعة الاعتماد والميرد : الكامل ج ١ ص ٣٨ من طبعة مطبعة الاستقامة

(٤) سورة قريش

لسنا نرى لهؤلاء الرؤساء ما يراه المرحوم الأستاذ الحضري^(١) من سلطان لا يختلف عن سلطان ملوك اليمن ويستدل الأستاذ على رأيه بأن الرئيس إذا غضب غضبت معه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب ، وكذلك يقول الأستاذ الرافعي^(٢) : وعندنا أن هذه الألوف من السيوف كانت تغضب للرئيس كما كانت تغضب لأصغر صغير في الجماعة لا تسأله « في النائبات على ما قال برهانا »^(٣) ، وعندنا لذلك أمثلة كثيرة جدا من الإسراف والحشو أن نذكرها ، الحق أنهم كانوا كما قال قائلهم^(٤) :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان
خامسا : اختلافهم في اللغة حتى وحد لغتهم القرآن

وإذا كان القوم قد اختلفوا في ذلك كله فهل اتفقوا في شيء ؟ وإذن فليس عجيبا قوله تعالى : (فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا)^(٥) . وإذن فليس عجيبا الآن أن تكون الجاهلية العربية معركة ضروسا تشتجر وتتصاول فيها قطعان من الذئاب أضراها السعار . إنما العجب العجيب أن تهادن مثل هذه الذئاب يوما واحدا .

صراع بين ربيعة وقيس ، وصراع بين بكر وتغلب ، وصراع بين قبائل يمانية وقبائل يمانية ، قبيلة تصارع قبيلة فما ينتهى الصراع وما تفيق منه القبيلة الغالبة أو المغلوبة إلا لتلطم أو تتلقى لكمة جديدة ، فصيلة تحارب فصيلة ، أو فصيلتان تتحالفان على فخذ والجميع من بطن واحد . وبطنان من عمارة يتحالفان على عمارة والكل من قبيلة واحدة ، وقبائل تمزق قبائل ويجمعها أب واحد عدنان أو قحطان .

أما أوسع العصبية القحطانية العدنانية - أى عصبية الجنوبيين الشماليين . فإذا احتدم قتال بين قضاة وأسد وجب أن تفهم أن مصدره العصبية القحطانية والعدنانية . وإذا تهاجى شاعر غسانى وآخر عتري فالهجاء في الحقيقة بين القحطانية والعدنانية بل بين اليمن

(١) الحضري : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٣٨ - مطبعة المعارف

(٢) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٨١ من طبعة مطبعة الأختبار ١٩١١

(٣) الشطر الأول من بيت الشعر « لا يسألون أخاهم حين يندبهم »

(٤) ربيعة بن مقروم الضبي

(٥) سورة البقرة آية ٢٠٠

وربيعة بعبارة أوضح . وربما تحالفت قبيلة نزارية مع قبيلة قحطانية على قبيلة عدنانية .
الجاهلية العربية بركان ناثر ترفرف عليه الراية القبلية والناس حولها حشد ترتطم رؤوسهم في
بحر من الدم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

ومما يتفق مع الأشياء أن تكون هذه العصبية القبلية قد انتقلت إلى صدور المسلمين
فاخترقت شغاف قلوبهم وجرت شظاياها في عروقهم مجرى دمائهم ، لكن القرآن حمل عليها
حملة شعواء فبدل صدوراً بصدور وأحلاماً بأحلام ولولاه ما بدلت الأحلام ولا الصدور ولو
أنفق ما في الأرض جميعاً .

جاء الإسلام والعرب على شفا حفرة من النار يأكل قلوبهم ضعيفهم ، فأنقذهم منها ،
دعاهم إلى الله ودعا الناس إلى المحبة (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)^(١) . وآخى بين
المؤمنين (إنما المؤمنون إخوة)^(٢) وأوجب قتال باغيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا
فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن
فأت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين
أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)^(٣)

وجعل العصبية بقية من بقايا الكفر (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية
الجاهلية)^(٤) ثم ذكرهم بما هم فيه من نعمة مكرراً لفظ النعمة وحذرهم من التفرقة
(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين
قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)^(٥) .

أما النبي الأمين فقد أدّى الرسالة وقام بقسط من الدعوة داعياً الناس إلى الإخاء متبرئاً ممن
يدعو إلى العصبية ، وصاح فيهم يوم فتح مكة « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة
الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » وقال « ليس منا من دعا إلى
عصبية ، وليس منا من قال عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ذهل عن العصبية
عامة المسلمين وسائر الناس ونزعت من صدور المؤمنين نزعا ، ثم دعا الله المؤمنين إلى عصبية

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) سورة الحجرات آية ١٠

(٣) سورة الحجرات الآيتان ٩ ، ١٠

(٤) سورة الفتح آية ٢٦

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٣

أخرى ، دعاهم إلى عصبية روحية ، فالدين لا يعرف أخوة الأهل وإنما يعرف الأخوة في الله (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) ^(١) . وقال عز وجل (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ^(٢)) وقال (يأيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) ^(٣) .

أجابوا ربهم وأقبلوا تحت راية القرآن ثملين بهذا الدين الجديد يكرون صفا واحدا شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ونسوا العصبية الأولى .

(١) سورة هود الآيتان ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة الصف آية ٤

(٣) سورة الأنفال آية ٦٥

العصية والخلافة

مات النبي ﷺ غير موص بالخلافة إلى أحد بل ترك الأمر للمسلمين يتشاورون فيه ، وعندنا أن مسلكه عليه الصلاة والسلام كان لحكمة ، فقد كان يعرف ما عليه العرب من العصية القبلية ، تلك العصية التي عانى منها في حياته ما عانى فأثر ترك الأمر للقبائل تتفق عليه فيما بينها .

أعلن موت النبي فسرعان ما ظهرت العصية القبلية في أجلى مظاهرها ، فقريش تريد الخلافة لها لأنها قبيلة النبي وعشيرته والأنصار يأبونها عليها ويدعونها حقاً لهم ، أو ليس الإسلام قد قام على أكتافهم ؟ أفما حموا النبي من أذى قریش وقد حاولت اغتياله ؟ أفما آووه ونصروه ؟ أفما قاتلوا قریشا ؟

طالب جماعة من الأنصار بالحكومة الثنائية قائلين « منا أمير ومنكم أمير » لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فجمهور الأنصار في سقيفة بني ساعدة مجتمعون ، يدعو زعماء الخزرج لزعيمهم « سعد بن عباد » وخطباء الأوس يدعون لشيخهم « بشير بن سعد » . وينطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يريدون السقيفة ليتداركوا الأمر ، وهناك يبسط عمر يده لأبي بكر فيتبعه أبو عبيدة ومن كان من المهاجرين ، ثم يتقدم بشير بن سعد فيبسط يده لأبي بكر لازهادة في الخلافة بل إثارة لأبي بكر على سعد بن عباد وشيعته ، ثم يبايع المجتمعون أبا بكر خلا زعيم الخزرج .

قضى الأمر بمبايعة أبي بكر ، لكن هذه البيعة لم تكن إجماعية من العرب بل وجد فيهم من يقول :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لِعَبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ
أُبُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ (١)

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٦ طبعة دار المعارف . وأورد صاحب الأغاني ج ٢ ص ١٥٧ طبعة دار الكتب هذا الشعر ونسبه الى الخطيئة .

العصية والردة

ظهرت حركة الردة في أواخر أيام النبي ، وفي عهد أبي بكر ارتد العرب عن الدين ارتداداً يكاد يكون إجماعياً ، وليس ارتدادهم دينياً فحسب كما وهم المؤرخون القدماء بل كان لهم من عصيتهم القديمة أكبر حافز إلى هذه الردة ، ارتدوا للدين وللسياسة معا وربما كان ارتداد كثير منهم ارتدادا سياسيا خالصا .^(١)

ارتدت الجزيرة كلها لا نستثنى منها إلا الحجاز بل ارتد الحجاز لا نستثنى إلا مدينة المهاجرين ومدينة الأنصار والطائف . وأنا أفهم أن قبيلة كقبيلة تغلب تتردد عن دين جديد لأن تغلب قاومت الإسلام مقاومة عنيفة وثبتت على نصرانيتها ، وأفهم أن قوما كبنى حنيفة ارتدوا ردة دينية لأن بنى حنيفة كان لهم دين سماوي هو النصرانية تشبعوا به في الجاهلية ، فليس هنا نزعه هينا . أما هذه القبائل الوثنية أو الصابئة أو التي رقت نصرانيتها فنقول مطمئنين إنها ارتدت ارتدادا سياسيا قبل كل شيء . هؤلاء الذين هللوا للدين الجديد وكبروا وهؤلاء الذين جاهدوا ما جاهدوا في سبيل الإسلام ، إنما ارتدوا لأنهم كرهوا الخضوع لسلطان أجنبي . ارتد اليمانيون في اليمن وارتد اليمانيون في غير اليمن كالأزدية في عمان لما كان بين اليمن ومصر من عدااء قديم . كيف يخضعون للخليفة القرشي ؟ إنهم لا يخضعون لقريش المضرة لأنهم لا يستطيعون التحرر من هذه الكراهية التي ورثوها عن سالف الحقب .

ارتد اليمانيون جميعا لا نستثنى منهم إلا الأنصار وهذا طبيعي على أني أراجع نفسي فأقول : وما الدليل على يمانية الأنصار ؟ لا دليل ، إنما هو نسب يضيفه إليهم النسابون فيما يضيفون . وارتدت قبائل ربيعة في البحرين وفي غير البحرين لما كان من عدااء بين ربيعة ومضر^(٢) . ذلك العدااء الذي شحن بأخباره التاريخ الجاهلي وورثته أبناء عن أب وأبا عن جد ، وفي أخبار مسيلمة متنبئ الإمامة أن رجلا من ربيعة قال له : إنك لكاذب وإن محمداً

(١) كتب مسيلمة إلى النبي كتابا يقول فيه «لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم لا يعدلون» .

(٢) وقد تعرض رجل شامي للمأمون في أثناء محاربة الأمين وقال له «انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان»

فأجاب «والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل - كان العجم ركباناً والعرب مشاة - إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم ، وأما اليمن فوالله لا أحببتها ولا أحبتي قط . وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناتي وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر»

لصادق ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر .
وارتدت تميم لأن ماضيها الأثيل أبى عليها أن تخضع لقريش ، وكذلك ارتدت القبائل
النجدية كعبس وذبيان .

وبعد فنحن نسجل مطمئين أن وقائع « عقرباء ، ودبا ، وحصن النجير » إنما هي من أيام
العرب ، ولكن أبا بكر والفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة بإذن الله فبسط الإسلام جناحيه على
الجزيرة وخضع العرب من جديد تحت راية النظام الجديد ، وانصرف العرب في زمن الشيخين
أبي بكر وعمر عن العصبية إلى الفتوح الإسلامية . وليس بعيدا أن يكون أبو بكر وعمر قد زجا
بالعرب في غمار الحروب حربا إثر حرب ليشغلهم عن العصبية ، لكن آثار هذه العصبية لم تمح
حتى من صدور بعض الصحابة ، بل ظلت كامنة بين حنايا ضلوع لم يستطع أصحابها تغليب
الروح الإسلامى . فلقد دخل صاحب معاوية عليه يقول : بالباب بعض الأنصار ، أتأذن لهم
بالدخول ؟ وكان عمرو بن العاص حاضرا فقال : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد الناس
إلى أنسابهم .

ونستطيع أن نقرأ في العقد الفريد مفاخرات عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ومعاوية
وعمر بن العاص والحسين والحسن (١) .

وخلف عمر عثمان فكان عهده بعثا للعصبية ، أما هو فقد ولى أهله مقاليد الأمور ، ونحن
لا نعلل هذا الإيثار بالعصبية أو غيرها . ومهما يكن فقد كان ذلك سببا من أسباب الفتنة التي
أدت إلى قتل عثمان ، ومن يدري ؟ فرما كان الفرع الهاشمي غير برىء من دم عثمان ، وإلا
فكيف نفسر بقاء جثته ثلاثة أيام بلا دفن ثم دفن في مقبرة اليهود . لكننا على كل حال لسنا
نقطع في هذا برأى ، فقد يكون البيت الهاشمي متهماً في قتل عثمان ، وقد يكون بريئا من
دمه ، وقد يكون نصيبه من الفتنة إغماض عينه عنها ، ولو أنه أراد لاستطاع - فيما نحسب -
دفع الخطر ولما وقعت فاجعة الإسلام الكبرى ، وأراها مفتاح باب للشرف في الدولة الإسلامية
لا يزال مفتوحا علينا إلى اليوم كما يقول أستاذنا عبد الحميد العبادى .

أما تاريخ الصراع بين علي ومعاوية فلم يخل من عصبية متشعبة نتركها لمن يؤلف كتابا
خاصا بعلي ومعاوية ، ولقد أسفر النزاع كما تعلم عن انتصار الفرع الأموى على الفرع الهاشمي .
أما قريش فتحيز أغلبها للفرع الأموى .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥ - طبعة مصر ١٢٩٣ هـ

صراع بين الزبيرية والأموية

وهل كان الصراع بين الزبيرية^(١) والأموية إلا صراع المضرية واليمانية ؟ تعصب اليمن ليزيد لأن أمه كلبية وهى سياسة معاوية الداهية فقد قصد إلى ذلك الزواج السياسى قصدا - كما أسلفنا - وتعصبت قيس للزبير لأنه ولدهم وابن عشيرتهم ، ولأنهم ورثوا عن آبائهم الأولين عصبيتهم المضرية فهم - حانقون بحكم الدم - على اليمن ، بل لقد جد سبب للنزاع لأن الأمويين ألفوا اليمن واصطفوها - والزبيريون من قيس ، فلم لا يحنق القيسيون على السلطان الأموى وأنصاره معا ؟

أما التغلبون فقد انضموا إلى الأمويين لما نعرفه من العداء القديم بين بكر وتغلب .

(١) الزبيريون هم اتباع عبد الله بن الزبير وكان يرى ان تعود الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء الصحابة الأولين ليزيد بن معاوية . بينما كان حزب الخوارج فى العراق يرى أن ترد الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعا ليولوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها وكان يجوارهم فى العراق أيضا حزب الشيعة وكان يرى أن ترد الخلافة إلى بنى هاشم فهم بيت الرسول وهم أصحابها الحقيقيون . وحزب الزبيريين فى الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عمرا ، فقد ظهر مع دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية حتى إذا توفى يزيد أجابته الحجاز كلها كما أجابته مصر والعراق وبعض بلدان الشام .

(شوق ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٥٩ - لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٢)

العصية والخوارج

وهذه العصية القبلية امتدت آثارها وتشعبت مظاهرها وتشكلت بأشكال مختلفة في التاريخ الإسلامي .

الخوارج^(١) حزب ديني :

لكنني أزعّم أن الكثرة من الخوارج ما خرجت في الواقع إلا متأثرة بالعصية القبلية ، وما العصية القبلية في العصر الأموي إلا تاريخه .

خرج الخوارج على الحكومات ، وكان شعارهم في مبدأ أمرهم « لا حكم إلا لله » ، وما خرجت هذه الجماعات النائرة إلا لأن الخلافة أفلتت من يدها ، فقريش ادّعت حقها الأزلي في الخلافة فلا سبيل إليها ، فلم لا تعلن العصيان ؟ ولما لا تقلب النظام الأموي قائلة « لا حكم إلا لله » .

ودليلنا على ما نقول أن الخوارج ينتمون إلى قبائل كان لها شأن وسلطان في الجاهلية والإسلام كتميم وربيعة وبكر . أما تميم فأنت تعرف ما خطر لها ، لقد كان لها ماضٍ أجل وأمجّد من ماضى قريش ، وها هي قريش تريد أن تكون لها زعامة العرب زاعمة أن لها في هذه الزعامة حقاً شرعياً ، أو ليس النبی منها ؟

ولكن التميمي لا يخضع لقريش والأمر أبعد من أن يصل إليه ، وإذن فهو خارج على السلطان « والحكم لله » لا حكم لغيره إلا أن يكون الحكم له هو .

أما ربيعة وبكر فأمرهما كأمر تميم واضح وأنت تعرف ما كان بين ربيعة ومضر من عدااء حفل بأخباره التاريخ الجاهلي .

(١) كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة علي ، وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسمون بالمعتزلة منهم أبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص ومغيرة بن شعبة وغيرهم ، ثم رضى على باقتراح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ وكان سبب فتنة في شيعته لأن قوماً من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال في دين الله أي تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنه لا حكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء فسموا الحرورية أو الخوارج . (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٦ - ٢٠٧)

ولنضرب مثلاً يفسر هذا الخروج بهذه الثورة العنيفة التي قام بها الخوارج في عصر الرشيد بزعامة « الوليد بن طريف » وهي آخر حركة سياسية قام بها الخوارج . من أصحابها ؟ هم التغلبون .

كانت تغلب قبيلة نصرانية ثبتت على نصرانيتها فليس يعنيها أن تكون الزعامة الدينية في المسلمين لقريش أو غير قريش ، فلما أسلمت أو قل أسلم أكثرها خرج منها ثلاثون ألف فارس تزلزل لخروجهم العرش العباسي .

العصية والعصر الأموي

سياسة معاوية :

لعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله هو أنه عرف كيف يتخذ من العصية حصناً منيعاً يحصن به ملكه وملك أولاده من بعده . أحب أن يؤلف العنصر الآخر - اليماني - فتزوج ميسون بنت بحدل من قبيلة كلب اليمانية وأولدها ولي عهده يزيد . فكان ذلك الزواج السياسي ضماناً كافياً لتأييد كلب اليمانية والقبائل الموالية لها . ولقد ظلت هذه القبائل اليمانية حصناً منيعاً لآل أمية وعقبة كأداء في سبيل خصومها . وأنت تعرف لهذا الزواج أمثلة عدة في تاريخ أوروبا الحديث .

وقد انتهى الأمر بأن قرب الخلفاء كلباً ، فحقق القيسيون عليها وخرجوا على الخلفاء غير مرة كما سنبينه فيما بعد .

وفي أيام معاوية نشبت من جديد المعركة الشعرية بين الأنصار وخصومهم من شيعة البيت الأموي ، وأصلها تشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بابنة معاوية رملة^(١) ، فاشتات أخوها غضبا وطلب إلى كعب بن جعيل^(٢) هجاء الأنصار ، فتخرج وأشار عليه بالأخطل فهجاهم الأخطل هجاء مرّاً استثار به حمية الأنصار ، وانبرى قرم من قرومهم هو النعمان بن بشير^(٣) يطلب من معاوية قطع لسان الأخطل ويهدده إن لم يفعل :

(١) سنحدثك عن ذلك في باب الغزل

(٢) أمر يزيد بن معاوية كعب بن جعيل بهجاء الأنصار ، قال له كعب : « أرادى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ أهجو

قوماً آووا رسول الله ﷺ ونصروه ! (أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٥٨١ - طبعة الشعب)

(٣) قيل دخل النعمان على معاوية وأنشد هذه القصيدة وليس ذلك بعيداً فقد كان النعمان سيداً في قومه وجيهاً ومطاعاً =

مُعاوَى إِلَّا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ
أَيْشْتُمْنَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً
فَمَا لِي ثَارٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ
فَإِنْ كُنْتُ لَمْ تَشْهَدْ بِيَدِرٍ وَقِيعَةً
فَسَائِلُ بِنَا حَيٍّ لُوَّى بْنِ غَالِبٍ
أَلَمْ تَبْتَدِرْكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سِيوفُنَا
ضَرَبْنَاكُمْ حَتَّى تَفَرَّقَ جَمْعُكُمْ
لِحَى الْأَزْدِ مَسْدُولًا عَلَيْهَا الْعَمَائِمُ
وَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمِ
فَدُونَكَ مَنْ يُرْضِيهِ عَنْكَ الدَّرَاهِمُ
أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَنْفُ رَوَاغِمُ
وَأَنْتَ بِمَا تُخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِمُ
وَلَيْلُكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ نَائِمُ
وَطَارَتْ أَكْفٌ مِنْكُمْ وَجَاهِمُ

ومنها :

فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ وَلَكِنْ وَلِيُّ الْحَقِّ وَالْأَمْرُ هَاشِمٌ^(١)

ويزعمون أن هذه المهاجاة بين الأخطل والنعمان أول ما قيل في الإسلام من شعر العصبية .
ويخلف معاوية ابنه يزيد في ذي الحجة سنة ٦٧ هـ . ويسير يزيد جيشا عرمرما مكونا من
اثني عشر ألف مقاتل يمانى كلبي « أنحوال يزيد » فيلتحم الجيش والثوار وأنصار اليزيد في موقعة
الحرّة^(٢) « شمالي المدينة » وينتصر جيش يزيد ويستبيح الظافرون حرمة المدينة ويقتلون أطفالها
ويستحيون نساءها ويأخذون البيعة من رجالها على أنهم عبيد ليزيد .

ولهذا يرى « دوزي » ويرى « ملر » أن موقعة الحرّة صدى لموقعة بدر فهي بين الأرستقراطية
الإسلامية والأرستقراطية الوثنية ، عندهما أن يزيد كان وثنيا متسرا ، وأن قائد جيشه كان
وثنيا .

ويرى أستاذنا الدكتور طه حسين^(٣) أن هذه الموقعة كانت بين الأنصار وقريش . وأما
أستاذنا عبد الحميد العبادي و « فلهوزن » الألمانى فيريان أن هذه المعركة سياسية لا علاقة لها

— ينحشاه معاوية ويتقيه . ولما سمع معاوية هذه الأبيات أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه فاستجار بيزيد بن معاوية فنع منه
وأرضوا النعمان حتى رضى وكف عنه (المصدر السابق ج ١٦ ص ٥٨١٠)

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٥٨٠٨ — طبعة الشعب — « القصيدة كاملة » ورواها كاملة أيضا
الدكتور طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » ص ١٢٥ والمبرد : الكامل ج ١ ص ١٠٤ من طبعة مطبعة الاستقامة .

(٢) حتى من تغلب

(٣) في كتابه الأدب الجاهلي ص ١٢٣ طبعة دار المعارف ١٩٥٨ فيقول « ويقول الرواة حين يقصون وقعة الحرّة إنه قد

قتل فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرا أى من الذين أذلوا قريشا » .

بالدين - حرب بين حزبين - حزب يتشبث بالحكم وآخر يزحزحه عنه . حرب بين مبدأ الحكم الوراثي الاستبدادي وبين مبدأ الانتخاب والثوري الديمقراطي .

ومهما يكن فليس يعنينا ذلك كله ، إنما الذي نريد أن نسجله هو أن هذه الموقعة أججت نيران العصبية المضرية اليمانية ، فانبعثت أشد وأضرى ما تكون العصبية .

ويقول شاعر قيسى يوجه الخطاب إلى خالد بن يزيد وكان بطبيعة الحال متعصبا لكلب على قيس لأنهم أنصار أبيه وأخواله وأخوال زوجته :

ياخالدُ بن أبي سُفْيَانَ قد قُدِحَتْ مِنَّا الْقُلُوبُ وضاق السَّهْلُ والجَبَلُ
أأنت تَأْمُرُ كَلْبًا أن تُقَاتِلَنَا جَهْلًا وتمنعهم مِنَّا إذا قَتَلُوا
ها إن ذا لا يُقِرُّ الطَّيْرُ ساكنة ولا تَبْرُكُ من نَكَرَاته الإِبِلُ^(١)

ومات يزيد فخلفه ابنه معاوية الثانى ، وبعد موته أو خلعه^(٢) يعقد اليمانيون مؤتمرا فى « الجابية » للتشاور فى أمر الخلافة فيتفقون بعد نزاع شديد على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم .

أما القيسيون فقد احتشدت جموعهم فى « مرج راهط » وتحفzوا للقتال ، فسار إليهم مروان نفسه تتبعه الجموع اليمانية فتقع واقعة مرج راهط فى ذى الحجة سنة ٦٤ هـ بين الأمويين والزبيريين وتسفر عن انتصار الأمويين واندحار أنصار ابن الزبير فى الشام . فنحن نسجل أن موقعة مرج راهط ملحمة أخرى بين القيسيين والأمويين .

وفى مرج راهط قيل شعر كثير كما قيل فى غيرها فى هذه الحرب ، يقول زعيم القيسيين زفر ابن الحارث الكلابى :

أربنى سلاحى لا أبالكِ أننى أرى الحربَ لا تَزْدَادُ إلا تَمَادِيَا
أَتَانِي عَنْ مَرْوَانَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ مَقِيدٌ دَعَى أَوْ قَاطِعٌ من لِسَانِيَا
ففى العَيْشِ مَنْجَاةٌ وفى الأَرْضِ مَهْرَبٌ إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهُنَّ الْمَثَانِيَا
فلا تحسبُونى إِنْ تَغَيَّبْتُ غَافِلًا ولا تفرحوا إِنْ جِئْتُكُمْ بِلِقَائِيَا
فقد يَنْبُتُ المَرْعى عَلَى دِمَنِ الثَّرى بها ورق من تحتها الشر باديا

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ٦٦٧٨ من طبعة الشعب .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٠٣

وتمضى ولا يبقى على الأرض دمنة
لعمري لقد أبقت وقعةً راهط
فلم ترمني نبوة قبل هذه
عشية أعدو في القران فلا أرى
أيذهب يوم واحد إن أسأته
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا

وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لحسن صرعاً بيناً متناثيا
فرارى وتركى صاحبي ورأيا
من الناس إلا من على ولا ليا
بصالح أيامي وحسن بلاثيا
وتثار من نسوان كلب نسايا^(١)

فأجابه جواس بن قعطل :

لعمري لقد أبقت وقعةً راهط
مقيماً ثوى بين الضلوع محلّه
تبكى على قتلى سليم وعامر
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة

على زفر داء من الداء باقيا
وبين الحشا أعيا الطبيب المداويا
وذيان معذوراً وتبكي البواكيا
إذا شرعوا نحو الطعان العواليا^(٢)

ورد عليه عمرو بن الجلى الكلبى بأبيات يرويها ابن الأثير . ختامها قوله :

فمت كمداً أو عش ذليلاً مهضماً
بحسرة نفس لا تنام همومها^(٣)

والخطاب لزفر

وفى عهد عبد الملك بن مروان تفرعت من الخصومة بين كلب وقيس خصومة أخرى بين
قيس وتغلب ووقعت بينهما مواقع عدة منها يوم ماكسين ويوم الثرثار الأول ويوم الثرثار الثانى
ويوم الفدين ويوم السكير ويوم المعارك ويوم الشرعية ويوم البثر . ولشعراء القبيلتين فى كل يوم
من هذه الأيام شعر . من ذلك ما قاله الجحاف يخاطب الأخطل بعد موقعة البثر :

أبا مالك هل لمتنى أو حضضتنى
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنفكم
بكل فتى يرعى عميراً بسيفه

على القتل أم هل لامنى لك لائم
بفتيان قيس والسيوف الصوارم
إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٤١ - طبعة دار المعارف وابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٢٩ طبعة

مصر ١٣٥٦ هـ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٤٢ وابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٢٩

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٣٣٠ - طبعة مصر ١٣٥٦ هـ .

فإن تطردوني تطردوني وقد مضى من الورد يوم في دماء الأرقام
نكحت بسيني في زهير ومالك نكاح اغتصاب لا نكاح الدراهم^(١)
انضمت تغلب إلى الأمويين وربيعة انضمت إلى القيسيين وكان لهذه الخصومات أثر كبير في
الشعر الأموي .

نمر بعصر عبد الملك وعامله الحجاج سراعاً خشية أن نضل ، إنما نسجل أن الحرب بين ابن
الأشعث والحجاج انطوت على عصبية قبلية وإن كان ظاهرها حرباً إقليمية ، ويرى بعض
المؤرخين أن هذه الحرب الأخيرة كانت حرب العرب والموالي ، لكننا ننكر عليهم ذلك ، إنما
انضم الموالي إلى الثوار فكانوا عوناً لهم وظهيراً .

وقد قضى الوليد بن عبد الملك على الخارجين والمشاعبين ثم شغل نفسه وشغل الناس عن
العصبية بالفتوح الإسلامية العظيمة ، ففي عهده فتحت الأندلس ، وفتح ما وراء النهر وفتح
حوض السند والمغرب وأرمينيا والقوقاز .

وسليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ خلف أخاه الوليد ، وكانت سياسته نقضاً لسياسة
الحجاج فأثر اليمن وصب جام غضبه على صنائع الحجاج وقد كانت بينه وبين الحجاج إحن
وبغضاء حتى أن الحجاج تمنى أن يموت قبل أن يرقى العرش سليمان خوفاً من بطشه .
وكان على خراسان قتيبة بن مسلم فقام بفتنة ضد سليمان ، ولكن الأمر أفلت من يده ،
فثارت ضده قبائل خراسانية بزعماء تميم وقتلته .

وللفرزدق في ذلك قصيدة يهجو بها قيساً ويمدح سليمان وعدد أبياتها مائة وخمسة نروى
لك منها :

تُحَرِّكُ قَيْسٌ فِي رُءُوسِ لَيْثِمَةٍ	أَنُوفًا وَآذَانًا لثَامِ الْمَصَالِمِ
وَلَا رَأَيْنَا الْمَشْرِكِينَ يَقُودُهُمْ	قُتَيْبَةُ زَحْفًا فِي جُمُوعِ الزَّمَاظِمِ
ضَرَبْنَا بِسَيْفٍ فِي يَمِينِكَ لَمْ نَدَعْ	بِهِ دُونَ بَابِ الصُّينِ عَيْنًا لظَالِمِ
بِهِ ضَرَبَ اللَّهُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا	يَبْدُرُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَالْمَعَاصِمِ ^(٢)

ومنها :

لَعَمْرِي لَنْ قَيْسٌ أَمَصَّتْ أَيْوَرَهَا جَرِيرًا وَأَعْطَتْهُ زُيُوفَ الدَّرَاهِمِ

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٤٣٦٨ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٨٥٥ من طبعة الصاوي

فكم طَلَّقتُ من قَيْسٍ عَيْلانَ من حِرٍّ وقد كانَ قَبْقَاباً رِمَاحُ الأَرَاقِمِ^(١)
ومنها :

لقد تَرَكْتُ قَيْساً ظُبَاةً سُيُوفِنا وَأَيْدٍ بأعْجَازِ الرِمَاحِ اللَّهَازِمِ
وقَائِعُ أَيامٍ أَرَيْنَ نِسَاءَهُم نَهَاراً صَغِيرَاتِ النُّجُومِ العَوَائِمِ
بَذَى نَجَبٍ يَوْمٌ لِقَيْسٍ شَرِيدُهُ كَثِيرُ الْيَتَامَى فِي ظِلَالِ الْمَاتِمِ^(٢)
ونَهَضَ سُلَيْمانُ بآلِ المَهْلَبِ وكانَ الحِجَاجُ قد اضْطَهَدَهُم وخَفَضَ من شَأْنِهِم فقد كانَ
يكرَهُهُم لأنَّهُ سَخَطَ على اليَمَنِ ومن يَمِتْ إلى اليَمَنِ بَصَلَةٌ منذ فَتَنَةِ ابنِ الأَشْعَثِ . فلما كانَ عَهْدُ
سُلَيْمانَ ولى رَجُلٌ من المَهْلَبِيِّينَ « يَزِيدُ بنُ المَهْلَبِ » على المَشْرِقِ . وهكْذا كانتَ سِياسَتُهُ مُصْطَدِمَةً
مع سِياسَةِ الحِجَاجِ :

واستَخْلَفَ سُلَيْمانَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ ، وكانَ عُمَرُ كما تُعرَفُ رَجُلًا أَقْرَبَ إلى الدِّينِ ، وخَلَفَ
عُمَرَ يَزِيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ ١٠١ - ١٠٥ هـ وفي عَهْدِهِ انْقَلَبَتِ الآيَةُ فاليَمَانِيُّونَ يَنْقَلِبُونَ عَلَيْهِ وهو
يُؤَثِّرُ مَضْرُ . وفي عَهْدِهِ وَقَعَتِ المَوْقِعَةُ الهائِلَةُ بَيْنَ القِصْرِ الأَمْوِيِّ يَقُودُ جِيشَهُ مُسَلِّمَةُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ
وجِيشُ الثَّوارِ يَقُودُهُ يَزِيدُ بنُ المَهْلَبِ ، وكانَ عُمَرُ قد حَبَسَهُ بِتَهْمَةِ اخْتِلاسِ أَمْوالِ ونَفاهُ في
جَزِيرَةِ « دَهْلَكِ » واستَطاعَ يَزِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَهْرِبَ فَسَرَّعَانَ ما أَلْبَى اليَمَنِ وشِيعَتُها على مَضْرٍ
فانتَشَبَتَ بَيْنَهُما حُرُوبٌ .

هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ :

ويلوح لنا أن هشاماً لم يكن ذا ميول قبلية معينة لأن سياسته بالنسبة للقبائل لم تكن ثابتة .
ومهما يكن فالمضرية رجحت كفتها قبل هشام رجحانا روحيا عظيما . فهض هشام باليمانية ،
وأهم مظهر لهذه السياسة هو توليته « خالد بن عبد الله القسري » وهو يتنسب إلى بجيلة قبيلة
مضرية مستضعفة . ولكن الرجل كان معروفا بميوله اليمانية ، وظل خالد أميرا على المشرق في
الخمس عشرة سنة الأولى من خلافة هشام .

وفي سنة ١٢٠ هـ تولت هذه السياسة وعزل هشام خالدا وولى يوسف بن عمر الثقفي سنة
١٢٠ هـ رغما عن استهتاره بالدين ، ويروى أنه شيد كنيسة على حساب الدولة وكان مستشاروه

(١) الديوان ص ٧٩٧ من طبعة الصاوي

(٢) الديوان ص ٨٥٩ من طبعة الصاوي

زرادشتيين أو نصارى أو يهوداً كما أنه ولى على خراسان نصر بن سيار الكنانى المضرى ، وكذلك ولى على اليمن عمالا مضربين حتى ثار ثائر اليمانيين وزعيمهم فى الثورة أبو الخطار بن ضرار الكلبي وله فى ذلك شعر^(١) .

ونقول على الإجمال : إن سياسة الدولة تغيرت من سنة ١٢٠ هـ على يد هشام فكان الميل إلى القيسية ظاهراً لأول مرة فى العهد الأموى .

الوليد بن يزيد ١٢٥ - ١٢٦ هـ

ويخلف هشام الوليد بن يزيد ، ويتبع الوليد السياسة التى اتبعها هشام فى سنيه الأخيرة وهى الانتصار للقيسية دون اليمانية ، وإنى لأروى لك هذه القصيدة للوليد بن يزيد ل ترى إلى أى حد تغلغت العصبية فى ذلك العصر ، خليفة يقول الشعر وينزل إلى ميدانها مع الشعراء . قال يعمر اليمى بترك نصره خالد بن عبد الله القسرى^(٢) :

ألم تهتج فتذكر الوصالا	وحبلا كان متصلا فزالا
بلى فالدمع منك له سجال	كماء الغرب ينهمل انهمالا
فدع عنك ادكارك آل سعدى	فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسرا	نسومهم المذلة والنكالا
وطئنا الأشعرين بكل أرض	ولم يك وطونا أن يستقلا
وهذا خالد فينا أسير	ألا منعه إن كانوا رجالا
عظيمهم وسيدهم قدما	جعلنا الخزيات له طلالا
فلو كانت بنو قحطان عربا	لما ذهب صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوبا أسيرا	نحمله سلاسلنا الثقالا
وكندة والسكون قد استعاذوا	نسومهم المذلة والخبالا
بها سمت البرية كل خسف	وهدمنا السهولة والجبالا
ولكن الوقائع ضعضعتهم	فلم يجدوا لذلتهم مقالا
فأزالوا لنا بلدا عبيدا	نسومهم المذلة والسفالا

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٣٠ - طبعة مصر ١٣٥٧ هـ

(٢) كان خالد بن عبد الله القسرى واليا على العراق فاتهمه هشام فى أواخر أيامه باختلاس أمواله فعزله وأقام بدمشق وطالبه برد الأموال وحبسه ، فلما قدم يوسف من العراق اشتراه بخمسة ألف ألف - وهو المبلغ المختلس .

فأصبحت الغداة على تاج لملك الناس ما ينبغي انتقالاً^(١)
ورد عليه حمزة بن بيض بقصيدة أولها :

يا وليد الحنا تركت الطريقاً واضحاً واركتبت فجاً عميقاً^(٢)
وهجاه كذلك بشعر منه :

وصلت سماء الضرّ بالضرّ بعد ما زعمت سماء الضرّ عنا سُتْقِلِع
فليت هشاماً كان حياً يسوسنا وكنا كما كنا نُرجى ونطمع^(٣)

وكانت نتيجة تعصب الوليد للقيسية ثورة اليمانيين عليه بزعامه يزيد الثالث وزحفت جيوش يزيد إلى دمشق واقتحموا على الخليفة حصنه وقتلوه وهويّتلو القرآن ويقول « يوم كيوم عثمان »^(٤)

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (جمادى الآخرة ١٢٦ هـ إلى ذى القعدة ١٢٦ هـ) :
انتصر لليمانية بطبيعة الحال وأظهر ما يدل على ذلك عزله ليوسف بن عمر الثقفي وتوليته الجمهور بن منصور الكلبي .

مروان بن محمد أو مروان بن الحكم (سنة ١٢٧ - ١٣٢ هـ)

لا يعترف بخلافة إبراهيم الإمام ويخرج في جيش من القيسية يريد الانتقام للوليد بن يزيد وينضم إليه أهل حمص وقنسرين ، وينتصر على إبراهيم الإمام ، فيبايع بالخلافة في دمشق ، ثم يتخذ « حران » عاصمة بدلاً من دمشق .

وتتألب عليه الثورات في الشام والعراق لانتصاره للقيسية فيقضى عليها واحدة بعد أخرى . لكن العرب في خراسان منقسمون ، والحرب بينهم على أشدها والموالي يوسعون الخرق على الراقق وأخيراً ينضم إليهم اليمانيون والربيعيون وينتصر الموالى وتقوم الدولة العباسية .

والآن وقد ألقينا هذه النظرة الخاطفة على تاريخ العصبية القبلية قبل العصر الأموي وفي العصر الأموي، نسجل مطمئنين أن الدولة الأموية ثمرة للعصبية فظهر من مظاهرها . وسترى في الفصل التالى أن الدولة العباسية ثمرة للعصبية الشعبية .

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٨ من طبعة ليدن ١٨٨٨ والطبرى ج ٧ ص ٢٣٤ من الطبعة الثالثة

بدار المعارف

(٢) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٢٣٦ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٦٢ من طبعة الشعب .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٨٠٠ - أحداث سنة ١٢٦ هـ طبعة بريل ١٨٨٥

نظرات في الشعر القبلي

لو كان الأمر مقصوراً على العصبية المضرية اليمانية لكان علينا أن نروى نموذجاً لشاعر مضري وآخر يمانى « كالكيت والطرماح » أو اكتفيت بمثال أو مثالين لشاعر مضري يفخر بأن النبوة أو الخلافة في مصر، ويعير اليمن بنسائهم ولين ملكهم ثم قفيتها بمثالين لشاعر يمانى يعدد بعض الأيام أو يفخر ببعض أبطال اليمن كالمهلب بن أبي صفرة أو بعض أجوادها كحاتم طيئ، ولانتهت مهمتنا بشيء من اللياقة وحسن التخلص ، لكن الأمر متشعب جد التشعب حتى يستطيع الباحث المستقصى أن يؤلف فيه كتاباً من عدة أسفار ضخمة قبل أن يفرغ منه .

خصومة بين قبيلتين عدنانتين « مضر وربيعه » وخصومة بين فرعين مضريين واثليين تجمعها ربيعة « بكر وتغلب » ، وتحالف ربعى يمانى على قيس وخصومة بين قبيلتين قيسيتين « عبس وذبيان » وخصومة بين قبيلتين يمانيتين « الأوس والخزرج » أو بين قبائل يمانية وقبيلة يمانية « القبائل اليمانية وكلب » وخصومات بين بطون القبائل « هاشم وعبد شمس من قريش ويزربوع ودارم من تميم » .

بل خصومة بين فرعى البيت الواحد ، فعبد شمس عند انتقال الحكم من فرع حرب إلى فرع الحكم بن أبي العاص على يد مروان الأول تنقسم إلى شطرين ، ولكل شطر شيعة ، فأسرة معاوية شيعتها اليمانيون وأسرة مروان شيعتها من العدنانيين .

ثم هذه الثورات العنيفة التي قامت بها هذه الولايات الجديدة على الدولة لم تكن دينية إلا في مظهرها ، أما جوهرها فهو هذا التعصب القبلي ، إنما ثارت هذه القبائل لأنفها من الخضوع لأمرأ محدثين أو مستشارين يلونها من قريش .

كان الغرض سياسياً وكان الظاهر دينياً كما يقول المستشرق الهولندى Von Volten ^(١) ثم هذا الصراع العنيف بين هذه الولايات كصراع البصرة والكوفة في كل ميدان من الميادين في السياسة ، في العلم ، في الشعر ، في الجدل لم يكن إلا أثراً من آثار العصبية القبلية . ذلك أن الكثرة في البصرة مضرية والكثرة في الكوفة يمانية . بل هذا الصراع في الولاية الواحدة بين

(١) في كتابه : Le Domination Arabe .

العصبيات المختلفة ، فالبصرة مثلا فيها من مضر وتميم وقيس ، وبينها تنافس ، وفيها قبائل من ربيعة واليمن وكل واحدة من هذه القبائل تقيم في حيّ خاص بها . ويصبح لكل قبيلة مسجد تجتمع فيه . والمربد مجمع لهذه العصبيات المختلفة يمثلها شعراؤها .

وفي الكوفة لا يجتمع الشعراء في سوق ، لكنهم يخرجون إلى العراء فيتساجلون في ذكر الأيام ، ومثل هذا في الإقليم الواحد ، فخراسان مثلا منقسمة إلى أربعة أقسام : قيسيين وتميمين ويمانيين وربيعيين وهم في صراع دائم - إلى غير ماذكرنا من العصبيات المختلفة . إذن فأى الشعر أروى وأيه أدع ؟

الشعر مدوّن في المصادر العامة ودواوين الشعراء ، ولست أكتب بحثا خاصا بالعصبيّة القبلية فبحسبنا بعض الملاحظات العامة ، فأول ما نلاحظه أن هؤلاء الشعراء لم تكن لهم شخصية مستقلة منفصلة عن قبائلهم ، أمحت شخصياتهم أمحاء فهم لسنّ قبائلهم لأكثر ولأقل .

لم يهج قيسى تغلبيا لأنه نقم عليه صناعته الفنية ، أوحسده في أمر من أمور دنياه . لو أننا أقبلنا على درس كل خصومة من هذه الخصومات على ضوء التاريخ السياسي وتكلفنا عناء دراستها - وهي دراسة فيها شيء كثير من المشقة - لوضح لنا في كل خصومة بين شاعرين أن الشاعر إنما كان لسان قبيلته وأن شخصيته تمحى محوا لانكاد نحس بها منفصلة عن قبيلته . لقد تهاجى الأخطل وجريز زمانا طويلا ، ثم جمعتهم الأيام عند عبد الملك بن مروان . ونظر الأخطل إلى جريز نظرا شديدا ، فسأله جريز : من أنت ؟ قال : أنا الذي منعت نومك وتهضمت قومك . جريز يهجو الأخطل هجوه القادح المر ولما يره ! ولكن فيم العجب ؟ أفتعجب أن انتشبت الخصومة وفحش الهجاء بين صحافي حزبي وصحافي يخالفه في المبدأ ؟ ومر جريز على سراقه البارقي وهو ينشد شعرا فاستظرفه فسأله من أنت ؟ قال بعض من أخزى الله على يديك . فقال جريز « أبا والله لو عرفتك لو هبتك لظرفك » .

تقرأ قصيدة فكانك تقرأ مقالا في صحيفة من الصحف الحزبية في أيامنا . الصحيفة الحزبية تفاخر بجهاد زعماء الحزب وبلاء شهدائه وترمي الحزب المعادي بالاستكانة والجن أمام العدو . وكذلك الشاعر يعدد أيام قبيلته ويفخر ببلاء زعمائها وبسالتهم ، ويعير القبيلة المعادية بالاستكانة لعدوها والتخلي عن جاراها :

إنا لنعرف من رجال مجاشع هذا الحفيف كما يحف الخروع

هلا سألت مجاشعا زبدَ استيها
ومجاشع قصب هوت أجوافه
كذب الفرزدق أن قومي قبلهم
منعوا الثغور بعارض ذي كوكب
هلا سألت بني تميم أينا
من كان يستلب الجبابر تاجهم
خضبوا الأسنة والأعنة أنهم
وابن الرباب بذات كهف فادعوا
واستزلوا حسان وابني منذر
تلك المكارم لم تجد أيامها
يكفي بني سعد إذا محاربوا
الذائدون فلا يهدم حوضهم
عرفوا لنا السلف القديم وشاعرا
ورأيت نُبلِك يافرزدق قصرت
ووجدت قوسك ليس فيها مترع^(١)

وهذا الشعر كان يذاع بين الناس فيؤثر فيهم كما تؤثر في الناس الصحف الحزبية ، ولقد حدثوا أن الأعشى قصد النبي ﷺ ليمدحه بشعره فعلمت بذلك قريش وهلع أبوسفیان وقال لقومه : يامعشر قريش ، هذا الأعشى والله لن أتى محمداً واتبعه ليضر من عليكم بشعره نيران العرب فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا وأخذها الأعشى وانطلق إلى بلده .

ويظهر أن الناس كانوا يجدون في هذه الخصومات الشعرية من اللذة ما يجده الناس اليوم في قراءة مهجاة بين صحفيين حزبيين أو تيا حظا من البلاغة ، فأنت تعرف أن بشر بن مروان وإلى البصرة كان يغري شعراءها بعضهم ببعض ، ومن ذلك مفاخرة بين الفرزدق وجريير بين يديه . قال جريير :

ونحن سنائمٌ والمناسم^(٢) غيرنا فمن ذا يُساوي بالسَّنامِ المناسمًا

(١) جريير : الديوان ج ١ ص ١٦١ - ١٦٥ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٢) المنسم : طرف خف البعير

فقال الفرزدق :

على مَحَرِّثٍ لِلْفَرِّثِ أَنْتُمْ زَعَمْتُمْ أَلَا إِنَّ فَوْقَ الْغُلْصَمَاتِ ^(١) الْجَمَاجِمَا

فقال جرير :

وَأُبَاتَمُونَا أَنْكُمْ هَامَ قَوْمُكُمْ وَلَا هَامَ إِلَّا تَابِعَ لِلْخِرَاطِمِ

فقال الفرزدق :

فَنَحْنُ الزُّمَامُ الْقَائِدُ الْمُقْتَدَى بِهِ مِنْ النَّاسِ مَا زِلْنَا وَلَسْنَا لَهَا زِمَا ^(٢)

فقال جرير :

فَنَحْنُ بَنِي زَيْدٍ قَطَعْنَا زِمَامَهَا فَتَاهَتْ كَسَارِ طَائِشِ الرَّأْسِ عَارِمِ ^(٣)

ويقول أبو الفرج ففضل بشر جريرا وأحسن جائزتهما ^(٤) .

الشاعر لا يحس باستقلاله عن قبيلته فإن هجا شاعرا هجا قبيلته ، وإن افتخر افتخر بقبيلته ، ولعل هذه القصة التي يقول عنها صاحب « الأغاني » بأنها أصل الهجاء بين جرير والفرزدق تعيننا على فهم هذه الحقيقة . والقصة هي :

اجتمع جرير والأخطل والفرزدق عند بشر بن مروان ، قال بشر للأخطل : احكم بين جرير والفرزدق فحكم حكما لم يرض جريرا فقال : ^(٥)

يَا ذَا الْعِبَاءَةِ إِنْ بَشْرًا قَدْ قَضَى أَلَا تَجُوزُ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ
فَدَعُوا الْحُكُومَةَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ الْحُكُومَةُ فِي بَنِي شَيْبَانَ
قَتَلُوا كُلَّيْكُمْ ^(٦) بَلْقَحَةَ جَارِهِمْ يَأْخُزَرُ تَغْلِبَ لَسْتُمْ بِهَجَّانِ

فرد عليه الأخطل بقوله :

وَلَقَدْ تَنَاسَبْتُمْ إِلَى أَحْسَابِكُمْ وَجَعَلْتُمْ حُكْمًا مِنْ السُّلْطَانِ

(١) الغلصمة : رأس الخلقوم

(٢) اللهازم : جمع لهزمة . واللهزمتان هما ما تحت الأذنين من أعلى اللحيين والحددين يريد أنه من الذين يقودون الناس

لا ممن يقادون

(٣) العرام : القوة والشدة والشراسة

(٤) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٧٨٣ من طبعة الشعب .

(٥) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٣٠٦١ من طبعة الشعب

(٦) يشير إلى حادثة كليب وجساس بن مرة

فإذا كُتِبَ لُتْسَاوَى دَارِمًا حتى يُسَاوَى حَزْرَمٌ^(١) بِأَبَانٍ
 وإذا جعلتَ أباك في ميزانهم رَجَحُوا وشالَ أبوكَ في المِيزانِ
 وإذا وردتَ الماءَ كانَ لدارمٍ عَفْوَاتُهُ^(٢) وسهولةُ الأعْطَانِ^(٣)
 فأنت ترى أن الشاعرين عندما أرادا الهجاء كان أسبق شيء إليهما هجو القبيلة ، وجريد يريد أن يهجو الفرزدق فيهجو قبيلته :

مهلا يافرزدق إن قومك فيهم خور القلوب وخفة الأحلام^(٤)
 أو .

إذا أسفرتَ يوماً نساءً مُجاشِعٍ بدتَ سوءةٌ مما تُجنُّ البراقعُ
 مباشيمٌ عن غيبِ الخَزِيرِ كأنها تُصَوِّتُ في أعفاجهنَّ الضَّفَادِعُ^(٥)

والعباس بن يزيد يهجو جريرا فيقول :
 إذا طلع الغراب على تمم وما فيها من السَّوآتِ شابا^(٦)
 وجريد يريد أن يهجو الراعي فيقول :
 فغُضُّ الطَّرْفِ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلابا^(٧)
 والفرزدق يهجو جريرا فيقول :

فإنك كَلْبٌ من كُتَيْبٍ لَكَلْبَةٍ غَذَتْكَ كُتَيْبٌ في خبيث المطاعِمِ
 وليسَ كُتَيْبِي إذا جنَّ ليله إذا لم يجد ريحَ الأتَانِ بنائِمِ^(٨)

(١) حزم : جبيل فوق الهضبة في ديار بني أسد (عن شرح القاموس مادة حزم) وأبان جبل شرق الحاجر فيه نخل وماء ويعرف بالأبيض ، وهو أيضا جبل لبني فزارة وهو المعروف بالأسود ، وبينهما ميلان وقيل فيها غير ذلك » (انظر : معجم البلدان لياقوت وشرح القاموس مادة أبان)

(٢) عفوة كل شيء : صفوته وكثرته : والعطن : مناخ الإبل حول الورد

(٣) الديوان ص ٢٧٤ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٤) الديوان ص ٩٩٢ من طبعة دار المعارف

(٥) الديوان ص ٣٧١ من طبعة الصاوي

(٦) المرزباني : معجم الشعراء ص ١٠٤ بتحقيق عبد الستار فراج

(٧) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٧٥٢ - من طبعة الشعب والديوان ص ٦٣ من طبعة بيروت ١٩٦٤ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ من طبعة المطبعة الأزهرية .

(٨) الديوان ص ٨٦٣ من طبعة الصاوي

والعباس يهجو عبد الله بن الزبير فيقول :

بَنِي أَسَدٍ لَا تَذْكُرُوا الْفَخْرَ إِنَّكُمْ مَتَى تَذْكُرُوهُ تُكْذِبُوا وَتُحْمَقُوا
إِذَا اسْتَبَقْتُ يَوْمًا قُرَيْشٌ خَرَجْتُمْ بَنِي أَسَدٍ سَكَنُوا وَذُو الْمَجْدِ يَسْبِقُ
تَجِيثُونَ خَلْفَ الْقَوْمِ سُودًا وَجُوهُكُمْ إِذَا مَا قُرَيْشٌ لِلْأَضَامِمْ أَصْفَقُوا^(١)

وكذلك سائر الشعراء^(٢) وذلك مسلك طبيعي لأن هذا الشعر القبلي إنما هو صدى لهذه المعارك القبلية المختلفة . ونقسم هذا الشعر إلى شعبتين « الهجاء والفخر » وإن كان كل منهما مختلطا بالآخر تجمعها القصيدة الواحدة .

الشعر القبلي « هجاء وفخر » متلازمان فإن نحن شطرنّا الموضوع أوبعبارة أصبح شطرنّا الحديث عنه فذلك لتبسيطه في نظرة عامة عاجلة كهذه . الموضوع الشائع في هذا الهجاء القبلي هو قذف أعراض النساء .

كقول جرير في نساء مجاشع :

كَانَتْ إِذَا نَكَحَتْ نِسَاءَ مَجَاشِعٍ شَبَهْنَ مِنْ سَفْحِ الْعَدَانِ جَفَارًا
وَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ فِي نِسَاءِ كَلِيبَ :

إِنْ ابْنُ أُخْتِ بَنِي كَلِيبٍ خَالُهُ يَوْمَ التَّفَاضُلِ الْأُمُّ الْأَخْوَالِ
بَعْلُ الْغَرِيبَةِ مِنْ كَلِيبٍ مُمَسِكَ مِنْهَا بَلَا حَسَبٍ وَلَا بِيحَالِ
سُودُ الْمَحَاجِرِ سَيِّئٌ لِيَّانُهَا مِنْ لَوْمَةٍ يُنْكَنُ غَيْرَ حَلَالِ
كَكَلَابٍ أَعْبَدَ ثَلَاثَةً يَتَّبِعُهُمْ حَمَلَتْ أَجْنَتَهَا بِشَرٍّ فِحَالِ
يَعُوْنِ مُخْتَلَطَ الظَّلَامِ كَمَا عَوَتْ خَلْفَ الْبُيُوتِ كَلَابُهَا لِعِظَالِ
تَلْقَى الْأَيُّورَ يُظَوِّرُهُنَّ كَأَنَّهَا عَصَبُ الْفَرَّاسِينِ أَوْ أُيُورُ بَغَالِ
يَسْلَحْنَ أَنْتَنَ مَا أَكَلْنَ عَلَيْهِمْ لَمَّا وَجَدْنَ حَرَارَةَ الْإِنْزَالِ
إِنِّي وَجَدْتُ بَنِي كَلِيبٍ إِنَّمَا خُلِقُوا وَأُمِّكَ مِثْلُ ثَلَاثِ لَيَالِ^(٣)

(١) الأغاني ج ١٧ ص ٦١٢٩ من طبعة الشعب

(٢) بل يظهر أن الناس كانوا لا يحسون بهذا الاستقلال ، قال محمد بن سلام : أخذني سلام أبو المنذر عن علي بن زيد

قال : قال لي الحسن يوما ما قول الشاعر :

لولا جرير هلكت بجيله نعم الفتى وبست القبيلة

أهجاه أم مدحه ؟ قلت : مدحه ، وهجا قومه . قال : ما مدح من هجا قومه .

(٣) الديوان ص ٧٢٨ من طبعة الصاوي

وقال الفرزدق معرضاً بأم جرير .

يَبْكِي عَلَى دِمَنِ الدِّيَارِ وَأُمُّهُ
جَاءُوا بِحَقَّةٍ مُفْرَمِينَ عِجَانَهَا
وَقَفْتُ لَتَرْجُرَنِي فَقُلْتُ لَهَا ابْرُكِي
وَكَشَفْتُ عَنْ أَيْرَى لَهَا فَتَجَحَّدَلْتُ
وَتَرَكْتُ أَمَكَّ يَاجِرِيرُ كَأَنهَا
وَكَأَنَّمَا كَمَرَ الْغَوَاةِ عَلَى اسْتِهَا

تَعْلُو عَلَى كَمَرِ الْعَبِيدِ وَتَسْفُلُ
يَحْدُو الْأَتَانَ بِهَا أَجِيرُ مِرْحَلُ
يَاحِقُ أَنْتِ وَمَا جَمَعْتَ الْأَسْفَلُ
وَكَذَلِكَ صَاحِبَةُ الْوَدَاقِ تَجَحَّدَلُ
لِلنَّاسِ بَارَكَةٌ طَرِيقُ مُعْمَلُ
أُورَادُ مَا سَقَتِ النَّبَاجُ فَيَتَلُ^(١)

وقول جرير في أخت الفرزدق :

أُخْتُ الْفَرْزَدَقِ مِنْ أَبِيهِ وَأُمُّهُ
قَدْ تَعْلَمُ النَّخَبَاتُ أَنَّ فَتَاتَهُمْ
هَلَّا غَضِبْتَ عَلَى قُرُومٍ مُقَاعِسٍ
نُتُّ جِعْنُ دَافَعَتَهُمْ بِاسْتِهَا
وَجَدُوا لِجِعْنٍ حِينَ قَبِقَتْ اسْتِهَا

بَاتَتْ وَسِيرَتُهَا الْوَجِيفُ الْأَرْفَعُ
وُطِئَتْ كَمَا وَطِئَ الطَّرِيقُ الْمُهَيَّجُ
إِذْ عَجَّلُوا لَكُمْ الْهَوَانَ فَاسْرَعُوا
إِذْ لَمْ تَجِدْ لِمَجَاشِيعٍ مَنْ يَدْفَعُ
مِثْلَ الْوَجَارِ أَوْى إِلَيْهِ الْأَضْلَعُ^(٢)

وقول جرير أيضا :

هَدَمُوا وَجَارِكَ بَعْدَمَا خَبَرْتَهُمْ
يَبْكِي الْفَرْزَدَقِ وَالْدَّمَاءُ عَلَى اسْتِهَا

أَلَّا تَكَادُ تَجُوزُ فِيهِ الْأَصْبَعُ
قُبْحًا لَتَلَكْ غُرُوبَ عَيْنٍ تَدْمَعُ^(٣)

وقوله أيضا في عمه الفرزدق :

قَامَتْ سُكَيْنَةُ لِلْفُحُولِ وَلَمْ تَقُمْ
وَدَّتْ سُكَيْنَةُ أَنْ مَسْجِدَ قَوْمِهَا

بِنْتُ الْحُتَاتِ لِسُورَةِ الْأَنْفَالِ
كَانَتْ سَوَارِيهِ أُيُورَ بَغَالِ^(٤)

(١) الديوان ص ٧٢٣ من طبعة الصاوي والنباج وثبتل قريتان في أرض بني شيبان وفيها مياه ونخل . غلبت بنوسعد
بيها والنباج على عشر مراحل من البصرة وثبتل قرب النبا (ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٤٣ - ٢٤٤) ويوم النبا
تل من الأيام التي أحرزت فيها تم النصر على بكر وسبيه حب الغزو (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٣٨ طبعة
مصر)

(٢) الديوان ص ٣٥٠ من طبعة الصاوي

(٣) الديوان ص ٣٥٠ من طبعة الصاوي

(٤) الديوان ص ٤٧٠ من طبعة الصاوي

وقول جرير :

فالتَّغْلِيَةُ والصَّلِيبُ على استِها رَجَسٌ مَوْقَعَةُ العِجَانِ ذُلُولُ
بَاتَتْ تُعَانِقُهُ وَبَاتَ فِرَاشُهَا خَلَقُ العَبَاءَةِ فِي الدِّمَاءِ قَتِيلُ
فُسِخَ العَبَاءُ وَرِيحُ نِسْوَةٍ تَغْلِبُ عَدَسٌ يُقَرِّقُرُ فِي البُطُونِ وَفُولُ^(١)
وقول جرير أيضا :

فَإِذَا تَدَارَكَ رَأْسُ أَشْهَبَ شَارِفٍ فِي الحَاوِيَاتِ وَحُمَصٌ مَبْلُولُ
نَادَتْ بِيَالٍ مُحَارِبٍ وَيَكْفُهَا عَرَضٌ كَانَ نِطَاقَهُ مَحْلُولُ^(٢)

وقول جرير يهجو عمر بن لجا التيمي فيرمي أمه بالفحشاء ويرميه بأنه ولد سفاح ثم يقول :

أبرز بها عن الناس وسرّ بها إلى موضع معتزل :

خَلَّ الطَّرِيقَ لَمَنْ يَنْبِي المَنَارَ بِهِ وَابْرُزْ بَيْرْزَةَ حَيْثُ اضْطَرَك القَدَرُ^(٣)
وقوله :

أَنْتَ ابْنُ بَرْزَةِ مَنُوبًا إِلَى لَجَا عَبْدُ العُصَارَةِ وَالْعِيدَانُ تُعْتَصِرُ^(٤)
وقوله من بعض هجائه :

وتقول إذا نزعوا الإزار عن استِها هَذِي دَوَاةٌ مَعْلَمُ الكِتَابِ^(٥)
وهذا النوع من الهجاء شائع جدا في هؤلاء الشعراء القبليين ، والنقاد يجمعون على أن
الأخطل أعف الشعراء في هجائه ، وبعضهم يفضل له هذا وحده وهو نفسه يقول : ما قلت شعرا
تخجل العذراء منه وهي تنشده في خدرها^(٦) ومع ذلك فالأخطل هو القائل « ناك كعب بن
جعيل أمه^(٧) ، وهو القائل :

فَلَا تَدْخُلْ بُيُوتَ بَنِي مُكَلِّبٍ وَلَا تَقْرَبْ لَهُمْ أَبَدًا رِحَالًا
تَرَى مِنْهَا لَوَامِعَ مَبْرِقَاتٍ يَكْدُنَ يَنْكُنُ بِالْحَدَقِ الرَّجَالَا

(١) الديوان ص ٤٧٦ من طبعة الصاوي .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٨ من طبعة ١٩١٣ .

(٦) كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٣٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٤ .

(٧) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٣٠٢٨ من طبعة الشعب .

قَصِيرَاتِ الْخُطَا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ إِلَى السَّوَاتِ مُسَمَّحَةً رِعَالاً^(١)
وبعد فليس من شك أن شعراء المسلمين في صدر الإسلام وخصوصهم وطّدوا دعائم فن
الهجاء ، ونحن ذاكرون لك هذه الأبيات حجة على مانذهب إليه ، وهى لشاعر الأنصار
حسان بن ثابت في هجاء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في موقعة أحد ، قالها ردا على هند
وكانت قد اعتلت بعد انتصار جماعتها وأخذت تنشد شعر الفخر على المسلمين ، ولقد ضاع
شعرها ، وروى أبو الفرج شعر حسان في الرد عليها^(٢) :

أَشْرَتْ لَكَاعَ وَكَانَ عَادَتْهَا	لَوْمًا إِذَا أَشْرَتْ مَعَ الْكُفْرِ
لَعَنَ الْإِلَهَ وَزَوْجَهَا مَعَهَا	هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَطْرِ
خَرَجْتَ تَرْقِصُهُ عَلَى أَحَدٍ	فِي الْقَوْمِ مُقْتَبَةً عَلَى بَكْرِ
وَعَصَاكَ أَثْلَ تَتَقِينَ بِهَا	دُقَى عَجَانِكَ مِنْكَ بِالْفَهْرِ
قَرَحَتْ عَجِيزَتَهَا وَمَشَرَجَهَا	مِنْ دَابِهَا نِصًّا عَلَى الْقَتْرِ
ظَلَّتْ تُدَاوِيهَا زَمِيلَتُهَا	بِالْمَاءِ تَنْضَحُهُ وَبِالسَّدْرِ
أَخْرَجْتَ نَائِرَةَ مُبَادِرَةَ	بَأْيِكَ فَاتَكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ
وَبِعَمِّكَ الْمَسْتُوهَ فِي وَدَعٍ	وَأَخِيكَ مُنْعَقِرِينَ فِي الْحَفْرِ
وَنَسِيتَ فَاخِشَةً أَتَيْتَ بِهَا	يَاهَنْدَ وَيَحْكَ سَيْئَةَ الذِّكْرِ
زَعَمَ الْوَلَاءُ أَنَّهَا وَلَدَتْ	وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عَهْرِ

أما سبب هذا التحامل من حسان فلأن هنداً بقرت في ذلك اليوم بطن حمزة عم
النبي ﷺ وقد وجدته جسدا بين أجساد ونزعت كبده ومضغته غيظا بأسنانها ثم لفظته من
المرارة^(٣)

ومهما يكن فنحن كمسلمين يعز علينا ويجرحنا في شعورنا الديني نزول شاعر المسلمين إلى مثل
هذا الهجاء الذى فيه خروج فاحش في المعنى وفى اللفظ .

(١) الديوان ص ١٦٥

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٤١٢ (أحداث سنة ٣ هـ) من طبعة بريل ١٨٨١م

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٤١٢ (أحداث سنة ٣ هـ) من طبعة بريل ١٨٨١م

هجاء البخل

كثير جدا وليس ذلك عجيباً ، فيظهر أن البخل كان يشين في ذلك الزمان أكثر مما تشين نقيصة أخرى . يدل على ذلك شعر العرب في المدح بالكرم ، وتدلل عليه أخبارهم الكثيرة . ولولا تجنبنا للاستطراد لروينا من هذه الأخبار الأعاجيب . ويدل عليه اهتمام بعضهم بتأليف كتب في البخل والبخلاء^(١) .

ومن الأمثلة على ذلك :

قول الأخطل :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كَلَبَهُمْ قالوا لأُمَّهم بولى على النارِ
فضيقتُ فرجها بُخلا بيولتها فلاتبول لهم إلا بمقدار^(٢)

وقول جرير :

إن الهُجيمَ قبيلةٌ ملعونة حُصْنى اللّحى متشابهو الألوانِ
هم يتركون بنيهم وبناتهم سر الأنوف لريح كل دخان
لو يسمعون بأكلة أوشرة بعُمان أصبح جمعهم بعُمان^(٣)

وقول زياد بن الأعجم^(٤) :

وضيْفُهُمْ وَسَطَ آبِيائِهِمْ وإن لم يكن صائماً صائماً^(٥)

(١) للجاحظ كتاب «البخلاء» ولسهل بن هارون رسالة في البخل

(٢) نقائض جرير والأخطل ص ١٣٤ و (ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٩ من طبعة المطبعة الأزهرية)

و (المرزباني : الموشح ص ١٤٠ بتحقيق عبد الستار فراغ) .

(٣) المرزباني : معجم الشعراء ص ٤٥١ بتحقيق عبد الستار فراغ

(٤) مولى من موالى عبد القيس وكان يتهاجى مع كعب الأشقرى وكان يتزل اصطخر ويقول بعض الرواة إن أصل

مولده بأصبهان (الأغانى ج ١٣ ص ٥٨ وج ١٤ ص ١٠٨ - طبعة بولاق) و (خزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ طبعة

بولاق) و (ابن قتيبة الشعر والشعراء ص ٢٥٧ - ٢٥٩ طبعة ليدن)

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٣٣ من طبعة أحمد محمد شاكرو (ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٩

من طبعة المطبعة الأزهرية)

الفخر القبلي

نلاحظ أن الشعراء اتجهوا في الفخر اتجاهين مختلفين ، فمنهم من كان يفخر بماضيه ومنهم من كان يفخر بحاضره .

أما الأولون فهم أولئك الذين كان لهم في الجاهلية ذكر ومجد ، فهم يفخرون بذلك المجد ويتغنون :

نمشى على ضوء أحساب أضأن لنا ما ضوأت ليلة القمراء للسارى^(١)
والآخرون هم الذين حرموا ذلك المجد في الجاهلية ، فليس لهم إلى ذكر القديم سبيل ،
فهم دائرون حول الحاضر يفتشون فيه ويتمحكون :

إن الخلافة والنبوة والهدى رغم لتغلب في الحياة طويل^(٢)
لنتخذ الفرزدق مثالا للأولين ، فمن هو الفرزدق^(٣) ؟ هو ابن غالب بن صعصعة ، ممن
حمى الموءودات ، البنت بناقتين وجمل ، قيل اشترى أربعائة بنت ، وقيل بل مائة وقيل بل
ثلثمائة وستين وفي ذلك يقول الفرزدق :

أبي أحد الغيثين صعصعة الذى متى تخلف الجوزاء والدلو يُمطر
أجار بنات الوائدين ومن يجر على الفقر يعلم أنه غير مخفر
أنا ابن الذى رد المنة فضله فما حسب دافعت عنه بمعور^(٤)

(١) للخطبة : الأغاني ج ٢ ص ٥٧٧ من طبعة الشعب

(٢) لجرير : الديوان ج ٢ ص ٨٠ مصر ١٣١٣ هـ

(٣) الفرزدق اسمه همام بن غالب كان من بني دارم حى من تمم أقامت بنواحي البصرة بعد الفتح الإسلامى ، فولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب أما سنة وفاته بالبصرة فاختلف فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤ وكان كأهل البادية رحالا يتنقل من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل فنجدته تارة بالبصرة وتارة بالكوفة ومرة بالمدينة ومرة في أرض البلقاء من الشام وافدا على خلفاء بني أمية مثل الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جاء من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره دنىء النفس فذح من نال منه الجوائز وهجا من لم يشذف منه ما رجا فرما بعد الثناء الوافر على أحد الكبار في قصيدة أخذ يشتمه شتا قبيحا في قصيدة أخرى .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان - ترجمة رقم ٧٨٨ من طبعة جوتنجن أو رقم ٧٥٥ من الطبعة المصرية) و (أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٢ ص ٢٥١٨ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٧١ - ٤٨٢)

(٤) ديوان الفرزدق ص ٤٧٧

وأبوه غالب نحر جميع إبله وقد بلغ عددها أربعمئة من الإبل ، وقد أصاب الناس في الجاهلية قحط ، ونحر أيضا في خلافة علي مائتي ناقة وبعير .

قال الفرزدق يرثى أباه وقد مات في أول أيام معاوية :

لقد ضمت الأكفان من آل دارم فتي فائض الكفين محض الصرائب^(١)

الفرزدق هو ابن غالب بن صعصعة من تميم من مجاشع . فطبيعي أن يفخر بالماضي ويلون

بما شاء الشعر والفخر :

إِنَّ الذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا . دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى حَكَمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ
بَيْتًا زُرَّارَةٌ مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ وَمَجَاشِيعُ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ
يَلْجُونَ بَيْتَ مُجَاشِيعٍ وَإِذَا احْتَبَوْا بَرَزُوا كَأَنَّهُمُ الْجِبَالُ الْمُثَلُّ
لَا يَحْتَبِي بِفَنَاءِ بَيْتِكَ مُثْلُهُمْ أَبَدًا إِذَا عُدَّ الْفَعَالُ الْأَفْضَلُ
مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلِّبُ بَيْتِهَا زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ
ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
أَيْنَ الَّذِينَ بِهِمْ تُسَامَى . دَارِمًا أَمْ مَنْ إِلَى سَلَفِي طُهْيَةَ تَجْعَلُ
وَأَنَا ابْنُ حَنْظَلَةَ الْأَغْرُ وَإِنِّي فِي آلِ ضَبَّةَ لِلْمَعْمُ الْمُخَوَّلُ
فَرَعَانُ قَدْ بَلَغَ السَّمَاءَ ذُرَاهُمَا وَإِلَيْهَا مِنْ كُلِّ خَوْفٍ يُعْقَلُ
فَلَيْنَ فَخَرْتُ بِهِمْ لِمَثَلِ قَدِيمِهِمْ أَعْلُو الْحَزُونَ بِهِ وَلَا تُسَهَّلُ
زَيْدُ الْفَوَارِسِ وَابْنُ زَيْدٍ مِنْهُمْ وَأَبُو قَبِيصَةَ وَالرَّيْسُ الْأَوَّلُ
يَا بْنَ الْمِرَاغَةِ أَيْنَ خَالِكَ إِنِّي خَالِي حَبِيشُ ذُو الْفَعَالِ الْأَفْضَلُ
خَالِي الَّذِي غَضَبَ الْمُلُوكَ نُفُوسَهُمْ وَإِلَيْهِ كَانَ حَبَاءُ جَفْنَةٍ يُنْقَلُ
وَلَنْ جَدَعْتَ يَبْظُرَ أُمَّكَ أَنْفَهَا لَتَنَالِ مِثْلَ قَدِيمِهِمْ لَا تَفْعَلُ^(٢)

أو :

إِنَّ السَّمَاءَ لَنَا عَلَيْكَ نُجُومُهَا وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ وَكُلُّ هِلَالٍ

(١) الديوان ص ٤٢ وأبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٢٥ ص ٨٥٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الفرزدق : الديوان ص ٧١٤ - ٧١٩ المكتبة التجارية وديوان جرير ج ٢ ص ٤٦ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

دَعْدَعُ بِأَعْنَكَ التَّوَائِمِ إِنِّي فِي بَاذِخٍ يَابِّنَ الْمِرَاغَةَ عَلَى
 إِنِّي بَنَى لِي دَارِمٌ عَادِيَّةٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ أَرُومُهَا بِمُزَالِ
 وَأَبِي الَّذِي وَرَدَ الْكُلابَ مَسُومًا وَالْخَيْلُ تَحْتَ عَجَاجِهَا الْمُنْجَالِ
 أَبْنُو كُلِّبٍ مِثْلَ آلِ مُجَاشِعٍ أَمْ هَلْ أَبُوكَ مُدَعْدَعَا كَعِقال (١)
 ولتتخذ جريرا مثالا للآخرين . جرير لا يفخر بأبيه بل لا يذكره ، وإنما يفخر بأنه من مضر
 والنبي مضرى والخليفة من مضر :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنَّبُوَّةَ فِينَا
 مُضَرُّ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا آلَ تَغْلِبٍ مِنْ أَبِي كَأَيْنَا
 هَذَا ابْنُ عَمِي فِي دِمَشْقٍ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتَ سَاقِكُمْ إِلَى قَطِينَا (٢)
 قد يجوز هذا مع الأخطل ، لكن موقفه أمام الفرزدق أشبه بموقف المدافع منه بالمهاجم ،
 وهو لا يعنى بالفخر عنايته بتكذيب الفرزدق فيما زعمه لآبائه .

وأنا أفهم أن جريرا يفاخر الراعى فيفخر بقبيلته لأن الراعى من قبيلة أخرى ، ولأن الراعى
 لا يفاخره بأبيه ، أفهم أن يفاخر جرير الراعى بمثل قوله :
 إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا (٣)

لكنني لأفهم أن يدأب الفرزدق على مفاخرة جرير بأبيه وجده ، وجرير يفاخر الفرزدق بما
 يجوز لكل كليبي أن يفخر به أو يعير الفرزدق بأن مجاشعا ختلت أبا حسيب أو غدرت به ثم
 يمسك عن الفخر بأبيه أو جده ، كما يفعل الفرزدق بل هو لا يعرض لها . وهنا أترك جريرا يتولى
 عني الجواب .

قال رجل لجرير من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده وجاء به
 إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به : اخرج يا أبت ! .
 شيخ دمهم رث الهيئة ، قد سال ابن العنز على لحيته ، فقال : ألا ترى هذا ؟ قال : لا . قال
 مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبنا . ثم قال : أشعر الناس من فآخر بمثل هذا الأب

(١) ديوان الفرزدق ص ٧٢٧ من طبعة الصاوى ،

(٢) ديوان جرير ج ٢ ص ١٥١ - مصر ١٣١٣ هـ والمبرد : الكامل ج ٢ ص ١٠٤

(٣) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٧٦٧ - من طبعة الشعب

ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعا . ولا ندرى نصيب هذه الرواية من الصدق أو المبالغة ، فقد أجمعت المصادر على أن جريرا كان من عائلة هنية رقيقة الحال .

المفاخرة بالأيام^(١) :

وطبيعي أن تكون ركنا في هذا الهجاء لأنها الأساس الذي نشبت عليه الخصومات الموروثة ولا أعرف شاعراً أكثر من الفخر بالأيام إكثار الأخطل ، ولا سيما في هجائه لجرير التغلبي ، فعناد ذلك الهجاء هو ذكر الأيام القديمة ، وأنت تعرف ما كان بين تميم وتغلب من حروب في الجاهلية وتعرف أن تغلب انتصرت على تميم غير مرة .

أَبْنَى كَلْبٍ إِنْ عَمَى اللَّذَا	قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَ الْأَغْلَا
وَأَخُوهُمَا السَّفَاحُ ظَمًا خَيْلُهُ	حَتَّى وَرَدَّنْ جَبَى الْكِلَابِ نِهَالَا
وَلَقَدْ دَخَلْنَ عَلَى شَقِيقِ بَيْتِهِ	وَلَقَدْ رَأَيْنَ بِسَاقِ نَضْرَةٍ خَالَا
يَنْقُلْنَهُمْ نَقْلَ الْكِلَابِ جَرَاءَهَا	حَتَّى وَرَدَّنْ عُرَاعِرًا وَأُثَالَا
مَا إِنْ تَرَكْنَ مِنَ الْغَوَاضِرِ مُعْصِرًا	إِلَّا فَصَمْنَنَ بِسَاقِهَا خَلْخَالَا
وَلَقَدْ سَمَا لَكُمْ الْهُذَيْلُ فَنَالَكُمْ	بِإِرَابٍ حَيْثُ يَقْسَمُ الْأَنْفَالَا
فِي فَيْلَقٍ يَدْعُو الْأَرَاقِمَ لَمْ تَكُنْ	فُرسَانُهُ عَزْلًا وَلَا أَكْفَالَا
بِالْخَيْلِ سَاهِمَةً الْوُجُوهِ كَأَنَّمَا	خَالَطْنَ مِنْ عَمَلِ الْوَجِيفِ سُلَالَا
وَلَقَدْ عَطَفْنَ عَلَى قُدَارَةٍ عَطْفَةً	كَرًّا لِمَنِيعٍ وَجَلْنَ ثُمَّ مَجَالَا
فَسَقَيْنَ مَنْ عَادَيْنَ كَأْسًا مَرَّةً	وَأَزَلْنَ حَدَّ بَنِي الْحُبَابِ فَزَالَا ^(٢)

وهكذا الأخطل في أغلب نقائضه يفخر في هذه القصيدة بأن عمرو بن كلثوم قتل عمرو ابن هند ملك العرب .

ومما يتصل بذلك المفاخرة بحماية الجار أو المستجير ، كقول الأخطل :

فَاقْعُدْ جَرِيرُ فَقَدْ لَاقَيْتَ مُطْلَعًا صَعْبًا وَلَا قَاكَ بَحْرٌ مُفْعَمٌ جَارٌ

(١) أحصى أبو الفرج أيام العرب ألفا وسبعمائة يوم ، وقد ألف أبو الفرج وأبو عبيدة كتباً خاصة بأيام العرب لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم .

(٢) ديوان الأخطل ص ٤٤ - ٤٩ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

ألا كَفَيْتُمْ مَعَدًّا يَوْمَ مُعْصِلَةٍ كما كَفَيْنَا مَعَدًّا يَوْمَ ذِي قَارِ
جاءت كَتَائِبُ كِسْرَى وهى مُغْضِبَةٌ فاستأصلوها وأردوا كل جَبَّارٍ
هلا مَنَعْتَ شُرْحِيلاً وقد حَدَبْتَ لَهُم تَمِيمٌ بِجَمْعٍ غَيْرِ أَخْيَارِ
يَوْمَ الْكَلَابِ وقد سَيِّقَتْ نِسَاؤُهُمْ سَوَّقَ الْجَلَائِبِ مِنْ عُونٍ ^(١) وَأَبْكَارٍ ^(٢)

الشاعر وتعدد الخصومات :

ولربما تعددت خصومات القبيلة ومن أجل ذلك تتعدد مهات الشاعر . فهذا الشاعر القيسى صامد لليمن يهجوها ويهجو ربيعة ، وربما كان يهجو في نفس الوقت بطنا من بطون قبيلته .

وإني لأروى لك هذه الأبيات من ديوان الأخطل ل ترى كيف كانت خصومات القبيلة الواحدة متعددة متشعبة ، وكيف كان موقف الشاعر منها :

أَقَاتِلْ نَفْسًا قَدْ يُحِبُّهَا الرَّدَى بَنُو أُمٍّ مَذْعُورٍ وَرَهْطُكَ يَا جَبْرُ
إِذَا مَا أَصَابَتْ جَحْدَرِيًّا بِصَكَّةٍ دَعَتْهُ بِأَقْبَالٍ خُزَاعَةٌ أَوْ نَصْرُ
وَقَيْسٌ تَمَنَّى وَتَهْدَى عَوَارِمًا وَلَا يُصِيبُ مِنِّي بَنِي عَامِرٍ ظَفَرُ
وَمَا قَبِلْتُ مِنِّي هَلِيلُ أَمَانَةٍ وَلَا عَائِدُ مِنِّي الضُّبَابُ وَلَا شِمْرُ
وَإِنْ تَكُ عَنِي جَعْفَرُ مُطْمِئِنَّةٍ فَإِنْ قُشِيرًا فِي الصُّدُورِهَا غِمْرُ
وَإِنْ أَعْفُ عَنْهَا أَوْ أَدْعُهَا لِجَهْلِهَا فَمَا لَبِنِي قَيْسٍ عِتَابُ وَلَا عُذْرُ
وَقَدْ كُنْتُ أَعْنَى مِنْ لِسَانِي عَامِرًا وَسَعْدًا وَيُبْدَى عَنْ مَقَاتِلِهَا الشَّعْرُ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَكَشَّفَتْ قَبَائِلُ عَنَا أَوْ بَلَاهَا بَنَا الدَّهْرُ
إِذَا لَدَفَعْنَا طَيْثًا وَحَلِيفَهَا بَنِي أَسَدٍ فِي حَيْثُ يَطْلُعُ الْوَبْرُ
وَكَلْبُ إِذَا حَالَتْ قُرَى الشَّامِ دُونَهَا إِلَى النِّيلِ هَرَابًا وَإِنْ أَجْدَبَتْ مَصْرُ
يَعُودُونَ بِالسُّلْطَانِ مِنَّا وَفَلْهُمُ كَذَى الْغَارِبِ الْمُنْكَوبِ أَوْجَعُهُ الْوَقْرُ
وَالَا تَصُرْ أَغْرَابُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ مُهَاجِرَهَا لَا يُرْعَ إِلٌّ وَلَا إِصْرُ

(١) العون : المتوسطة من النساء وهى من قوله تعالى «عوان بين ذلك» أى لا بالكبيرة ولا بالصغيرة

(٢) ديوان الأخطل ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

وما تَرَكْتُ أَسْيَافُنَا مِنْ قَبِيلَةٍ تُحَارِبُنَا إِلَّا هَا عِنْدَنَا وَتَرُ
حَجَّوْنَا بَنِي النُّعْمَانِ إِذْ عَنْ مُلْكِهِمْ وَقَبْلَ بَنِي النُّعْمَانِ حَارِبُنَا عَمَرُو
لَيْسَنَا لَهُ الْبَيْضَ الثَّقَالَ وَفَوْقَهَا سِوْفُ الْمَنَيا وَالْمُثَقَّفَةُ السُّمُرُ^(١)

وبعد فإننا نختم هذا الفصل الطويل ، وآخر ما نشير إليه هو أن العصر العربي في التاريخ الإسلامي ينتهي بسقوط الدولة الأموية^(٢) ، وأن العصر العباسي الأول مزيج من حضارات مختلفة .

والعصر الغالب في هذا المزيج هو العنصر الفارسي . ونسجل أن قيام هذا النفوذ الفارسي نتيجة للعصبية العربية^(٣) ، ونريد بالعصبية العربية العصبية القبلية والعصبية القومية . وسنشرح ما نريد بالعصبية القومية في الفصل التالي - إن شاء الله .

ولو أن العرب كانوا جبهة واحدة أيام العناصر الأجنبية ما كان محتملا أن يفلت النفوذ من يدهم . لكن العصبية المختلفة أخذت تنخر في هيكل العنصر العربي ، وظلت العصبية المضرية واليمانية تتصارعان في غير هوادة حتى استترفت قواهما وخرا كما يخر الوعلان المتناطحان فظفر بهما العنصر الأجنبي كما يظفر بالوعلين المتناطحين صياد .

(١) الديوان ص ١٩٩ - ٢٠٠ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٢) يصور بعض المؤرخين الحالة وقد سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية ، تصويرا يخيل إليك معه : أن هناك حدودا فاصلة بين الدولتين وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية وأن صفحة أخرى بدت بقيام الدولة العباسية . وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية في عهدها الأول ، والأمة في عهدها الثاني . وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة وعلى الأخص من الناحيتين : الاجتماعية والعقالية .

فقد حدثت حوادث في صدر الإسلام وفي عهد الدولة الأموية - أخذت تعمل عملها منذ وجودها ، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين وقيام العباسيين . خذ لذلك مثلا : تعاليم الإسلام ، فقد ظلت تعمل وتنتشر مؤثرة في البلاد المفتوحة ومتأثرة بها . وكذلك الشأن في انتشار لغة العرب فلم يكن قيام الدولة العباسية صفحة جديدة لهذين العاملين وإنما كانت مهذا لامتدادهما . (أحمد أمين : ضحى الإسلام - الجزء الأول - مقدمة الطبعة الثانية)

(٣) لما جاء الإسلام كَوّن العرب أمة وكانت فيها خصائص الأمة من اتحاد لغة ودين وميول ومن وجود حكومة على رأسها وأعقب ذلك الانتصار على أضخم أمتين كانتا في عصرها وهما فارس والروم . ولكن مع هذا لم تتمح الروح القبلية فوجدت التزعتان معا (نزعة العربي لقبيلته ثم بطنه ثم فخذة) و (نزعة للدم العربي والأمة العربية والجنس العربي) وسارت التزعتان جنبا إلى جنب في صدر الإسلام وصرنا نسمع العربي يفتخر بقبيلته في الإسلام كما كان في الجاهلية وزاد في الإسلام الافتخار بالجنس العربي كالذي يقول :

إنا من نفر الذين جيادهم طلعت على عماد بريح صرصر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالقنا واجترن باب الدرب لابن الأصفر

(أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٩ - ٢٠ - من الطبعة الثانية ، مصر ١٩٣٤)

فما ظنك بقوم يقف قائدهم فيصيح في الجيش الخراساني : « يأهل خراسان إن هذه
 البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وسيرتهم حتى بدّلوا وظلموا
 فسخط الله عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض » .
 ما ظنك بأجل قوم مضرين يمانين ، تقول امرأة منهم :
 لا بارَكَ اللهُ في أنثى وعذبها تزوّجتُ مُضْرِيّاً آخِرَ الدَّهْرِ^(١)

(١) الطبرى ج ٧ ص ٣٤٢ من الطبعة الثالثة بدار المعارف والبيت لأُم كثير الضبية

الفنان الجديدان
الغزل - السياسة

الغزل

نحدثك عن الغزل قبل أن نحدثك عن السياسة لأن الغزل وليد العاطفة ، والعاطفة أسبق في تاريخ الإنسان من الفكر. والسياسة عاطفة وفكر. ولولا أن الشعر القبلي فن جاهلي موروث ، وأن الغزل فن مستحدث في الإسلام ، لحدثناك عنه قبل أن نحدثك عن الشعر القبلي .

أصحيح أن الغزل فن مستحدث في الإسلام ؟
لقد تغزل الجاهليون لكن الغزل الجاهلي كان مقدمة لفنون أخرى : للمدح ، للهجاء ، للفخر .
أما الغزل كفن مستقل قصد إليه لذاته ، أى وقفت عليه قصائد كاملة فشيء جديد في الإسلام . وإذا فالغزل فن جديد في العصر الأموي .

الغزل الجاهلي

أحب أن أحدثك عن الغزل الجاهلي في إيجاز لنستطيع بعد ذلك أن نؤرخ نشأة فنون في الغزل جديدة في العصر الأموي ، ولأن ذلك سيعيننا على فهم الغزل الأموي والعباسي . إذا تصفحت مجموعة من مجموعات الأدب الجاهلي أو قرأت معلقة من المعلقات فسترى أن الغزل الجاهلي هو غزل الذكر بالأنثى . لن تجد عاطفة من عواطف « الإنسان » بل ستجد حساً يشترك فيه الإنسان والحيوان .

امرؤ القيس يتغزل فإذا يقول^(١) ؟
وإن شِفائي عِبرةٌ مهراقة فهل عند رَسْمِ دَارِسٍ من مُعَوِّلٍ^(٢)

(١) حسن السندوي : شرح ديوان امرؤ القيس ص ١٢٥ - المكتبة التجارية

(٢) العبرة : الدمع ومُعَوِّلٍ معتمد .

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بَعَّاسِلٌ (١)
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنَفِلُ (٢)

ولم لا يتغزل صاحبنا بالمرأتين معا؟ إنه لا يحب امرأة بل يحب «الأنثى». ثم يقول :
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عُنِيزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَيْطُ بِنَا مَعًا عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا أَمْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِينِي عَنْ جَنَّاكِ الْمُعَلَّلِ
فَثَلِّكَ حُبِّي قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعُ فَالْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَهَائِمٍ مِحْوَلِ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ بِشَقٍ وَتَحْتَى شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ (٣)

فسر الشنقيطي البيت الأخير بقوله «يريد أنها تميل إلى ولدها بطرفها وتنظر إليه هو لتؤنسه» وهو تفسير غريب ومضحك.

إني لأفهم الكلمة بمعناها اللغوية وأفهم البيت بالمعنى الذي أراده صاحبه لا الذي أراده الشنقيطي :

وَالْأَعَشَى يَتَغَزَلُ بِصَاحِبَتِهِ فَيَقُولُ :
إِذَا تَلَاعَبَ قِرْنًا سَاعَةً فَتَرْتُ وَارْتَجَّ مِنْهَا ذُنُوبُ الْمُنَى وَالْكَفَلُ
نِعْمَ الضَّجِيعُ غَدَاةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُهَا لِلَذَّةِ الْمُرِّ لَا جَافٍ وَلَا تَقِيلُ (٤)
وَالْأَعَشَى (٥) يَقُولُ :

فَدَخَلْتُ إِذْ نَامَ الرَّقِيبُ بُ فَبِتُّ دُونَ ثِيَابِهَا
قَسَمْتُهَا قِسْمَيْنِ كُلِّ (م) مُوجَّهِ يُرْمَى بِهَا
فَثَنَيْتُ جِيدَ عُزَيْرَةٍ وَلَسْتُ بَطْنٍ حُقَابِهَا

- (١) كدأبك : كعادتك . يعنى قلبه . أم الحويرث وأم الرباب من صواحبته . مأسل : اسم ماء بعينه
(٢) إذا قامتا : يعنى أم الحويرث وأم الرباب . تضوع المسك منها : فاح وانتشرت رائحته حتى تظن أن نسيم الصبا حملت إليك ريا القرنفل . ويروى : برىا السفرجل
(٣) حسن السندوى : شرح ديوان امرئ القيس ص ١٢٥ المكتبة التجارية وابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٢٥ تحقيق أحمد شاكر ١٩٥٨
(٤) الديوان ص ٥٥ من طبعة مكتبة الآداب
(٥) ينسب المؤلف هذا الشعر للجمدى وقد أثبتناه للأعشى (أبو بصير) . راجع ديوانه ص ٣٩ بتحقيق محمد محمد حسين من طبعة مكتبة الآداب

لكنني سأعدل عن هذه المعاني السافرة لأعرض عليك نموذجاً من نماذج الغزل الجاهلي :
يقول عمرو بن كلثوم :

تُريكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ	وَقَدْ أَمِنْتُ عِيُونَ الكَاشِحِينَا
ذِرَاعِي عَيْطَلِ أَدْمَاءِ بَكَرٍ	هَجَانِ اللُّونِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا
وَتَذِيّاً مِثْلَ حَقِّ العَاجِ رِخْصاً	حَصَاناً مِنْ أَكُفِّ اللَامِسِينَا
رَمَتْنِي لَدُنْهُ سَمَقَتْ وَطَالَتْ	رَوَادِفُهَا تَنْوُو بِمَا وَلِينَا
وَسَارِيَتِي بَلَنْطِ أَوْ رِخَامِ	يَرِنُ خَشَّاشِ حَلِيهَا رَيْنَا ^(١)

ويقول طرفة بن العبد :

لَهَا فَخِذَانِ عُولَى النَّحْضِ فِيهِمَا	كَأَنَّهَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدٍ
وَطَىُّ مَحَالٍ كَالْحِنَى خُلُوفُهُ	وَأَجْرَنَةُ لُزْتُ بَدَائِي مُنْضَدِّدٍ
لَهَا مَرْفَقَانِ أَفْتَلَانٍ كَأَنَّمَا	أُمِرَّا بَسَلَمَى دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ
جَنُوحٌ دُفَاقٌ عَنْدَلٌ ثُمَّ أُفْرِعَتْ	لَهَا كَتِفَاهَا فِي مُعَالَى مُشِيدٍ
وَنَحْدٌ كَقِرْطَاسِ الشَّامَى وَمِشْفَرٌ	كَسِبَتْ الْيَمَانِي قَدَّهُ لَمْ يُجَرِّدْ ^(٢)

وهذه الأبيات التي يقولها طرفة في وصف ناقته ، أترى كبير فرق بينها وبين أبيات غيرها ؟
أنا لا أكاد أتبين في هذه العملية الوصفية فرقا كبيرا ، كلاهما يصف الموصوف جزءا جزءا وصفا
ماديا على أسلوب واحد .

أجل ! كان القوم يصفون النساء كما يصفون النوق وكما يصفون الأشياء ، نستعير هذا
التعبير من أستاذنا الدكتور طه حسين .

إذا شئت مثالا آخر لهذا الوصف ليزيد الأمر جلاء فإليك :

بِيضَاءِ قَدْ لَبَسَ الْأَدِيمُ أَدِيبِ	حَسَمَ الْحَسَنُ فَهُوَ لَجْلَدُهَا جَلْدِ
وَيَزِينُ فَوْدِيَّهَا إِذَا حَسَرَتْ	ضَافِي الْعَذَارِ وَقَادِمُ جَعْدِ
فَالْوَجْهَ مِثْلَ الصَّبْحِ مَبِيضِ	وَالْفَرْعَ مِثْلَ اللَّيْلِ مَسْوَدِ
وَكَأَنَّهَا وَسْنَى إِذَا خَطَرَتْ	أَوْ مَدْنَفَ لَمَّا يَفْقُ بَعْدِ

(١) الدكتور طه حسين : في الأدب الجاهلي ص ٢٢٢ من طبعة دار المعارف

(٢) جوهرة أشعار العرب ص ٨٦ - ٨٧ من طبعة المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٠٨ هـ والديوان طبع أوربا سنة ١٩٠٠

وعلى هذا النمط شعر المخبل السعدى والمرقش الأكبر والنمر بن تولب فى الميلاء وأسماء .
 أرأيت ما الذى نستنتجه من هذين المذهبين فى الغزل ؛ المذهب الحسى والمذهب الوصفى ؟
 نستنتج أن المرأة فى الجاهلية كانت تشغل مركزا مهينا ، وأن القوم كانوا ينظرون إليها كشئ
 خلقه الإله ليتمتعوا به نوعا من المتاع كما خلقت الإبل والبغال والحمير ليركبوها ولينعموا بها نوعا
 من المتاع ، إن هذا الشعر وحده ليدل على ما نقول ، ويكفى دلالة أن التاريخ يؤيده ،
 فوَاد البنات كان شائعا فى القبائل جميعا (وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
 كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ
 مَا يَحْكُمُونَ) (١) . منهم من كان يثدهن خوفا من عار محتمل .

لكلِّ أبٍ بنت يُراعى شئونها ثلاثة أصهار إذا طُلبَ الصهرُ
 فبعلٌ يراعيها وخدرٌ يكنها وقبرٌ يُوارِيها وأفضلها القبرُ (٢)
 ومنهم من كان يفعل ذلك تشاؤما ومنهم من كان يفعله خشية إملاق (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
 خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (٣) و (قد خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
 أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) (٤)
 و (وإذا الموءودة سئلت بأيِّ ذنبٍ قتلت) (٥) ، كان الوأد شائعا فى كل القبائل ولئن تصدى
 بعض المعارضين فاحتج ببضعة أفراد كانوا ينفرون من الوأد ويشترون الموءودات ، لكان
 عددهم لا يتجاوز أصابع اليد أو اليدين ، ولو قلّبنا كتب التاريخ كتابا لوجدنا أن عدول
 عشرين فردا من قبائل مختلفة عن الوأد ليس دليلا على أن الوأد لم يكن شائعا فى كل القبائل
 لا نستثنى إلا خزاعة وكنانة .

وأنت تعرف أن خزاعة وكنانة كانتا تنسبان البنات إلى الله وقد قيل إنهم عنوا بهذه الآية
 (ويجعلون لله البنات) (٦) فإن صح ما ذهبوا إليه فقد وضع السرفى شذوذ هاتين القبيلتين عن
 عادة تزعم أنها كانت شائعة فى الجاهلية على اختلاف قبائلها .

(١) سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩

(٢) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ج ٢ ص ٢٥١ طبعة مكتبة القدسي

(٣) سورة الإسراء آية ٣١

(٤) سورة الأنعام آية ١٤٠

(٥) سورة التكوين الآيتان ٨ ، ٩

(٦) سورة النحل آية ٥٧

يقول الأستاذ جورجى زيدان فى تاريخ التمدن الإسلامى « فما لبث أن ظهر صمصعة ابن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات حتى بطل الوأد^(١) » ورأى الأستاذ زيدان أنه لا يمكن أن ينقض طبيعة تاريخية ثابتة إذ لا يعول عليه بما تجر إليه نزعات التعصب ولولا أننا نعرف فى الأستاذ سعة الاطلاع والجلد على البحث لما رميناه بالتعصب ، بل لقلنا سوء فهم أو قصور بحث .

هكذا تقلب الحقائق ولا هكذا يمسخ التاريخ !
وطبيعى أننا لا نحتاج على الأستاذ زيدان بآيات من القرآن فنحن نتصدى للرد عليه وعلى المنكرين بآيات من الشعر الجاهلى ، ولا يمكننا أن نعرف أقبل صمصعة قيلت أم بعده لكنها على كل حال ناطقة بقوة هذه النزعة الجاهلية ، فلعلهم يرون معنا أن الأمر كان أخطر من أن يكفى ظهور فرد أو أفراد صمصعة أو صعاصع للقضاء عليه :

أحب بُنَيَّ ووددت أنى دَفَنْتُ بُنَيَّى فى قاعٍ لَحْدٍ^(٢)
و : تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَغَفًا والموتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ
و : وَمِنْ غَايَةِ الْمَجْدِ وَالْمَكْرَمَاتِ بقاءُ الْبَنِينَ وَمَوْتُ الْبَنَاتِ
و : سَمِيَّتْهَا إِذْ وَلَدْتُ بِمَوْتِ وَالْقَبْرِ خَيْرٌ ضَامِنٍ وَبَيْتِ
و : وَلَمْ أَرْ نِعْمَةً شَمِلَتْ كَرِيمًا كَنِعْمَةِ عَوْرَةٍ سَتَرَتْ بِقَبْرِ

الوَأْدُ دَلِيلُنَا الْأَوَّلُ عَلَى انْخِطَاطِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْجَاهِلِيِّ وَالْعَلَاقَةِ الْجَنَسِيَّةِ . والدليل الآخر فقد كان على أشكال مختلفة لا داعى لحصرها ولا بأس من الإشارة إلى بعضها فنما « زواج الاستمتاع » وهو أن يطلب الرجل إلى رئيس من رؤساء قومه أو فارس من فرسانهم بجامعة امرأته اعتقاداً بأن ذلك ينجب الولد . ومنها : « زواج البدل » وهو أن يتبادل رجلان امرأتيهما ، ومنها زواج المسافحات وأشكال أخرى مختلفة من أشكال الزواج .

الزواج الذى نعرفه فى عصرنا الحاضر هو الشكل الوحيد الذى أقره الإسلام ، ولكن نحسب أن قوما مجتمعهم على ما وصفنا يحرصون على هذه العلاقة الزوجية أو يعرفون لها حرمة كما نعرفها نحن ، هيهات هيهات ! إني لأحسب الرجل كان يطلق امرأته بغير ما سبب ، اللهم

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٣ ص ٢٦٢ من طبعة دار الهلال

(٢) الإبيشيى : المستطرف ج ٢ ص ١٠ من الطبعة المليجية ١٣٣٠هـ

إلا أن استمتع بها زمنا فقضى لبائته منها ثم هو قائل قول الأعشى الجاهلي :
يَا جَارَتِي بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ
وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَالْأُتْرَاقُ فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ
وَمَا ذَاكَ مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ جَنَّتِهِ وَلَا أَنْ تَكُونِي جِثَّتٍ فِينَا بِيَاثِقَةٍ
وَبَيْنِي حَصَانُ الْفَرْجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ وَمَوْمُوقَةٌ فِينَا كَذَلِكَ وَوَامِقَةٌ
وَذُوقِي فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّي ذَائِقٌ فَتَاةٌ أَنَاسٍ مِثْلُ مَا أَنْتِ ذَائِقَةٌ
فَقَدْ كَانَ فِي شُبَانِ قَوْمِكَ مَنَكْحٌ وَفَتَيَانِ هِزَانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقَةُ^(١)

ولست أدري لم تطوع الأستاذ الحضري للدفاع عن المجتمع الجاهلي فعنده - رحمه الله -
أن المرأة كانت في درجة اجتماعية^(٢) تحسدها عليها أختها المعاصرة في القرن العشرين بدليل
استهلال الشعراء قصائدهم بها .

ونحن نخالف الأستاذ في قيمة هذا الشعر ونراه شكليا أكثر منه معنويا وأنه لا يزال من
يستهل شعره بالوقوف على الأطلال والدمن كصاحبنا الذي يسكن الطابق الرابع توقظه في الليل
زقزقة الأطيّار وتزعجه بالنهار أبواق السيارات ثم يجلس في مكتبه فيقول :
قف ساعة بين الربوع خليلي نبكى على رسم عفا وطلول
وما عرف الرسم ولا رأى الطلول .

ولسنا ندري أغاب عن الأستاذ أن استهلال الشعر بالغزل^(٣) لم يك مقصورا على الجاهلية بل

(١) الأعشى : الديوان ص ٢٦٣ ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين - مكتبة الآداب .

(٢) الحضري : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٩ مطبوعات الجامعة المصرية

(٣) إن محبة إلف النساء وهواهن وفرط الصباية والشوق كانت في كل زمن وعند كل أمة مجالا واسعا وميدانا أفيح
لقريض الشعر فلم تخل الأمم السامية عن أشعار معبرة عما في نفوسهم وقلوبهم من شدة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزل بل
ضربوا في ذلك بسهم مصيب كما يتضح مثلا من سفر نشيد الأناشيد المدرج في كتب العبرانيين المقدسة فمن طالع أشعار العرب
القديمة استغرب قلة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب لأن أكثر ما يروى من هذا الباب ألبق بتسمية النسيب منه بتسمية
الغزل إذا امتثلنا في تعريفها قول أبي زكريا يحيى التبريزي في شرح حماسة أبي تمام « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار
عن تصرف هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » .
ومن الجدير بالذكر أن فحول شعراء الجاهلية لم يفرّدوا للنسيب أشعارا طويلة خاصة فاقتصروا على جملة في أول قصائدهم
يشكون فيه شدة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحيانا إلى التغزل الحقيقي حصره في
بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يدرجه في وسطها إلا بأندر النادر (كارلونيالينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٠٢ من
طبعة دار المعارف ١٩٥٤)

شائعا عند اليونان وغير اليونان ومن أم التمدن القديم ، على أننا لو سلمنا بأن هذا الشعر يعبر عن إحساس وليس شكليا فإن هذا التسليم لا يفيد دعوى الأستاذ بل إن هذا الشعر بمعانيه ولغته هو الدليل على تخلف المرأة ومهانتها في المجتمع الجاهلي .

ويمضي الأستاذ في الدفاع عن الجاهلية فيقرر أن نظاما واحدا كان متبعاً في الزواج وهو زواج العقد بعد رضا الأولياء ، ويقول إنهم كانوا يحرمون أنواعاً من الاجتماعات كزواج البنت والعمة والحالة ، ولكن ليس في قوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) ^(١) ما يؤيد ذلك .

أقول أليس في الشعر ما قد يشعر بأن هذه الروابط أو بعضها كان متبعاً عند العرب الجاهلية على أن التاريخ يحدثنا بأن صاحب بن زرارة وهو قرم من قروم تميم تزوج ابنته وأولدها ، وحدثنا الشعر الجاهلي بأنهم كانوا يتزوجون نساء آبائهم كما ورد في شعر أوس بن حجر وفي قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا) ^(٢) دليل على أنهم كانوا يرثون النساء كما يرثون المال والمتاع . على أن المرحوم الأستاذ الحضري ألف دعواه ثم سكت ولم يدلل عليها بشيء ، فلم نطيل الحاجة ؟

وينكر الأستاذ شيوع « الوأد » في المجتمع الجاهلي ويقصرها على طبقة معينة من الفقراء وليس له على ذلك دليل إلا أن بعض أشرف تميم كغالب بن صعصعة كان يشتري الموءودات .

فأنت ترى أن كل هذه الأحكام أملاها على الأستاذ تطوعه للدفاع عن المجتمع العربي الجاهلي استكباراً للجريمة على أنها ليست كبيرة بالقياس إلى ذلك الزمن ، ففي إسبرطة كان يجوز للرجل أن يقتل من بنه سبع بنات من عشر ^(٣) . ربما كان ذلك ضرباً من ضروب التعصب للعرب .

(١) سورة النساء آية ٢٣

(٢) سورة النساء آية ١٩

(٣) Le Gouve : Histoires morale des Femmes.

ونقف في مناقشة الأستاذين زيدان والحضري عند هذا الحد - رحمهما الله ، فلها على التاريخ والأدب مآثر .

ونحن نرى في استقراء التاريخ أن مهانة المرأة في المجتمع الجاهلي أمر طبيعي مطرد في المجتمعات الأولى ، ففي شريعة نبيّ الصين كنفوشيوس « الرجل يأمر والمرأة تطيع ، عمله سماء وعملها أرض ، هي مدينة للرجل بكل شيء » وفي شريعة كنفوشيوس أيضا لا يجوز للمرأة أن تتخطى بيتها وليس لها ميراث . وفي شريعة « لومبارد » أن للابن الذي توفي أبوه الخيار بين تزويج أمه أو إدخالها الدير . وفي شريعة « تروان » أن المرأة لا تجوز لها الوصاية على أولادها . والمرأة اليابانية كانت عبدة لأبيها وزوجها وولدها . وبرابرة أوروبا في القرون الوسطى كانوا يحرقون المرأة مع جثة زوجها ويدفنونها معا ، فإن شاء أن تتزوج أوصى بها إلى من أراد بعد موته وإن شاء قدمها لضيوفه .

وفي الشريعة المانوية كان للرجل السلطان المطلق على المرأة فإن وقع بينها وبين الزوج سوء تفاهم فهي المسئولة عنه ، وكانت المرأة تخرج في أيام حيضها إلى خيام مقامة خارج الحدود لأنها كانت تعتبر في هذه الفترة نجسة فلا يجوز لها أن تلمس أحدا ولا يجوز لها أن تبقى داخل الحدود .

والتعليل الصحيح - فيما أرى - لانحطاط المرأة في الجاهلية العربية . وفي المدنيات الأولى هو تقديس الإنسان الأول للقوة المادية .

المرأة العربية بعد الجاهلية

ومن تعاليم الإسلام الآخذة بيد الطبقتين والنهوض بهما أن حرم الإسلام الوأد كما رأيت ثم جهد الرسول ﷺ ما جهد في إعلاء شأن المرأة ورفع مستواها .

قال عليه الصلاة والسلام « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتهما إلا دخل الجنة » وقال « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه » وقال ﷺ « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن » وقال « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي » وقال « من حملن طرفه في السوق إلى عياله فكأنما

حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإن من أفرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار» وقال « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والرقيق » .

على أن فضل الإسلام الأكبر على المرأة في منحها حقوقاً مدنية لم تصل إليها المرأة في التمدن الأوروبي الحديث إلا أخيراً جداً ، ولا نستطيع المضي في تفاصيل تخرجنا من موضوع بحثنا . والذي أردناه من ذلك كله بيان تغير مركز المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده . أوجد الإسلام الصلة العائلية ونهض بالمرأة ، فأين قول الأعشى الجاهلي لزوجته :
فبيني فإن البين خير من العصا وإلا تزال فوق رأسي بارقة (١)
أين ذلك من قول عدى بن أرطاة :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني يوم أضرب زينبا (٢)
تغير شأن المرأة في المجتمع العربي فتغير شأنها في الشعر العربي .

الغزل الأموي

ليس الغزل الأموي فناً واحداً أو بعبارة أخرى ليس مذهباً واحداً لكنه مذاهب عدة . فلنحدثك أولاً عن الغزل البدوي العفيف لأنه أبعد فنون الغزل الأموي عن المذاهب الجاهلية .

الغزل البدوي :

ذلك حب يخلع على المرأة ثوباً من القدسية فلا هو ميل ولا هو حب ولا هو عشق . الحب الأفلاطوني ، كما يقول القدماء ، والحب اللامارتنى ، كما يقول الفرنسيون المحدثون ، والهوى العذري ، كما نقول مزيج من الحيرة واليأس والجنون ، هو الحب الذي يقول فيه صاحبه :
أَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ فَمَلُوتٌ دُونَهُ أَمْ أَشْرَبُ رَفَقاً مِنْكُمْ لَيْسَ يُشْرَبُ
أَمْ أَهْرَبُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مَجَاوِراً أَمْ أَصْنَعُ مَاذَا أَمْ أَبُوحُ فَأُغْلَبُ (٣)

(١) الجيواني : شرح أدب الكاتب ص ٢٦٥ من طبعة مكتبة القدسي

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٥٥ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٣) من شعر الجنون : الأغاني ج ٢ ص ٤٣٨ من طبعة الشعب

وهذا هو الحب . . هو الحب الذى حير الناس فذهبوا فى تعريفه مذاهب شتى . وزعم بعضهم أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ثم قطعها أنصافا فجعل فى كل جسد نصفا ، فكل جسد لقي الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق وتفاوت ما لهما فى القوة ، والنصف على حسب رقة الطبائع ، أما أنا فأعرفه ببساطة فأقول إن من الناس من هم مرضى الإحساس ، ومن هؤلاء ذوو الحساسية الرقيقة اليقظة . والحب ميل قوى من مريض إلى شخص وانجذاب عنيف ، هو لوثة جنون .

وإمام هذا الغزل فى الشعر الأموى - وإن شئت فقل فى الشعر العربى . لكننا لا نسرف فى الاطمئنان إلى ما نسب لقيس فهو مجموعة من الشعر فى مذهب واحد ومعدن مختلف ، ونحسب أن الرواة أضافوا إلى المجنون كل شعر عذرى فيه ليل . حدثنا بذلك النقاد وحدثنا طائفة من الشعر منسوبة إلى المجنون وبين يدينا مجموعة من الشعر منسوبة للمجنون لا نشك فى أنها صنعت فى العصر العباسى .

أتصدق مثلا أن المجنون قال :

تَشَكَّى المَجْنُونُ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي تَحَمَّلْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدَى
فَكَانَتْ لِنَفْسِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبًّا وَلَا بَعْدِي (١)

بما قيسَ هذان البيتان على قول العباس بن الأحنف :

إِنْ الهوى لو كان يَنْفَذُ فيه حَكْمِي أو قَضَائِي
لَطَلَبْتُهُ وَجَمَعْتُهُ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ أو سَمَاءٍ
فَقَسَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ حَبِيبِ نَفْسِي بالسَّوَاءِ
فَنَعِيشُ مَا عَشْنَا عَلَى مَحْضِ المودَةِ والصفاءِ
حَتَّى إِذَا مَتْنَا جَمِيعاً وَالْأُمُورَ إِلَى فَنَاءِ
مَاتَ الهوى مِنْ بَعْدِنَا أو عَاشَ فِي أَهْلِ الوفاءِ (٢)

ونحن نختار لتمثيل هذا النوع جميلا ونحن مطمئنون إلى شعر جميل فأغلبه نسيج واحد

(١) أبو هلال العسكري : الصناعتين ص ٩٩ من طبعة الأستانة ١٣٢٠ هـ والتبريزى : شرح اشعار الحامسة ج ٣ ص ١٣٣ من طبعة بولاق ١٢٩٦ هـ

(٢) الديوان ص ٥ من طبعة الجوائب : ١٢٩٨

والشخصية فيه واضحة . وفي رأينا أن جميلا هو إمام الهوى العذرى فى الشعر البدوى الأموى
بل هو إمام الهوى العذرى فى الشعر العربى .

جميل :

هو جميل بن معمر العذرى ينتهى نسبه إلى قضاعة ، والنسابون مختلفون فى أصل قضاعة
فمنهم من يزعم أن قضاعة بن معد وهو أخو نزار بن معد لأبيه ^(١) ومنهم من يقول إنها من
حمير .

وقد انتسب جميل فى شعره إلى معد فقال :
أنا جميلٌ فى السَّنامِ من مَعَدٍّ فى الأُسرةِ الحَصْداءِ والعِيصِ الأشَدِّ ^(٢)
وجميل كان راوية هذبة بن خشرم وكان هذبة شاعرا راوية للحطيئة ، وكان الحطيئة
شاعرا راوية لزهير وابنه ، وكان أستاذ المدرسة الأول « أوس بن حجر » .
وإنك لو اجد فى جميل ذلك الخيال المادى الحسى الذى أظهره عليه كتاب « فى الأدب
الجاهلى » يوم كشف عن مدرسة أوس ومميزاتها ، وأظهر هذه المميزات هو هذا الخيال المادى ،
كما فى قول جميل :

ابثينةٌ للوَصْلِ الذى كان بيننا نَصًا مثلَ ما يَنْضُو الترابَ فَيَخْلُقُ
ابثينةٌ ما تَنْأَيْنَ إلا كَأَنِّى بنجمِ الثُّرَيَّا ما نَأيتِ مُعَلَّقُ ^(٣)
وقوله :

إن المنازلَ هَيَّجَتْ أَطْرَابِى واستَعَجَمَتْ آيَاتُهَا بِجَوَابِى
قَفْرًا تُلَوِّحُ بَذَى اللُّجَيْنِ كَأَنَّهَا أَنْضَاءُ رَسَمٍ أوْ سَطُورُ كِتَابٍ ^(٤)

(١) جميل بن عبد الله بن معمر من الشعراء العذريين وهو المقدم على سائر شعراء النسيب من أهل البادية وقصته مثل
قصة عروة بن حزام أعنى أنه « عشق بئنة العذرية وهو صغير فلما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها . وكانت سكناه بنواحي
تيماء ووادى القرى وقيل إنه مات سنة ٨٢ هـ وأشعاره مشهورة بحسن اللفظ وصقالاته وتدبيج أجزائه ودقة المعنى وهى صادرة
عن قلب صادق الصبابة والعشق . (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٢٠ - دار المعارف ١٩٥٤) وراجع ترجمته
فى الأغاني ج ٨ ص ٢٨٣٦ - طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٣٦ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٩٢

(٤) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٥٢ - طبعة الشعب .

وجميل جل شعره وإن شئت فقل كله في ذلك الغزل البدوي العفيف . يذكر له أبو الفرج الأصفهاني أبياتا في الفخر لكنه حتى في هذا الفخر لا ينسى « المرأة » :

يُحِبُّ الْغَوَانِي الْبَيْضُ ظِلَّ لِيَوَائِنَا إِذَا مَا أَتَانَا الصَّارِخُ الْمُتَلَهِّفُ
 نَسِيرُ أَمَامَ النَّاسِ وَالنَّاسُ خَلْفَنَا فَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
 فَأَيُّ مَعَدٍّ كَانَ فِي رِمَاحِهِ كَمَا قَدْ أَفْأْنَا وَالْمَفَاخِرُ يُنْصَفُ
 وَكُنَّا إِذَا مَا مَعَشَرُ نَصَبُوا لَنَا وَمَرَّتْ جَوَارِي طَيْرِهِمْ وَتَعَيَّفُوا
 وَضَعْنَا لَهُمْ صَاعَ الْقِصَاصِ رَهِينَةً بِمَا سَوْفَ نُوفِيهَا إِذَا النَّاسُ طَفَّفُوا
 إِذَا اسْتَبَقَ الْأَقْوَامُ مَجْدًا وَجَدْتَنَا لَنَا مِعْزَفًا مَجْدٍ وَلِلنَّاسِ مِعْزَفٌ^(١)

أما المدح فإننا لا نعرف أن جميلا مدح قط مع أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك وبغير الوليد ولو شاء المدح لأقبلت عليه العطايا والجوائز إقبالا . .

وهجا جميل لكنه هجاء في سبيل الحب .

وأحب قبل أن أمضي في هذا البحث أن أبين سبيلي فيه ، فأنا لن ألتفت إلى الروايات الكثيرة التي ينسبونها إلى جميل والتي تؤلف في مجموعها قصة غرامية من هذه القصص التي وضعت وضعا (وقد نحدثك عن ذلك في مقام مناسب) . إنما سنعتمد على شعره ونحن مطمئنون إلى هذا الشعر فإن له كما قلنا وحدة ليس يعسر على الناقد أن يتبينها في جلاء ووضوح . لكن الزمان قد عصفت بالكثرة من شعر جميل^(٢) ، وما بقي - على قلته - يصور لنا - فيما أرى - صاحبه صورة واضحة ويمثله تمثيلا لا بأس به .

ماذا أقول في جميل ؟ كان للشعراء دنياهم وكانت بثينة دنيا جميل ، إني لأعتقد أن المسكين كان صادقا وهو يقول :

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٣٩

(٢) وغريب أن يضيع شعر جميل وهو رجل لاناقة له في السياسة ولاجمل وليس من أصحاب المذاهب الدينية وقد يكون ذلك لبعده عن الأمصار

يقول ابن قتيبة : « وكان ثلاثة إخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ذهب رجزهم يقال لهم منذر ونذير ومُنْذِرَةٌ . (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٦١) من طبعة دار المعارف .

ونستطيع أن نفهم من إيراد الخبر على هذه الصورة أن الشعر البدوي لم يكن يلقي عناية كافية من الرواة إن صح ذلك ففيه تدليل لبقاء شعر عمر وضياع شعر جميل وفيه تعليل بضياع شعر كثير من البدويين المجيدين كالعتبي والرقاشي .

ياليتني ألقى المنية بغتة إن كان يوم لقائكم لم يُقدّر^(١)
وأعتقد أنه كان صادقا وهو يقول :

لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا^(٢)

العاشق الطفل :

دنياه بشينة ! فإن أقبلت أقبلت دنياه وإن أدبرت أدبرت فهو برم بعدها قلق يعد الليالي
وتتوجه روحه إليها كما يتوجه المؤمن إلى الكعبة بروح خاشع وقلب ذليل .

ينهاه الناصح فهو عذول « والعذول » لا يزيده إلا صباية وتماديا فهو ساخط عليه ساخط
على صاحبه لأن الصيف قد انقضى وهي في السفر لم تعد .

وخبرتني أن تيماء منزل لليلي إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت فما للنوى ترمى بليلى المراميا
وأنت التي إن شئت كدّرت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وما زلم يا بشن حتى لو اني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
وما زادني النأي المفرق بعدكم سلوا ولا طول التلاقي تقاليا^(٣)
ولا زادني الواشون إلا صباية ولا كثرة الناهين إلا تماديا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أني أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا^(٤)

طبيعة الحب عند جميل :

روى أبو الفرج أن كثيرا حكى عن نفسه قال : وقفت على جماعة ممن تكلموا في وفي
جميل أنباء أصدق عشقا وهم لا يعرفونني ففضلوا جميلا فقلت لهم قد ظلمتم كثيرا كيف يكون
جميل أصدق منه عشقا وحين أتاه من بشينة ما يكره قال :

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٤٨ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٧٢

(٣) في منتهى الطلب

(٤) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧١ - ٢٨٧٢ - طبعة الشعب

رمى الله في عيني بُثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح^(١)
وكثير حين أتاه ما يكره من عزة قال :

هَينئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامرٍ لِعِزَّةٍ من أعراضنا ما استَحَلَّتِ^(٢)
وأنا أنبرى اليوم للرد على كثير فأقول : إن هذين البيتين وحدهما ليصغران جميلاً وكثيرا
العاشقين : الأول صادق الصبابة ملوع فيها والآخر خلى منها ويدعيها . إن بيت جميل وحده
ليعدل في ميزان الصدق ألوا من الأبيات اللطيفة المخنثة من طراز « هينئاً مريئاً » .
العشق ثورة وجنون فريستها الأعصاب ، وأحسب أن من العاشقين من تمر عليه ساعات
من الهوى ما أشبهها إلا بساعات سجين في سجن أطبق إظلامه واختنق هواؤه ، فهو إن صبر
على العتمة فأنى له الهواء ليتنفس ويعد في قبره حياً يدور ويتزحزح ، ويرتطم دماغه بجدار
ليصطدم بجدار .

غزل رقيق وغزل غير رقيق ، هكذا يقول الناس وقدامة ينقد أبيات الحارث^(٣) :
هجرتَ أمانة هجراً طويلاً وما كان هجرَكَ إلا جميلاً
على غير بُغض ولا عن قِلَى وليس حياءً وليس ذُهولاً
\ ولكن بُخلنا لبخلِكَ عمداً فكيف يلومُ البخلُ بُخيلاً^(٤)

ينقدها لأن المذهب في الغزل عنده هو « الرقة واللطافة » والشكل والدماثة . وكأنى
بقدامة وقد جعل « الرقة واللطافة » هما المذهب ، والغزل قد اتخذ هذه الرقة مقياساً للحكم
على جيد النسب ورديته ، وعندى كما بينت أنه فهم خاطئ لحقيقة العاطفة الجنسية وجهل
الحب في الرجال .

في الرجل ثورة طبيعية ، وفي المرأة ليونة ، فإذا كان حب الرجل « رقيقاً لطيفاً وممتعا » فما
حب المرأة ؟ على أن الخلاف بيننا وبينهم ليس مقصوداً على اختلاف طبعي الرجل والمرأة ،
لكن جوهره في فهم أحوال العاطفة الجنسية .

إن قول الحارث بن عدوان لأدل عندي على الوجد من قول الآخر .

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٥٠

(٢) المصدر السابق ج ٩ ص ٣١٥٠

(٣) الحارث بن غزوان (نابغة بني تغلب)

(٤) المرزباني : الموشح ص ٢٢٥ بتحقيق عبد الستار فراج

قد يكون الغزل الرقيق دليلاً على صدق الوجد ، وقد يكون دليلاً على الزيف فمن ذلك الزائف على ما فيه من رقة ودمائة قول أبي الشيص :

فَاهْتَنَيْتَنِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي جَاهِدًا مَا مِنْ يَهُونٍ عَلَيْكَ مِنْ يَكْرَمٍ^(١)
وقول بعضهم :

لَنْ سَاءَنِي أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنْيَ خَطَرْتُ بِبَالِكَ^(٢)
ألا نلمس الزيف في ذلك ؟

يقول ذو الرمة :

أَلَا إِنَّمَا مَيُّ فَصِيرًا بَلِيَّةٌ وَقَدْ يُتَلَّى الْحُرُّ الْكَرِيمُ فَيَصْبِرُ^(٣)
ويقول أبو حفص العليمي :

فَيَارَبُّ إِنْ لَمْ تَقْضِهَا لِي فَلَا تَدَعْ سَعَادَ لَهُمْ وَاقْبِضْ سَعَادَ كَمَا هِيَ^(٤)
ويقول العقاد :

وَزُهَيْتَ بِالْحَسَنِ الَّذِي يَشْقَى بِهِ بَاغِي الْخُلَاصِ شَقَاءَ أَهْلِ النَّارِ
مَهْلًا فَمَا كُلَّ الْبَكَاءِ عَلَى النَّوَى يُضْفِي عَلَى الْمَبْكِيِّ ثَوْبَ فَخَارِ
لَا يَعْجَبُكَ يَا بَنِيَّةُ مَيْسَمٌ لِمَشْهَاتِكَ فِيهِ جَدُّ كَثَارِ
وَهْيِكَ سَمًّا يَسْتَطَابُ لِسْكَرِهِ وَيَبِيتُ هَاجِرُهُ صَرِيحَ إِسَارِ
وَهْيِكَ سَهْمًا فِي الْجَوَانِحِ سَاكِنًا يَشْقَى الْجَرِيحُ بِنَزْعِهِ وَبِمَارِ
وَهْيِكَ عَارًا لَا يَطَاقُ فِرَاقَهُ إِلَّا عَلَى شَجْنٍ وَوَشْكَ دِمَارِ
فَإِذَا أَتَاكَ الْكَاشِحُونَ وَأَطْنَبُوا فَمَا أَبِينِ مِنَ الْجَوَى وَأَدَارِ
فَاصْغَى إِلَيْهِمْ مَا اشْتَهَيْتَ وَصَدَقِي مَا يَهْذِرُونَ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ
وَاسْتَبْشَرِي فَرَحًا بِأَنَّكَ فِي الْهَوَى كَالسَّمِ أَوْ كَالسَّهْمِ أَوْ كَالْعَارِ^(٥)

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٤٣ بتحقيق أحمد محمد شاكر

(٢) البيت لابن الدمينية : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٦ من طبعة لجنة التأليف

(٣) الديوان ص ٢٢٥ من طبعة كمبرج ١٩١٩

(٤) التبريزي : شرح ديوان الحماسة ج ٣ ص ١٥٥ من طبعة بولاق ١٢٩٦ هـ

(٥) الديوان ج ٤ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ من طبعة المقتطف ١٩٢٨

ويقول ابن جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقيني من عند بلدتها ناع فينعاها (١)
فهل يستطيع أحد ذلك ؟

إني أشم في ذلك الشعر رائحة كبد قريح وأسمع صدى روح جريح . فهل يستطيع أصحابنا
« أهل الرقة واللفافة » تذوق ذلك الشعر ؟ ليتهم يستطيعون ! إن هذا الشعر على ما فيه من
خشونة لأدل على التصديق من قول كثير :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك
وقول أبي دهب الجمحى (٢) :

عفا الله عن ليلي الغداة فإنها إذا ولّيت حُكماً على تجور (٣)
وقول أبي الشيص :

فأهنتى فأهنت نفسى جاهدا ما من يهون عليك ممن يكرم (٤)
وشعر جميل أغلبه على ذلك النحو العذرى العفيف ، يتحدث إلى صاحبتة فيذكرها في
غير لين أو رفق ، نفس لاهت وروح ثائر :

فما هكذا أحببت من كان قبلها ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فيا قلب دَعْ ذكرى بشينة إنها وإن كنت تهواها تَضَنّ وتَبْخُلُ
وقد أَيْسَتْ من نَيْلها وتَجَهَّمَتْ ولَلْيَأْسُ إن لم يُقَدِّرِ النَّيْلُ أَمْثَلُ
وإلا فسَلِّها نائلاً قبلَ بَيْنِها وأَبْخِلْ بها مَسْئِلَةً حين تُسَالُ
وكيف تُرْجَى وصلها بعد بُعْدِها وقد جُدَّ حبلُ الوصلِ ممن تَوَمَّلُ
وإن التى أحببتَ قد حِيلَ دونها فكنْ حازماً والحازمُ الْمُتَحَوِّلُ

(١) عباس العقاد : جميل بشينة ص ٧٢ من طبعة سلسلة اقرأ بدار المعارف

(٢) أبو دهب الجمحى من أشراف الناس بمكة قال الشعر في آخر خلافة علي ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير وغيرهما
من الأكابر وهو من شعراء الغزل وهواه لعمرة مشهور قيل في كتاب الأغاني إنه كانت تتحدث به أشراف قريش في مجالسها
وسوق الحجاز في أسواقها والسقاة في مواردها ، وما صاغه أبو دهب من الشعر فيها رقيق ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل
البادية المعروف (كارلونيون : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٠٤ - دار المعارف ١٩٥٤) وراجع ترجمته في الأغاني ج ٧
ص ٢٥٥٤ من طبعة الشعب .

(٣) أبو الفرج : الأغاني ج ٧ ص ٢٥٨٣ من طبعة الشعب

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٤٣ تحقيق أحمد شاكر

ففى اليأس ما يُسلى وفى الناسِ خلةٌ وفى الأرضِ عمن لا يُؤاتيك مَعزِلُ
بدا كَلَفٌ مَنى بها فتناقلتُ وما لا يرى من غائب الوجد أفضلُ
هَبينى بريئاً نِلته بظلامه عفاها لكم أو مُذنباً يتنصّلُ^(١)

وعلى هذا النمط أغلب شعره خشن عنيف ، وإنى لأخشى أن يعلل بالطبع البدوى ،
فجميل برغم ثورة عواطفه وبرغم محبته وشجاره يعرف كيف يتحدث إلى المرأة فى ظرف
وكياسة ، انظر إلى قوله :

وأولُ ما قاد المودة بيننا بوادى بغيضٍ يا بُثينَ سيابُ
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكلِّ كلامٍ يابُثينَ جوابُ^(٢)

هل تعرف فى حوار الحضري المترف ذلك من هذا الحوار^(٣) :

أُبثينَ إنك قد ملكتِ فأسججى وخذى بحظك من كريم واصل
صادتِ فؤادى يا بُثينُ حبالكم يوم الحجونِ وأخطأتكِ حبالى
مَنّينى فلويتِ ما مَنّينى وجعلتِ عاجلاً ما وعدتِ كآجلِ
وأطعتِ فى عواذلا فهجرتى وعصيتُ فيك وقد جهَدَنَ عواذلى
حاولتنى لأبتّ حبل وصلكم منى ولستُ وإن جهَدَنَ بفاعل
فرددتهن وقد سَعينَ بهجركم لما سَعينَ له بأفوقِ ناصِلِ^(٤)
يَعْضَضُنَ من غيظِ على أناملا ووددتُ لو يَعْضَضُنَ صُمَّ جنادلِ
ويقلنَ إنك يا بُثينَ بخيلةٌ نفسى فداؤلكِ من ضنينِ باخل
ويقلنَ إنك قد رَضيتِ بباطلِ منها فهل لك فى اجتنابِ الباطلِ
ليزِلنَ عنك هواى ثم يَصِلُننِى وإذا هَويتُ فما هواى بزائلِ
ولبّاطلُ مما أُحِبُّ حديثه أشهى إلى من البغيضِ البازلِ
فلربَّ عارضةٍ علينا وصلها بالجدِّ تَخْلطه بقولِ الهازلِ

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧٦ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٤٤

(٣) رواها أبو الفرج غير متسقة فرتبناها الترتيب الممكن (الأغاني ج ٨ ص ٢٨٤٦ - ٢٨٤٧) من طبعة الشعب

(٤) السهم الأفوق : الذى به ميل فى فوقه أو انكسار فى إحدى زمنيته

فأجبتها في القول بعد تَسْتُرُ حَبِيَّ بَشِينَةً عن وَصَالِكَ شَاغِلِي
لو كان في صدري كَقَدَرِ قُلَامَةٍ فَضْلاً وَصَلْتُكَ أو أَتَتْكَ رَسَائِلِي
وأخيراً انظر إلى هذه المناجاة :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ ، أَمَا لَهُ لَدَيْكَ حَدِيثٌ أو إِلَيْكَ رَسُولٌ ؟
وَقَدْ قُلْتُ فِي حَبِيٍّ لَكُمْ وَصَبَابَتِي مَحَاسِنِ شَعْرٍ ذَكَرْهُنَّ يَطُولُ
فَمَا غَابَ عَنِ عَيْنِي خَيَالُكَ لِحَظَةٍ وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخَيَالُ يَزُولُ (١)

أفلا يخيل إليك أن أحد أبناء الهوى من الحضريين يناجى صاحبتَه بمثل هذا الشعر حتى من
الشباب المستظرفين إلا في ليونة وظرف يكاد يتكلفها ؟

وليس في اجتماع ذلك العنف والظرف تناقض رجل دمث بطبعه يحب حبا قويا صادقا
لأنصبة تنفعه ولا الزجر يردعه يريد بشنة كما يريد الطفل شيئا كلفه ذلك ما كلفه .
يَقُولُونَ مَهَلًا يَا جَمِيلُ وَإِنِّي لِأَقْسِمُ مَا لِي عَنْ بَشِينَةٍ مِنْ مَهَلٍ
أَحِلِّمًا فَقَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَوَانُهُ أَمْ أَخْشَى فَقَبْلَ الْيَوْمِ أُوْعِدْتُ بِالْقَتْلِ (٢)

يرسل إليها بشعره ويحتال بماله :

بَشِينٌ سَلِينِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا يَبِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلُّ بَخِيلٍ (٣)
ويقول :

فَلَوْ أُرْسَلْتُ يَوْمًا بَشِينَةً تَبْتَغِي يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَيَّ يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْغِي رَسُولُهَا وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي (٤)

يستضيف في سبيل أهلها كما يفعل الهلاك وليس منهم .

أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذَوُو فَضْلٍ (٥)
وصاحبتَه بَشِينَةُ تَصْغِي لِكُلِّ جَمِيلٍ يَحْسُ بِذَلِكَ الْفَيْضِ مِنَ الْحُبِّ يَغْمُرُهُ فَتَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٥٥ من طبعة الشعب .

(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٨٨ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٩١ من طبعة بيروت

(٤) أبو علي القالي : الأمل ج ١ ص ٢٠٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ

(٥) الهلاك : الصعاليك (أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٨٧ من طبعة الشعب)

بذلك الجمال المعبود فيتمنع أو يتجنى واجدا في ذلك القهر والإذلال لذة آئمة ونشوة مستهتره
ينطق بذلك شعر جميل :

إني إليك بما وعدت لناظرُ نظر الفقير إلى الغنى المكثُر
يعدُّ الديون وليس يُنجِزُ موعداً هذا الغريمُ لنا وليس بمُعسِرِ
ما أنتِ والوعد الذي تعديني إلا كبرق سحابةٍ لم تُمَطِّرِ^(١)
وقوله :

ويكون يومٌ لا أرى لك مُرسلاً أو نلتقي فيه على كاشهرٍ
والله ما للقلب من علمٍ بها غيرُ الظنون وغير قول المُخبرِ^(٢)
وقوله :

علقتُ الهوى منها وليداً فلم يزلْ إلى اليوم ينمى حبها ويزيد
وأفريت عمري بانتظارى وعدّها وأبليت فيها الدهر وهو جديد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ولا حبها فيما يبيد يبيد^(٣)
وقوله :

بدا كلفٌ منى بها فتناقلتُ ومالا يرى من غائب الوجد أفضلُ^(٤)

على أن شعر جميل ليس كله على وتيرة واحدة وطبيعي ألا يكون ، فهو مرة خائر مغضب
ثائر يقول :

تعرّ وإن كانت عليك كريمةً لعلك من رِقْ لبثنة تعتقُ^(٥)
وقوله :

ولستُ وإن عزّت على بقاتل لها بعد صرمٍ يا بُثين صليني^(٦)

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٤٨ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٤٨

(٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٤٩

(٤) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٧٦ من طبعة الشعب

(٥) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٩١

(٦) أبو علي القالي : الأمل ج ١ ص ٢٠٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ هـ

وهو مرة خائر ذليل وثائر عزيز في وقت واحد :

فما هو إلا أن أهيمَ بذكرها ويحظى بجَدِّواها سوىَ ويَجْدَلُ
وقد أبقتِ الأيامُ مني على العدا حُساماً إذا مَسَّ الضريبةَ يفصلُ
ولستُ كمن إن سيمَ ضيماً أطاعه ولا كأمري إن عضَّ الدهرُ يَنكُلُ
لعمري لقد أبدى لي البين صفحه (١) وبين لي ما شئتُ لو كنتُ أعقلُ
وآخرُ عهدي من بثينةَ نظرةً على موقفٍ كادت من البين تقتلُ
وإني لأستبكي إذا ذكر الهوى إليك وإني من هواكِ لأوجلُ
نظرتُ ببشرٍ نظرةً ظَلْتُ أمتري بها عبْرَةٌ والعينُ بالدمعِ تُكحلُ
إذا ما كررتُ الطرفَ نحوكَ رده من البعدِ فيأضُّ من الدمعِ يهملُ (٢)

وهو مرة ذليل يسبح بذكر بثينة أو بثنة كما يحلو له أن يدعوها هائماً في المهامه والفيافي
يبحث لها من الشعر الحزين « قصائد شوق شرحهن يطول » تعصف الذكريات بقلبه وتلعب به
لعب النكباء بالعود .

ثم يلج به الخيال فيرجو أن يجتمعا في وادي البلى ثم في الحياة الأخرى :

أعوذُ بك اللهم أن تشحطَ النوى ببثنةَ في أدنى حياتي ولا حشري
وجاورُ إذا ما متُ بيني وبينها فياحببدا موتي إذا جاورت قبرى (٣)

ورحل إلى مصر وهناك - وإن شئت فقل هنا - هتف به هاتف الموت فقال :

صدعَ النعيِّ وماكنى بجميل وثوى بمِصرَ ثواءٍ غيرِ قُفولِ
ولقد أجَرَ الذَّيْلَ في وادي القرى نشوانَ بين مزارعٍ ونخيلِ
قومي بثينةُ فاندبى بعويل وابكى خليلك دونَ كلِّ خليلِ (٤)

أتراها بكته ؟

(١) الصفح : الجانب

(٢) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧٧ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٩٧

(٤) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٩٩

يقولون إنها صعقت وظل مغشياً عليها ساعة^(١) ثم قالت :
 وإن سلوى عن جميل لَساعةٌ من الدهر ما حانت ولا حان حينها
 سواء علينا يا جميل بن معمر إذا مُتْ بأساء الحياة ولينها^(٢)
 أما أنا فأقول ثانية أتراها بكته ؟ !

رحم الله جميلاً ولا أقول طيب ثراه فقد أكله الدود وأكل قلبه فيما أكل فما يجديه طيب
 ثراه !

* * *

وبعد - فهذه صورة للشعر الغزلي بل الأموى فى البادية العربية - وأنت ترى أن موضوع
 هذا الغزل قد تغير عن موضوعه الجاهلى ولا أقول تحوّر .

الغزل الجاهلى ميل من ذكر إلى أنثى ، وهذا الغزل فيه شىء من العبادة والتقديس . أما
 عن وصف المرأة فالجاهليون - كما رأيت - كانوا يصفونها وصفهم لحمر الوحش - وهؤلاء لا
 يطيلون فى وصف الجسم ولا يصورونه بنفس الريشة وربما اكتفوا فى هذا الوصف بالنظرة
 الشاملة كقول جميل :

فَتَاةٌ مِنَ الْمَرَانِ مَا فَوْقَ حَقْوِهَا وَمَا تَحْتَهُ مِنْهَا نَقًّا يَنْهِيلُ^(٣)
 أو كقول ذى الرمة :

تَرَى خَلْفَهَا نِصْفًا قَنَاءَ قَوْمِيَّةٍ وَنِصْفًا نَقًّا يَرْتَجُّ أَوْ يَتَمَرَّمُ
 تَنَوُّهُ بِأَخْرَافِهَا فَلَأْيَا قِيَامُهَا وَتَمْشَى الْهُوَيْنَا مِنْ قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ^(٤)

وكان الغزل الجاهلى مقدمة للقصيد فاصبح الغزل فنا مستقلا بل وقف عليه أصحابه
 شعرهم .

(١) عندما رأت حلتها وتيفنت من خبر موته صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحى يكيّن معها
 ويندبنه حتى صعقت فكثت مغشياً عليها ساعة .

(أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٩٠٠ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٤٢ تحقيق أحمد
 شاكر) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٣) (والبغدادى : خزنة الأدب ج ١ ص ١٩١ من طبعة بولاق)

(٢) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٩٠٠ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٧٦

(٤) الديوان ص ٢٢٦ من طبعة كمبريدج ١٩١٩

الجاهلية والقصص الغرامية

حدثتك عن جميل فأغفلت عن كل ما ينسب إليه من قصص الشوق الخلاب وغفلت كل ما شككت فيه منهم واحتسبته من اختراع القصص .

قصة جميل تحدثنا عن تاريخ خرافي حافل بالمخاطر ، كيف وأين كانا يجتمعان خاصة ؟ وكيف نما الخبر إلى أهلها فتوعدوه وأهدروا دمه ؟ وكيف تزوجت رجلاً يقال له نبيه الأسود ؟ وكيف أهدر السلطان دمه ؟ وله في ذلك كله شعر .

ولكل شاعر من شعرائنا العشاق قصة تشبه سائر القصص ، فامرؤ القيس كعنتره وعنتره كجميل وجميل كقيس وقيس كسائر العشاق . كلهم شجاع لا يهرب أهل الحبيب بل يتوعدهم بسيف قاطع بل كلهم يتنكر في زى امرأة أو حمّار ليحظى برؤية ليلاه . وكلهم تنكر حتى دخل دار حبيبه ثم يبعث في طلبهم فيفرون وكلهم قال في ذلك شعرا ، وكلهم هام في البرارى والقفار ، وألفته الوحوش فصارت لا تنفر منه ، وقالت النساء للمجنون تعزّ عن ليلي ياخذانا ، وكذلك قلن لجميل وسائر العشاق .

ويظهر أن أصل هذا القصص الغرامية كان دائرا حول تفسير ذلك الشعر ، فأخذ الشراح يفتنون في الشرح والتفسير ومن ذلك تفسيرهم لقول ذى الرمة :

على وجهيه مسحة من ملاحه وتحت الثيابِ الشين لو كان باديا
ألم تر أن الماء يجث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فيا ضيعة الشعر الذى لجّ فأنقضى يميّ ولم أملك ضللاً فؤاديا^(١)
ذلك من أجود الشعر فانظر إلى القصص كيف خلق من هذه الأبيات حكاية رواها مشوهة وضيع جمالها .

إن ذا الرمة أنشد :

على وجه مميّ مسحة من ملاحه وتحت الثيابِ الشين لو كان باديا
فكشفت من ثوبها عن جسدها ثم قالت أشينا ترى لا أم لك ! .

(١) الديوان ص ٦٧٥ من طبعة كمبردج ١٩١٩ وأبو الفرج : الأغاني ص ٦٧٦ من طبعة الشعب

ألم تر أن الماء ينخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافياً (١)
 قالت أما ما تحت الثياب فقد رأيته وعلمت أن لاشين فيه ولم يبق إلا أن أقول لك هلم حتي
 تذوق ما وراءه ، والله لا ذقت ذلك أبدا ، فقال :

فيا ضيعة الشعر الذي لجّ فانقضى بمى ولم أملك ضلال فؤاديا (٢)
 فانظر كيف تعنت هؤلاء القصاص في تفسير بيت من الشعر لكثير ، فسروا قوله :
 قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها (٣)
 بأنه كان يرعى الغنم ومربنسوة من بني كذا (٤) فأرسلن إليه عزة فقالت : « يقلن لك النسوة
 بعنا كبشا من هذه الغنم » وأعطته ثمنه ، فرفض قائلا « إذا رحلت بكن اقتضيت حتى » فلما راح
 بهن ، قلن له « هذا حقك فخذ » فقال : « عزة غريمي ولست أقتضي حتى إلا منها »
 ذلك تأويل قول كثير وذلك أول معرفة بها ، ومن ذلك أنهم فسروا قول كثير :
 ألا ليتني قبل الذي قلت شيب لي من السم جدحات (٥) بماء الذراح
 فت ولم تعلم على خيانة وكم طالب للربح ليس براح (٦)
 بحكاية ظاهرة التعليق ، فقالوا :

مرت عزة بكثير مقنعة فلم يعرفها فتبعها وغازلها ، قالت : « ويحك ! هل تركت عزة ؟
 وهل فيك بقية لأحد ؟ » .

قال : بأبي أنت والله ولو أن عزة أمة لوهبتها لك . . هل لك في المخاللة ؟ .

قالت : وشعرك في عزة ؟

قال : أقلبه فأحوله عليك .

فسفرت عن وجهها ثم قالت : انحدر يا فاسق !

فبهت كثير .

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ من طبعة دار الكتب

(٢) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة ص ٣٥ من طبعة دار المعارف

(٣) أبو الفرج : الأغاني ج ٩ ص ٣١٤٨ من طبعة الشعب .

(٤) بنو ضمرة والقصة بالأغاني ج ٩ ص ٣١٤٥ من طبعة الشعب

(٥) الجلدحة : اللثة ، يقال : جدح السوق : إذا لته . والذراح : دويات أعظم من اللباب شيئا مجزعة مبرقشة

بجمرة وسواد وضررة لها أجنحة تطير بها وهي سم قاتل

(٦) أبو الفرج : الأغاني ج ٩ ص ٣١٥٢ من طبعة الشعب

ومن ذلك قولهم أن جميلا التقى براويته كثير فسأله أن يسير إلى بثينة فيستضر بها موعدا للقاء .

قال كثير : هناك حاشية عمها .

قال جميل : عليك بالحيلة .

قال كثير : متى كان آخر عهدك بها ؟

قال : يوم كذا في موضع كذا « وادى الدوم » وأصاب ثوبها شيء فغسلته .

فتوجه كثير إليها وهناك لقي عمها ، وكان مغرما بالشعر ، فقال له : أسمعك شعرا قلته أخيرا

في عزة . قال : هات ، فأنشد :

فقلتُ لها يا عزّ أرسلُ صاحبي على نأى دار والرسول موكل

بأن تجعلى بينى وبينك موعدا وأن تأمرينى بالذى فيه أفعل

أما تذكرين العهد يوم لقيتكم بأسفل وادى الدوم والثوب يغسل ^(١)

فقطنت بثينة وصاحت : اخسأ . فسألها عمها عما تعنى . قالت : كلبا ينبحن ليللا رأيته

الآن . ففطن كثير وذهب إلى جميل يقول : قد ضريت موعدا فالتقيا بوادى الدوم ليللا !

ويظهر أن هذا التفسير أخذ يتضح شيئا فشيئا حتى نشأ القصص ، وأن فيه من الأخبار

مالا يصدق من أوقى فسحة من الفهم .

ولسنا نعرف في الشعر الجاهلي شاعرا تغزل على مذهب شعراء البادية والعذريين في العصر

الأموي إلا عنزة . وعندنا أن قصة عنزة أسطورة من الأساطير ، وأن عنزة العاشق شخصية

خلقتها مخيلة القصاص في العصر الأموي ، وقد يكون لهذه الشخصية أصل تاريخي وهو ما

أرجحه .

نحن لا نشك في ذلك الشعر الغزلي الذي ينسب إلى عنزة بل نرفضه رفضا . ها هي معلقة

عنزة أمامك فتصفح هذه المجموعة التي جمعت باسم « ديوان عنزة » سترى أن ليس ثمة وجه

للمشابهة .

عنزة شخصية ضمنها القصاص الأمويون ما شاء لهم الخيال ونحن لا نعرف في العصر

الجاهلي شاعرا على هذا المذهب العذري إنما انتحلوا هذا الشعر الذي نسبوه إليه .

لم يبق إلا أن تسألني عن العوامل التي أنشأت هذا الغزل البدوي في العصر الأموي - وقد

(١) عباس العقاد : جميل بثينة ص ١٢٥ من طبعة سلسلة اقرأ بدار المعارف والقالى : الأمالى ج ٣ ص ٢٣١ من طبعة

دار الكتب .

حدثك في الفصل السابق حديثاً عاماً عن تطور مركز المرأة في المجتمع العربي بعد الإسلام .
أما عن العوامل التي أنشأت هذا الغزل البدوي في العصر الأموي فإننا نحيلك على
« حديث الأربعاء^(١) » ففيه تعليل تفصيلي دقيق لا يقبل الدفع فيما أرى .
الدين والبأس والفقر والفراغ عوامل أربعة اجتمعت في زمن واحد وصعيد واحد فلم لا
ينشأ الهوى العذري ؟ !

غزل البادية المصطنع

وليس غزل البادية كله صادقاً فمن الشعراء من اتخذ هذا الغزل صناعة يرجو بها الشهرة ،
ومن هؤلاء تلميذ جميل وراويته كثير^(٢) ، نقرأ كثيراً في شعره في عزة وسعدى وأم عمرو وأم
الحويرث فزرى تقليداً ظاهراً لجميل وسلخاً لمعانيه بل نسخاً في بعض الأحيان كقوله :
أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي بكلّ سبيل^(٣)
وما هو إلا قول جميل :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلي على كل مرّقب^(٤)
يقلد جميلاً في أظهر خصائص غزله .

يكرر جميل اسم بثينة في شعره :

ألا لا أبالي جفوة الناس ما بدّا لنا منك رأى يا بُشَيْنَ جميلُ
وإني وتكراري الزيارة نحوكم بُشَيْنَ بذي هجر بُشَيْنَ يطولُ
وإن صَبَابَاتِي بكم لكثيرة بُشَيْنَ ونسيانِيكُمْ لقليلُ^(٥)

(١) للدكتور طه حسين

(٢) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود ينتهي نسبه إلى قحطان ، وقيل إنه من خزاعة ، وادعى أنه من قريش ، وعده ابن سلام في شعراء الطبقة الأولى وقرن به جريراً والفرزدق والأخطل والراعي . وكان غالباً في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ . توفي سنة ١٠٥ هـ ويعرف بكثير عزة لتشبيهه بعزة الضيمرية في شعره وإن قيل إنه مدح غير صادق الصبابة والعشق (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣١٢ - ٣٢٩ من طبعة ليدن) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان رقم ٥٥٨ من طبعة جوتنجن ورقم ٥١٩ من طبعة مصر) و (طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ - ١٢٥ من طبعة ليدن) و (أبو الفرج : الأغاني ج ٩ ص ٣١٢٤ - من طبعة الشعب) .

(٣) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٤١ من طبعة الشعب

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤٢

(٥) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٨٧٨

إذن فلا بد أن يكرر كثير اسم عزة في شعره فيقول :

خَلِيلِيْ هَذَا رَسْمُ عَزَّةٍ فَاعْقِلَا قُلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِى قَبْلَ عَزَّةٍ مَا الْبُكَاءُ وَلَا مُوْجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ
فَلَيْتَ قُلُوصِي عِنْدَ عَزَّةٍ قُيِّدْتُ بِجَلِي ضَعِيفٍ بَانَ مِنْهَا فَضَلَّتِ
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وَطَّئْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ
هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَاوِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ (١)

وإذا كان الراعى يقول :

عَشِيَّةٌ سَعَدَى لَوْ تَرَاءَتْ لِرَاهِبٍ بِدُومَةٍ تَجَرُّ دُونَهُ وَحَجَبِجٍ
قَلْبِي دِينَهُ وَاهْتَاكَ لِلشُّوقِ إِنَّمَا عَلَى الشُّوقِ إِخْوَانُ الْعَزَاءِ هَيَّوْجٌ (٢)

فلم لا يقول كثير ؟ :

رَهْبَانٌ مَدِينٌ وَالَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعَذَابِ قَعُودَا
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا خَرُّوا لِعَزَّةٍ رُكْعًا وَسُجُودَا (٣)

شعره منقول أو مصطنع ، أما المنقول فقد ضربنا له أمثلة ، أما المصطنع المبتكر فمثاله :
أَرِيدُ الثَّوَاءَ عِنْدَهَا وَأَظْنُهَا إِذَا مَا أَطْلُنَا عِنْدَهَا الْمَكْثَ مَلَّتْ
أَسِئْتِي بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
فَإَنَا بِالْدَاعِي لِعَزَّةٍ بِالْجَوَى وَلَا شَامِتٍ إِنْ قِيلَ عَزَّةٌ زَلَّتْ (٤)
وهكذا شعر كثير في الغزل يمثل العاطفة الزائفة .

(١) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج ٩ ص ٣١٤٩ من طبعة الشعب

(٢) شعر الراعى ص ٢٩ من مطبوعات المجمع العلمي العربى بدمشق ١٩٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٤٢ بتخريج إحسان عباس من طبعة لبنان

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٥١٥ تحقيق أحمد محمد شاكر

غزل الحجاز الحضري

أبت السياسة الأموية الا تحول بين الأرستقراطية القرشية والسياسة لأن هذه الأرستقراطية كانت عليها لا لها وأخذت تتوحد إلى هذه الأرستقراطية بالعطايا والهدايا فانصرفت عن السياسة مجبرة ومختارة .

انصرفت إلى اللهو والمجون وضروب اللذة فكان الحجاز موطن الغناء وموطن الموسيقى وموطن اللهو والغزل وضرب بفتيانه المثل في الظرف وبفتيانه الشعراء المثل في حسن الدل . وكان الحجازيون من قبل ولاسيما أهل المدينة لا يشغلهم عن الدين شاغل ، فأصبحوا وشاعرهم يقول :

ليتني في المؤذنين حياتي أنهم يُبصرون من في السطوح
فُيشيرون أو نُشيرُ إليهم بالهوى كل ذات دَلٍّ مَلِيح

والحب حركة النفس الفارغة كما قال بعض الفلاسفة ، وللمال سلطان على الجمال . فطبيعي أن ينشأ في الحجاز فن غزلي ، وطبيعي أن يكون بين غزل الحجاز وغزل البادية ما بين أهل الحضارة المترفة وأهل البداوة الجافة ، هؤلاء يحدو بهم إلى الحب والضرب في مجلس يضرب فيه العود وينقر الدف . وأولئك عطفهم على الذكرى الصبا والهوى .

وأول من تغزل من هؤلاء الحجازيين ابن عتيق سليل أبي بكر الصديق ، وتبعه عمر بن أبي ربيعة ثم العرجي سليل عثمان بن عفان .

وإمام هؤلاء الغزليين في الحجاز هو عمر بن أبي ربيعة ^(١)

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وفي الغالب ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة وكنيته المشهورة أبو الخطاب . وهو شاعر قرشي من أهل مكة ومن أسرة ثرية واسعة الثراء من أسرها أسرة بني مخزوم وكان أحدها وهو هشام بن المغيرة بلقب في الجاهلية برب قريش (دكتور شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٨٦ - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢) وأخباره في الأغاني ج ١٥ ص ٥٥٩٣ من طبعة الشعب و (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ترجمة رقم ٩٩ من الجزء الثاني و (وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ١١١ ترجمة رقم ٤٦٣ . وله ديوان مطبوع في لبيز سنة ١٨٨٣ وفي مصر سنة ١٣١١ هـ .

شتان ما بين قول جميل :

فلو تركتُ عَقْلِي معي ما طلبْتُها ولكن طَلابِهَا لِمَا فات من عَقْلِي^(١)

وقول المجنون :

وإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرَاكَ هِزَّةً كما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بِلَلِّهِ القَطْرُ^(٢)

وقول عمر :

سَلامَ عَلَيْهَا مَا أَحَبَّتْ سَلامَنَا فَإِنْ كَرِهَتْهُ فَالسَّلامُ عَلَى أُخْرَى^(٣)

وشتان ما بين قول المجنون :

أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمَمْتُ نَحْوَهَا بَوَجْهِي وَإِنْ كَانَ الْمَصَلَّى وَرَائِيَا

وَمَا لِي إِشْرَاكُ وَلَكِنْ حُبُّهَا كَعُودِ الشَّجَا أَعْيَا الطَّيِّبِ الْمُدَاوِيَا^(٤)

وقول عمر :

وَنَاهِدَةَ الثَّدَيْنِ قُلْتُ لَهَا أَتَكِي عَلَى الرَّمْلِ مِنْ جَبَانَةٍ لَمْ تَوَسَّدِ

فَقَالَتْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَّفْتُ مَا لَمْ أُعَوِّدِ

فَلَمَّا دَنَا الْإِصْبَاحُ قَالَتْ فَضَحْتَنِي فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتَ فَازْدَدْ

فَمَا أَزْدَدْتُ مِنْهَا غَيْرَ مَصٍّ لِثَانَتِهَا وَتَقَبَّلَ فِيهَا وَالْحَدِيثُ الْمُرَدَّدِ^(٥)

وشتان ما بين قول العذري :

فَمَا هُوَ إِلَّا أَرَاهَا فَجَاءَةً فَأَبْهَتَ حَتَّى مَا أَكَادَ أَجِيبَ^(٦)

وقول عمر :

حُلِي إِزَارَكَ سَكْنِي غَيْرَ صَاغِرَةٍ إِنْ شِئْتَ وَاجْزِي مُجِبًا بِالَّذِي سَارَا

فَقَدْ تَجَشَّمْتُ مِنْ طُولِ السُّرَى تَعَبًا وَفِي الزَّيَارَةِ قَدْ أَبْلَغْتُ أَعْذَارَا^(٧)

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٨٥ من طبعة الشعب

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٦٤

(٣) الديوان ص ٤٩٢ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد من طبعة المكتبة التجارية

(٤) أبو الفرج : الأغاني ج ٢ ص ٤٨٦ من طبعة الشعب

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٢ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٤ مطبعة السعادة بمصر

(٦) من شعر الأحوص ، حديث الأربعة ج ١ ص ٢٦٧ من الطبعة الحادية عشرة والبغدادى : خزانة الأدب ج ٢

ص ٣٤٧

(٧) الديوان ص ٢١٦

وشتان ما بين قول جميل :

إذا خَدِرْتُ رَجُلِي وَقِيلَ شَفَاؤُهَا دَعَا حَبِيبَ كُنْتُ أَنْتِ دُعَايَا (١)
وقول عمر :

حَبْدًا أَنْتِ يَا بَغُومُ وَأَسْمًا وَعَيْصُ يَكُنُّنَا وَخَلَاءُ (٢)
وما أشبه قول عمر :

ثُمَّ لَأَنْتِ وَسَامَحَتْ بَعْدَ مَنَعَ وَأَرْتَنِي كَفًّا تَزِينُ السَّوَارَا
فَتَنَاوَلْتُهَا فَلَأَنْتِ كَغُضْنٍ حَرَكَتُهُ رِيحٌ عَلَيْهِ فَحَارَا
وَأَذَاقَتْ بَعْدَ الْعِلَاجِ لَذِيذًا كَجَنَى النَّحْلِ شَابَ صِرْفًا عُقَارَا
ثُمَّ كَانَتْ دُونَ اللَّحَافِ الْمَشْغُورِ فِ مَعْنَى بِهَا فَشَوْقٌ شَعَارَا
وَأَشْتَكْتُ شِدَّةَ الْإِزَارِ مِنَ الْبُهِرِ بِرِ وَأَلَقْتُ عَنْهَا لَدَى الْخَارَا
حَبْدًا رَجَعُهَا إِلَيْهَا يَدِيهَا فِي يَدَيِ دِرْعِهَا تَحُلُّ الْإِزَارَا (٣)
يقول الأعشى (٤) :

فَدَخَلْتُ إِذْ نَامَ الرَّقِيدُ بُ فَبِتُّ دُونَ ثِيَابِهَا
حَتَّى إِذَا مَا اسْتَرْسَلَتْ مِنْ شِدَّةٍ لِلْعَابِهَا
قَسَمْتُهَا قِسْمَيْنِ كُلُّ (م) مُوجِهٍ يُرْمَى بِهَا
فَتَنَيْتُ جِيدَ عَزِيرَةٍ وَلَمَسْتُ بَطْنَ حُقَابِهَا
كَالْحُقَّةِ الصَّفْرَاءِ صَا لَكَ عَبِيرُهَا بِمَلَايَا
وَإِذَا لَنَا ثَامُورَةٌ مَرْفُوعَةٌ لَشَرَابِهَا

عمر بن أبي ربيعة شاب قرشي جميل مفرط الثروة سليل عائلات من أعرق قریش مجدا
وجاها في الجاهلية والإسلام ينتقل في ربوع ملاعب الحجاز ومواطن لهوه ، فإن كان الحاج فهو
أسبق الناس إليه لا ليقيم شعارا من شعائر الدين فرضت على القادرين بل ليلهو :

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧٢ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ١١ - مطبعة السعادة وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ١٦٤ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٢٤٤

(٤) مر هذا الشعر من قبل المؤلف بنسبه للناطقة الجعدى وقد أثبتناه للأعشى (ميمون بن قيس) ، راجع ديوانه ص ٣٩

تحقيق محمد محمد حسين من طبعة مكتبة الآداب

حَبْدًا الْحَجُّ وَالْثَرِيَّا وَمَنْ بِالـ خَفِيفٍ مِنْ أَجْلِهَا وَمُلْقَى الرَّجَالِ (١)
وقول العرجي :

نَلْبَثُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنْهَجٍ
فِي الْحَجِّ إِنْ حَجَّتْ وَمَاذَا مِنِّي وَغَيْرُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُجْ (٢)
ومثله قوله :

يَا حَبْدَا الْمَوْسِمِ مِنْ مَوْقِفٍ وَحَبْدَا الْكَعْبَةِ مِنْ مَسْجِدٍ
وَحَبْدَا اللَّاتِي يَزَاحِمُنَا عِنْدَ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ (٣)

وهناك حول المطاف يدور ليلا فيلقى شباكه وتحمله الشباك بعائشة بنت طلحة ولبابة بنت عبد الله بن العباس وزوجة الوليد بن أبي عتبة بن أبي سفيان ورملة بنت عبد الله بن خلف وكلثم بنت سعيد المخزومي وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت الأشعث وزينب بنت موسى الجمحية وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وغيرهن من نساء الطبقة الأرسقراطية ، وله مع كل واحدة من هؤلاء أخبار طوال لا نتعرض لها ، وقد أفاض غيرنا فيها ، وله في كل واحدة منهن شعر يجب أن نلقى عليه نظرة عامة .

العاشق الحضري ومناوراته :

الحضري ترى في سفره ، العاشق الحضري المتمدين يناور في غرامياته كما يناور شبان الهوى المجربون في أيامنا . يقول عمر :

لَا تَجْعَلَنَّ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شَغِفْتَ بِهِ وَاطُورِ الزَّيَارَةِ دُونَهُ غِيًّا
فَذَاكَ خَيْرٌ مِنْ مُوَاصَلَةٍ لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
لَا بَلْ يَمْلِكُ ثُمَّ تَدْعُو بِاسْمِهِ فَيَقُولُ هَاهُ (٤) وَطَلْمَا لَبَّى (٥)

(١) الديوان ص ٦٨ والأغاني ج ١ ص ٢١٣ من طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ٤٠٧ من طبعة الشعب وج ٣ ص ١١٩٣ من نفس الطبعة

(٣) للمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٢ من طبعة المطبعة البهية

(٤) كلمة وعيد

(٥) الديوان ص ١٠٠ وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة الشعب

فهل ترى فرقا بين هذه العقلية وبين أساليب الشبان العاشقين ذوى التجارب فى ميادين الغرام فى أيامنا - وأبعد الفرق بين هذه العقلية الحاضرة المجربة الماكرة والبدوية الغريبة الساذجة ؟ أين ذلك من قول جميل الغر ؟

لها فى سواد القلب بالحب مِيعَةٌ هى الموتُ أو كادتُ على الموت تُشرفُ
وما ذكرتكِ النفسُ يا بَشَنَ مرَّةً من الدهرِ إلا كادتِ النفسُ تتلفُ
وإلا اعترننى زفرةٌ واستكانةٌ وجاد لها سَجَلٌ من الدمعِ يذرفُ
ولما استطرقتُ نفسى حديثا لخلَّةٍ أسرُّ به إلا حديثك أطرفُ^(١)

أفكان عمر يخاطب معشوقته بمثل هذا الغرور والغفلة ؟ لا ولو وجد أضعاف وجد جميل وأين قول المجنون :

كأن القلبَ ليلةٌ قيل يُغدى بليلى العامرية أو يُراحُ
قطاةٌ غرَّها شركٌ فباتت تُجاذبه وقد علقَ الجناحُ^(٢)

من قول عمر :

فإن نأيتُم أصابَ القلبَ نأيكمُم وإن دنتُ داركمُم كُنتُم لنا سكنا^(٣)

وأين قول جميل :

وما زِلْتُمُ يا بَشَنَ حتى لو أننى من الشوق أستبكي الحمامَ بكى ليا^(٤)

من قول عمر :

أن تبخلى لا يسلى القلبَ بخلكمُم وإن تجودى فقد غنيتنا زَمنا^(٥)

تعلم صاحبنا أساليب الغرام من تجاربه الكثيرة المتنوعة فهو رجل عرك الحب وامتنحن الطبائع ولقنته النساء دروسه .

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٦٣ من طبعة الشعب

(٢) أبو الفرج : الأغاني ج ٢ ص ٤٨٠ من طبعة الشعب .

(٣) الديوان ص ٥٨٣

(٤) أبو الفرج : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧٢ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٥٨٣

خليلى إن باعدت لانت وإن ألن تباعد فما ترجى لحرب ولا سلم^(١)
وها هو ذا يتزل إلى سوق الغرام مزوداً بالتجارب يبيع الحسن ويشتره :
وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتب من جاءكم عاتبا
وقوله :

إن كفى لك رهن بالرضا فاقبلى يا هندُ قالت قد وجب^(٢)
يدل بجماله ويغرى بماله فإن أفلت منه صيد « فى الصبر عمن لا يؤاتيك حاجة » وإن ظفر
فهو كالنحلة يطير من وردة إلى وردة يرتشف من كل وردة حلاوتها ويطير إلى غيرها .
فبعثت جاريتى وقلت لها اذهبي فاشكى إليها ما علمت وسلمى
فتضاحكت عجباً وقالت حقه ألا يعلمنا بما لم نعلم
علمى به والله يغفر ذنبه فيما بدا لى ذو هوى متقسم
طرف ينازعهُ إلى الأدنى الهوا ويبقى خلته ذى الوصال الأقدم^(٣)

* * *

لقد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذرَكَ
وقولى فى ملاطفة لزينب نولى عمرك
فإن داويت ذا أسقم فأخزى الله من كفرَكَ
فهزت رأسها عجباً وقالت من بدا أمرَكَ
أهذا سحرَكَ النسوا ن قد خبرتني خبرَكَ
وقلت إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرَكَ^(٤)
عمر متأثر كل التأثر بالمدرسة الجاهلية يشبه المرأة بالغزال وبقر الوحش كما كانوا يفعلون .
يا نعجة من وحش ذى بقر تغدو بسقط صريمة طفلاً^(٥)
ويقول لنا :

(١) الديوان ص ٤٦ من طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١١هـ

(٢) الديوان ص ٥٦ وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ١٣٥ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٤٩٧ وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ١٤٠ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣٩٠ وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ٩٣ وص ١٤٠ من طبعة الشعب .

(٥) الديوان ص ٤٥٩ وأبو الفرج : الأغاني ج ١ ص ١٥٩ من طبعة الشعب

لها من الريم عيناه وسنته ونخوة السابق المختال إذ صهلا^(١)
وقوله :

صَيْدُ الرِّجَالِ يَرِشْقَنُ بِالطَّرِ ف حَسَانُ كَخَذَلُ الْغَزْلَانِ^(٢)
وقوله :

عَرَّضْتُ لَنَا بِالْخَيْفِ فِي بَقَرٍ تَقْرُو الْكَبَاثَ وَنَاضَرَ السِّدْرِ
وَجَلْتُ أَسِيلًا يَوْمَ ذِي خُشْبٍ رِيَانٌ مِثْلَ فُجَاءَةِ الْبَدْرِ
فَسَبْتُ قُؤَادِي إِذْ عَرَّضْتُ لَهَا يَوْمَ الرَّحِيلِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
بِمُزَيْنٍ رَدَّعُ الْعَبِيرِ بِهِ حَسَنُ التَّرَائِبِ وَاضِحُ النَّحْرِ
وَبَعَيْنِ آدَمَ شَادِنٍ خَرَقَ يَرْعَى الرِّيَاضَ بَيْلَدَةً قَفَرٍ^(٣)

ولا يوجد في هذه التشبيهات إلا أنه يحاور الغزال ويطيل في الحوار ولا داعي لضرب
الأمثلة . وهو يلح في وصف المرأة عضوا عضوا كما كان الجاهليون يفعلون إلا أنه أقل إلحاحا ،
ومعاني ذلك الوصف وإيقاظ أغلبها مأخوذ عن الجاهلية .

مَجْدُولَةُ الْخَلْقِ لَمْ تُوَضَّعْ مَنَاقِبُهَا مَلَأَ الْعِنَاقَ أَلُوفٌ جِيَّهَا عَطْرُ
مَمْكُورَةِ السَّاقِ مَقْصُومٌ خَلَاخِلُهَا فَمُشَبَّعٌ نَشَبٌ مِنْهَا وَمُنْكَسِرٌ
هَيْفَاءُ لِفَاءٍ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَكَادُ مِنْ ثِقَلِ الْأَرْدَافِ تَنْبِتُ
تَنْكَلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُتَسِقٌ عَذْبُ الْمُقْبَلِ مَصْقُولٌ لَهُ أَشْرُ
كَالْمُسِكِ شَيْبَ بَذُوبِ النُّحْلِ يَخْلِطُهُ ثَلَجٌ بِصَهْبَاءٍ مِمَّا عَتَّقَتْ جَدْرُ^(٤)

على أننا لا نشك في أن الرواة انتحلوا شعرا مقيسا على شعر عمر فنسبوه إلى الجاهلية
ما كان امرؤ القيس ليقول :

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ أَنْوَمٌ ثِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ إِلَّا لِبَسَةَ الْمُتَفَضَّلِ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهُ مَالِكٌ حِيلَةٌ وَمَا إِنِّي أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي

(١) الديوان ص ٨٦ من طبعة المطبعة الميمنية بمصر ١٣١١

(٢) المصدر السابق ص ٦٦

(٣) الديوان ص ٢٤ من الطبعة السابقة

(٤) الديوان ص ٨ من الطبعة السابقة

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا عَلَى إِثْرِنَا أَذْيَالٌ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنٌ خَبَتْ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلٌ
هَصَرَتْ بِفُودِي رَأْسَهَا فَتَمَايَلَتْ عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ رِيَا الْمُخْلَخِلِ
مُهَفِّفَةً بَيِّضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ^(١)

هذه الطريقة الحوارية وهذا المذهب الواقعي في الوصف هما أنخص خصائص عمر بن أبي ربيعة . على أن التقليد تعدى الموضوع والأسلوب إلى ألفاظ - فيمين الله - هذه مأخوذة من شعر عمر .

لكن الرواة حسبوا أن كلمتي « العنقل » و « السجنجل » ضمان لطبع هذا الشعر بطابع امرئ القيس .

الغزل السياسي

أنشأت السياسة فنا من فنون الغزل هو هذا الشعر الذي كان يتشعب به شعراء الأحزاب . بنساء زعماء الأحزاب الأخرى . وفي هذا الغزل ظاهرتان :
الظاهرة الأولى : أن هؤلاء الشعراء كانوا يحرصون على ذكر الأفحاش فيصفون خدر المرأة أو الفتاة المشبيب بها ، وما إلى ذلك . وهذا طبيعي لأن الغرض منه هو التشهير بأزواجهن أو أخواتهن أو آبائهن .
الظاهرة الثانية : إخفاء ذلك القصد إخفاء لبقاحتي ليخيل إلى القارئ أنهم يحبون هؤلاء النسوة حقاً .

فمن ذلك قصيدة عبد الرحمن بن حسان في رملة بنت معاوية^(٢) :

(١) أبو بكر محمد بن القاسم الانباري : شرح القصائد السبع الطوال ص ٥١ - ٥٨ بتحقيق عبد السلام هارون من طبعة دار المعارف الأبيات من ٢٦ إلى ٣١

(٢) كان ابن حسان يتعرض لنساء بني أمية ، فيتغزل بهن لغرض الإزراء عليهن ومن تغزل بها منهن رملة بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ودعا الشعراء إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار ، فكلهم أبوا أن يهجو من آووا رسول الله ونصروه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جعيل التغلبي وكان مسلماً ، فقال له « أراذى أنت إلى الإشراف بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ ، ولكني أدلك على غلام منا نصراني ، كأن لسانه لسان ثور ، يعني الأخطل » فدعاه يزيد ولباه الأخطل ، فنظم في هجاء الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوت في العالم الإسلامي . (دكتور شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٠٤ لجنة التأليف ١٩٥٢) .

طال لَيْلِي وَبْتُ كَالْمَحْزُونِ وَمَلَيْتِ الثَّوَاءَ فِي جَيْرُونِ (١)
 فَلَذَاكَ اغْتَرَبْتُ بِالشَّامِ حَتَّى ظَنَّ أَهْلِي مُرَجَّاتِ الظُّنُونِ
 هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْغَوِّ اصْرَ مَيِّزَتُ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ
 وَإِذَا مَا نَسِيَتْهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونِ
 ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ رَاءَ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ (٢)
 وَمِنْ قَوْلِهِ :

رَمَلَ هَلْ تَذْكُرِينَ يَوْمَ غَزَالِ (٣) إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالتَّمْنَى
 إِذْ تَقُولِينَ عَمَّرَكَ اللَّهُ هَلْ شَيْءٌ وَإِنْ جَلَّ سَوْفَ يُسَلِّكَ عَنِّي
 أَمْ هَلْ أَطْمَعْتُ مِنْكُمْ يَا بَنَ حَسًّا نَ كَمَا قَدْ أَرَاكَ أَطْمَعْتَ مِنِّي (٤)
 وَقَدْ اسْتَشَاطَ يَزِيدُ أَخُو رَمْلَةٍ غَضَبًا فَأَغْرَى الْأَخْطَلَ بِهَجَاءِ الْأَنْصَارِ فَهَجَاهُمْ ، وَمِنْ هَجَائِهِ :

ذَهَبْتُ قُرَيْشُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا وَاللُّثُمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ
 خَلُّوا الْمَكَارِمَ لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا وَخُذُوا مَسَاحِيَكُمْ بَنِي النِّجَارِ
 إِنْ الْفَوَارِسَ يَعْلَمُونَ ظَهُورَكُمْ أَوْلَادَ كُلِّ مُقَبِّحٍ أَكَّارِ (٥)
 وَقَدْ رَدَّ النِّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ يَطَالِبُ بِقَطْعِ لِسَانِ الْأَخْطَلِ وَيَهْدِدُ مَعَاوِيَةَ :
 يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ مَا مِثْلُنَا جَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرُ
 أَذْكَرَ بَنَا مَقْدَمَ أَفْرَاسِنَا بِالْحِجْنِ إِذْ أَنْتَ إِلَيْنَا فَقِيرُ (٦)
 فَاحْذَرْ عَلَيْهِمْ مِثْلَ بَدْرِ فَقَدْ مَرَّ بِكُمْ يَوْمٌ يَبْدُرُ عَسِيرُ (٧)

(١) جيرون : دمشق وقيل بابها

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٥٤٠٠ من طبعة الشعب

(٣) غزال : موضع على الطريق من ثنية هرشي وهي ثنية في طريق مكة بينها وبين الجحفة ثلاثة أودية

(٤) أبو الفرج : الأغاني ج ١٥ ص ٥٣٩٧ من طبعة الشعب وج ١٦ ص ٥٧٩٨ من نفس الطبعة

(٥) الأكار : الحراث والشعر في الأغاني ج ١٥ ص ٥٣٩٨ وج ١٦ ص ٥٧٩٩ من طبعة الشعب وابن عبد ربه :

العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٠ بولاق ١٢٩٣ هـ

(٦) الحنو : المنعرج والمنعطف وهو يشير إلى مكان بعينه كان للأنصار فيه مؤازرة

(٧) أبو الفرج : الأغاني ج ١٦ ص ٥٨١١ من طبعة الشعب

ومن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا الغزل وسيلة من وسائل الحرب السياسية الأوحص (١)
وكان يتغزل بعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وفيها يقول :

يا بَيْتَ عاتكة الذى أَتَغَزَّلُ حَذَرَ العِدَى وبك الفؤادُ مُوَكَّلُ
إني لأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مع الصُّدُودِ لأَمِيلُ
ولقد نزلت من الفؤاد بمنزل ما كان غيرك والأمانة ينزل
ولقد شكوت إليك بعض صبابتي ولما كتمت من الصبابة أطول
هل عشنا بك فى زمانك راجع فلقد تفحش بعدك المتعلل
فصدت عنك وما صددت لبغضةٍ أخشى مقالة كاشح لا يَغْفُلُ
ولئن صددت لأنت لولا رقبتي أشهى من اللأى أزور وأدخل
وتجنبي بَيْتَ الحبيب أحبه أرضى البغيض به حديث معضل (٢)

وقد انتقمت منه السياسة فاضطهد ونفى إلى دهلك .

وممنهم عبيد الله بن قيس الرقيات (٣) شاعر الزبيريين وكان يتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز بن مران ، ومن شعره فى أم البنين :

ألا هزأت بنا قرشيد لـة يَهْتَز موكبها
رأت لى شبيبة فى الرأ س منى ما أغيبها
فقلت ابن قيس ذا ؟ وغير الشيب يعجبها
رأتنى قد مضى منى وغضبات صواحبيها
ومثلك قد لهوت بها تمام الحسن أعيبها

(١) هو الأوحص بن محمد بن عبد الله بن عاصم نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٢٤ ترجمة رقم ٩٣ من طبعة بيروت ١٩٦٤)

(٢) أمالى السيد المرتضى ج ١ ص ٩٤ من طبعة الحلبي ١٩٠٧ والبغدادى : خزانة الأدب ج ١ ص ٣٤٩ من طبعة مصر ١٩٢٩

(٣) هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك ولقب « الرقيات » لأنه شب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية ، منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد وابنة عم لها يقال لها رقية وامرأة من بنى أمية يقال لها رقية ، وكان زبيرى الهوى وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان وأبدع فى مدح الزبيريين وراثتهم واتخذ الغزل وسيلة سياسية غاظ بها الأمويين (أبو الفرج : الأغاني ج ٥ ص ١٧١٧ من طبعة الشعب) و (أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٩ من طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥) .

لها بعل غيور قا عد بالباب أعجبها
 يراني هكذا أمشى فيسوعدها ويضرها
 ظلت على فارقها أفديها وأخليها
 أحذرها فتؤمن بي فأصدقها وأكذبها
 فدع هذا ولكن حا جةٌ قد كنتُ أطلبها
 إلى أمّ البنين متى يُقَرِّبها مقَرِّبها
 أتني في المنام فقد ت هذا حين أعقبها
 فلما أن فرحتُ بها ومال على أعذبها
 شربتُ بريقها حتى نهلتُ وبّتْ أشربها
 وبت ضجيعها جذلا ن تعجبنى وأعجبها
 وأضحكها وأبكىها وألسها وأسلها
 أعالجها فتصرعني فأرضيها وأغضبها
 فكانت ليلة في النوم (م) نسمرها ونلعبها
 فأيقظنا مناد في صلاة الصبح يرقبها
 فكان الطيف من جنيٍّ لم يدر مذهبها
 يؤرقنا إذا نمنا ويبعد عنك مسرّها (١)

ومنها وضاح اليمن (٢) وكان يتغزل بزوجة الوليد بن عبد الملك « أم البنين » وبأخته فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز وفيها يقول :

بنت الخليفة والخليفة جدُّها أخت الخليفة والخليفة بعلُّها
 فرحتُ قوابلها بها وتباشرتُ وكذلك كانوا في المسرة أهلها (٣)

(١) الديوان ص ٢٦١ - طبعة فيينا

(٢) وضاح لقب غلب عليه لجماله وبهائه واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل وقيل اسمه عبد الله ثم يختلف في تحقيق نسبه فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع هرمز لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة ، ويزعم آخرون أنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية (أبو الفرج : الأغاني ج ٦ ص ٢٢٨٩ من طبعة الشعب) و (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٦ من طبعة دار الكتب المصرية)

(٣) أبو الفرج : الأغاني ج ٦ ص ٢٣٠٤ - ٢٣٠٥ من طبعة الشعب .

وقد أمروا به فوئد حيا^(١).

ومن هؤلاء العرجى^(٢) وكان يتنزل بزوجة والى مكة محمد بن هشام وأمه . ومحمد بن هشام هو خال هشام بن عبد الملك . ومن شعره فى زوجة محمد واسمها جبره :

عُوجِي عَلَى فُسْلَمَى جَبْرُ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
مَا نَلْتَقِي إِلَّا ثَلَاثَ مِئَاتٍ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا النَّفَرُ
الْحَوْلُ بَعْدَ الْحَوْلِ يَجْمَعُنَا مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشَّهْرُ^(٣)
ومن شعره فى أم محمد :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي
إِنِّي أَنْسِيتُ لِي يَمَانِيَّةً إِحْدَى بَنَى الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجِ
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ مَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنَهْجِ
فِي الْحَجِّ إِنْ حَجَّتَ وَمَاذَا مِنِّي وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجُجْ^(٤)

فأخذ محمد يلفق له التهم وسجنه تسع سنين ومات فى سجنه ، وقد ثار له الوليد بن يزيد بعد ذلك .

غزل المقدمة أو غزل العراق

ما بدأ الجاهليون قصيدة فى المدح أو العصبية إلا بدءوها بالغزل ، ومالى أقول « المدح » و « الهجاء » بل لقد بدءوا بالغزل وغيره من فنون الشعر ، وهم حتى فى الرثاء يتشبهون به برغم ما فى ذلك من مخالفة للذوق السليم لم يفتنوا إليها . قال دريد بن الصمة الجاهلى فى رثاء أخيه :

(١) يقال إنه لما شبيب بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك أمر بطلبه الوليد فلما حضر قتله ويقال إنه كان عند أم البنين فى دارها ولما دخل عليها الوليد أخفته داخل صندوق فحمل الوليد الصندوق ودفنه وهو بداخله

(٢) هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ولقب بالعرجى لأنه كان يسكن عرج الطائف (الأغاني ج ١ ص ٣٨٣ ، ٣٨٥) من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ١ ص ٤٠٨ من طبعة الشعب

(٤) المصدر السابق ص ٤٠٦ والمبرد : الكامل ج ١ ص ٣٩٣ من طبعة المكتبة التجارية

أَبَا ذُقَافَةَ مِنْ لِلْخَيْلِ إِذْ طُرِدَتْ فَاضْطَرَّهَا الطَّعْنُ فِي وَغْثٍ وَإِيجَافٍ
يَا فَارِسَ الْخَيْلِ فِي الْهَيْجَاءِ إِذْ شُغِلَتْ كَلَّتَا الْيَدَيْنِ دُرُورًا غَيْرَ وَقَافٍ (١)
وله :

قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ مِنْ الْيَوْمِ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدٍ (٢)

لم يكن ذلك «التقليد» مقصوراً على العرب ، فأنت تعرف أن اليونان كانوا يبدعون قصائدهم باستلهام «هيلانة» .

هذا النوع من الغزل الذي لا يقصد إليه لذاته بل كمقدمة نعرفه في الشعر الأموي ، فجزير والفرزدق وذو الرمة وغيرهم من الفحول كانوا يبدعون به قصائدهم ، وكأنني بالعرب قد خلعوا على الشعر القديم لباساً من القداسة فتشبهوا به ، ونحيل إليهم أن الشعر ينبغي أن يكون هكذا على هذا الأسلوب وحده ، وعلى هذا النمط وحده .

وهذه المقدمات الغزلية في الشعر الأموي لا تخرج في موضوعها عن الشعر الجاهلي ، ذكر يتغزل بأنثى فنستطيع أن نقول إنه امتداد للغزل الجاهلي مثال ذلك قول الأخطل :

مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ مِكَسَالٍ بَرَهْرَهَةٍ زَانَتْ مَعَاظِلَهَا بِالْدُرِّ وَالذَّهَبِ
يَشْفِي الضَّجِيعَ لَدَيْهَا بَعْدَ زَوْرَتِهَا مِنْهَا ارْتِشَافُ رُضَابِ الْغَرْبِ (٣) ذِي الْحَبِّ (٤)

وقول البعيث :

وَمَجْدُولَةٌ جَدُلُ الْعِنَانِ خَرِيدَةٌ لَهَا شَعْرٌ جَعْدٌ وَوَجْهٌ مُقَسَّمٌ
وَتَغْرِ نَقْيُ اللَّوْنِ عَذْبٌ مَذَاقُهُ تُضِيءُ لَهَا الظُّلُمَاءُ سَاعَةً تَبْسِمُ
وَتُدْيَانِ كَالْحُقَيْنِ وَالْبَطْنِ ضَامِرٌ خَمِيصٌ وَجْهُهُمْ نَارُهُ تَتَضَرَّمُ
أَظْلُ أَنَاغِيهَا وَتَحْتَ ابْنِ خَالِدٍ أُمِيَّةٌ نَهْدُ الْمُرْكَلَيْنِ عَثْمَمٌ (٥)

والفرزدق أصرح من تغزل على هذا المذهب على أن هذا الغزل الأموي ليس امتداداً للغزل

(١) أبو الفرج : الأغاني ج ١٠ ص ٣٤٧٤ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) حدة الأسنان

(٤) الديوان : ص ١٨٤ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤١٨ من الطبعة الثانية بدار المعارف ..

الجاهلي في موضوعه فحسب بل هو امتداد له في الشكل والأسلوب . انظر إلى هذه الأوصاف الجاهلية في شعر الأخطل :

كِيَالِي نَلْهُو بِالشَّبَابِ الَّذِي خَلَا بِمُرْتَجَّةِ الْأُرْدَافِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
أَسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ خَفَّاقَةُ الْحَشَا مِنْ الْهَيْفِ مِبْرَاقُ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ
وَتَبَسُّمٌ عَنْ أَلْمَى شَتِيتٍ نَبَاتُهُ لَذِيذٌ إِذَا جَادَتْ بِهِ وَاضِحِ الثَّغْرِ
مِنْ الْجَازِئَاتِ الْحُورِ مَطْلَبُ سِرِّهَا كَيْضِ الْأَنْوَقِ الْمُسْتَكْنَةِ فِي الْوَكْرِ
وليس جديداً إلا قوله :

وَإِنِّي وَإِيَّاهَا إِذَا مَا لَقِيتُهَا لَكَلَاءٍ مِنْ صَوْبِ الْغَمَامَةِ وَالْخَمْرِ (١)
وهو معنى خبيث .

وأغلب هذا الشعر متكلف مصطنع ، ينطق بالزيف . انظر إلى قول الفرزدق :
أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيرَيْنِ لَا نَرُدُّ عَلَى حَاضِرٍ إِلَّا نُشَلُّ وَنُقَذَفُ
كَلَانَا بِهِ عَرٌّ يُخَافُ قِرَافُهُ عَلَى النَّاسِ مَطْلِيُّ الْمَشَاعِرِ أَخْشَفُ (٢)
يتمنى أن يكون وعشيقته أجربين لا يقربهما أحد !

ويندر الشعر العفيف في هذه المقدمات الغزلية ونجده أحيانا في شعر جرير ، وناهيك في شعر الأخطل ، ومثاله عند الأخطل :

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ أُمَ رَأَيْتَ بِوَاسِطِ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خِيَالَا
وَتَعَرَّضْتُ لَكَ بِالْأَبَاطِيحِ بَعْدَ مَا قَطَعْتُ بِأَبْرَقِ خُلَّةٍ وَوَصَالَا
وَتَغَوَّلْتُ لِتَرْوَعَنَا جَنِّيَّةً وَالْغَانِيَاتُ يُرِينُكَ الْأَهْوَالَا
يَمْدُدْنَ مِنْ هَفَوَاتِهِنَّ إِلَى الصُّبَا سَبِيًّا يَصْدُنَ بِهِ الرِّجَالُ طَوَالَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ كَمَكْرِهِنَّ إِذَا جَرَى فِينَا وَلَا كَحَبَالِهِنَّ حِيَالَا
الْمُهْدِيَّاتُ لِمَنْ هَوَيْنَ مَسَبَّةً وَالْمُحْسِنَاتُ لِمَنْ قَلَيْنَ مَقَالَا
يَرَعَيْنَ عَهْدَكَ مَا رَأَيْتُكَ شَاهِدَا وَإِذَا مَدَلْتَ بَصِيرَنَ عَنْكَ مِذَالَا
وَإِذَا وَعَدْتُكَ نَائِلَا أَخْلَفْنَهُ وَوَجَدْتُكَ عِنْدَ عِدَاتِهِنَّ مِطَالَا

(١) الديوان ص ٢١١ من طبعة الآباء اليسوعيين ١٨٩١

(٢) الديوان ص ٥٥٥ من طبعة المكتبة التجارية

وَإِذَا وَزَنْتَ حُلُومَهُنَّ إِلَى الصُّبَا رَجَحَ الصُّبَا بِحُلُومِهِنَّ فَمَا لَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

أَبْنَى كُتَيْبٍ إِنْ عَمَى اللَّذَا قَتَلَ الْمُلُوكَ وَفَكَّكَ الْأَبْطَالَ (١)
يقول هؤلاء غزلا ، فقد يمدح الشاعر بقصيدة ثمانون من أبياتها في الغزل وعشرة في
الممدوح .

وعلى هذه السنة سار الشعراء العباسيون فبدعوا قصائدهم بالغزل خلا بشارا في مدائحه
للمنصور ، وليس ذلك خلعا لثوب القدسية عن هذا المذهب القديم إنما إذعانا لأمر الخليفة ،
وسترى ذلك في المقام المناسب .

وكان الشاعر الأموي يطيل المقدمات حتى ليخيل إليك أن الغزل وحده ما قصد إليه
الشاعر وأراد به بالذات ، ثم تُحِس فجأة بأن الشاعر قد انتقل بك من الغزل الذي تسلق به إلى
الغرض الذي قال من أجله الشعر .

الشعر السياسى

قتل الشهيد عثمان فانصدعت الوحدة العربية وتحولت الدولة الإسلامية إلى أتون مستعر يقذف بالحجم فتصيب شظاياها هؤلاء وأولئك على السواء .

ووقف الشعر مع السيف جنباً إلى جنب ينتصر سيف فيردد الشعر صيحة النصر ، ويندحر فريق فيردد الشعر صدى أنينه . وهكذا نشأ الشعر السياسى فى ذلك العصر التأثير وفى ذلك الجو الملتهب ، لكنه نشأ نشأة غريبة فالزمن لم يمهل كما يمهل كل وليد ريثاً ينقطع ثم يبلغ الحلم ثم يشب ثم يترعرع بل نشأ الوليد فطفر طفرة ، فإذا بالوليد يصبح علماً عنيفاً ومارداً جباراً . ولا غرابة فقد كانت الحياة تمشى بسرعة وكان اليوم فى حساب الزمن والتاريخ بألف يوم مما نعد .

ظهرت العصبية فى السياسة وناضل علويون وزبيريون وأمويون وخوارج والقصر الأموى يناضل الجميع فى سبيل السلطان الدنيوى ، فتعصب له من تعصب ، ومن الناس من تعصب لعقيدة أو صلة رحم ، ومنهم من تبع لأن الناس تبعوا فانقاد فى صفوف الجماعة فحق عليه قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) (١) هذا الشعر السياسى صورة تنعكس عليها الحوادث السياسية انعكاساً واضحاً ، وكان هذا الشعر أداة لمعركة حامية بين رأيين كما كان السيف حداً فاصلاً بين خصمين .

وهأنذا أعرض عليك مثلاً من هذا الشعر المتعارك :

قال كعب بن جعيل (٢) وهو من أنصار معاوية :

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق له كارهونا
وكلاً لصاحبه مَبْغُضاً يَرى كُلُّ ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنا قتلنا رَضِينا ابنَ هِنْد رَضِينا

(١) سورة الفرقان آية ٤٤ .

(٢) هو كعب بن جعيل بن قتيبة بن عجرة ، شاعر إسلامى كان زمن معاوية (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٤٩ بتحقيق أحمد شاكر) .

وقالوا نرى أن تدينوا لنا فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
 وكل يُسر بما عنده يرى غث ما في يديه سمينا
 وما في على بمستعجب منال سوى ضمه المحدثينا
 وليس براض ولا ساخط ولا في النهاية ولا الآمرينا
 ولا هو ساء ولا هو سر ولا بد من بعد ذا أن يكونا^(١)
 فأجاب النجاشي العلوي :

دعن معاوي ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
 أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
 يرون الطعان خلال العجاج وضرب القوانس في النقع دينا
 هم هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
 فإن يكره القوم ملك العراق فقديماً رضىنا الذى تكرهونا
 فقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا
 جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا^(٢)

ولقد كان الشعر أول بشير بخلافة يزيد بن معاوية فقد أوعز أبوه معاوية إلى مسكين الدارمي^(٣) أن ينشده شعراً يرشح فيه ولده لولاية العهد ففعل^(٤) .

قال مسكين :

إن أدع مسكينا فإني ابن معشر من الناس أحمى عنهم وأذود
 إليك أمير المؤمنين رجلتها تثير القطا ليلا وهن هجود

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٦٢ والمبرد : الكامل ج ١ ص ١٩١

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨

(٣) توفى سنة ٩٠ هـ

(٤) كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكينا الدارمي ويصله ويقوم بجوانحه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف ألا يملكه عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يرشح للخلافة وبلغه في ذلك ذر وكلام بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكينا أن يقول أبياتا وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلا وحضره وجوه بني أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشرف الناس في مجلسه فثل بين يديه وأنشأ يقول شعراً منه هذه الأبيات المذكورة بالنص . (الأغاني ج ١٨ ص ٧١ من طبعة دار الكتب)

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقته بالقرون سجود
 إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
 على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجدود^(١)
 فقال معاوية « ننظر فيما قلت يامسكين - ونستخير الله » ، وأمن الحضور على اقتراح
 مسكين ، وكيف لا يفعلون ؟ ألا إن الناس هم الناس في كل عصر ومصر .
 وهكذا نستطيع أن نؤرخ حوادث التاريخ الإسلامى وتدرج معه خطوة خطوة فتسعدنا
 نصوص الشعر .

وقف الشعر مع السيف جنباً إلى جنب يحاربان وربما استراح السيف أحياناً وظل صرير القلم
 يواصل صليل السيف .

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالة تقضى بها أوقاتهم فى التنسم
 فكم فيهم من وادع العيش لم يهج لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
 يروح ويغدو عاقداً فى نجاهه حساما سليم الحد لم يتلم
 ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة سيوفهم دوماً تجف عن العرم

الأخطل

هو شاعر العصر الأموى^(٢) برغم أنه كان يشرب الخمر جهاراً ويدخل على عبد الملك بن
 مروان وقد لعبت برأسه وكان جرير يشهره فى شعره ويعيره بالخمر ، ورد عليه الأخطل أكثر
 من مرة غير منكر شربه لها :

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٨ من طبعة دار الكتب و (المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣ ، ١٤)
 و (البغدادى : خزانة الأدب ج ١ ص ٤٦٦)

(٢) أجمع علماء اللغة والأدب على أن الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربى فى أيام بنى أمية ثلاثة : الأخطل
 والفرزدق وجرير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث وأقدمهم سنا الأخطل وهو غياث بن غوث بن الصلت
 التغلبى ولا تعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق ، وما يستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنما هو أن الأخطل
 أخذ يشهر فى الشعر وهو شاب على عهد معاوية كما يظهر أيضاً من ديوانه سنة ٦٠ هـ وأنه مات فى خلافة الوليد بن عبد الملك
 الذى تولى الأمر من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ هـ . وكان الأخطل نصرانياً كمعظم بنى تغلب وهم قبيلة عظيمة من ربيعة سكنت فى
 القرن الأول قسماً كبيراً من برية الجزيرة أعنى القسم المحدود بحدار الموصل وسنجان شمالاً ونهر دجلة شرقاً ومدار تكريت وعانة
 ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهى برية متسعة جداً يقطعها نهر الثرثار . (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ١٣١
 طبعة دار المعارف) .

تُعَيِّرُنِي شَرَابَ الشَّيْخِ كِسْرَى وَيَشْرَبُ قَوْمُكَ الْعَجَبَ الْعَجِيْبَا
مَنْيُّ الْعَبْدِ عَبْدِ أَبِي سَوَاجٍ أَحَقُّ مِنَ الْمُدَامَةِ أَنْ تَعِيْبَا^(١)

الأخطل هو شاعر القصر الأموي توجوه بالنار وأرسل عبد الملك رسله في طول البلاد
ينادون «الأخطل شاعر أمير المؤمنين - الأخطل أمير الشعراء» كان أول اتصاله بالقصر فيما
أعرف عندما هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لما تغزل برملة بنت معاوية ، فأمر أخوها
يزيد كعب بن جعيل بأن يهجو ، فتخرج من ذلك كعب وأشار عليه بالأخطل . ومنذ ذلك
الوقت أخذ يرد على الأنصار ونشب بينه وبينهم الهجاء ، ومن هجائه لهم قصيدة في حسان بن
ثابت والنعمان بن بشير منها :

هَجَوْتُ بَنِي الْقُرَيْعَةِ إِذْ هَجَوْنِي فَمَا بَالِي وَبَالُ بَنِي بَشِيرٍ^(٢)

ورد عليه النعمان ، ومن رده :

أُبْلَغُ قَبَائِلَ تَغْلَبَ ابْنَةِ وائِلٍ مَنْ بِالْفُرَاتِ وَجَانِبِ الثَّرِثَارِ
فَاللُّومُ بَيْنَ أَنْوْفٍ تَغْلَبَ بَيْنُ كَالرَّقَمِ فَوْقَ ذِرَاعِ كُلِّ حِجَارٍ^(٣)

والأخطل يدل على الأمويين ببلائه في الدفاع عنهم أمام الأنصار :

بَنِي أُمَيَّةٍ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ أَبْنَاءَ قَوْمٍ هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
أَفْحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النَّجَارِ قَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا مَعَدُّ وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا
حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مَنِي عَلَى مَضَضٍ وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الْإِبْرُ^(٤)

وقال يهجو قيسا لأنها تشايح ابن الزبير :

فَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزُّبَيْرِ وَلَا عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيًّا طَالَمَا خَرَّبُوا
يُعَازِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ فِي هَامَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ دُونَهَا شَذَبُ^(٥)

(١) الأغاني ج ٨ ص ٣٠٥٢ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٥

(٢) الديوان ص ٣١٣ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ٥٤١٣ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ١٠٥ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٥) الديوان ص ٣٨

ويتهمهم بأنهم قتلوا ابن عفان وهي دعوى الأمويين ودعامة نضالهم السياسي مع علي ومع ابن الزبير :

هُمْ سَعَوْا بِابْنِ عَفَّانَ الْإِمَامِ وَهُمْ بَعْدَ الشُّمَّاسِ مَرَوْهَا ثُمَّتْ احْتَلَبُوا
حَرْبًا أَصَابَ بَنِي الْعَوَامِ جَانِبُهَا بَعْدًا لِمَنْ أَكَلَتْهُ النَّارُ وَالْحَطَبُ^(١)

وقال في رثائه :

كَيْفَ نَوَّمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشَمَّلَ الشَّامَ غَارَةٌ شَعَوَاءُ
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعُذْرَاءُ^(٢)

وكذلك أغناه من فضله وضمن له طراوة العيش :

لَوْلَا تَنَاوُلُكُمْ إِيَّايَ مَا عَلِقَتْ كَفِّي بِأَرْجَائِهَا الْقُصُوفُ وَلَا قَدَمِي^(٣)

والأخطل هو الشاعر ذو اللون السياسي بكل ما يفيد اللون السياسي . لقد ظل الأخطل يهجو قيسا زمنا فلما سالت قيس الأمويين ظل جرير يهاجم الأخطل ويهجوهم وهو مع أصحابه .

الزبيريون

أنصار ابن الزبير :

قيس وأعلى الجزيرة عامة وكانوا بزعامة الأحنف بن قيس والحصين بن الضحاك وزفر بن الحارث الكلابي ، وقد رويت لك طرفا من شعر زفر بن الحارث الكلابي في فصل سابق ، وكثير من شعراء مضر ناصر ابن الزبير وأشهرهم عبد الله بن قيس الرقيات وكان من أشد المتعصبين للزبيرية ، جاهد بسيفه وشعره مع مصعب بن الزبير يوم خرج على عبد الملك بن مروان في العراق ، ولما هزم مصعب غمره بالمال وأمره بأن ينجو بنفسه فأبى كل الإباء وبقي مع

(١) الديوان ص ٣٩

(٢) من شعر قيس بن الرقيات ، الديوان ص ١٧٣ والأغاني ج ٥ ص ١٧٢٢ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٢٦٧

مصعب حتى قتل^(١) .

ووسيلة ابن الرقيات في فنون السياسة هي هذا الغزل السياسى ، وأظننا ذكرنا شيئاً عن غزله السياسى في باب الغزل . وله في مدح مصعب بن الزبير مدائح جياذ ، وكان يناقضه غير واحد من الشعراء .

ومن شعره في ابن الزبير بعد عودته :

بلدٌ تأمن الحماسة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم^(٢)
تُخبر من لاقيت إنك عائدٌ بل العائد المظلوم في سجن عارم

وقوله :

عم النى المصناني وابن عمه ومفكك أغلال وقاضى مغارم
ومن يلق هذا الشيخ بالحيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم^(٣)
أما هو فقد آوته امرأة تدعى كثيرة أكرمته وآوته نحو سنة وهى تجهله ويجهلها ، ولما طال به الأمر رأى ألا مفر من مهادنة السلطان الأموى فتوسط له عند عبد الملك بن مروان عبد الله بن جعفر^(٤) ومدح عبد الملك بقصيدة لاموضع لذكرها ، فلما بلغ قوله :

خليفة الله فوق منبره جفت بذاك الأقلام والكتب
يَعْتَدِلُ التاجُ فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب^(٥)

صاح فيه عبد الملك : أتمدحنى بجبين كأنه الذهب ، وتقول في مصعب :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الدِّهْنِ تجلّت عن وجهه الظلماتُ

(١) تم الأمر لابن الزبير في الحجاز واليمن ومصر والعراق وكاد يتم له في الشام لولا تدارك الأمويين في مرج راهط ولكنه بقى خليفة تسع سنين بولى الولاة ويحى الحجاج وكان مصعب أخوه سنده الأول فلما ذهب إلى الكوفة خطب خطبته المعروفة التى اقتبسها من القرآن الكريم فى تحدى الأمويين فلما تولى عبد الملك بن مروان ذهب بنفسه إلى العراق وحارب مصعباً فهزم جيشه وقتله عند باخمري بعد ما اختل أصحابه وذلك سنة ٧ هـ ، ثم وجه الحجاج إلى مكة فقاتل ابن الزبير وقتله سنة ٧٣ هـ وكان مصعب يعطف على ابن قيس ويحبه ولما شعر بأنه مالك أعطى الشاعر مالا كثيرا وأشار عليه بالهرب فأبى ابن قيس إلا ملازمته (ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ١٣٥) و (الأغانى ج ٥ ص ١٧٢١ من طبعة الشعب)

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٦٥

(٣) كان ابن الزبير يدعى «العائد» لأنه عاذ بالبيت المحرم بمكة والشعر فى الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٣٠

(٤) لما قتل مصعب وقتل عبد الله هرب ابن قيس ولجأ إلى أم البنين وإلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فسألا عبد الملك فى أمره فأمنه

(٥) المبرد : الكامل ج ١ ص ٤٠٠

ملكه ملك عَزَّة ليس فيه جبروت منه ولا كِبَرِيَاءُ^(١)
 أما الأمان فقد سبق لك ، وأما العطاء فليس لك عندنا عطاء .
 وكموقف ابن الرقيات موقف الفرزدق ، وكان الفرزدق زبيري الهوى ، وكان صادقا جادا
 في زبيريته ثم انقلب عليها بلسانه خوفا من بطش الحجاج .
 ومما قاله في ابن الزبير :

فالأرض لله ولأها خليفته وصاحبُ الله فيها غير مغلوبٍ
 بعدَ الفسادِ الذي قد كان قامَ به كذابٌ مكَّة من مكَّرٍ وتخریب
 راموا الخلافة في غدرٍ فأخطأهم منها صدورٌ وفازوا بالعراقيب^(٢)
 وقد يرى غيرنا ذلك التناقض نفاقا سياسيا ، ونحن لا نذهب هذا المذهب فمن المحقق أن
 رجلا كابن الرقيات كان مخلصا جد الإخلاص لزبيريته ، ومن المحقق أنه استهدف في سبيلها
 أشد الأخطار لخطر الموت ، ومن المحقق أيضا أن رجلا كالفرزدق كان مخلصا في نصرته لأى
 حزب من الأحزاب المعادية للقصر ، للزبيريين ، للعلويين أو لغيرهم ،
 فالفرزدق رجل كان يشمخ بأنفه إلى السماء لأنه من بيت مجد عتيد ، ومن قبيلة كل من
 فيها كان يشمخ بأنفه إلى السماء لأنه من بيت مجد عتيد ، ومن قبيلة كل من فيها كان ناظرا على
 السلطان الأموى أو خاضعا له فى شىء من البغض غير قليل .
 وأنت تعرف ما شعر الفرزدق ، وأنت تعرف أنه دخل على سليمان بن عبد الملك فمدحه
 بقصيدة كلها فخر بقومه واعتزاز بنفسه .

إنما كان هؤلاء يمدحون خصومهم عندما يتحقق الخطر القريب ولا يجدون فيه مهربا ،
 كانوا يتحولون لينقدوا حياتهم من هذا الخطر لا عن نفاق أو طمع .
 وهذا التعليل يفسر لنا التناقض فى موقف هؤلاء الشعراء السياسيين ، ولا سيما شعراء الشيعة
 وقد كثر تناقضهم .

هؤلاء الشعراء كما قدمت ، إنما كانوا يفتدون أنفسهم بهذا الشعر فى ذلك الخطر ، وإن كنا
 نرى فى شعراء آخرين غير هذا الرأى ومن هؤلاء منصور النمرى^(٣) وهو شيعى أسرف فى مدح

(١) الديوان ص ١٧٠ وابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٢ المطبعة الأزهرية ١٩٢٨

(٢) الديوان ص ١٠٥ من طبعة أوربا

(٣) منصور بن الزبرقان بن سلمة من شعراء الدولة العباسية ، غضب عليه الرشيد وأمر بقتله ولكنه توفى قبل أن ينفذ فيه

القتل - ترجمته بالأغاني ج ١٣ ص ٤٦٥٢ من طبعة الشعب

العباسيين وهجاء العلويين طمعا في مال الأولين :

ومن هجائه للعلويين قوله من قصيدة مدح بها الرشيد أو قل حنّ فيها إلى ذهب الرشيد :
 يذللّ من رقاب بني علي ومنّ ليس بالمنّ الصغير
 منّت على ابن عبد الله يحيى وكان من الحُتوفِ على شفير^(١)

وقوله :

بني حسنٍ ورهط بني حسينٍ عليكم بالسّداد من الأمور
 فقد ذقتم قِرَاعَ بني أبيكم غداة الرّوع بالبيض الذّكور
 أحينَ شَفَوَكُمْ من كلّ وترٍ وضمُّوكم إلى كَنَفٍ وثير
 وجادوكم على ظمأٍ شديد سُقيتم من نوالهم الغزير
 فما كان العقوقُ لهم جزاءً بفعلهم وآدى للشّور
 وإنك حين تبلغهم أذاةً وإن ظلموا لمحزون الضمير^(٢)

وله في العلويين شعر كثير يمثل مذهبه السياسي الديني الصحيح ، وأروى لك أبياتا من قصيدة له يشير فيها إلى مقتل الحسين :

ويلك يا قاتل الحسين لقد نؤت بحمل ينوء بالحامل
 أي رحباء صبوت أحمد في حفرتة من حرارة الثاقل
 بأى وجه تلقى النبي وقد دخلت في قتله مع الداخل
 نفسى فداء الحسين حين غدا إلى المنايا غدا ولا قافل
 ذاك يوم أنهى بشفرتة على سنام الإسلام والكاهل

وعرج فيها على خصومه العلويين وختم قصيدته بقوله :

إلا مساعيرَ يغضبون لها بسلةٍ البيضِ والقنا الذابل^(٣)

والخلاصة أن هذا الشعر السياسي مشتبك كل الاشتباك بل كثيرا ما يغمض موقف الشاعر غموضاً فليس لنا أمام هذا الغموض إلا الاستنتاج المبني على استقراء سيرة شاعره وأخباره .

(١) الأغاني ج ١٣ ص ٤٦٥٦ من طبعة الشعب (٢) الأغاني ج ١٣ ص ٤٦٥٦ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق ج ١٣ ص ٤٦٥٩ من طبعة الشعب والشعر والشعراء ترجمة رقم ٨٣٦ بتحقيق أحمد شاکر.

الخوارج

وعندى أنهم بلاشفة المسلمين ، طائفة شعارها « لا حكم إلا لله »^(١) ، جمع بينها التطرف في كل شيء ، في التفكير ، في الشعور ، فهم أقوياء الداء في خصوماتهم .
لقيت الحكومات منهم عنقا أى عنت وهم متطرفون في آرائهم الدينية منهم من يحكم بالكفر على المسلمين عامة ! ويقول غلاتهم : إن العمل جزء من الإيمان فمن ارتكب من المسلمين معصية بتركه فرضا أو إتيانه منكرا فليس بمنجيه من الكفر اعتقاد الوجدانية والنبوة . واحتجوا على ذلك بقوله تعالى (إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون)^(٢) قالوا فيجوز أن يكون مرتكب الكبيرة مؤمنا ، ولكن لا يطمع في عفو الله . . . ومادام المسلمون لا يرون ذلك فهم كفار أوجب الله مقاتلتهم . متطرفون في كل شيء وشعرهم يقذف بالحمم .

وأصل الخوارج قوم كانوا مع على في حرب صفين وخرجوا عليه ، وفي الحق أنهم غدروا به ، وليس هنا موضع التفصيل ، ثم نادوا « لاحكم إلا لله » وقالوا : نحن الشراة^(٣) ، اشترينا الحياة الآخرة بالدنيا .

يهوى وترفعه الرماح كأنه شلو تنشب في مخالب ضار
فتوى صريعا والرماح تنوشه إن « الشراة » قصيرة الأعمار^(٤)

(١) كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أبيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة على . وبينها ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسمون بالمعتزلة منهم أبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص ومغيرة بن شعبة وغيرهم . ثم رضى على باقترح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ وكان ذلك سبب فتنة في شيعته لأن قوما من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال في دين الله أى تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنه لاحكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء فسموا الحرورية أو الخوارج (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٦ - ٢٠٧)

(٢) سورة يوسف آية ٨٧

(٣) من شرى بمعنى غضب أو لأنهم شروا أنفسهم - أى باعوها - لله تعالى أخذا من الآية الكريمة (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) لأن طابع نشاطهم كان الجهاد في سبيل الله وقتال الذين حكموا الرجال في أمر الله . (الأخبار الطوال ص ٢٠٦)

(٤) للشكري : إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٩٨ من طبعة دار الثقافة ببيروت .

ومن شعر معاذ بن جُوَيْن الخارجي يحرض أصحابه على الخروج :
 ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ شَرى نفسه لله أن يترحَّلا^(١)
 وقد سار إليهم على في أربعة آلاف مقاتل فهزمهم في موقعه « النهروان »^(٢) ودبروا بعد
 ذلك مكيدة لقتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص فظفروا بعلي وقتله عبد الرحمن بن ملجم
 الخارجي ، ويقول في ذلك شاعرهم عمران بن حطان :

لله دُرُّ المُرَادِيّ الذي سَفَكَتْ كَفَّاهُ مُهْجَةً شَرَّ الخَلْقِ إِنْسَانًا
 أَمْسَى عَشِيَةً غَشَاهُ بِضَرْبَتِهِ مِمَّا جَنَّاهُ مِنَ الْآثَامِ عُرْيَانًا
 يَاضِرَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيَلْبُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
 إِنِّي لِأَفْكَرَ فِيهِ ثُمَّ أَحْسَبُهُ أَوفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا^(٣)

وتصدعت جبهتهم فانقسموا إلى فرق كثيرة^(٤) أشهرها :

- ١ - الأزارقة : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم أشد الخوارج تطرفا ، اعتبروا سائر المسلمين كفارا وحرّموا على أنفسهم الزواج إلا منهم وحرّموا أكل ذبائح المسلمين ، وحرّموا إرثهم . قالوا : هم ككفار العرب ، فالإسلام أو القتال .
- ٢ - النجدية : وهم أتباع نجدة بن عامر ، خالفوا الأزارقة ، وقالوا عن المسلمين إنهم أعداء الإسلام ، لكنهم موحدون بالله ومؤمنون بالرسول فلم لانتزاع منهم ونتوارث وإياهم .
- ٣ - الصفريّة : أتباع زياد بن الأصفر وهم أقل تطرفا من الأزارقة فهم لا يكفرون العقيدة مثلا كالأزارقة ، وهم يجتمعون في أشياء كالقول بالقياس^(٥) .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن وإحسان عباس : شعر الخوارج ص ٨

(٢) عقب صفين حين أنكر الخوارج التحكيم وانحازوا إلى حروراء وأبوا دخول الكوفة مع علي فحاول إقناعهم غير مرة فلم يقتنع أكثرهم واجتمعوا بالنهروان واستخلفوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وأخذوا يفسدون في الأرض فذهب إليهم على وقتلهم حتى أبادهم (أحمد الشايب : الشعر السياسي ص ١٤٦)

(٣) الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٧٩ من طبعة الشعب

(٤) عددها عشرون فرقة كما ذكرها صاحب « الفرق بين الفرق »

(٥) لعل الأزارقة أشدهم تحرجا وإعناطا لمن خالفهم فقد كفروا جميع المسلمين وأحلوا قتل أطفالهم وحرّموا أكل ذبائحهم والإصهار إليهم والأخذ بالتقية وكفروا القعدة الذين يقعدون عن القتال ، فلما قال معدان الإيادي :

سلام على من بايع الله شاريا وليس على الحزب المقيم سلام

برئت منه الصفريّة وقالوا : خالفت لأنك برئت من القعد وفي الكامل للمبرد حوار بين الأزارقة والنجدية وآخر بين نافع بن الأزرق وعبد الله بن الزبير حين دعاه نافع إليه ، تعرف منه مقدار اختلاف وجه النظر بين الجميع . =

٤ - الإباضية : أتباع عبد الله بن إباح (ظهر في النصف الثاني من القرن الأول) ، ومبادئه أقرب إلى الاعتدال .

هذه هي الفرق الأساسية . وعلى كل حال فالخوارج فرقة ظاهرها ديني وباطنها ديني وسياسي^(١) .

وقد انقسمت بعد ذلك كل فرقة إلى فرق ، فالنجدية مثلاً انقسمت إلى ثلاث فرق : فرقة سجستانية^(٢) وفرقة قديلية^(٣) وهذه انتهى بها الأمر إلى قتل نجدة ، وفرقة نجدية فاترة في الدفاع عن إمامها .

والصفورية : اختلفت في موقف المذنب فافترقت ثلاث فرق : فرقة زعمت أن صاحب المذنب مشرك وثانية قالت بل المشرك من كان على دين ليس له حدود ، وثالثة عندها أن المشرك من حده الوالي على ذنب .

ومن الخوارج من قال بوجوب الخلافة ، بل كل منهم كان يلقب قطري بن الفجاءة بأمير المؤمنين^(٤) ، ومنهم من قال « لا خلافة ولا خليفة » واحتج بقوله تعالى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم)^(٥) والأولون الذين أجازوا الخلافة قالوا بوجوب الخروج على الإمام إذا جار واحتجوا بحديث « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءكم » .

حروب الخوارج وشعرهم :

وكانوا يقاتلون عن عقيدة ويريدون الجهاد في سبيلها إيماناً بقول قائلهم :

= ومع ذلك فكثر الخوارج على البراءة من الكاذب ومن صاحب العصية الظاهرة والحرص على الجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والتصوف في سبيل ما يعتقدون (أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٠٥) و (الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٠ وص ١٧٦ - ١٨٠) .

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن الخوارج في باب العصية .

(٢) خرجت على نجدة وتبعها عطية بن الأسود الحنفي وسارت معه إلى سجستان ، وبعض يسميها الفرقة العطوية

(٣) نسبة إلى أبي قديل

(٤) رئيس الأزارقة ، خرج على ولاية العراق وبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قتل سنة ٧٧ هـ . (تاريخ

الطبري ج ٢ ص ١٠١٨) وراجع كذلك البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٥ ، ٦٦ من طبعة مطبعة المعارف و (ابن

خلكان : وفيات الأعيان ترجمة رقم ٥١٧ من طبعة مصر)

(٥) سورة الشورى آية ٣٨

أريد ثواب الله يوما بطعنة

آمنوا بدعوتهم الدينية وبدعوتهم السياسية إيماناً يقف العقل عنده حائراً ، قست الدولة عليهم قسوة شنيعة فاحتملوا القتل والصلب والتشهير وفقء العيون وأنواع العذاب صابرين مستبسلين .

ما إن أبالى إذا أرواحنا قُبِضَتْ ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى الحجرُ والنَّسرانِ بينهما والشمسُ والقمرُ السارى بمقدار
وقد علمتُ وخير القول أنفعُهُ أن السعيد الذى يَنجو من النار^(١)

كلما وجدوا جوا صالحا طاروا إليه طير جراد منتشر فنفخوا فيه ، ومن ذلك أنهم استغلوا الروح الشعبية ، ففى زمن هشام بن عبد الملك حطت الرحال بالمغرب جماعات من الخوارج وأخذت تؤلب البربر وكان البربر بظروفهم مستعدين للهياج وسرعان ما ثاروا وهزموا جيشا شاميا جراراً سيره هشام لقتالهم بزعامة كلثوم بن عياض القشيري . وفى واقعة مقدور سجل للموالى يشد أزرهم الخوارج أعظم انتصار على العرب .

على أن الخوارج على قلة عددهم برعوا فى أنواع الكر والفر براعة مدهشة ، حقا كانوا يقاتلون عشرات ومئات وتجرد عليهم الدولة المئات والألوف فينتصرون عليها فى كثير من الأحيان .

ومن ذلك أن ابن زياد أمر برجل منهم هو عروة بن أدية فبترت يده ورجلاه ثم سأله كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنيائى وأفسدت آخرتك . فأمر به وبابنته فقتلا . ثم خرج أخوه مرداس بن أدية فى أربعين رجلا من الخوارج ورابطوا بالأهواز فأرسل إليهم ابن زياد ألفى جندى يقودهم ابن حصن التميمي فهزمتهم الخوارج^(٢) وفى ذلك يقول شاعرهم :
ألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ويقتلهم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا

(١) الشعر لفروة بن نوفل : إحسان عباس ، شعر الخوارج ص ٥

(٢) عاد عبيد الله بن زياد فأرسل إليهم جيشا هزمهم سنة ٦١ هـ (الطبرى ج ٥ ص ٣١٣ من طبعة دار المعارف)

و(المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٦٢) ويقول إن القائد كان عبيد الله أسلم بن زرعة

هِيَ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَا^(١)
وَنَسَاؤُهُمْ كَنْ يَشْتَرِكُنْ فِي الْقِتَالِ وَمِنْهُمْ أُمُّ حَكِيمٍ امْرَأَةُ قَطْرَى بْنِ الْفَجَاءَةِ وَكَانَتْ تَتَقَدَّمُ إِلَى
الْصَّفُوفِ وَتَرْتَجِزُ .

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَيَّمْتُ حَمْلَهُ وَقَدْ مَلِئْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
إِلَّا فَتًى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ^(٢)

وما زال الحجاج يحاربهم بجيوش العراق ويحاربونه في عدد ضئيل إلى أن دخلوا الكوفة وبها
الحجاج وقتلوا الكثير من أهلها ، وقيل إن الحجاج غادر الكوفة وولى ، وفي ذلك يقول عمران
ابن حطان :

أَسَدٌ عَلِيٌّ فِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ رَبْدَاءُ تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَا بَرَزَتْ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ
صَدَعَتْ غَزَاةٌ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ تَرَكْتُ مُدَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ^(٣)

واضطر الحجاج إلى الاستعانة بعبد الملك بن مروان للقضاء على هذه الجماعة التي عجز
جيش العراق أمامها أكثر من مرة فَأَمَدَّهُ بجيش عدده خمسون ألف مقاتل فلقبهم شبيب بألف
خارجي ومن العجب أن شيبا انتصر عليهم .

إنا لنعجب ولكن فيم العجب ! كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان صادقين ، وحسبك
بالإيمان ظهيرا . إن الجيش العربي لم يزد في يوم من الأيام على مائتي ألف جندي ، ومع ذلك
فقد كانت الدولة العربية تحكم عشرات الملايين .

فيم العجب ؟ ما كثرة الخوارج إلا من تميم ، وما رجال تميم إلا أبطال القادسية ، وعلى

(١) الشعر قاله عيسى بن فاتك الخطي أحد بني تميم الله بن ثعلبة (الطبري ج ٥ ص ٣١٤ من طبعة دار المعارف و) ابن
عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٧٧ من طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٨) و (ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ١٦٣ من
طبعة دار الكتب ١٩٢٥) .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣١٦ والرجز لأُم حَكِيم ، وإحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤١

(٣) يشير إلى غزاة الحروية عندما دخلت على الحجاج هي وشبيب الكوفة تحصن منها وأغلق عليه قصره فكتب إليه
عمران بن حطان وقد كان الحجاج لج في طلبه فكتب هذه الأبيات .

(الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٨٦ من طبعة الشعب) و (ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥١ من طبعة الأزهرية

ذكر تميم نشير إلى ما بينا في باب العصبية وهو أن هؤلاء القوم كانت لهم أغراض سياسية ، ولست أدري أقصد بذلك Brown حين شبههم بمتصوفي الإنجليز Puritans وبالوهابيين ؟ ولقد ظهرت هذه الروح السياسية بجلاء في زمن مروان بن محمد عندما التفوا حول زعيمهم الضحاك بن قيس ، وأخذوا يواصلون القتال حتى شغل عنهم مروان بظهور العباسيين في خراسان ، ومن المؤرخين من ينسب إليهم فظائع يذهل لها العقل^(١) ، حتى أن البغدادى يقول في كتابه^(٢) : إن النجدية كانوا يذبحون النساء والأطفال ، وليس بعيداً أن تكون هذه الأخبار صحيحة ، فقد أشربوا العذاب والهول .

القعدة

منهم جماعة قعدوا عن الحرب فسموا « القعدة » وحجتهم الكبر أو الوهن أو العيال يقول أحدهم :

لقد زَادَ الحَيَاةَ إِلَى حُبًّا بناتٍ إنهن من الضعافِ
مخافة أن يرَيْنَ الفقر بعدى وأن يُشربن رنقاً بعد صاف^(٣)
والجماعة لا ترى لهذه الفرقة عذراً في التقاعد ، يقول قطري بن الفجاءة يخاطب ابن خالد القناني :

أبا خالد يا انفرُ فلست بخالدٍ وما جَعَلَ الرحمنُ عُدْراً لِقَاعِدِ
أترعُمُ أن الخارجىَّ على الهدى وأنت مقيمٌ بين لصٍ وجاجِدِ^(٤)

شعرهم :

يمتاز بقوة ظاهرة فطن لها القدماء ، كما فطنا ، فأبو الفرج يحدثنا بأن الشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان فقال لهم : أبقى أحد أشعر منكم ؟ قالوا : لا ! فقال : الأخطل .

(١) كقول المسعودى إنهم كانوا يضعون الأطفال في القدور وهى تفور (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤ من طبعة المطبعة

الهيئة)

(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر .

(٣) الشعر لعيسى بن فاتك الخطى : إحسان عباس : شعر الخوارج ص ١٣

(٤) المصدر السابق ص ٤١ والمبرد : الكامل ج ٢ ص ١٠٧

كذبوا يا أمير المؤمنين قد بقي من هو أشعر منهم . قال : ومن هو ؟ قالوا : عمران بن حطان لأنه صادق ويفوقهم فكيف لو كذب كما كذبوا .

أشهر شعرائهم :

قطرى بن الفجاءة ، ومن شعره : (١)

لعمري إني في الحياة لزاهدٌ
من الحفريات البيض لم ير مثلها
لعمرك إني يومَ الطُم وجهها
ولو شهدتني يوم دُولابٍ أبصرتُ
غداة طغت علماء بكر بن وائل
وكان لعبد القيس أول جدها
وظلت شيوخ الأزد في حومة الوغى
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا
وضاربة خدًا كريمًا على فتى
أصيب بدولاب ولم تك موطننا
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
ومن قوله :

أقول لها وقد طارت شعاعاً
فإنك لو سألت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبراً
ولا ثوب البقاء بثوب عز
سبيل الموت غاية كل حي
من الأبطال ويحك لن تراعى
على الأجل الذي لك لم تطاعى
فما نيل الخلود بمستطاع
فيطوى عن أخى الخنع اليراع
فداعيه لأهل الأرض داعى

(١) قالها في يوم (دولاب) بين الخوارج وأهل البصرة (حماسة أبي تمام ج ١ ص ٤٩ من طبعة بولاق و (ابن خلكان ترجمة رقم ٥١٧ من طبعة مصر) و (المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٨٢) و (إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤٤)

وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِّمُهُ الْمُنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وما للمرء خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ الْمَتَاعِ^(١)
الطرماح بن حكيم^(٢) :

فيارب لا تجعل وفاتي وإن أتت على شَرَجٍ يُعْلَى بذكر المطارف
وأُمسى شهيدا ثاوياً في عَصَابَةٍ يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ
إذا فارقوا دُنْيَاهُمْ فارقوا الْأَذَى وصاروا إلى مَوْعِدٍ مَا فِي الصَّحَائِفِ
فأقتل قَعْصاً ثُمَّ يرمى بِأَعْظَمِي مفرقة أوصالها في التناثف
ولكن قبرى بطنُ نسرٍ مَقِيلُهُ بجو السماء في نُسُورٍ عَوَاكِفِ^(٣)
ومن قوله :

لقد زادني حباً لنفسى أننى بغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلِ
وأنى شقىً باللائم ولا ترى شَقِيّاً بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ^(٤)

والطرماح هجاء اليمن الشهير ثلثا شعره في العصبية القبلية وثلثه في العصبية المذهبية . ومن شعره :
فقهاهم من عالج الشعر فكان فقيها في شعره كالرهين المرادى . ومن شعره :
يأنفسُ قد طال في الدنيا مُرَاوَعَتِي لَا تَأْمِنِينَ لَصَرْفِ الدَّهْرِ تَنْغِيصَا
إني لبائع ما يفنى لَبَاقِيَةٍ إِن لَمْ يُعْقِنِي رَجَاءُ الْعَيْشِ تَرْبِيصَا
وَأَسْأَلُ اللَّهَ بَيْعَ النَّفْسِ مُحْتَسِبَا حَتَّى الْأَقَى فِي الْفَرْدَوْسِ حُرْقُوصَا
وابن المنيج ومرداساً وإخوته إِذْ فَارَقُوا زَهْرَةَ الدُّنْيَا مَخَامِيصَا^(٥)
ولا يزال للخوارج بقية إلى اليوم وهم فرقة الإباضية في الجزائر .

(١) إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٤٢ من طبعة دار الثقافة ببيروت
(٢) الطرماح بن حكيم الطائي شامي النشأة ورد الكوفة في جيوش الشام واتصل بأحد الشراة الأزارقة فدعاه إلى مذهبه حتى اعتقده أشد اعتقاد وأصحّه ومات عليه سنة مائة هجرية ، ويمتاز فنه الخارجى بتصوير حياة الشراة في الحرب والسلام .
(الأغاني ج ١٢ ص ٤٢٠١ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٨٥) .
(٣) الأغاني ج ١٢ ص ٤٢١٠ من طبعة الشعب وابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٨٩ بتحقيق أحمد شاكر .
(٤) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٠٧ من طبعة دار الكتب والأغاني ج ١٢ ص ٤٢٠٦ من طبعة الشعب .
(٥) إحسان عباس : شعر الخوارج ص ٣٢

الشيعة

الشيعة هم الذين رأوا أن الخلافة حق ثابت لعلي بن أبي طالب وأولاده لأنهم أقرب الناس إلى النبي ﷺ ولأن زوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويظهر أن الرأي العام كان يرى لعلي هذا الحق في الخلافة حتى خصمه معاوية ، فقد كتب إلى الحسن كتابا جاء فيه « أنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقربتك ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة لباعتك »
التف أنصار عليّ حوله معتقدين أن الانتصار لآل البيت من الدين وحسن الإيمان يقول شاعرهم في الحسين :

من معشر حبه دين وبغضهم كفر وقرهم منجى ومعتصم

هكذا اعتقد الشيعة وللحب تكاليف ، ولقد قاموا بهذه التكاليف كما يقوم اجاهدون وعانوا في سبيلها ما يعاني المؤمنون ، والذي قلناه في الخوارج نقوله في الشيعة . قلنا إن الخوارج لاتدافع عن فكرة دينية فحسب بل هي فرقة دينية سياسية ، ونقول إن من الناس من تشيع لعلي مدفوعا بهذا العامل عامل التعصب القبلي وهم الحانقون على الحكم الأموي . أما العراق فمع علي والشام مع معاوية والحجاز بينهما وسواده لمعاوية ، أما قریش فمع معاوية ، أما الأنصار فمع علي ، ونار العداء تضم بينهما من جديد . شاعر المدينة يقول :

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله^(١)

ويسفر النزاع بين علي ومعاوية عن انتصار معاوية وهزيمة علي لأسباب كثيرة أهمها طبيعة أهل العراق ، وهم أنصار علي « أهل شقاق ونفاق » هذه الطبيعة الشكسة التي لاتعرف الطاعة جنت علي عليّ مالم تجنه الأحداث ، يأمرهم علي بمواصلة القتال وقد رفع جند معاوية

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١ من طبعة المطبعة البهية

المصاحف ، وقالوا نحقن الدماء فيأبون ويتفقون على التحكيم فيختارون أبا موسى الأشعري ويأباه على ويقول لهم « خالفتموني أول مرة فأطيعوني في هذه » فيأبون . صراحة في الحق ، فقد نفر غير واحد من جماعته بهذا الملك كعبد الله بن عباس .

قتل عثمان وبويع على فقبل البيعة بعد تردد طويل - فيما يقولون - وكانت البيعة من أهل المدينة ويظهر أن عليا أساء تقدير هذه البيعة ، نعم تلقى أبو بكر وعمر البيعة من أهل المدينة التي لم تعد لها صفتها الأولى فقد توزعت عناصر القوة في الأمصار الإسلامية الجديدة .

بويع على فسرعان ما بادر بعزل عدد من الولاة^(١) كانت لهم أخطارهم كعبد الله بن عامر والى البصرة وأحل محله عثمان بن حذيفة وولى على الكوفة واليمن ومصر والشام عمارة بن شهاب وعبد الله بن عباس وقيس بن سعد وسهل بن حنيف . فأما الأول والأخير فقد قاومها الأمويون مقاومة عنيفة وصدوها ، فأما عثمان وقيس فدخلا البصرة ومصر وتآلب عليهما فرق وأما عبد الله بن عباس فلم يلق مقاومة تذكر .

وأرسل على إلى معاوية يدعوه إلى بيعته فتأخر الرسول ثلاثة شهور ثم جاءه بورقة كتب عليها « من معاوية لعل » ففضها فلم يجد شيئا .

تأهب على لغزو الشام وخرج في جيش من المدينة جحفل فقد جىء في طريقه بنبا انتقاض كان يقوده فتیان بنی أمیة وطلحة والزبير إذ نكثا بالبيعة ، وانضم إلى هؤلاء الثوار الولاة الذين عزلهم ، وانضمت إليهم السيدة عائشة وزحف الثوار تقودهم السيدة عائشة إلى البصرة وهناك التقوا بجيش على فانتصر على وقتل طلحة والزبير ، وفي ذلك يقول بعض العلويين :

أَيْمَنَعُنَا الْقَوْمُ مَاءَ الْفُرَاتِ وَفِينَا الرِّمَاحُ وَفِينَا الْجَحْفُ
وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ صَوْلَةٌ إِذَا خَوْفُوهُ الرَّدَى لَمْ يَخَفْ
وَنَحْنُ غَدَاةٌ لَقِينَا الزَّبِيرَ وَطَلْحَةُ - خَضْنَا غَمَارَ التَّلَفِ
فَمَا بَالُنَا أَمْسَ أَسَدَ الْعَرِينِ وَمَا بَالُنَا الْيَوْمَ شَاةَ النِّجَفِ^(٢)

وأسرت السيدة عائشة ثم أعيدت إلى مكة مكربة وتعرف هذه الواقعة بواقعة الجمل ، ويتأهب على من جديد لغزو الشام ثم يخرج في خمسين ألف مقاتل فيلتقي بجيوش معاوية عند

(١) نصحه المغيرة بن شعبة بالترث فلم يصغ له (ابن الأثير ، حوادث سنة ٣٥ هـ)

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨ من طبعة المطبعة البهية والبغدادى خزانة الأدب ج ٢ ص ٣٣٩

صفين ، فلما كان النصر قاب قوسين منه رفع جند معاوية المصاحف وطلبوا التحكيم ، قال على « امضوا » قالوا : بل نجيب إلى كتاب الله . قال : امضوا فمعاوية وعمرو بن العاص وابن أبي السرح والضحاك بن قيس ، ليسوا أصحاب دين ولا كتاب ، لقد صحبتهم والله أطفالا ورجالا فكانوا أشر أطفال وأشر رجال ، امضوا فأنا أعرف بهم منكم ، فتمردوا عليه .

قال معاوية نحتكم إلى كتاب الله فكل منا يختار حكماً وبحكم الحكمان بمقتضى الكتاب ، فإذا اتفق الحكمان على أحدنا أذعن الآخر ورضى البيعة . واختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار أصحاب على أبا موسى الأشعري قال على : لقد خالفتهموني أول مرة فلا تعصوني في الثانية ، اتركوا لي الاختيار . قالوا إلا أبا موسى . واتفقا على خلع الرجلين .

اجتمع الناس فقدم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه ، ثم وقف عمرو وقال : أما أنا فأثبت صاحبي^(١)

وأخذ على وأصحابه يتأهبون للقتال مرة أخرى لولا أن داهمه الموت ولم يمهله فقد اغتاله غيلة أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم .

هذه نظرة عامة لاتفي شيئاً لكننا مضطرون إلى هذا الإيجاز وإلا كان استطرادا . ونستطيع أن نقول إجمالاً : إن العوامل التي أدت إلى هزيمة على هي : أولاً - طبيعة أهل العراق - أنصار على - تلك الطبيعة الشكسة المتمردة التي طالما فزع الولاة منها وصرخوا ، تلك الطبيعة المتلونة التي حدثت ، بالأحنف بن قيس إلى أن يقول « أهل العراق كالومس ، تريد كل يوم بعلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا » . وثانياً - صراحة على وتشدده فيما يراه حقاً فقد رأيت

(١) في سنة ٣٨ هـ التقى الحكمان وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بأذرح في أرض البلقاء فنتيجة الأمر المرجو منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنما خلع على ومعاوية معا . قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أي دهش حين سمعوا خبر ذلك الحكم الذي أسرع على في إنكاره فلشدة استغرابهم وبغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التي دبرها وارتكبها عمرو بن العاص ، أما الحقيقة التي لم يتوصل إلى كشفها إلا من رجع إلى المصادر الأصلية القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإن عمرو بن العاص ما ثبت معاوية ألبتة ولكن بما عهد له من الدهاء والمهارة في أمور السياسة قد بلغ مرامه ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعري على الرضا بالتفحص عن حقوق كل من الخصمين كأنهما متساويا القدر وكان خليفة بايعه جملة وافرة من المؤمنين لا يفضل على من كان واليا على الشام فقط فنتيجة الحكم أي خلع كلا الخصمين إنما كان أن عليا عزل عن الخلافة فلم تبق له إلا ولاية العراق . أما معاوية فخلع مما لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلا بل زاد حظوة عند أصحابه إذ ساواه الحكم بمن كان مده أعلى منه بكثير . (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢٠٧)

كيف عزل الولاة ، وأنت تعرف أنه ألب عليه جماعة من وجوه أنصاره كمصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عاملاً لعل على أزد شير فطمع في بعض المال فأباه عليه على وتوعدّه فقال « لو كان ابن هند ما لحقني بها » وفر إلى معاوية^(١) ، وكذلك يزيد بن حجية التيمي .

وأنت تذكر ما قلناه عن موقف على ومعاوية بالنسبة للموالي^(٢) . لقد كان على رجل دين وكان معاوية رجل سياسة لا يأبه بالواسطة إنما يركض إلى الهدف . وثالثاً - انقياد الجماعات . فقد زعم معاوية وأصحابه أن علياً مشترك في التحريض على عثمان وأن التبعة يجب أن تلقى عليه فصدقت الجماعات وما أهون تصديقها ، وأخذ معاوية يواصل الضرب على هذا الوتر فهو تارة يعلق قميص عثمان في المسجد وتارة يعلق أصبعي نائلة زوجة الشهيد وقد تلقت سيفاً كان مصوباً إليه بعرض يدها فقطعها . ورابعاً - أخلاق معاوية وأظهرها الحلم ثم المداورة قال معاوية بحق « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » وأخبار ذلك الحلم وحكاياته مشحونة بها كتب الأدب والنوادر يحسبها الإنسان خرافات .

أما المداورة فخلق يراه بوضوح كل من قرأ وألم إماماً بأخبار هذا الرجل . ولقد قال عمر ابن الخطاب يوماً لبعض مجالسيه « دهاء قيصر وكسرى لا يعدلان دهاء معاوية »^(٣) ولعلنا نحن إن أوجزنا وختمنا الحديث نذكر كلمة عن معاوية هي « أعنت على على بأربع خصال : كنت أكنم سرى وكان رجلاً يظهره ، وكنت في أصلح جند وأطوعه وكان في أخبث جند وأعصاه ، وكنت أحب إلى قریش منه ، وتركت وأصحاب الجمل وقتل : إن ظفروا به كانوا أهون عليّ منهم وإن ظفروا بهم اغتربها في دينه ، فيالك من جامع إلى ومفرق عنه »^(٤) وبعد على ببيع بالخلافة الحسن ثم نزل عنها لمعاوية سنة ٤١ هـ ولكن الشيعة ثائرة في الكوفة على البيت الأموي وكان على يلعن على المنابر في الشام ومن اعترض فجزأه القتل ، ومن قتلوا في عهد معاوية حجر بن عدي وغيره .

مات معاوية في سنة ٦٠ هـ فخلفه يزيد وطالب الحسين بالخلافة ، وكان الحسين في المدينة

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ص ٩٢ - ٩٣ من طبعة الحلبي سنة ١٣٢٥ هـ

(٢) راجع ما كتبه المؤلف عن الشعوية

(٣) ذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء ص ٧٤ من طبعة الحلبي ١٣٠٥ هـ « كان عمر ينظر اليه (أي معاوية) فيقول

هذا كسرى العرب . . . وقال المقبري تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية »

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

فتركها إلى مكة حيث أرسلت إليه الشيعة في الكوفة تستقدمه فلقبه في سيره جيش أرسله وإلى الكوفة عبيد الله بن زياد وقتله وأهله في كربلاء سنة ٦١ هـ

وليس صحيحاً ما يزعمه المؤرخون المغرضون (أنصار الأمويين) من أن الأمويين غضبوا لمقتل الحسين بدليل أن الأخطل وهو شاعر القصر الأموي تشفى في شعره من الحسين بعد قتله وتوج بالنار سفاح دمه عبيد الله بن زياد وقد وطئ رأس الشهيد (عليه السلام) بقدمه عندما حملت إليه . إنما كان الأمويون ينافقون فيعلنون استنكارهم للجريمة !

وبعد وفاة يزيد بويج مروان بن الحكم فثار الكوفيون وطرّدوا عبيد الله بن زياد وسموا أنفسهم «التوابين» وأقسموا إلا أن يثأروا للحسين ، لكن عبيد الله تغلب عليهم ، وإذ ذاك كان المختار بن عبيد الثقفي ثائراً على الدولة يدعو في الظاهر لمحمد بن الحنفية فانضم إلى الكوفيين وقتل عبيد الله بن زياد . وقد انقسمت الشيعة بعد مصرع الحسين إلى فرقتين عظيمتين^(١) : الأولى : فرقة الاثنى عشرية ، وهي التي تقول بأن الخلافة - حق لأبناء فاطمة ، وقد بايعت بعد الحسين : زين العابدين .

والأئمة الثمانية الذين دعت لهم الشيعة بعد علي والحسن والحسين وزين العابدين هم محمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد التقي وعلي الحنفى وحسن العسكري ومحمد المهدي .

والثانية : الفرقة الكيسانية هي التي دعت لمحمد بن الحنفية^(٢) بن علي من غير فاطمة ثم لابنه أبي هاشم وموطنها خراسان والعراق وزعيمها المختار بن أبي عبيد . وهناك فرق أخرى أقل شأناً أهمها الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والزيدية^(٣) نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين .

(١) انقسمت الفرقتان إلى خمس عشرة فرقة .

(٢) ثالث أبناء علي توفي بالمدينة في أول محرم سنة ٨١ هـ وقيل سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣ بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة وختم أتباعه سلسلة أئمتهم به وفي اعتقادهم أنه مامات ولا فارق الدنيا بل إنه يغيب مدة يجبل رضوى على مسيرة يوم من ينبع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً (ابن خلكان : وفيات الأعيان ترجمة رقم ٥٣١ من طبعة مصر) وأما الكيسانية فنسب إلى كيسان مولى علي أو تلميذ محمد بن الحنفية وتقول بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله

(٣) هم الذين تابعوا زيد بن علي بن الحسين في دعوته وهم الشيعة المعتدلون وإن كان فريق أسرف حتى ليعد خارجاً عنهم . وكان زيد معتدلاً مقسطاً في دعوته وكان خروجه على بني أمية لأنهم قتلوا جده الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ولذلك رفضت الأكثرية الوقوف إلى جانبه لأنه لم يشايعهم في بغضهم وعداوتهم لأبي بكر وعمر (المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٣٢٣)

تشيعت شيعة محمد بن الحنفية بعده لولده هشام ، وكان الخلفاء الأمويون يقربونه منهم ، لكن طيف الغدر طاف بهشام بن عبد الملك فأمر بأن يدس له السم ، وشعر هشام بالسم يدب في عروقه وهو في طريقه إلى المدينة فعرج إلى الخيمة حيث نزل ضيفا على محمد بن عبد الله بن عباس وأوصى له بالبيعة ، فلما توفي أوصى لابنه إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام^(١) .

آراء الشيعة :

اختلط الأمر فلم يكن التشيع فكرة مذهبية في حدود الدين - بل كان التشيع وكرا يلجأ إليه كل ملحد وكل مأفون وكل ساذج . وانتهت هذه الفرق الشيعية بأن دخلتها معتقدات لاتوصف إلا بأنها كفر صريح . وهذه المعتقدات تسربت إليهم من الفرس^(٢) .

شعراء الشيعة :

وأشهرهم في هذا العصر الكميث بن زيد^(٣) وجمعت قصائده وطبعها بعض الناشرين^(٤) بعنوان « الهاشميات » . وللكميث شعر مدح في الأمويين .

وليس من شك في أن الرجل وقف ذلك الموقف الغريب إنقاذاً لحياة ولست أرى ما يراه ابن قتيبة في الكميث إذ يقول « إنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية في الرأي والهوى وشعره في

(١) تقول فرقة من الكيسانية بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأسرار العلوم منه إلى ابنه أبي هاشم وهذا القول مهم جداً لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسست على مذهب القائلين إن أبا هاشم المتوفى في أيام سليمان بن عبد الملك أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس عبد الله السفاح . ولولا ذبوع هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصل السفاح إلى تأسيس الدولة العباسية (كارلوناينو : تاريخ الآداب العربية ص ٢١٧)

(٢) قول الشيعة بالعصمة والتقية والرجعة والمهدية والأئمة عندهم معصومون من الخطأ وهذه أفكار فارسية أدخلها الفرس الذين درجوا على أرستقراطية الملوك وتقديسهم لذلك سماها العرب نزعة كسروية وكانت الفرس قد ألقت منذ زمان طويل نظاما سياسيا أساسه توارث الملك في عائلة فلم يكونوا يتصورون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامة رأسه فالت الفرس طبعاً إلى رأي أهل الشيعة في الإمامة وزيدوا على ذلك (أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٢٦) و(كارلوناينو تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢١٥) .

(٣) الأغاني ص ٦٢٦٥ من طبعة الشعب وابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٦٨ - ٣٧٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٩

(٤) طبعت في ليدن وطبعت في مصر .

بنى أمية أجود منه في الغالبين ولا أرى علة لذلك إلا قوة أسباب الطمع وإثثار النفس لعاجل الدنيا على الآخرة .

لست أرى رأى ابن قتيبة وعندى أن هاشمية من هاشميات الكمية تقول كل ما حفظته لنا المصادر من شعره في الأمويين . كان الرجل يشايح بروحه وقلبه وكان يمدح الأمويين : أيقاس قوله :

بنى هاشم رَهْطُ النِّبِيِّ فَإِنِّي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مِرَاراً وَأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مِنْ جَنَاحِي مَوْدَةً إِلَى كَنْفِ عَطْفَاهُ أَهْلُ وَمَرْحَبُ
وَكُنْتُ لَهُمْ مِنْ هَوَّلَاءِ وَهَوَّلَا مُحِبًّا عَلَى أَنِّي أَذَمُّ وَأَقْصَبُ
وَأَرْمَى وَأَرْمَى بِالْعَدَاوَةِ أَهْلَهَا وَإِنِّي لَأَوْذَى فِيهِمْ وَأُؤَنَّبُ^(١)
بقوله :

فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمِيَّةٍ (م) وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ
يَا بَنَ الْعَقَائِلِ لِلْعَقَائِلِ (م) وَالْجَحَاجِحَةِ الْأَخَايِرِ
مَنْ عَبْدُ شَمْسٍ وَالْأَكَا بَرٍ مِنْ أُمِيَّةٍ فَالْأَكَا بَرِ
إِنْ الْخِلَافَةُ وَالْإِلَافُ (م) بَرُغْمُ ذِي حَسَدٍ وَوَاغِيرُ^(٢)

ومن شعره السياسي قوله :

يَقُولُونَ : لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا ثِرَاتُهُ لَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ
وَلَا نَتَشَلَّتْ عُضْوَيْنِ مِنْهَا يُحَابِرُ وَكَانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ عُضْوٌ مُورَبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيِّ سِوَاهُمْ إِذَنْ فَذَوُو الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
فِيَالِكَ أَمْرًا قَدْ أَشْتَتَ دُمُوعُهُ وَدَارًا تَرَى أَسْبَابَهَا تَتَقَضَّبُ
تَبَدَّلْتُ الْأَشْرَارُ بَعْدَ خِيَارِهَا وَجُدَّ بِهَا مِنْ أُمَةٍ وَهِيَ تَلْعَبُ^(٣)

ومن شعرائهم أيم بن خزيمة الأسدي^(٤) وفي الهاشميين يقول :

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٩٧ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ص ٦٢٧٩

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٣ بتحقيق أحمد شاكر

(٤) من أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس من مضر كان يتشيع وكان أبوه قد اعتزل حرب الجمل وصفين وما بعدها من الأحداث فلم يحضرها وهو الذي أعجب بشعره عبد الملك بن مروان بلجدة معانيه وصوره وملاءمتها لمذهبه السياسي (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٥٤١ بتحقيق أحمد شاكر) و(الأغاني ج ٢٣ ص ٨٠٠٢ من طبعة الشعب)

نَهَارُكُمْ مَكَابِدَةً وَصَوْمٌ وَلَيْلَتُكُمْ صَلَاةٌ وَافْتِرَاءٌ
أَجْعَلُكُمْ وَأَقْوَامًا سَوَاءً وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْهَوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لَأَرْجُلِكُمْ وَأَنْتُمْ لَأَرْؤُسِهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ سَمَاءٌ^(١)

ومن الظواهر البارزة في شعره صعوبة ألفاظه وإسرافه في الغريب ونحسبه كان يتعمد ذلك لأن له شعرا سهلا كالذي سبق . وقد مدح كذلك عبد الملك بن مروان . ومن شعرائهم : الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب^(٢) ، ومن شعره يخاطب بني أمية :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا لاتنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بني عمنا عن نحت أثلتنا سيرا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أننا لا نخبكم ولا نلومكم ألا تحبونا
كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا^(٣)
ومنهم أبو الأسود الدؤلي وهو يقول :

يَقُولُ الْأَرْذُلُونَ بِنُوقَشِيرٍ طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيَا
بَنُو عَمِ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ أَحَبُّ النَّاسِ كُلُّهُمْ إِلَيَا
أَحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ حَتَّى أَجِيءَ إِذَا بُعِثْتُ عَلَى هَوِيَّا^(٤)

ومنهم كذلك سديف بن ميمون^(٥) ، ومن شعره قوله عند خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة وخروج ابنه إبراهيم بالبصرة :

إِنْ الْحَمَامَةُ يَوْمَ الشَّعْبِ مِنْ ضَجْنٍ هَاجَتْ فَوَادٍ عَمِيدٍ دَائِمٍ الْحَزَنُ
إِنَّا لَنَأْمُلُ أَنْ تَرْتَدَّ إِحْتِنَانُ بَعْدَ التَّبَاعَدِ وَالشَّحْنَاءِ وَالْإِحْنِ
وَتَنْقُضِي دَوْلَةً أَحْكَامُ قَادَتِهَا فِينَا كَأَحْكَامِ قَوْمِ عَابِدِي وَثْنِ

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨٠٠٦ - ٨٠٠٧ .

(٢) هاشمي الأيوبي ومن شعراء بني هاشم وفصحائهم (الأغاني ج ١٧ ص ٥٩٦٥ من طبعة الشعب)

(٣) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٢٧٩ والراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٢٨ من طبعة مصر

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣٢ من طبعة مطبعة الاعتماد والمبرد : الكامل ج ٢ ص ١٣١

(٥) سديف بن ميمون مولى خزاعة وهو شاعر مقل من شعراء الحجاز وكان شديد التعصب لبني هاشم (الأغاني ج ١٦

ص ٥٩١٢ من طبعة الشعب وابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٦١ .

فانهض بيعتكم نهض بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بني الحسن^(١)
ومن شعره بعد قيام الدولة العباسية وتولى أبي جعفر المنصور ، وقد بعث به إليه :
أسرفت في قتل الرعيّة ظلماً فاكفف يدك أضلّها مهديّها
فلتأينك راية حسنيّة جرّارة يفتادها حسنيّها^(٢)

الشيعة والبدع :

يقول أستاذنا أحمد أمين « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته . . . »^(٣) ويمضي الأستاذ في تدعيم رأيه بحجج قوية لا تقبل الدفع فيما أرى . وهو كذلك فالشيعة وكر لجأت إليه قبائل من شتى الناس متباينة الجنس وأفرخت فيه عقائدها وأهواءها ، وسأعرض عليك طرفاً من مذاهب الشيعة فالمحمدية زعمت أن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يمت وزعمت أنه في جبل حاجر من ناحية نجد إلى أن يأذن الله له بالخروج^(٤) . وكذلك تزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سجين إلى أن يأذن الله له بالخروج^(٥) .

ويظهر أن الكيسانية والمحمدية أخذتا ذلك عن فرقة أخرى أسبق منهما في التاريخ هي السبائية نسبة إلى عبد الله بن سبأ - من يهود اليمن - وأسلم ، وهو عمود من العمدة التي قامت عليها ودارت حولها مذاهب الفرق الشيعية ، وكان زعيمها من سبأ يقول « إن جئتمونا بدماع عليّ في صرة لم نصدق بموته »^(٦) وذلك مذهب يسميه المؤرخون مذهب الرجعة^(٧) . وهذا

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٧ من طبعة الخايجي ١٩٠٦

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٣٦٧ من طبعة مطبعة الاستقامة

(٣) فجر الإسلام ص ٣٣٠ من طبعة مطبعة الاعتماد .

(٤) المحمدية تعتقد الرجعة وتنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين الذي قتله جيش المنصور سنة ١٤٥ هـ بالمدينة (الفرق بين الفرق ص ٤٢ طبعة بدر) .

(٥) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ طبعة بولاق والعقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٥ طبعة لجنة التأليف

(٦) عملت اليهودية على بث بذور الفتنة بين المسلمين فتقدم عبد الله بن سبأ ولبس ثوب المشفق على الحياة الإسلامية والتقاليد الإسلامية فاستفز الناس واستطاع أن يجلب إليه الدين رأوا في تصرفات عثمان خروجاً منه عن منهج سلفيه وأن سيرته في الحكم اتخذت طريقاً غير الطريق المرسوم من صاحبيه من قبل (ابن حزم : الملل والنحل ج ٢ ص ١١٥)

(٧) الرجعة هي عودة الشخص بنفسه مرة أخرى إلى الحياة الدنيا بعد موته

المذهب أى الرجعة يرمز إلى أن الرجعة من السماء أو من الجبل أو من . . . التخليد أو مذهب البقاء ، دانت بهذا المذهب فرق من الشيعة فخلدت أئمتها .

ومن اعتنقوا هذا المذهب الشاعر الأموى كثير عزة^(١) ، يقول كثير وهو من الكيسانية ، يعاتب محمد بن الحنفية لطول غيابه :

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتِكَ نَفْسِي أَطَلَّتْ بِذَلِكَ الْجَبَلُ الْمُقَامَا^(٢)

ويصور هذا البيت عقيدتين من عقائد الكيسانية « الوصاية » فى الشطر الأول و « الرجعة » فى الشطر الثانى .

أَضَرَّ بِمَعَشَرٍ وَالْوَكَّ مَنَّا	وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا	مُقَامُكَ عَنْهُمْ سَتَيْنَ عَامَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ ^(٣) طَعْمَ مَوْتٍ	وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا
لَقَدْ أَوْفَى بِمُورِقِ شِعْبٍ رَضْوَى	تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَإِنْ لَهُ بِهِ لَمَقِيلَ صَدَقِ	وَأَنْدِيَّةٌ تَحْدُثُهُ كِرَامَا
هَدَانَا اللَّهُ إِذْ جُرْتُمْ لِأَمْرِ	بِهِ وَلَدِيهِ نَلْتَمِسُ التَّامَا
تَمَامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدَى حَتَّى	تَرَوْا رَايَاتِنَا تَتْرَى نِظَامَا ^(٤)

أما هذا المهدي عند كثير فهو محمد بن الحنفية .

ولكثير :

أَقْرَ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي	أَمِينُ اللَّهِ يَلْطُفُ فِي السُّؤَالِ
وَأَتْنِي فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرٍ	وَيَسْأَلُ عَنِ بَنَى وَكَيْفِ حَالِي
وَكَيْفِ ذَكَرْتَ حَالِ أَبِي خُبَيْبٍ	وَزَلَّةَ فَعَلَهُ عِنْدَ السُّؤَالِ
هُوَ الْمَهْدَى خَيْرُنَاهُ كَعَبُ	أَخَوِ الْأَحْبَارِ فِي الْحَقِّبِ الْخَوَالِي ^(٥)

(١) مضى ذكره فى باب الغزل

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٣١٣٤ من طبعة الشعب ورواه المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠١ من طبعة المطبعة

البيية وينسبه الى السيد الحميرى .

(٣) خولة : اسم أم محمد بن الحنفية

(٤) الأغاني ج ٩ ص ٣١٣٤ من طبعة الشعب

(٥) المصدر السابق ص ٣١٣٦

ومن شعر لكثير في محمد بن الحنفية وقد حبسه ابن الزبير :
 ومن ير هذا الشيخ بالخيف من مني من الناس يعلم أنه غير ظالم
 سمى النبي المصطفى وابن عمه وفكأك أغلال ونفأ غارم
 أبى فهو لا يشرى هدى بضلالة ولا يتقى في الله لومة لائم
 ونحن بحمد الله نتلو كتابه حلولا بهذا الخيف خيف المحارم
 بحيث الحمام آمن الروع ساكن وحيث العدو كالصديق المسالم^(١)
 فما فرح الدنيا بياق لأهله ولا شدة البلوى بضربة لازم
 تُخبر من لا قيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن عارم^(٢)

والخطاب في البيت الأخير لابن الزبير .

ومن شعره :

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
 ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنين^(٣)
 وبكى أهل كثير وقد حضرته الوفاة فقال لهم « خففوا عنكم فإني عائد بعد
 أربعين ليلة »^(٤) .

ومن بدع الشيعة زعمهم أن عليا وصي النبي فالخلافة حق شرعى له وأن أبناء علي أوصياؤه
 من بعده .

ونحن نسجل أن هذه العقيدة من تعاليم الفرس نشرها بين الشيعة متشيعون ، وأنت تعرف
 نظرية حق الملوك الإلهي . The theory of the divine Right التي دان بها الفرس أجيالا .

ومن بدع الشيعة أيضا تأليه بعض الفرق لبعض الأئمة كالبيان التي زعمت أن الإمامة
 صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنه هشام عبد الإله بن محمد ثم صارت من أبي هاشم إلى

(١) هذا البيت يذكرنا بأشعار المتصوفين في مناجاة الله

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٣١٣٥ من طبعة الشعب .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٩ من طبعة مطبعة المعارف

(٤) الأغاني ج ٩ ص ٣١٥٦ من طبعة الشعب

بيان^(١) زعيمهم . ومنهم من يؤلهه ومنهم من يجعل له مقام النبوة .
ومن الروافض^(٢) « وهم الغلاة » من أله جعفر الصادق وفي ذلك يقول هارون بن سعيد
العجلي :

ألم تر أن الرافضين تفرّقوا فكلهم من جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إله ومنهم طوائف سمته النبي المطهرا
ومن عجب لم أفض جلد جَعْفَرٍ^(٣) برئت إلى الرحمن فيمن تجعفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض يصير باب الكفر في الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مَضَوَا عليها وإن يمضوا إلى الحق قصرا
ولو قال إن الفيل ضب لصدقوا ولو قيل زنجي تحول أحمر^(٤)

المرجئة

الإرجاء بمعنى التأخير ، يقال أرجيت كذا وأرجأته إذا أخرته ، وسموا المرجئة لأنهم أرجئوا
الحكم على أمر عليّ وعثمان إلى يوم القيامة وقالوا : يحكم بينهما الله ليس لنا أن نحكم على
أحدهما بالكفر أو الإيمان مخالفين في ذلك الخوارج والشيعة ، فمن الأولين من كفر عليا ومن
الآخرين من كفر أبا بكر وعمر وعثمان لأنهم تولوا الخلافة متخطين حقا شرعيا لعلي بن أبي
طالب .

وأول من قال بالإرجاء الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب - فيما يقال - وكانت
المرجئة في أول الأمر فرقة سياسية ثم كرهت السياسة وتركتها للشيعة والخوارج والحكومة

(١) بيان بن سميان التميمي ، اشترك في الحركة التي أحدثها الجعد بن درهم في الكوفة وكانت سبب قتله بيد الوالي خالد
القسري وهو أول من قال بخلق القرآن وكان يعتقد أن إله السماء غير إله الأرض وأنها مختلفان وأن إله السماء يفنى جميعه
إلا وجهه وأضاف أتباعه إلى ذلك أن هذا الإله من نور (ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ - طبعة دار الكتب
والكشفي : أخبار الرجال ص ١٩٦ - بومباي) و (الفرق بين الفرق ص ٢١٤ طبعة بدر) .

(٢) الروافض هم الذين رفضوا أن يمضوا مع زيد بن علي بن الحسين في القتال معه إلى نهايته وهذه التسمية تطلق أيضا
على المخالفين عدا أهل السنة والإمامية

(٣) إشارة إلى ما قاله فرقة رافضة « الخطابية » زعموا أن جعفرأ أودعهم جلدا فيه علم ما يحتاجون إليه وسموا ذلك الجلد

جعفرا

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٥ من طبعة دار الكتب

وانصرفت إلى بحث المسائل الفقهية وجماع رأيهم - رأى أغلبهم في الإيمان أنه التوحيد والشهادة .

قال أستاذنا أحمد أمين : « رأى كثير من المرجئة أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله فمن عرف أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن » ^(١) .

وقال في موضع آخر « فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة » ^(٢)

وقال أحمد بن محمد بن المظفر الرازي (القرن السابع) في كتابه حجج القرآن من الباب الرابع « حجج المرجئة » ^(٣) في أن مرتكب الكبائر مسلم ومؤمن ويقولون : إنه ورد في سورة النور (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ^(٤) ، وفي الفصل الثاني أن مرتكب الكبيرة يستحق المغفرة ، ففي سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ^(٥) . وفي الفصل الثالث أن مرتكب الكبيرة يستحق الرحمة ففي سورة الأنعام (فإن كذبوك فَقُلْ ربكم ذو رحمة واسعة) ^(٦) .

إن مرتكب الكبيرة تدعوه الملائكة والأنبياء ففي سورة غافر (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) ^(٧) ، ولم يقل : والذين عملوا الصالحات .

وفي الفصل السابع أنه بشرف في سورة البقرة (وبشر المؤمنين) وأنه (أى مرتكب الكبيرة) ليس للشيطان عليه سلطان ، ففي سورة النحل (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ^(٨) .

(١) فجر الإسلام ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ القاهرة ١٩٢٨

(٢) المصدر السابق

(٣) الفصل الأول

(٤) آية ٣١

(٥) آية ٤٨

(٦) آية ١٤٧

(٧) آية ٧

(٨) آية ٩٩

ولا نغضى في هذا وإلا لتعرضنا للاتهام بالخروج عن موضوع البحث فلنعد إلى الشعر.
ولنرو لك من قصيدة لثابت بن قطنة ^(١) في الإرجاء ^(٢) :

يا هِنْدُ فاستمعي لي إن سِرتنا	أَنْ نَعْبُدَ اللهَ لم نُشْرِكْ به أَحدا
نُرْجِي الأمورَ إذا كانت مُشَبَّهة	وَنَصْدُقُ القولَ فيمن جَارَ أو عَندا
المُسْلِمونَ على الإسلامِ كُلِّهمُ	والمُشْرِكونَ أَشْتَوا دِينَهُم قَدَدَا ^(٣)
ولا أَرَى أَنَّ ذَنْباً بالغُ أَحَدًا	مِ النَّاسِ شِرْكَاً إذا ما وَحَدُوا الصِّمَدَا
لا نَسْفِكُ الدَّمَ إِلَّا أن يُرَادَ بنا	سَفْكُ الدِّمَاءِ طَرِيقاً واحداً جَدَدَا
مَنْ يَتَّقِ اللهَ في الدنيا فَإِنَّ له	أَجْرَ التَّقَى إذا وَفَى الحِسَابَ غَدَا
وما قَضَى اللهَ من أمرٍ فليس له	رَدٌّ وما يَقْضَى من شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدَا
كُلُّ الخَوارجِ مُخْطِئٌ في مَقَالته	ولو تَعَبَّدَ فيها قَالَ واجْتَهَدَا
أما عَلِيٌّ وَعُمَانُ فَإِنِهما	عَبْدَانِ لَمْ يُشْرِكَا باللهِ مُذْ عَبَدَا
وكانَ بينهما شَغَبٌ وقد شَهِدَا	شَقَّ العَصَا وَبَعَيْنِ اللهِ ما شَهِدَا
يُجْزَى عَلِيٌّ وَعُمَانُ بِسَعْيِهما	ولستُ أَذْرى بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
اللهُ يَعْلَمُ ماذا يَحْضُرانَ به	وكل عبد سِيَلَقَى اللهَ مُنْفَرَدَا ^(٤)

ولنصر بن سيار في قصيدة يهجو بها جماعة المرجئة منها ^(٥) :

إِرْجَاؤُكُمْ لَزَكَمَ وَالشُّرْكَ في قَرْنٍ	فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاكِ وَمُرْجُونَا
لا يُبْعَدُ اللهَ في الأحداثِ غَيْرُكُمْ	إِذْ كانَ دِينُكُمْ بِالشُّرْكِ مَقْرُونَا
أَلْقَى به اللهَ رُعباً في نَحْوِركُمْ	واللهُ يَقْضِي لَنَا الحُسْنَى وَيُعْلِينَا

(١) هو ثابت بن كعب ويكنى أبا العلاء وهو شاعر فارسي شجاع من شعراء الدولة الأموية (الأغاني ج ١٤ ص

٥١٢٩ من طبعة الشعب)

(٢) رواها كاملة الطبري ج ٢ ص ١٥٧٦ من طبعة أوروبا والأغاني ج ١٤ ص ٥١٣٧ من طبعة الشعب

(٣) قددا : فرقا

(٤) الأغاني ج ١٤ ص ٥١٣٧ من طبعة الشعب

(٥) الطبري : القسم السابع ص ١٠٠ من طبعة أوروبا .

الكتاب الثاني

الشعر العباسي في العصر الأول
تطور الشعر

ما التطور؟

هو الانتقال من حال إلى حال . فما تطور الشعر العربى فى العصر العباسى ، هو انتقال من البسيط إلى المركب وقد تحلل هذا المركب العام إلى جزئيات قد تبدو بسيطة وليست بسيطة فهذه الجزئيات ما كانت لتوجد لولا التركيب السابق .

كان الشعر الأموى عربيا خالصا لأن الشعب الأموى كان عربيا خالصا أو كالحالص . أما الشعر العباسى فمركب لأن الشعب العباسى مركب من شعوب شتى امتزجت وتفاعلت ثقافتها المختلفة ، ثم أكب الشعراء على نفوسهم الخاصة فطبعوا على القرطاس ما يجدون فيها ومنها فهذا أبو العتاهية زاهد متصوف ، وهذا أبو نواس أسير غريزة شاذة وهذا ابن الأحنف عاشق للجارية وهكذا . . . على أنك إذا حللت شعرا لهؤلاء أو غير هؤلاء من معاصريهم على ضوء شعره تبين أن هذا الشعر جد متشابك وأن هذه النفس كثيرة التفرق .

ومادام هذا التطور امتزاج العرب بغيرهم من الأمم فلنحدثك أول ما نحدثك عن التوليد .

التوليد

هو أن يختلط رجل من أمةٍ بامرأة من أمةٍ أخرى فينسل اختلاطها ولدا «مولدا» يجرى في عروقه دم الأمتين .

المجتمع البغدادى خليط من العرب والفرس والخراسانيين والروم واليونان والقبط والأرمن والترك والزنوج وأهل السند .

وهذه الشعوب امتزجت امتزاجا قويا واختلطت أنسابها ، وساعد على هذا الاختلاط كثرة السرارى والجوارى اللاتي أسرن في الحروب الإسلامية ، وربما أسرمنهن في الحرب الواحدة ألوف ، وهؤلاء الجوارى كان يجرى عليهن ما يجرى على سائر غنائم الحرب وهى الخمس للمال الدولة والأربعة أخماس توزع على الجيش للراجل سهم وللفرس سهان .

وكثر عددهن بكثرة الحروب كثرة فاحشة حتى كان فى بعض القصور ألوف من الجوارى - ولم يكتف الناس بسبايا الحروب بل اتجروا بهن وجلبوهن من مختلف البلاد - ولا نستطرد فى هذا فسنخصص للجوارى بابا فى الموضع المناسب .

ونقول : إن هذه الدماء امتزجت هى وغالب المولدين فى ذلك العصر مع أبناء الجنسية الواحدة من الخلفاء وكان أكثرهم مولداً فوسى الهادى وأخوه هارون الرشيد ولدا سبية من خرشنة هى «الخيزران» والمنصور أمه «سلامة» بربرية من بلاد المغرب والمأمون أمه جارية فارسية اسمها «مراجل» والمعتصم أمه جارية والمتوكل أمه جارية ، وهكذا أغلب الخلفاء من أبناء الإماء .

شعراء العصر كان أغلبهم من الموالى مثل بشار وحماة عجرد وأبى نواس وأبى العتاهية ومسلم ابن الوليد ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبى دلامة وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والضحاك وديك الجن والرقاشى وابن منذر والعكوك والرياشى . ونجد بين من ذكرناهم موال ، والراجع أنهم مولدون - أغلبهم مولد على أقل تقدير .

نقول بادئ ذى بدء إن لكل شعب خصائص ومميزات فطبعي أن يكون لجيل مولد خصائص تميزه عن الجيل الصريح النسب الخالص الجنس .

وإذن فلا بد أن نستعرض قوانين الوراثة ، ونرى رأى العلماء فى التوليد ثم نصدر حكماً على هذا الجيل الجديد .

هذا الوليد صبيح الوجه مليح القسمات سريع اللفتات مفعم قوة وحياة تنظر إليه فتكاد تنبهه عيونك فما بال ذاك يستقبل الشمس شاحب الوجه أعجف العود جامد النظرات ؟ . هذا الطفل دفعوا به إلى المؤدب فشهد له بسرعة الخاطر وتوقد الذكاء فما بال ذاك مطبق الفهم فيه ما فيه من غباء ؟

وهذا الغلام نبيل المشاعر يسيل رقة وحناناً وذاك شكس صلف عنيد فما السر المغيب وما الطلمس المحجب ؟

زعم قوم ويزعمون أنها المصادفة المحضة ولكن المصادفة هنا معناها الجهل بالسرفهم جهلوه فعزوا الأمر إلى المصادفة ، والعلم ما يزال يكشف أسراراً ما كان ليصل إليها بالخيال آباؤنا الأولون .

الإنسان بعناصره الثلاثة :

١ - المادى وهو الجسم .

٢ - المعنوى وهو النفس .

٣ - أداة الوصل بينهما وهى العقل - خاضع لقانون الحياة العام ألا وهو الوراثة .

نحدثك عن التوليد Engeration ولكن ما السبيل إليه وهو فرع - ولما نحدثك عن الوراثة وقوانينها وهى أصل ؟

الوراثة قانون الحياة الصارم ودستورها الأعلى وإن أنكرها ولا يزال ينكرها من ينكرون الجانب المادى « الفسيولوجى » من الموضوع ، فقد درس منذ أمد بعيد وفرغ منه . أما الجانب « السيكولوجى » فلا يزال متخلفاً عنه وإن كان قد وصل إلى نتائج لا بأس بها .

منذ فجر التاريخ لاحظ الناس أن ظواهر نفسية وأخلاقية تنتقل بالوراثة كما تنتقل الظواهر الجسدية والأمراض والخواص الطبيعية ، ولقد آمن بذلك « الكتاب المقدس Bible » ، كما آمنت به شريعة مانى . ولكن أهمية الموضوع لم تدرك قبل أيامنا هذه حتى فى هذه الأيام لا يتحدث عنه الباحثون بجلاء ووضوح إلا بشيء غير يسير من المشقة والنصب .

الكل متفقون في أثر الوراثة المادى لأنه محسوس ، فالقصد كما يقول عنه «Liebreicht» يطرد في البلاد المتمدينة .

وكذلك الأمر في الحواس : فكثير من الموسيقيين موسومون بالصمم Surdit -mutit  وبرقة الأذن .

« وكثير من العائلات يعتمد على اليد اليسرى دون اليمنى كما لوحظ أن الذين قضوا مددا طويلة لا يعملون عملا يدويا ينسلون أولادا قصار الأيدي^(١) » .
« الإنجليز الصغار الذين يتعلمون الكتابة في فرنسا يميل خطهم إلى الخط الإنجليزى »
وقال بعضهم :

« أما أنا فقد حققت حالات عدة وحركات معينة وعادات رديئة وأدواء » حركات عديمة الفائدة وأخرى مثيرة للضحك تنتقل في حالات لا يمكن أن نعزوها إلى المحاكاة «Imitation» كهذا الذى ورث عن أمه التى ماتت في مرض الولادة (النفاس) حركة شاذة خاصة .

نكتفى بهذه الإشارة إلى أثر الوراثة في الجسم ثم نقول :
إن بين الجسم والعقل ارتباطاً شديداً ، لقد اختلف العلماء في طبيعة العقل ، فقال القدماء إنه شبح لجسم الإنسان اتخذه مسكناً .
قال أرسطو « بل هو مادة روحانية » وقال بعض تلاميذه « بل هو ذرات مستديرة شفافة »
وقال أصحاب النظرية السلوكية Behaviourism « إن هو إلا رد فعل على المؤثرات والمنبهات » .

ومهما يكن الخلاف بين هذه النظريات - ما أشرت إليه منها إشارة وما لم أشر - فإن علماء السيكلوجيا التجريبية وعلماء السيكلوجيا النظرية على السواء متفقون في ارتباط العقل والجسم فمنهم من قال : إن العقل والمخ شيء واحد وإنما هما مظهران مختلفان لشيء واحد . ومنهم من قال : إن المخ ولّد العقل كما ولّد الأيدروجين والأكسجين الماء .

نظرية التفاعل Interactionism :

قالوا إن الإنسان إن فكر في تناول شيء تحركت يده تحركاً آلياً بحركة موصلة من أعصابه

المحنة الدافعة ، كما أن العينين ترى الأشياء فتعكس صورها في الذهن أو بعبارة أبسط فيدركها العقل ، ورد عليهم خصومهم بأن الفكر وهو شيء غير بادٍ لا يمكن أن يؤثر في شيء مادي فليس بين العقل والجسم علاقة سببية وإنما كل حركة عقلية يصحبها مظهر خاص .

ويؤيد هؤلاء نظريتهم وهي نظرية التوازن Parallelism بأمثلة كثيرة كالشخصية المزدوجة وهي من مباحث التشريع الجنائي . وقد رد عليهم خصومهم بأدلة كثيرة مناقضة كقولهم لو صح مذهبكم فلم يتشتت فكر مستغرق متسلسل عند صوت غنائى ؟

ومهما يكن فأننا أكره أن أخوض معك غمار هذه النظريات في هذا البحث وكل الذى أريد أن نتفق فيه هو أن بين العقل والجسم ارتباطاً شديداً ، الواسطة فيه «الجهاز العصبى» ويروى بعض أن الإنسان عقل وجسم فهو يجعل العقل والنفس شيئاً واحداً ، وأنا أميل إلى هذا رأى بل أرى أن الإنسان عقل وجسم ونفس وأن للعقل وظيفة وللنفس وظيفة وبين العقل والجسم ارتباطاً كما أن بين النفس والجسم ارتباطاً ، ولا أحب أن نطيل في شرح مثل هذه الروابط فحسبنا في مثل هذا البحث أن نلاحظ أن كل شعور نفسى له مظهر أو أثر جسمى فأنت إذا غضبت ارتجفت أعضائك واحمر وجهك ، وإذا خجلت - ولا خجلت - احمر وجهك ، وأنت إذا نظرت إلى صورة من صور الطبيعة خلافة شعرت بهدوء في النفس واطمئنان وارتياح ثم أظهرت أثر شعورك كأن يسترخى جسمك وأنت تنظر عند أطرافك أو يميل رأسك ناحية ما . وبعبارة قصيرة تكون في حالة - انسجام - كما يعبر البعض أن العاشق وهو مع عشيقته يتجاذبان أطراف الهوى تبدو عليه صور خاصة كأن تثقل جفونه حتى ليحسبه الناظر نشوان خمر أو وسان طاف به الكرى .

وبعد فيظهر أن الوراثة نقل عام للخصائص الأولية كما يقول Gandolle . وقد استشهد إخواننا الغربيون على أثر وراثة النفس بعائلة Back وعائلات أخرى نبغت في التصوير والرسم^(١) ، فنذ سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ نسل Fetis ٥٧ موسيقياً من بينهم ٢٩ تفوقوا وبرزوا .

ولقد درس M. Arréat ٣٠٠ حالة في رسالة Saychologie de Peintre فوجد أن ثلثهم أبناء رسامين أو عمال فنيون واستشهدوا بعائلات :

Des Jussieu — Des Cassini — Des Candolles — Des Saussure Bunoulli... etc.

ويلوح لنا أن الأمثلة في الأدب أقل منه في غيره (وربما كان هذا لتنوعه وتشعبه). ومن شاء أن يقتنع أكثر من هذا فعليه بقراءة كتاب Eridatory Genias (توارث العبقريّة) لمؤلفه « Galton » ، ومع ذلك فنحن لا نعدم أمثلة من تاريخ أدبنا ، فعائلات الشعراء كثيرة جداً نذكر منها عائلة عبد القدوس والنعمان بن بشير (جده وأبوه وعمه وحفدته) شعراء . وعائلة جرير بن عطية الخطفي (كثيرون) وعائلة دعبل بن علي الخزاعي (من أشهرها عمه أبو الشيص وولده جندل) وعائلة أبان اللاحق وعائلة أبي العتاهية وآل أبي أمية وآل المعدل وآل أبي عيينة والمهلبى والراعى والأخطل وابن أخته القطامى وامرئ القيس وأبى الشعبي وابنه عبد الله وطرفه وأخته الحادرة . . . إلخ .

ولا يجوز أن هؤلاء كانوا يتعلمون الشعر من آبائهم فهم يلقنونه صناعة وليسوا شعراء بالطبع لأن فيهم الفحول والمجيدى كالقطامى ابن أخت الأخطل ودعبل (عمه أبو الشيص) وحادرة (أخت طرفة) وكعب بن زهير .

فهؤلاء كان لهم بلا ريب استعداد خاص هياً لهم النبوغ .

الانتقال الوراثى :

التاريخ باب من أبواب دراسته ، ومن الأبحاث الهامة فى هذا الموضوع كتاب Weidermeister وكتاب La Selection (الاختيار) لمؤلفه Jocoly ورسائل لصاحبيها Deryérine و Ireland نخص بالذكر رسالته الأخيرة وهى « تاريخ المرض العصبى الوراثى فى البيت الإسبانى » Histoire de la Nevrose Hereditaire de la maison d'Espagn وهذا الكتاب يتكلم عن تاريخ المرض فى ثلثمائة وخمسين سنة ويشمل ثمانية أجيال من الناس .

وخاتمة هذا الكتاب غير مشجعة فقد لخصها أحدهما فيما يأتى « ما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع » .

إن التاريخ المجيد لهذه العائلات الكبيرة ليستحيل استحالة سيئة سريعة والشعوب أفراد . من المفيد أيضاً أن نلاحظ أن « الخلق القومى » ثابت عند الشعوب ، وهذا الخلق القومى هو الصفات والنقائص مرتبة ترتيباً سيكولوجياً واضحاً يشاهد باستمرار وبقوة فى تاريخ الأمة منذ المهد .

يجب أن نفرّد بلا شك جزءاً عظيماً من هذا النقل الوراثي لأثر التعليم والعادات والأنظمة العامة ، فلها قوة فعالة في ذلك القهر Loonservatrise تكن هذه المؤثرات لأن الأخلاق الحقيقية Varis لا تتغير عند الأمم أكثر مما تتغير عند الأفراد .

وبعد قليل نخير ما نختم به هذه المقدمات أن نلفت نظر الذين ينكرون «الوراثة» إلى وصية الرجل الأمريكي الذي تزوج امرأتين إحداهما حصّان والأخرى بغى وأوصى بأن يحصى نسله من كليهما بعد كذا من الذريات ، فإن النسبة ٩٤٪ من نسل أولادهما تتقلد المناصب الرسمية وتمتحن المحاماة والطب والهندسة . على حين ٩٩٪ من نسل الثانية مشردون تطاردهم الحكومة وترج بهم إلى السجون .

وبعد هذا الاستعراض السريع يعرض للذهن سؤال هل للانتقال الوراثي قوانين ؟ وليسهل علينا فهمها يجب أن نعرف ما الخلية البشرية ؟

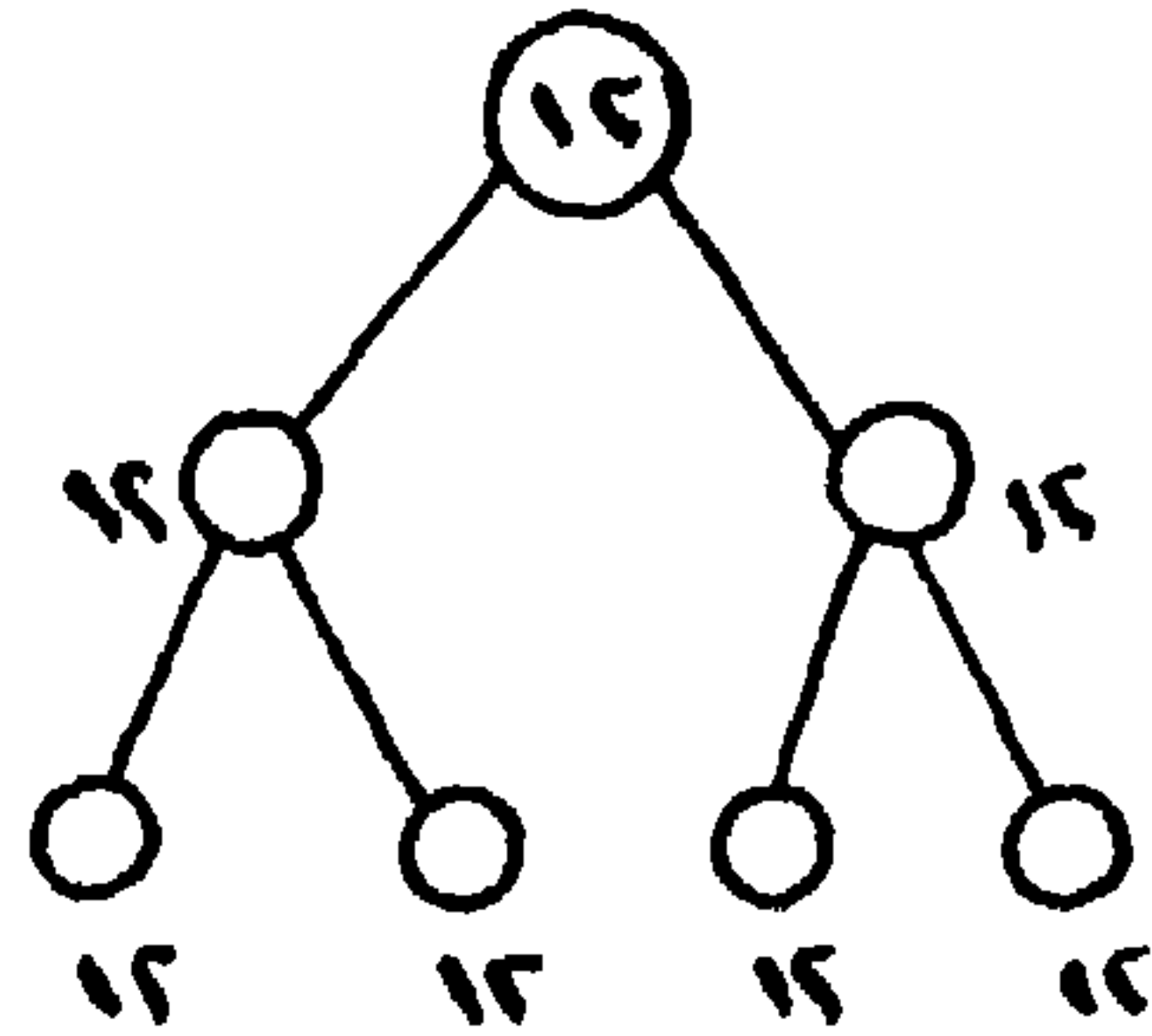
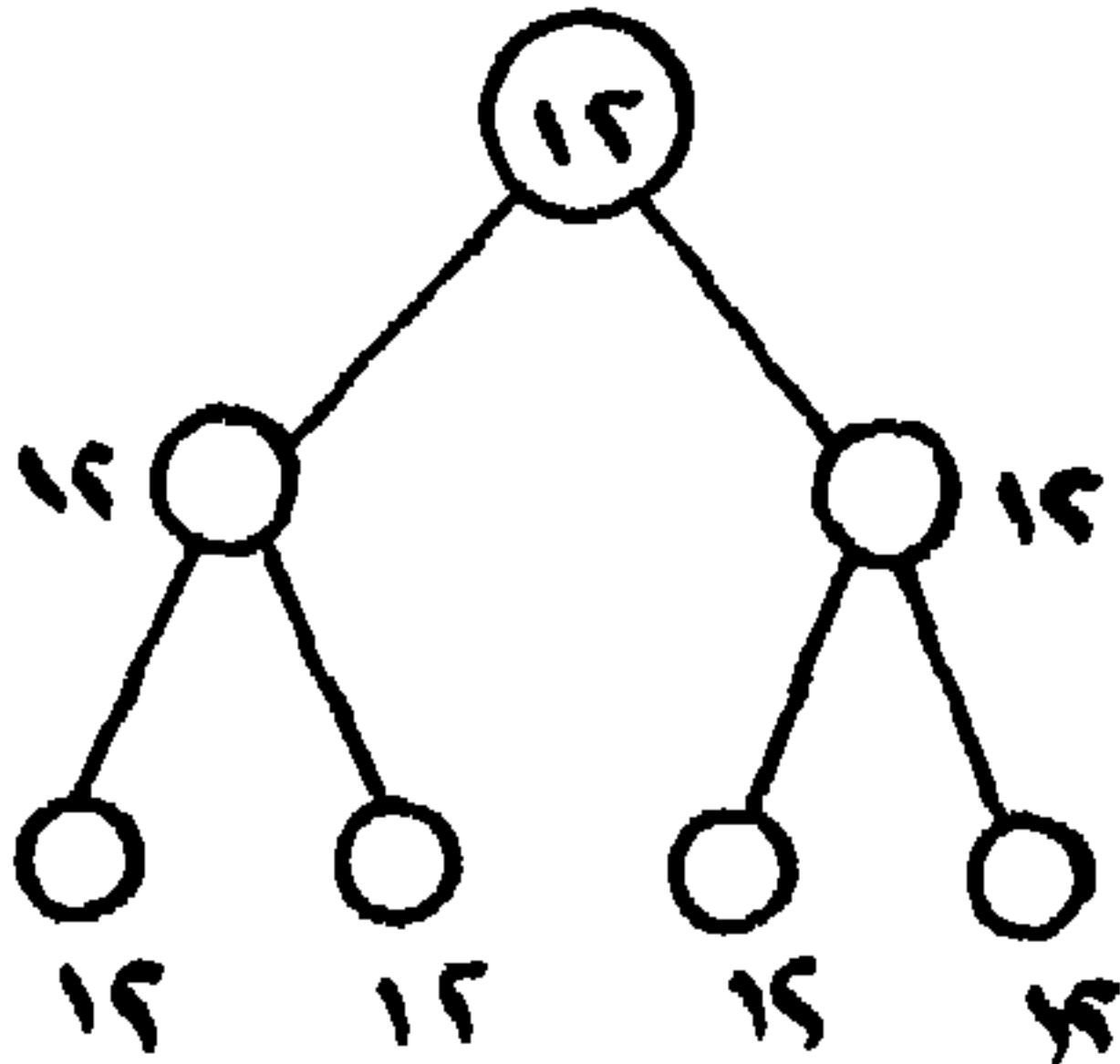
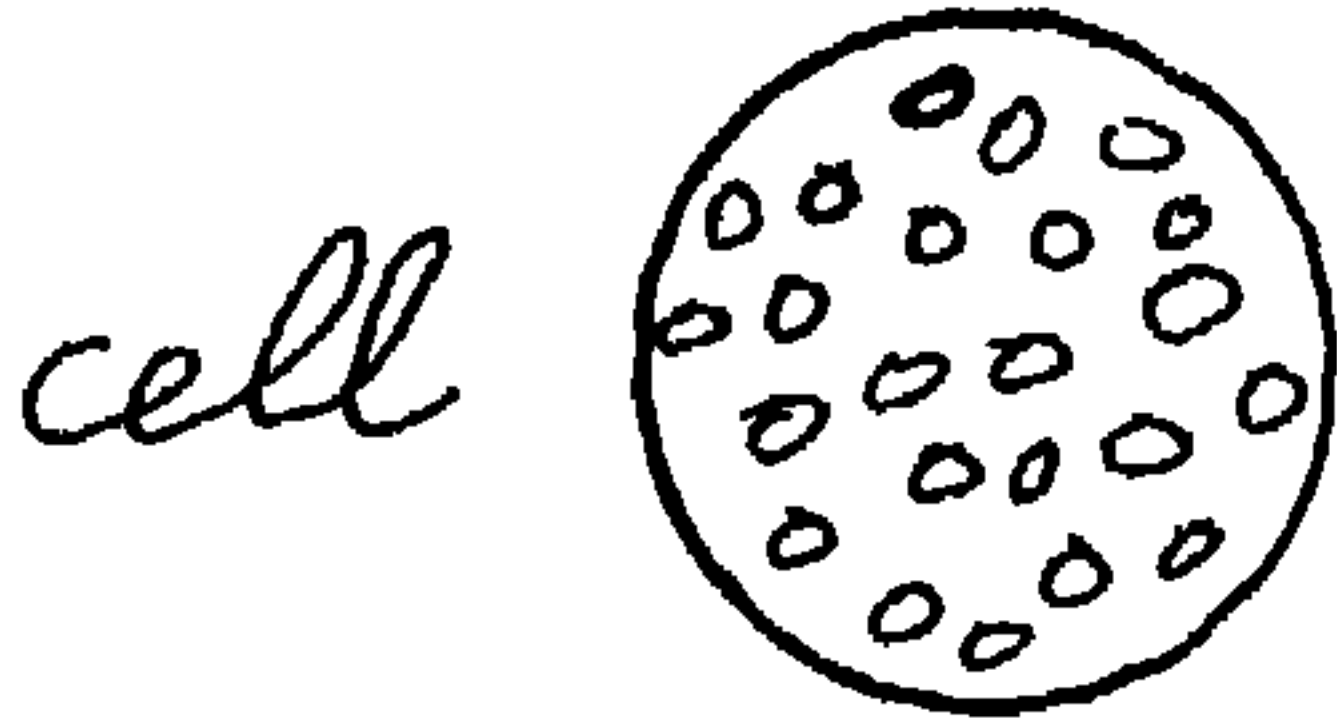
الخلية البشرية

CELL

الخلية في الإنسان مكونة من ٢٤ قطعة

١٢ منها Microjametocytes O Male

و ١٢ Microjametocytes O Female



أى أن كل قطعة تنجزاً إلى قسمين وكل قسم ينقسم قسمين وهكذا بالتتابع وهو ما يسمى بالتوالد .

ويتكون الجنين Offspring إذا ما لقح أحد هذه الأجزاء الذكرية جزءاً من الأجزاء الأنثوية .

وإذن فمن كل والد $\frac{1}{4}$ (١٢ خلية) وكل $\frac{1}{4}$ يقسم قسمين فأبو الجنين ورث عن أبيه $\frac{1}{4}$ خلاياه ، فكأن الجنين يرث $\frac{1}{4}$ الخلايا من جده ، و $\frac{1}{4}$ كذلك من جدته ، وإذن فالنصف من أبويه والنصف من جدية و $\frac{1}{8}$ من الجد الثاني وهكذا إلى ما شاء الله .
هذا هو القانون العام لكننا سنفصل كل هذا .

قوانين الوراثة

ولا نريد بهذا العنوان أن نعرف القوانين العلمية تعريفاً واضحاً علمياً ، فذلك مستحيل استحالة مطلقة . والقانون العلمي وحده هو الذى يجعلنا نتنبأ بأن هؤلاء الأولاد الذين انحدروا من هؤلاء الذين ولدوا فى هذه الظروف المعينة سيرثون هذه الأخلاق الغالبة - من يحسر على التنبؤ بنبوءة كهذه ؟

ولكن هذه القوانين صارمة وعامة لأنها بنت التجربة والاستقراء ، وهذه القوانين كما حصرها Hegel ثمانية لكننا نستطيع أن نحصر ثمانية فى أربعة .

١ - قانون الوراثة المباشر :

« الآباء يورثون بنينهم أخلاقهم وعقولهم » هذا هو القانون العقلى النظرى الذى توصل إليه بعد عدة فروض عقلية أثبتت فى النهاية باطراد أن النسل يرث من أبيه أخلاقاً ومن أمه كذلك ، وليس لنا دليل من الواقع الملموس على هذا . وأحياناً ينقل الوالدان المظاهر الخارجة ويورث الآخر الصفات النفسية ^(١) .

٢ - قانون التغلب :

« التغلب Predominator هو الذى يؤثر فى الولد التأثير الأكبر » . والرأى الشائع بين

(١) وقد عملت عدة تجارب منها « أنهم خلطوا » « البول دوج » و « الكلب السلاقى » فاختفت ملامح « البول دوج »

تماماً بعد سبع ذريات ولكن صفات الشجاعة والثبات ظلت ثابتة لم تمتح ولم تضعف « (دارون)

الناس هو أن القانون التشكيلي يسود « البنت تشبه الوالد والولد يشبه الأم » ولا شيء يحقق هذا الغرض ولو أن كثيرا من العلماء تشبثوا به نذكر منهم Baffon

٣ - قانون الوراثة الرجعية أو وراثة الأجداد : Atavisme :

كثيرا ما يرث النسل صفات نفسية أو ظواهر جسدية عن جدودهم لا يشبهون فيها آباءهم ولا أمهاتهم ، وقد سبق شرح ذلك وإنما نضيف مرضا عائليا قد يتخطى ذرية أو أكثر ثم يصيب ذرية .

ومن الحالات الوراثة الرجعية مشابهة العم Véredité Eollatérale أحيانا في شيء أو أشياء ولا تعليل لذلك إلا أن الولد والعم ورثا هذا الشيء المشترك في جد مشترك . وهذا يفسر لنا كذلك ما نراه من نزعة بعض النساء إلى التزوي بزى أخلاق الرجال وذلك غالبا بعد استئصال المبيض أو إذا بلغن من الكبر عتيا .

٤ - قانون الوراثة في العصور المترسلة من الحياة :

“Loi d'heredité aux epoques covorespondante la vie”.

استعدادات طبيعية وعقلية معينة تظهر في النسل في نفس السن التي ظهرت فيها في الأصل .

شاهد مثل هذا في الصمم وفي الأمراض العصبية والعقلية . وداء الانتحار يستحق تنويعها خاصا فهو منتشر جدا فمذ القرن الماضي كان (فولتير) يلفت إلى هذه الظاهرة أنظار الطبيعيين Physiciens وقد لوحظ في فترات معينة الانتحار بنفس الوسيلة إما بالغرق أو بالقذف من النافذة أو بالقذف من السطوح أو إشعال النار .

وهذا النوع من الوراثة لا يختلف و (الوراثة العادية) فهو قضاء وقدر كمين تجلبه للوالد أو للأم طبيعة غير ثابتة تترجمها الأعضاء بالانتحار أو الجنون . الطفل يولد سليماً في الظاهر ، ولكن الوصية القاسية سطرت في عروقه وجرت في مجارى دمه . وهل هناك أدل على سلطان الوراثة التي تثقلنا فنوء بها من ذلك الذى يتعحر وهو بلا ضمير وهو خلى بال ؟ .

الاستثناءات

دراسة قوانين الوراثة لا تكون تامة إذا لم تدرس الاستثناءات ، إن نقائص انتقال الوراثة كثيرة حتى إنك لتسائل نفسك أكثر من مرة أموجودة هي أم لا ؟ أفما سمعت أكثر من مرة قائلاً يقول « هذا الطفل لا يشبه في شيء والديه إنه شاذ في العائلة » . إن خصوم نظرية الوراثة ولا سيما السيكلوجيون اعتمدوا على مثل هذه الحالات فأنكروها . إن الصعوبة لتفحص كثيراً إذا أحسنا صياغة المسألة . لم نر قط أبيضين نسلاً أسود أو كلبين من فصيلة « البولج » نسلاً كلباً من فصيلة « السلوق » . إن الشيء ينتج مثله Sa semblable produit le semblable هذه قاعدة تقرر نفسها بالبداية ، وهذا يعنى أن الأخلاق العامة والنوعين Spessifiqua تورث دائماً L'heredite et la loi, la mon-heredité est l'escipاً من الصعب بل من المستحيل أحياناً تعليل هذه الاستثناءات وهذا يثبت نقص علومنا لا عطب قانوننا . إن نمو الكائنات الحية محكوم بعاملين متضادين :

١ - الوراثة = عنصر المحافظة

٢ - التباين = عنصر التنويع

لو كان الأمر الأول وحده لكان العالم نموذجاً للتكرار Repitition والوحدة Monotonie ولو كان للثاني لما اتصف شيء بالثبات ولا اتسم بالمشابهة ، وإنما الكائن الحي نتيجة اجتماع هذين الصانعين اللذين يعطى أحدهما « التشابه » والآخر « الاختلاف » .

نظرية الوراثة

بحث أسباب الوراثة دخول في الفرضيات وهي كثيرة محيرة ولقد ذكر كاتب من كتاب القرن السابع عشر ٢٦٢ نظرية ، ونظرية « الأخيرة له » لن نلح على القوانين التي لم يعد لها سوى فائدة تاريخية : قوانين القوى الجسدية عند العلماء الروحانيين ، قوانين الحلقة الأولى، وأزلية الجرائم .

هذه القوانين التي انتشرت في القرن الماضي انتشاراً عظيماً والتي تعتبر « الجنين » مالكا لجميع

الأعضاء لا ينقصه إلا أن تتضخم مع الزمان ، فعندهم أن الكائن الجديد كان تام التكوين في البيضة Oeuf والذريات المتعاقبة كانت مخفية الواحدة في الأخرى منذ أول جد إلى آخر حفيد هذه النظريات تسقط النظريتين العمليتين اللتين سيطرتا منذ الأزل إلى أيامنا هذه .

١ - نظرية الأصل (الاستخراج) Extiaction

٢ - نظرية انتقال الحركات

نظريات الأصل المختلفة لها طابع عام هو أنها تعتبر جميع أجزاء الجسم منبعثة إلى أعضاء التناسل بخواص تمثل هذه الأجزاء .

هذه الشريعة التي نصادفها في الكتابات الأبوقراطية (نسبة إلى أبوقراط) والتي تتحول إلى أشكال مختلفة انتهت إلى الغرض الذي فرضه (دارون) وهو يفرض أن كل الأنسجة العضوية تصدر جراثيم (أصولا) تدور في جميع أجزاء الجسم وتتضاعف بالانقسام ، كل خلية في كل طور من أطوار نموها تصدر جزئيات Gemmuels الأمر الذي يفسر كيف أن الجنين يعيد نحو والديه .

هذه الجزئيات Gemmuels قد تظل نائمة في أثناء عدة ذريات ، وهذا ما يفسر « مشابهة الأجداد » Atavisme . لكن دستور « دارون » لم يعد له أنصار « Herbert Spencer » استند على نظرية مشابهة في كتابه « عناصر علم الحياة » وهي Principles of Biology

نظرية الحركات الانتقالية :

ابتدأت بأرسطو وأيدها Harvey وانتهت إلى Haeckel انتقال القوة Force وهي مدينة لتداخل الذكر في التلقيح وهي السبب المؤثر في نمو الفردية . وأحدث شكل لهذه النظرية هو الشكل الذي يقول به Haeckel وهو يعلل سبب الوراثة بحركات تموجية بواسطة المادة المصورة Plastitudes التي لها جميعا ذاكرة عضوية ، إذا استثنينا الخواص العامة للمادة الحيوانية Matière Vevante ذرات المادة المصورة Les plastitudes الأبوية والأموية Maternel تنقل الحركات الذرية إلى البنوية . هذه الحركات تحتفظ بها الذرات البنوية وهكذا تحصل على خواص الآباء نفسها .

يلوح لنا أن فرض Haeckel يمشى جنبا إلى جنب مع فرض دارون .

النظريات هي :

إنه لم يبق إلا أن نتكلم عن أحدث النظريات وأكثرها شهرة نظرية Weisman

الصفات المكتسبة :

التي يكتسبها الفرد أيمن أن تتقل فتثبت في نسله ؟ لو كان الجواب بالإثبات فظاهر أن سلطان الوراثة يعادل الخلق Creation ولو كان بالنفي فعملها ينحصر في « المحافظة » ثم هي بعد لا تغني ولا تفقر .

في تاريخ هذا السؤال تمايز بين عهدين :

الأول يبدوه Lemard ويعبر عنه بأجلى شكل ، العلماء العظماء معاصرونا دارون وسبنسر وهيكل وحواريوهم .

والثاني : يبدوه Galton حوالي سنة ١٨٧٥ ويؤكدده Wallace و Weisman وأنصاره ولكل من الفريقين حجج ودفع .

الأولى : تستند على قول لامارك « كل ما تكسبه الطبيعة للأفراد أو تفقده إياهم تحافظ عليه الوراثة » Platt Ball في كتابه « مسببات العادة والجماع أهي وراثية ؟ » .

« Les effets de l'Usage et de la desustude sont-ils hereditaires? »

الذي يرجحه M. Des Verjiny يقسم الحالات التي استندت عليها شيع الإثبات Affirmative التي يخاصمها هو إلى أربعة وعشرين جسما . وليس في استطاعتنا إلا أن نحيل على الكتاب نفسه من يريد التفصيلات .

شعبة النفس :

حجج تحتاج إلى تفصيل طويل وإلى تغلغل في صميم الطب فنجتزئ بأن نقول إن Weismen زعيم هذه الشيعة استعان بدراسته الواسعة لمباحث « علم الجنين » التي يؤولها تأويلا يخضعها به لدعواه بين الخلايا الجرثومية « الأصلية Germinatim » التي تمثل استمرار بقاء النوع والخلايا البدنية والجسمانية Sovesatiques التي يتحول بها الفرد وهو فرق كبير . وتنوعات الثانية ليس له أي تأثير على الأولى .

ومن آراء Weisman التي اعتمد عليها فيما ذهب إليه من آراء أن الكائنات ذات الخلية الواحدة Unicellulaires التي تنتج من علق خالدة لا يهلكها إلا الحادث Accident فمن الممكن أن تستمر حياتي بلا انقطاع إذا لم تشل حركتها عوامل خارجية .

الوراثة عاجزة عن المحافظة الدقيقة على ملامح الأجداد هي تتقهقر ، وبعبارة أخرى ، أمام القوة الوراثة الفردية La puissance de l'Heredité individuelle وهي تظهر إلى الأبد في واحد أو عدد من الأفراد مجية بذلك نداء آبائنا الأولين .

التناقض الخلقى

وأثرها ظاهر كذلك في اجتماع الصفات المتنافرة وبالجمل فكل الصفات المتنافرة يمكننا حملها على عامل الوراثة ولون الشعر . نلاحظ كذلك أنه لاحق بها ، ولكن الألوان المختلفة لا تنتقل بنفس الشكل ، إلا أن لون العيون أكثر مراعاة لهذا الامتزاج (التوليد) المفسر للشكل ونستطيع أن نستنتج عندما نرى سواد الشعر يجتمع هو وزرقة العيون أو خضرتها أن نسبة من الدم الأشقر يجرى في دم الأهلين الأسمر . ونستطيع أن نتأكد من هذا الامتزاج تأكيداً أقوى من الأول عندما نرى عائلة سمراء فيها غلام أو غلامان شقراوان . ألا تدرى أن أولاداً سمراً من آباء شقر لكنه كثيراً ما نلاحظ أو نألف في شخص الشعر الأسمر وعينين زرقاوين يعلوهما حاجبان سوداوان وكذلك امرأة بيضاء تشابه لون الزوج في جزء من بشرتها (وقد شوهد ذلك أكثر من مرة) .

وكثيراً ما تورث ظواهر فسيولوجية هامة كإطالة العمر ، الصلع ، تسويس الأسنان . . . بيد أن الظواهر العقلية أهم بكثير لكنها لا تخضع للقواعد البسيطة الصارمة .

قد انتهينا من الأصل فلتكلم عن الفرع بعد أن مهدنا له بذلك التمهيد الطويل .

التوليد

اعتقد القدماء أن للتوليد آثاراً حسنة في الشعوب المولدة وبذلك جرت أقلامهم ، وقد فطن إلى ذلك العرب ، فالجاحظ يقول « إن الإسرائيلي لا يتزوج إلا الإسرائيلية فكانت

الغرائب لا تشوبهم وفحولة الأجناس لا تضرب فيهم وإنك لتعرف ذلك في الخيل^(١) والحمير والحمائم .

رأى المحدثين :

وإذن فليست نظرية « السوبرمان » حديثة كما يظنون - وهذه النظرية حديثة في أوروبا وهي تتلخص في العمل على خلق عنصر إنساني يفوق هذه العناصر الموجودة الآن من حيث القوة والنشاط والثقافة والحضارة . وذلك بعقد مصاهرات بين جنسين يكون نسلهما قويا . وبهذا يوجد « السوبرمان » أي « المثل الأعلى للإنسان » . وقد قال بهذه النظرية نيتشه فيلسوف الألمان وتناولها برنارد شو بالبحث والتعليق .

نصيبها من التأييد :

الكثيرون يؤيدونها تأييدا مطلقا والبعض ينكرها قائلا إنها خيال . أما المؤيدون فيستندون على الاستقرار التاريخي وليس لهم من قوانين الوراثة سند متين يصمد أمام هجمات المنكرين لولا الاستقرار التاريخي .

المنكرون : منهم من يزعم أنه ليس للتوليد أثر من الآثار متميز .

رأى ثالث : وأصحابه لا ينكرون أن التوليد له آثار متميزة ولكنهم ينكرون الانتخاب المقصود ويؤمنون بالانتخاب اللاشعوري (غير المقصود) .

رأينا : لسنا نشك في أن للتوليد آثاراً متميزة إذ إن لكل شعب مزاجاً عقلياً خاصاً ثابتاً بمقدار ثبوت الخواص الجسمانية . وإذا كان التوليد يؤثر آثاره الفسيولوجية المحسوسة فكيف لا يأتي بآثاره السيكولوجية ، وقد قدمنا أن النفس والعقل والجسم أجزاء من كل ، وأن هذه الأجزاء الثلاثة سواسية في الخضوع لقانون الحياة العامة « الوراثة » .

إذن فالتوليد آثار خاصة لا نشك فيها ، والحيوان والنبات يخضعان لها كما يخضع للإنسان .

(١) على ذكر الخيل نقول إن أنواع خيل السباق الإنجليزية تفوقت على أصولها العربية في الحجم وسرعة العدو .

لكل أمة عقلها ومزاجها الخاص

مهما اختلفت أفراد الأمة فلا استقرار يبين أنهم يشتركون في صفات نفسية عامة وثابتة بثبات صفاتهم الجسمانية التي يمتاز بها جنسهم عن سائر الأجناس ، ومن مجموع الصفات النفسية التي يشترك فيها أفراد كل أمة يتكون الجوهر العام الذي نعبر عنه بخلق الأمة .

ولحدوث المزاج العقلي في كل أمة أسباب يعرفها علماء وظائف الأعضاء ففي الحق أن الفرد ليس ثمرة أبيه وأمه فحسب بل هو ثمرة أمه ، ثمرة سلسلة تسلسله من أجداده - وقد بينا ذلك في الكلام عن قوانين الوراثة - فالدم الذي يجري في عروقي ليس دم أبي وأمي فحسب إنما هو دم الملايين من شعب مصر ، أى أننى ابن شعبي ، كما أننى ابن أبي وأمي .

وليست عاطفتنا وحدها هي التي تجعلنا نحس بالشعور الوطني بل العاطفة والخواص المصرية والوراثة معا عوامل تشعرنا بالقومية ، ولذلك قل أن نجد وطنيا خالص الدم يمالئ أعداء الوطن .

ولهذه النظرية الوراثة التي سردناها حمل علماء القانون الأحرار على عقوبة الإعدام حملاتهم الشعواء وقام « لمبروز » وشيعته ينادون بأن المجرم مسوق إلى الإعدام مجبرا لا مخيرا لأن الدم الذي يحمله هو الذي يأمره ويسيطر عليه فهو مريض يجب العناية به لا القصاص منه

ما المزاج الخاص لكل أمة ؟ .

نريد بالمزاج مجموع الصفات التي يشترك فيها بنو الوطن ، والمزاج تكوُّنه عوامل كثيرة أهمها البيئة الزمانية (وراثة الأجداد) والبيئة المكانية .

وإذا نظرنا لكل أمة ألفينا لها طابعا خاصا فالشعب الإنجليزي نعرف عنه المادية والصراحة فيما نعرفه عنه . لو أن شابا مصرية صدم بدراجته دراجة شاب إنجليزي فتحطمت منها أجزاء فأول ما يقوله الإنجليزي اصحبني إلى حيث نصلح ما تلف منها من فضلك . بل تتجلى « ماديته » في طريقة تفكيره . اقرأ الأمثال وهي أدل على الروح الاجتماعية لأمة من الأمم عن سواها من الفنون الأدبية فأنت واجد الإنجليزي إذا مثل للوقت أملى عليه التشبيه روحه المادي . Time is money .

أما العربي فخاضع لبيئته المكانية - البادية - مهد الحروب القبلية فكيف لا تظهر روحه الاجتماعية في أمثاله ، هو لن يقول « الوقت مثل المال » ولكنه قائل « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك » . ولو أن شابا مصريا جرى له ١٠ جرى للإنجليزى ما قال « اصحبني إلى حيث نصلح ما أتلفت » بل لقبل اعتذاره بابتسامة لطيفة . الله يعلم ما الذى يخفى وراءها . كيف لا ؟ أفليس ابن العرب ؟ بلى ! وها هو دخان نيرانهم ما يزال متكاثفا في بطون كتب التاريخ والأدب .

الإنجليزى صريح يخبرك تحية بسيطة صريحة Good Morning صباح سعيد ، في حين أن المصرى يفتن في صياغة تحيات الصباح وتحيات المساء ولم لا ؟ أليس ابن الشعب الذى اصطبغ طابعه العام بهذه الدبلوماسية التى تلمسها في أحاديثه العادية .

انظر إلى لغته اليومية ترى لكل حركة أو لفظة تحية خاصة فإن شربت قال هنيئا وإن توضأت قال من زمزم وإن صليت دعا لك بأن تصلحها في الحرم وإن (عطست) فرحمك الله بل إن قضى حاجة فشنى وهلم جرا . . . إلخ .

أظننى شرحت ما أريده « بالمزاج العام للأمة » بعض الشرح ، فلتجاوز ذلك إلى غيره . وإذا كان لكل أمة مزاج عام خاص بها فكيف لا يكون لخلط مزاجين متمايزين آثار ؟ إنها يتفاعلان كما تتفاعل مواد الكيمياء .

التوالد

نتائج الحسنة - شروطه - خطواته :

يشترط للتوالد شروط خاصة حتى يحى بآثاره ، وإنك ترى أن مادة الكيمياء لا تتفاعل مع مادة أخرى إذا خلطتها بنسبة معينة ، وأن الحديد لا تصهره الحرارة مطلقا ، وإنما تصهره درجة معينة ، وكذلك الأمر في التوالد .

الشرط الأول : ألا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة العدد بنسبة كبيرة .

الشرط الثانى : ألا يكون الفرق في اختلافها كبيرا

الشرط الثالث : أن تعيش زمنا طويلا في بيئة واحدة

أما الشرط الأول ، فإنه إذا نزع عدد قليل من البيض وأقام بين الزوج فى فيهم ولم يترك من أمه أثراً فى نسله ، يقول العلامة جوستاف لوبون : وهكذا فى الفاتحون الذين أقاموا فى أمم كثيرة .

ولكن الأستاذ نسي العامل الرئيسى وهو قانون التغلب - وقد تقدم شرحه عند الكلام على الوراثة - ومن أسسه المعروفة أن الأسود يتغلب دائماً على الأبيض ، وقد عملت عدة تجارب أثبتت أن أرنبين أحدهما أسود والآخر أبيض ينسلان ثلاثة سودا وواحد أبيض . يستأنف الأستاذ لوبون فيقول : وقد ترك اللاتينيون فى بلاد « الفلرا » والعرب فى مصر حضارتهم وفنونهم ولكنهم لم يتركوا دمهم .

الشرط الثانى : إذا اختلف الطابع العام لشعبين ضاع أثر التوالد بل كان له أسوأ الأثر فى الشعبين جميعاً - ذلك لأن اختلاف المتوالدين يحلل خلق الفريقين ويفكك آدابهم ، فإذا ورث المولدون من البيض والزوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لأهل سان دومنج . أما بين الأمم الراقية فالتوالد عامل قوى من عوامل الارتقاء متى تقارب بعضها من بعض فى الجنس كالإنجليز والألمان فى أمريكا . أما إذا كان الفرق كبيراً فالتوالد يفسد النسل لا محالة . لذلك نرى جميعاً الأمم التى يكون بين أهلها عدد من المولدين من النوعين الأبيض والأسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى وذلك شأن البرازيل فليس فيها من البيض إلا الثلث يقول (أغاشير) « من زار البرازيل يرى التدهور الفظيع الناجم عن التوالد فهو يمحو فضائل البيض وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلق نسلًا ضعيفاً جسماً وعقلاً بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه » .

ولقد كانت البرازيل مهداً للثورة والتطاحن وكانت الصحف توافينا يومياً بأخبار ثورتهم الأخيرة الهائلة منذ شهور .

توالد الأمة بغير مزاجها العقلى لا يغير أجسام أفرادها ، وهو الوسيلة الوحيدة التى يمكن معها تغيير ماهية الخلق الأصلح فى الأمة لأنه لا يقل الوراثة إلا الوراثة .

آثار التوليد بالتدريج :

يبعد أولاً روح كل منها أى مجموع المشاعر والأفكار العامة التى هى سر قوة الشعوب وهذا دور النشوء والتأسيس ، وهو دور خطر تتخلل فيه الصفات الجنسية وينحط المستوى الأخلاقى .

العقدة الثانية : ومتى مالت الحضارة إلى الذبول بدأت الصفات تتحلل وتتركب فتهدم الحضارة هدمًا ويحلوا أن تقوم حضارة جديدة بعد تحلل الصفات القديمة وقيام صفات جديدة على أطلالها .

هذه قوانين التوليد وهذه خطواته فتعال بنا نطبقها على امتزاج هؤلاء المسلمين في العصر العباسي الأول .

الشرط الأول :

بأي نسبة امتزج العرب ؟ تحديد هذه النسبة غير ميسور

الشرط الثاني :

لا ينطبق امتزاج العرب بهذه الأمم فالعرب ساميون . وهذه الأمم أغلبها آري .

الشرط الثالث :

لا ينطبق لأن العرب لم يختلطوا بهذه الأمم اختلاطًا كبيرًا قبل العصر الأموي

الخطوة الأولى :

تبيد روح كل منهما ويريد بالروح مجموع المشاعر والأفكار العامة وهذا دور النشوء والتأسيس .

الواقع أنه كان امتزاجًا عربيًا ، فالعرب لم يمتزجوا بأمة واحدة وإنما امتزجوا بأخلاط من أمم شتى ، إنما كان أغلب امتزاجهم بالفرس فهل مهد بوسيلة الامتزاج حتى يأتي بنتائجه الحسنة ؟ .

لقد اختلط العرب بالفرس في الجاهلية ولكن أي اختلاط ؟ اختلاط ضعيف فلم يكن بينهم وبين الفرس إلا ما يكون بين أمة وجارتها .

وفي العصر الأموي كثرت اختلاطهم بالفرس لكن حرصوا على الاحتفاظ بأصولهم فلم يختلط الدم العربي بالدم الفارسي .

إنما كان ذلك الاختلاط في العصر العباسي وقد اتفقنا على أن أول خطوات التوليد هي إبادة الصفات الجنسية في الشعوب الممتزجة وهو ما كان في عصرنا العباسي .
تحللت خصائص كل جنس وانحط المستوى الأخلاقي انحطاطا فجائيا وسنبيته إن شاء الله في الفصل الثاني وستبسط أمامنا في الفصول الأخرى .

الأثر العام للتوليد

حياة الشعراء في بغداد :

نحن في صدر العصر العباسي في بغداد ، وبغداد يومئذ مدينة اللهو وهي كذلك لأن المال موفور يُدر من كل ضرع ، فأسباب اللهو موفرة ولأن الناس اختلطت أصولهم كما اختلطت مجتمعاتهم باختلاط أصولهم فهم ذوو أمزجة دنيوية والشعراء في مقدمة الناس عاكفون على اللهو حائمون حول مغانيه لا يعيشون للأمس فليس تعطفهم إليه ذكريات ، لقد قضوا من الأمس وطرا ولهم في اليوم أوطار .

لا تعوجا على رسوم ديار دارسات بذى النقى أو بغيدا
قد غنينا بهن عمراً مديداً وأصبنا منهن ملهى وصيدا
يا بنة القوم لن تُراعى بريب فاسلمى رخصة الأنامل نخودا
لا تخافى على صُرف الليالى إن بينى وبينهن عبداً^(١)
وليس يحدو بهم إلى الغد القريب أو البعيد حرص أورهب ، فالمال مبدول ليس يدخر
ليوم عاجل والعمر مضيع ليس ينهه من شهوته ذكر عقاب آجل .

ورأيتُ إثارى اللذادة والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
أخرى وأحزم من تنظر آجل علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنى أحد يخبر أنه فى جنة مئذ مات أوفى نار^(٢)
نحن في بغداد ، وبغداد مدينة مليئة بالحانات وبيوت الدعارة العلنية أو السرية والشعراء
فتيان أثرياء يعيشون في بغداد فساداً ، ويكُونون عصابات لاهية ، يجتمعون في الحان وفي
مجالس القيان جماعات وينتقلون إلى بيوت الدعارة حيث توجر المرأة والغلام .

تصور لك هذه الحالة تصويراً واضحاً أبيات لأبي نواس :
وخماره نبهتها بعد هجعة وقد غابت الجوزاء وانغمس النسر

(١) ديوان أبي نواس ج ١ ص ٢٥٦ بتحقيق ايفالد فاغنز من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٨

(٢) أبو هفان : أخبار أبي نواس ص ٤٦ بتحقيق عبد الستار فراج .

فقلت من الطَّرَاقُ قلنا عصابة
فلا بد أن يزونا فقلت أو الفِدَا
فقلنا لها هاتيه ما إن لمثلنا
فجاءت به كالغصن يَهْتَرُ رِدْفُهُ
له شبه كالْبَدْرِ لَيْلَةٌ تمه
فقام إليه واحد بعد واحد
فبتنا يرانا الله شر عصابة

هذه الأبيات تصور لك بغداد وتمثل لك حياة الشعراء .

وهذه الأبيات الأخرى :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
فما الغبنُ إلا أن تراني صاحباً
فُبحُ باسم من أهوى ودعني من الكنى
و :

وأحور ذمّي طرقت فناءه
فلما قرعنا بابه هبّ خائفاً
وقال من الطَّرَاقُ ليلاً فِئَاءُنا
فأطلق عن أبوابه غير مُعَذِّر
ومر أمام القوم يسحب ذيله
فقلنا له ما الاسم حيت قال لي
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه
فقلنا له جثثناك نبتاعُ قهوةً
فقال اربعوا عندي الذي قد طلبتمو
فقلنا له ما مهرها قال مهرها
فقلنا له خذها وهات نعاطها

بفتيان صدق ماترى منهم نُكرا
وبادَرَ نحو الباب ممتلئاً دُعراً
فقلنا له افتح فتية طلبوا خمرا
وأطلع من أزراره قرأً بِدُرا
يجاذب منه الرِّدْفَ في مشيه الخصر
دعاني أبي شابا ولقبني شمرا
نُجن ولم نَسْطع لمنطقه صبرا
مُعْتَقَةً قد أنفدت عمرها دهرأً
قد احتجبت في خدرها حقباً عشرا
قطعت وما أوفيتها خمسة صفرا
فقام إليها قد تَمَلَّى بها بشرا

(١) الديوان ص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٢٧٣ طبعة مصر ١٨٩٨

فجاء بها والليل مرخ سُدُوله
 تكلم من أعطافه فتن الهوى
 فما زال يسقينا ويشرب دائماً
 فيا حسنه لحناً بدا من لسانه
 ونام وما يدرى أرضاً وساده
 فقمنا إليه حين نام وأرعدت
 فلما رأى أن ليس عن ذاك مصرف
 وهذه الأبيات :

ومشتعل الخدين يحسر طرفه
 وليست خطاه حين يزهو بردفه
 دعوت له بالليل صاحب حانة
 فجاء به بالليل صحباً كأنما
 وهكذا يعيش شعراؤنا في بغداد يسعى إليهم
 ومع ذلك فزعيمهم أبو نواس يقول :

الحمد لله ليس لي نسب
 ويقول وهو في مصر :

إذا ذكرت بغداد لي فكأننا
 وأوبة مُشتاقٍ بغير دراهم
 تحرك في قلبي شباة سنان
 إلى أهله من أعظم الحدثان^(٤)

وهو كذلك فهم يجمعون بالنهار لينفقوا بالليل وهم يقفون على باب الأمير فيفيضون في
 خدر القينة .

إذ لباب الأمير صدرُ نهاري ورواحي إلى بيوت القيان^(٥)

(١) الديوان ص ٢٧٧

(٢) الديوان ص ٢٩٢ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الديوان ص ٤٣٧ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) عبد الرحمن صدقي : ألحان الحان ص ٩٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٥) عبد الرحمن صدقي : ألحان ألحان ص ٩٧ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

كم مرة شكّا فيها أبو نواس في شعره من الإفلاس ، ومع ذلك فقد خلف سلم الخاسر^(١) خمسين ألف دينار وله مليون وخمسمائة ألف درهم عدا الضياع . . أفتحسب أن أبا نواس كان أقل خطباً أو أضيق رزقاً من شاعر كسلم ، ولقد كان مروان بن أبي حفصة يمدح فيجزى القصيدة بمائة ألف دينار . وكان لأبي تمام قهارمة وكتاب . وكانت تجرى على معظم الشعراء رواتب شهرية أو سنوية ، ضخمة فسلم بن الوليد^(٢) كان والياً على المال بجرجان تدر عليه ألف ألف درهم ، وطالما كان يشكو العذر إلى الفضل بن سهل حتى برم به وقال له : إن بيوت المال لا تكفيك . وولاه ضياعاً أخرى بأصفهان .

وكان مسلم من شعراء البرامكة المقربين يغمرونه بالعطاء ، وأنت تعرف ما عطاء البرامكة ، ومع ذلك فقد ورد في أخبار مسلم أن تلميذه دعبلاً تصيّد قينة في الطريق وأمّ بها دار مسلم فاضطر مسلم أن يبيع منديلاً ليشتري به خبزاً ولحماً ، وكان مسلم يكسب المال فيجمع نداماه من الشعراء في بيته ويظل وإياهم في لهُ وقصف لا يغادر بيته ، حتى إن صاحب جمهرة الإسلام^(٣) يقول إن ظهور مسلم في الطريق كان دليلاً على إفلاسه ، وكذلك كان يشترك في المال مطيع ابن إياس ووالبة ويحيى بن زياد وابن المقفع وابن الأحنف . ولم لا يشتركون ؟ أوليست الحياة كأساً وطاساً وقينة وغلماً ! .

هل العيشُ إلا أن أروح مع الصُّبا وأغدو صريعَ الرَّاحِ والأعينُ الثُّجُلُ^(٤)
وقوله :

مالذَّةُ الدُّنيا إذا مالَمَ تَكُنْ فيها فتى كأسٍ صريعٍ حَبَائِبِ^(٥)

هذه هي الحياة البوهيمية التي كان يحياها شعراؤنا في بغداد .

مال مشاع وعمر مضاع !

(١) من موالى تيم عشيرة أبي بكر الصديق ولد بالبصرة وبها نشأ . راجع ترجمته في ابن المعتز ص ٩٩ والأغاني ص ٧٥٦١ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد ج ٩ ص ١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ج ١١ ص ٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهمشيارى .

(٢) انظر في أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٩٦ والأغاني ص ٧٢٦٣ من طبعة الشعب

(٣) كتاب جمهرة الإسلام للشيزرى لايزال مخطوطاً

(٤) النجل : جمع نجلاء وهي الواسعة - ديوان مسلم ص ١٨٨ من طبعة دار المعارف

(٥) ديوان مسلم ص ١٨٨ من طبعة دار المعارف

جماعة من الندمان يؤلفون خاناً متنقلاً ويفتكون بالمال ليفتكوا بالمرأة والغلام ، يبددون المال ليجمعوا الهوى !

والعجيب أن هؤلاء الشعراء كانوا يجتمعون للهو ويشتركون فيه كأن بينهم ميثاقاً قال الجاحظ ونقل عنه صاحب الأغاني ، يقول الجاحظ « كان والبة بن الحباب ومطيع بن إياس ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي وحفص بن أبي وردة وابن المقفع ويونس بن أبي فروة وحامد عمجد وعلى بن الخليلي وحامد بن أبي ليلى الراوية وابن الزبرقان وعمارة بن حمزة ويزيد ابن الغنضي وجميل بن محفوظ وبشار المرعب وأبان اللاحقي يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجون بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً وكلهم منهم في دينه » (١) .

وروى صاحب تاريخ التمدن (٢) أن أبا نواس ودعبلا وأبا الشيص ومسلماً كانوا يجتمعون عند إسماعيل القراطيسي (٣) فيأتيهم بالخمير والنساء والغلمان .

ليلة عند الفتى الخمار وليلة :

فِي مَجْلِسِ بَيْنِ الْكُرُومِ مُظَلَّلٍ	جُعِلَتْ لَهُ أَغْصَانُهُنَّ ظِلَالاً
وَلَدَيْهِمْ حُورُ الْقِيَانِ كَأَنهَا	غَزْلَانُ وَحْشٍ يَرْتَعِينَ رِمَالاً
قَدْ حَازَ كُلُّ فَتًى لَدَيْهِ غَادَةً	رُودَ الشَّبَابِ خَرِيدَةً مِعْطَالاً
مَمْكُورَةٌ عَجْزَاءُ مُضْمَرَةٌ الْحَشَا	قَدْ حُمِلَتْ مَنْ رَدْفِهَا أَثْقَالاً
لِلْقَصْفِ مُتَكِينٌ فَوْقَ نَمَارِقٍ	يُسْقَوْنَ بِالْكَأْسِ الرَّحِيقَ زَلَالاً (٤)

ولقد يبدو من العجيب أن أهل المجون انتشروا في بغداد في كل مكان حتى في الأماكن

المقدسة :

رَأَيْتُ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ	عَ فِقَاعَةَ إِبْلِيسَ
بَنَاهُ اللَّهُ وَالطَّالِ	عَ نَجْمَ غَيْرِ مَنْحُوسَ
بِهِ حَلَّتْ ظُبَاءُ الْأَنْدَلسِ	فِي أَقْبَحِ مَأْنُوسَ
إِذَا رَاحُوا عَلَى الْعِشَاءِ	قَ أَهْلَ الضَّرِّ وَالْبُوسَ

(١) الأغاني ج ١٦ ص ١٤٩ من طبعة دار الكتب المصرية

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى

(٣) هو إسماعيل بن معمر الكوفي مولى الأشاعنة - راجع ترجمته بالأغاني ج ٢٧ ص ٩٣٥٦ من طبعة الشعب

(٤) ديوان مسلم ص ٢٠٢ من طبعة دار المعارف

فكم في الصحن من قلب كلیم الجرح مخلص
بعثنا في سبيل الغي أفواج الكراديس
فكردوس لعماد وعدنان لكردوس
وعمرو صاحب الراي لابل درهم الكيس
تلاقيهم بإعظام وإجلال وتقديس
ويلقون من التيه بتكليح وتعبيس
فيارب أليل المش تنكي تيه الطواويس^(١)

جماعات مستهترة لاهية لها في فهم الحياة فلسفة خاصة ، تريد أن تعتصر من حلوها أقصى ما تستطيع .

شك قوى في الدين ، مال كثير ، امتزاج في الدم ، جبروت القصر وغدره ، فهذا خليفة سفاح ، وهذا خليفة كنود .

ما أثر هذه العوامل مجتمعة ؟ جواب واحد هو الاستهتار بالحياة يقول ديك الجن^(٢) :

تمتع من الدنيا فإنك فاني وإنك في أيدي الحوادث عاني
ولا تنظرن اليوم في لهوه غداً ومن لغدٍ من حادث بأمان
فإني رأيتُ الدهر يسرعُ بالفتى وينقله حالين مختلفان
فأما الذي يمضي فأحلامُ نائم وأما الذي يبقى له فأمان^(٣)

وعندي أن هذه الأبيات لا تمثل ديك الجن وحده ، إنما تمثل شعراء العصر جميعاً وبعد ، فما حياة الشعراء في العصر العباسي إلا صورة من حياة العصر ، قد تكون هذه الصورة مكبرة نوعاً ما ، وهذا طبيعي ، لأن الشاعر أو قل الفنان أول من ينقاد لعواطفه وليس الشاعر شاعراً ولا الفنان فناناً - في الغالب الأعم - إلا بفيض عواطفه وغلبة مشاعره ، لأنه عصر ولد جيله خليطاً من أمم مختلفة متباينة فكان هذا العصر عصر انحلال القوميات ، وأن نظرة إلى ما كتب

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٤٩ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) ديك الجن : لقب غلب عليه واسمه عبد السلام بن رغبان راجع ترجمته في الأغاني ج ١٤ ص ٤٩٢٥ من طبعة

الشعب وفي وفیات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٢٥ والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٠٢

(٣) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ج ١ ص ١١٥ من طبعة القدسي

عن التجارة في بغداد لتريك عظم البون بين الحضارة الجديدة والحضارة الماضية ، فجوار وغلمان يجلبون من أنحاء الممالك ، ومن الهند ياقوت وماس ، ومن البحرين لؤلؤ ، ومن الحبشة عقيق وعاج وديباج وطيلسان من أصفهان وكرمان ، ومسك وكافور من الصين وعطور من نيسابور ، وفرو ثعالب من روسيا ، وستور وغلائل وأرائك ومساند ، وجوارب ومناديل من حرير ، وسرر من ذهب وحصر مرصعة بالذهب مكحلة بالمرجان وأطباق من ذهب .
ولقد توفي المنصور وفي خزانته ما يعادل تسعة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية ^(١) ، مع أن بغداد بنيت في عهده وكلفه ذلك مالا طائلاً ، ولم يأخذ المنصور شيئاً من مال الأمويين ، وقد حفظ في خزانة كتب كُتب عليها « مال أهل بيت اللعنة » .

وبلغ متوسط الجباية السنوى في عصر المأمون - كما يقدره ابن خلدون ^(٢) - ثمانية ملايين من الجنيهات . ويطعن في هذه القائمة « فون كرامر » قائلاً : بل يرجع تاريخ هذه القائمة إلى ما قبل عصر المأمون .

ولا أمضى في التفتيش عن القوائم وغير القوائم ، وهى كثيرة وبين يدي ، إنما أنشر هذه الوثيقة من الشعر ، فلا بد من الدوران حول هذا الشعر طالما كان لنا إليه سبيل .
أبو العتاهية ^(٣) يشكو من غلاء الأسعار غلاءً مرّاً ، وكذلك في هذه الأيام يشكو أهل الأمصار الكبرى كباريس ولندن وبرلين ، وهذه ظاهرة مضطردة في العواصم الكبرى ، إذ يلعب « قانون العرض والطلب » دوره دائماً .

أما غلاء الأسعار في بغداد فنتيجة لكثرة الطلب فيما أرى وكثرة الطلب نتيجة مباشرة لوفرة المال ووفرة المال تضعف قوة شراء النقود ، ومن هنا ينشأ كثير من الأزمات الاقتصادية .
يقول أبو العتاهية :

من مبلغ عني الإما م نصائحاً متتالية

(١) حولنا الدراهم والدنانير إلى جنيهات مصرية فهو حساب تقريبي

(٢) أورد قائمة تفصيلية

(٣) ولد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان في عين التمر بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ هـ ، وكان أبوه نبطياً من موالى بني عترة (راجع في ترجمته الأغاني ج ٤ ص ١٢١٥ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٧٩١ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها وص ٣٦٤) و (تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٠) و (ابن خلكان) و (مرآة الجنان ج ٢ ص ٤٩) و (شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٥) و (مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٤٠ وص ٢٧٤ وص ٣٥٨) و (الحصرى : زهر الآداب ج ٢ ص ٣٤) .

أنى أرى الأسعار أسد عار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزره وأرى الضرورة فاشيه
وأرى عموم الدهر را ثمة تمر وغاديه
وأرى المراضع منه عن أولاهها متجافيه
وأرى الأرامل واليتا مى فى البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل يرنو إليك ورائيه
يشكون مجهدة بأصد حوات ضعاف عاليه
من يرتجى للناس بعد لك للعيون الباليه
من مضبيات جوع تمسى وتصبح طاويه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه^(١)

ويقول عمر بن أبي عمر اليوناني :

غلا السعر فى بغداد من بعد رخصه وإنى فى الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع غناه ولا الحرمان والله رازق^(٢)

ذلك ما وصلت إليه بغداد فى الحالة الاقتصادية زمن الرشيد وقد عللنا هذه الأزمة بالتعليل الوحيد المعقول فيما نحسب .

إذن فالتوليد هو العامل الأساسى فى هذه الحياة الجديدة ، ثم المال وهو أمر فرعى له خطره ولم يقتصر اللهو على المولدين بل جرى فيه العرب الخالصون شوطاً بعيداً ، وليس ذلك عجيباً ، فالعرب كانوا من قبل قوماً بدويين وقوماً أقرب إلى البداوة ثم أحاطت بهم الحياة الجديدة بملاهيها فلها كما كان يلهم المولدون والموالى ، شأنهم فى ذلك شأن طيان مد له خوان حوى أشهى صنوف الطعام وألذها ، شأنهم فى ذلك شأن أبناء الأغنياء البخلاء فى بلادنا محرومون من دور اللهو ومباهج العصر ، فإذا ما رحل آباؤهم وتكاثر المال فى يدهم واحتقت جيوبهم بالذهب وتوصلوا إلى ما حرموا منه بذروا فيه المال وضيعوا العمر فى نرق وسفه .

(١) الديوان ص ٣٠٣

(٢) الإشبهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ٦٨ من طبعة المطبعة الميمنية ١٣٣٠هـ

الأثر الخاص للتوليد أو

أثر التوليد في نفوس الشعراء

من آثار التوليد التناقض في حالات الشعور ، الإحساس المتوالى بالاضطراب .

«Sensous Continum»

هذا المزاج العصبي المتنقل ينطق به قول أبي العتاهية المولد :
لَنْ يُصْلِحَ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُدْبِرَةً إِلَّا التَّنْقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ^(١)
هذه النفس المولدة متنقلة من حال إلى حال أراد أصحابها أن يصلحوها أم لم يريدوا .
ونحن نكتفى بأن تصور لك هذا الإحساس المتناقض (هذا التذبذب) في حالة معنوية
وأخرى مادية .

شعراء ماجنون زاهدون وخلفاء جبابرة وادعون . فلتتصور هذا المظهر بعد أن عللناه .

زهاد ومجان

أبو نواس الذى يقول :

إِنْ تَكُونَا تَرَكْتُمَا لَذَّةَ الْعَيْشِ شِرِّ حِذَارِ الْعِقَابِ يَوْمَ الْعِقَابِ
فَذَرَانِي وَمَا لَذُّ وَأَهْوَى وَأَقْذِفَانِي فِي بَحْرِ يَوْمِ الْحِسَابِ^(٢)
وقوله :

وإن قالوا حرام قل حرام ولكنَّ اللَّذَاذَةَ فِي الْحَرَامِ^(٣)
وقول دعبل :

إنما العيش في مُنَادِمَةِ الْإِخْوَ سَوَانِ لَافِي الْجُلُوسِ عِنْدَ الْكَعَابِ^(٤)

(١) الديوان ص ٢٢٣

(٢) عبد الرحمن صدق : ألحان الحان ص ٣٩٤ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٣) الديوان ص ٦٩٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٥٤ من طبعة الشعب

وقول أبي نواس :

وردفهُ في قضيبٍ فوقه قمر
نفسى فداؤك يا من لا أبوحُ به
كم ساعةٍ منك خطتها ملائكةُ
وقوله :

إذا ما رأنى ناظر قال شاعر
وما إن بكأى من حنين لمن له
ليحسب من حولى بأنى إنما
وقوله :

لم أبك في مجلس منصور
ولا من البعث وأهواله
شوقاً إلى الجنة والخور
ولا من النفخة في الصور^(٢)
لكنه يبكى لغلام :

من حلل الجنة تصويره
موكل جبريل والمرضى
وقد خصه الله بتصوير
بحفظه مع صاحب الصور^(٣)
وقوله :

للناس عيدٌ عمهم واحدٌ
وصار ردف الظى لى منبراً
أحسن من عود على عود^(٤)
وقوله :

اشربُ فديتَ علانية
ودعِ المروة والحياة
أم التستر زانيه
فها هما من شانيه^(٥)

(١) الديوان ص ٣٤٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٢) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٤٦ من الطبعة ١٢ بدار المعارف وأبو هفان : أخبار أبي نواس ص

١٠٥ بتحقيق عبد الستار فراج

(٣) هذه الأبيات ليست فى ديوانه

(٤) الديوان ص ٣٤٤ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٥) عبد الرحمن صدق : ألحان الحان ص ٣٩٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

وقوله :

بِتَنَا نَدِينُ لِإِبْلِيسَ بِطَاعَتِهِ حَتَّى نَعَى اللَّيْلَ بِالنَّاقُوسِ رُهْبَانُ^(١)

وقوله :

لَوْ عَبْدَ الْخَمَرِ قَبَلْنَا أَحَدٌ مِمَّنْ مَضَى قَبَلْنَا عَبْدَنَا^(٢)

وقوله :

اسْقِنِي الْخَمْرَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى الْقَوْمِ آيَاتُ تَحْرِيمِ^(٣)
هو أبونواس الذى يقول :

تَأْمَلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عَيُونَ فِي لَجِينِ شَاخِصَاتِ بِأَحْدَاثِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبْرِجَدِ شَاهِدَاتِ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ رَسُولِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ الْمَلِكُ^(٤)

وهو المتصوف القائل :

إِهْنَا مَا أَعْدَدَكَ مَلِكُ كُلِّ مَنْ مَلِكُ
لَبَّيْكَ قَدْ لَبَّيْتُ لَكَ لَبَّيْكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ مَا خَابَ عَبْدُ سَأَلَكَ
أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ لَوْلَاكَ يَارَبُّ هَلْكَ
لَبَّيْكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ
وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَّكَ وَالسَّابِحَاتُ فِي الْفَلَكَ
عَلَى مَجَارَى الْمَنَسْكَ لَبَّيْكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ يَا خَاطِيباً مَا غَفَلَكَ
اعْمَلْ وَبَادِرْ أَجَلَكَ وَاخْتَمِ بِنَجِيرِ عَمَلِكَ

(١) عبد الرحمن صدقي : ألحان الحان ص ٥٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥

(٣) غير موجود بالديوان

(٤) نجيب العتيقي : الأدب المقارن ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك^(١)
وقوله :

أف للدنيا فليست لي بدار إنما الراحة في دار القرار^(٢)
وقوله :

كن مع الله يكن لك وأتق الله لعلك
فعل على الله توكل وبستقواه تمسك^(٣)

رجل متناقض العقيدة حائر بين الإيمان والكفر له في الدين فلسفة خاصة
تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفوراً
سبصر إن وردت عليه عفواً وتلقى سيّداً ملكاً كبيراً
تعض ندامةً كفيك مما تركت مخافة النار الشرورا^(٤)

قد يعلل غيرنا هذا بأن شعر المجنون صفحات من الشباب ، وشعر النسك نصيحة الشيب ،
وليس كذلك ، فأبو نواس لم يك زاهداً في الكبر ، كما قال شارحوه ، فهو القائل :
يقولون في الشيب الوقار بأهله وشيبي بحمد الله غير وقار^(٥)
بل كان ناسكاً في حلقة من حلقات شبابه ، فلما كبر ولى ظهره المصلى وكتب :
عفا المصلى وأقوت الكُتب منى فالمريدان فاللبيب
فالمسجد الجامع المروءة والدين عفا فالصّحان فالرجب
منازل قد عمرتها يفعاً حتى بدا في عذارى الشهب^(٦)
شك في الدين قوى وحيرة بين الإيمان والإنكار .

وكذلك بشار ثلثا شعره في المجنون وثلثه في الزهد . وأبو العتاهية ثلثه في المجنون وثلثاه في
الزهد .

(١) الديوان ص ٢٠٤ من طبعة مصر ١٨٩٨ والأغاني ج ٢٢ ص ٧٦٩٨ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الديوان ص ١٩٨ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق والعامل : الكشكول ج ٢ ص ٢٦١

(٥) الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٩٢ من طبعة مصر ١٢٨٧ هـ

(٦) الديوان ص ٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

أثر التوليد في الحس :

أثر التوليد في الحس هو هذا الاختلاط بين الغرائز وتشابكها ، ونحن نرى الغريزة الجنسية المذبذبة الحائرة في كثير من هؤلاء المولدين :

وَحُذِّ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ وَصِيفٍ رَحِيمِ الدَّلِّ مَلْثُوحِ الْكَلَامِ
لَهَا شَكْلُ الْإِنَاثِ وَيِّنَ بَيْنَا تَرَى فِيهَا تَكَارِيهِ الْغَلَامِ
فَأَحْيَانًا تُقَطَّبُ حَاجِبَيْهَا وَأَحْيَانًا تَتَنَّى كَالْحُسَامِ^(١)
وَأَيْضًا :

لَهَا زَى الْغَلَامِ وَلَمْ أَقْسَهَا إِلَيْهِ وَلَا كَرَامَةَ لِلْغَلَامِ^(٢)
وهكذا يشبه المرأة بالغلام ويشبه الغلام بالمرأة ويؤثرها عليه ويؤثره عليها .

فَالجَيْدُ جَيْدُ غَزَالٍ وَالْغَنْجُ غَنْجُ فَتَاةٍ
مَذْكَرٌ حِينَ يَبْدُو مَوْنٌ الْخَلَوَاتِ
بَصَدَغٍ كَاعِبٍ خَدَرٍ مَزْرَفَنِ الْحَلَقَاتِ^(٣)
وَأَيْضًا :

تَرَاهُ طَوْرًا مَذْكَرًا فَإِذَا عَاقَرُ رَاحًا رَأَيْتَ تَأْنِيثًا^(٤)

لقد رأيت أثر هذا التوليد في جانب معنوي وهو الإيمان الديني فهم أصحاب نساك مجان شاكون حائرون مقبلون على الدنيا وهم زاهدون .

ورأيت أثر هذا الاضطراب جليا في أقوى الإحساسات المادية وهو الغريزة الحيوانية فهم حائرون بين المرأة والغلام إن تغزلوا بالغلام شبهوه بالمرأة ، وإن تغزلوا بالجارية شبهوها بالغلام ونكتنى بهذا القدر .

(١) عبد الرحمن صدقي : ألحان الحان ص ٣٠٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الفكاهة والالتناس في مجون أبو نواس من طبعة مصر ١٣١٦ هـ

(٣) الديوان ص ٣٥٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ٤٩

أثر التوليد في المزاج وفي طبيعة النفس .

في المولدين ظرف لا نجده في ذوى الأنساب الصريحة ، ظرف باد في آثار شعرائنا المولدين ، وأريد بهذا الظرف المزاج المرح .

انظر إلى ظرف أبي نواس وهو يداعب إبليس ويتهمه بالقيادة :

ملّكني حل سراويله	إذ شغلته الراح عن دكته
فصار لا يدفع عن نفسه	وكان لا يأذن في قبلته
دبّ له إبليس فاقْتاده	والشيخ نفاع على لعنته
عجبت من إبليس في تيهه	وخُبث ما أضمر من نيته
تاه على آدم في سجدة	وصار قواداً لذريته ^(١)

وأبو نواس مضحك في قوله :

أقول له وقد أخلته عين	من الرقباء ناظرها حديد
أتمنع ريقك المعسول عني	وأنت على الجدار به تجود ^(٢)

وإن كان قدراً الشطر الأخير .

فرتق مُغْضَباً لحظات عيني	عليه بغير قوادٍ تقودُ
وكاد يقول شيئاً غير أني	سبقتُ إلى اليمن فلا أعودُ
فقال : لو اقتصرت عليه جُدتنا	ولكن قد علمنا ما تريد ^(٣)

ومن تكلفه للظرف قوله :

قال دعيني منه في وجهه	راقدة في جنة الخلد
طرفك زان قلت دمعي إذا	يجلده أكثر من حد
فاحمر حتى كدت لا أرى	وجتته من كثرة الورد ^(٤)

(١) عبد الرحمن صدقي : ألحان الحان ص ٣٧٩ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) غير موجود بالديوان

(٣) الديوان ص ٣٨٨ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) غير موجود بالديوان

وقوله :

قال حفص^(١) أجْلِدُوهُ إِنَّهُ عِنْدِي بَلِيدٌ
لم يزلْ إِذْ كَانَ فِي الدَّرِّ سِ عَنْ الدَّرِّسِ يَحِيدُ
ثُمَّ هَالُوهُ بِسَيِّرٍ لَّيِّنٍ مَا فِيهِ عَوْدُ
عِنْدَهَا صَاحَ حَبِيبِي «يَا مُعَلِّمُ لَا أَعُودُ»^(٢)
قُلْتُ يَا حَفْصُ اعْفُ عَنْهُ إِنَّهُ سَوْفَ يُجِيدُ
فِي نَشِيدِ الشَّعْرِ وَالْدَّرِّ سِ وَفِيًّا قَدْ تَرِيدُ^(٣)

التوليد والنفسية السوداء :

لشد ما يمثل هذه السوداوية النفسية قول أبي العتاهية :

سَامِحِ النَّاسَ فَإِنِّي أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا إِلَّا قَلِيلًا ذِيَابًا^(٤)
أوقوله :

لَوْ رَأَى النَّاسُ نَبِيًّا سَائِلًا مَا وَصَلُوهُ^(٥)

وطالما تغنى أبو العتاهية بالخمر وطالما اجتمع هو وهذه الشيعة الماجنة على قينة وغلّام .
وليس في اجتماع هذه السوداوية ، وهذا الإقبال على الحياة تناقض بل لعل أبا العتاهية
وأبا نواس كغيرهما ما أقبلّا على اللهو والمجون إلا لأنهم مستبغضون يائسون .
أفهم هذا من شعر أبي نواس بنوع خاص وأرى ظله في أبي العتاهية .
وقد أعانني على استخلاص هذه النتائج أوقل على إبداء هذه الملاحظات تجاربي
الخاصة ، لكنني لا أستطيع الإسهاب في بحث شامل كهذا ، ولي صديق أبوه مولد وأمه مولدة
فهو سليل أربعة أجناس مختلفة . هذا الشاب آية في العجب مجموعة من الشخصيات في
شخص واحد : وادع ثائر ، شره في إقباله على الدنيا ، وقد يخلو بنفسه ساعات فلا يملك

(١) هو حفص الكوفي وكان له مكتب يعلم فيه الصبيان

(٢) وأظنك لاحظت هذا التعبير الشعبي «يا معلم لا أعود» وهو يشبه بعض تعبيراتنا البلدية

(٣) الديوان ص ٣٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) الديوان ص ٢٩

(٥) الديوان ص ٢٩٥

دموعه وما لّوعه شجن ، محب للاجتماع ، كريم إلى الناس ، وغليظ خشن في كثير من الأحيان حتى ليعجب منه عارفوه ويظنونونه مريضاً بأعصابه ، وما هو بالمريض لكنها الدماء الممتزجة تتفاعل كما تتفاعل المواد الكيميائية عند امتزاجها فتلعب به لعب القلوص براكب مستعجل .

الشعوبية

الشعوبية نسبة إلى الشعوب ، والشعوب جمع شعب^(١) ، ولفظ الشعوبى يطلق عند العرب على من تعصب لشعبه على العرب ، وصاحب القاموس يقول فى مادة شعب « الشعوبى محقر أمر العرب » ، وفى لسان العرب أن « الشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى أن لهم فضلاً على غيرهم » . وفى الحق أن العصبية العربية هى التى ولدت هذا الروح الشعوبى أو هذه العصبية الشعوبية .

جاء الإسلام والعرب فقراء أذلاء بينهم وبين النار « شفا حفرة » فأنقذهم منها وبدلهم بالذل مجدداً تليداً أو جاهاً عريضاً ، ومكن لسلطانهم فى الأرض فما هى إلا سنون حتى أذلوا الفرس وغلبوا الروم ، وما كان العرب ليخطر لهم أن يتناولوا إلى مجد الفرس أو منعة الروم حتى لقد فرحوا يوم ذى قار وأذهلهم انتصار بعض القبائل العربية على محلة فارسية وينادى شعراؤهم فى التغنى بذلك النصر^(٢) .

ما كانت لتنظر إلى فارس أو الروم إلا كما ينظر القزم الهين إلى المارد العملاق ذى الحول والجبروت وشاء ربك أن يخضعوا الفرس والروم ، وأن يخضعوا هذه الأمم التى دخلت فى الدين الإسلامى ، فلم لا يبغي العربى فى الأرض ويتنمر ؟
كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

لقد رأيت ما كان فيه العرب فى الجاهلية من عصبية قبلية أفتحسب أنهم لم يشعروا بالقومية العربية الجامعة قبل إسلامهم به بل لقد تعصبوا لجنسهم ، وإن كان أكثرهم عن القومية إلى القبلية معرضين ، وكأنهم على قول المثل « أنا وأخى على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب » . وحسبنا دليلاً على هذه العصبية العربية موقف عرب العراق ، وقد كانوا نصارى عند الفتح الإسلامى الفارسى فقد غلبوا العصبية الوطنية على العصبية الدينية وانضموا إلى

(١) الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ

(٢) انظر العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

العرب الغزاة وقتل من وجوههم في موقعة الجسر الكثير نذكر منهم أبا زيد الطائي ويوم واقعة البويب انضموا إلى العرب قائلين «بل نقاتل مع قومنا» .

ويروى صاحب العقد الفريد كما يروى صاحب ألف باء مناظرة بين كسرى والنعمان إن صحت فهي دليل قوى على العصبية العربية والشعور بالجنسية ، لكن أستاذنا أحمد أمين يضعف هذه الرواية بل لا يصدقها لأنه يرى وضوح وضعها ولأن راويها الكلبي في العصر العباسي الأول ولأن الكلبي ليس موثقاً به عند العلماء . ومهما يكن فإن تعصب العرب لقبائلهم لم ينسهم الشعور بالجنسية ، يمثل هذه العصبية المزدوجة قول قائلهم :
للعرب أفضل على الناس وخيرها أولاد إلياس
متى نشأ الروح الشنوبى وكيف ؟

قلنا في مستهل هذا الفصل إن العصبية العربية هي التي أوجدت الروح الشنوبى ، ولنا نريد بقولنا هذا أن العصبية العربية خلقت هذه العصبية الشعبوية من عدم ، فغير معقول أن تكون هذه الأمم المغلوبة على أمرها قد نسيت قوميتها ولا سيما أمتي الفرس والروم ، وقد زحزحها عن سلطنة الأرض ملك العرب الجديد .

ليس من شك في أن هذه الأمم المغلوبة ظلت حاقدة على العرب لأن العرب سلبوها مجدها ولطخوا بالفتح تاريخها بل لقد حاولت هذه الأمم استرجاع مجدها بالتخلص من نير العرب ونحن نعرف مثلاً أن الفرس حاولوا استرجاع ملكهم بزعامة آخر ملوكهم الساسانيين وهو يزدجرد بن شهریار بعد قتل عمر بن الخطاب .

وعلى ذكر عمر بن الخطاب نقول إن قاتله هو فيروز الفارسي (أبولؤلثة) من أسرى نهاوند ونرجح ترجيحاً قوياً أنه قتله انتقاماً لوطنه الدليل ، وكذلك القبط ثاروا على العرب ثورات عنيفة وظلوا ثائرين حتى عصر المأمون^(١) ، والخزر ظلوا يشاغبون على حدود أرمينيا . ومن العبث أن نسوق الأدلة وهي كثيرة لا تعوزنا ، فمن البدهة أن تحقد هذه الأمم على العرب وتتميز غيظاً وقد نكبوها في كل ما تملك .

لكننا برغم هذا وذاك نزعم أن العصبية العربية مسئولة عن تعصب هذه الشعوب عليها ، فلقد ثمل العرب بأحلام النصر وخيل إليهم أن الناس من طينة وأنهم من طينة أخرى ، أو أن

(١) من هذه الثورات ثورة بابك الخرمي وهو فارسي وقد أنزل هزيمة ساحقة بجيش المأمون في عام ٨٢٩ - ٨٣٠ م وكذلك قامت ثورة في مصر عام ٨٣٢ م حضر المأمون بنفسه لإخمادها

الناس من طين وأنم من غير طين . وليس لنا من النصوص الصريحة دليل على مبدأ ظهور هذه النعرة العربية إلا أننا استثناساً بقوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى» نستطيع استثناساً بذلك أن نشعر بوجود هذه النعرة العربية في زمن النبي . لكن العرب لم يستطيعوا فكاًكاً من ربق العصبية ، فالعصبية دينهم الأول ، والعصبية تاريخهم . دعاهم الله إلى طرح العربية القبلية فأجابوه ثم ارتدوا ، ودعاهم الله إلى محبة غيرهم من الأمم (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) فما نفعتهم الدعوة بل خيل إليهم الشيطان أن في عروقهم دماً ليس كالدماء .

أجل : العصبية دين العرب تعصبوا للقبيلة وتعصبوا للعشيرة وتعصبوا للبيت وتعصبوا للشاعر وتعصبوا للمدينة وتعصبوا لكل شيء .

وهاهم أولاء يتعصبون للجنس .

كان اختلاط العرب بغيرهم من الأمم قبل الفتوح الإسلامية ضعيفاً فكان الشعور القبلي هو المهيمن عليهم ، فلما كانت الفتوح وكان اختلاطهم بالأمم المفتوحة في صدر الإسلام وفي العهد الأموي لم ينس العرب عصبية القبيلة ، وكيف يستطيع نسيانها وقد ورثها عن آباءه أول ما ورث ، وورثها آباؤه عن أجداده أول ما ورثوا .

لكن هذا الشعور بالقبيلة ، وعندنا إن كان في العهد الأموي أقوى منه في الجاهلية ، لم ينسهم أمام هذا الاختلاط الشديد بغيرهم من الأمم الشعور بالوحدة الجنسية . أخذ العربي يشعر بأنه والعربي أمام هذا الأجنبي إخوان وإن فرقت بينهما القبيلة والهوى . انظر إلى قول جرير وقد نزل على جماعة من بني الفيد فلم يضيفوه واشترى منهم القرى :

يا مالِكُ بنَ طَريفٍ إن يَبْعَكمُ رِفْدَ القَرى مُفْسِدٌ لِلدينِ والحَسَبِ
قالوا نَبِيعُكَ يَبْعاً فَقُلْتُ لهم يَبْعُوا المَوالى واستَحْيُوا من العرب^(٢)

وأنعشه الانتصار أو بعبارة أصبح أسكره الانتصار فخيّل إليه أنه - وقد فتح هذه الأمم ثلاثة فتوح : فتحاً دينياً وفتحاً سياسياً وفتحاً لغوياً ، من جنس يفضل الأجناس ولا يدانيه

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) المبرد : الكامل ج ١ ص ٢٧٢ من طبعة المكتبة التجارية

جنس ، وأجد أنه يحتفظ بهذه الجنسية ، فكان العربي لا يزوج ابنته المولى وإن سما به أصل وجاه^(١) .

ومن العرب من كان يرى في ذلك شيئاً أى شيء وعاراً أى عار ، وأنى لك هذه الأبيات من قصيدة لأبى بجير يعير فيها عبد القيس لأن رجلاً منها زوج ابنته مولى ، قال :

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم دعارة زراع وآخر تاجر
وأصهب رومى وأسود فاحم وأبيض جعد من سراة أحامر
شكولهم شتى وكل نسييكم لقد جثتم في الناس إحدى المناكر
متى قال إني منكم فصدق وإن كان زنجياً غليظ المشافر
أكلهم وافي النساء جدوده وكلهم أوفى بصدق المعاذر
على علمكم أن سوف ينكح فيكم فجداً ورغماً للأنوف الصواغر

ومنها :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف وبينكم قربي وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامر^(٢)

وحدث أن مولى تزوج عربية فلما علم المولى بذلك فرق بينهما وجلد المولى مائتي جلدة وحلق له حاجبيه وفي ذلك يقول محمد بن بشير^(٣) :

حَمَى حَدِيّاً لُحُومَ بَنَاتِ قَوْمٍ وَهَمَ تَحْتَ الثُّرَابِ أَبُو الْوَلِيدِ
وَفِي الْمَائَتَيْنِ لِلْمَوْلَى نَكَالٌ وَفِي سَلْبِ الْحَوَاجِبِ وَالْخُدُودِ
إِذَا كَافَأَتْهُمْ بَنَاتُ كِسْرَى فَهَلْ يَجِدُ الْمَوَالِي مِنْ مَزِيدِ
فَأَيُّ الْحَقِّ أَنْصَفُ لِلْمَوَالِي بِإِصْهَارِ الْعَبْدِ إِلَى الْعَبِيدِ^(٤)

(١) روى صاحب فجر الإسلام (باب الخوارج) عن ابن أبي الحديد أن رجلاً من الموالى خطب عربية ، فقالوا له

« فضحتنا »

(٢) وهي طويلة فارجع إليها إن شئت في العقد الفريد ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٣) محمد بن بشير الخارجي ، شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية (ترجمته بالأغاني ج ١٦ ص ٥٨٧٦ من طبعة

الشعب)

(٤) الأغاني ج ١٦ ص ٥٨٨١ من طبعة الشعب

ما كان العربي ليرضى أن يزوج ابنته مولى لأنه كان يأنف من ذلك (١) ، كان ينظر إليه نظرة السيد للمسود وكان لا يجوز للمولى أن يزوج بنته بل كان من حق سيده ، فإن زوجها أبوها كان للسيد أن يطلقها من زوجها ، وفي هذه الحالة تعتبر الرابطة التي كانت قائمة غير شرعية . ومن مظاهر هذه السيادة العربية اختلاف دية العربي ودية المولى (٢) .

وأخذتهم العزة بالإثم فكانوا يكرهون الصلاة وراء الموالى ، ولقد ائتم عربى بأعجمى فلامه في ذلك بعضهم فقال « إنما فعلت ذلك تواضعاً لله » (٣) .

وكانوا لا يشركون الموالى في الصلاة على المولى إذا حضرها بعض العرب ، وجعل لهم مسجد خاص وجبانة خاصة إلى غير ذلك من المظاهر المخالفة لروح الدين وتعاليمه ، مع أنهم لم يمتنوا على العجم أول ما امتنوا إلا بأنهم علموهم الإسلام فأنقذهم من الضلال ولم يفخروا أول ما فخروا إلا بأن النبی منهم :

فقل للكرام السادة العرب حسبكم	لسان الورى طرا على حكم وقف
ونصركم حقا عليهم بكل ما	يطيقونه والود منهم لكم صرف
ولولم يكن إلا لأن محمداً	عليه السلام منكم أيها الصنف
خليل إله العالمين نبينا	ومن منه نرجو العطف يتبعه العطف
وقد قلت ذا أبغى به الله وحده	وإن شابه شيء فربى قد يعفو

ثم أخذوا يضيفون لأنفسهم كل فضيلة وسلبوا الناس كل فضل فكان الفضل لا يمكن إلا أن يكون وقفاً كله عليهم أو على العجم : قال متعصبو العرب « نحن أفضل وأحفظ وأسخى وأشجع وأوفى وأحلم وأغیر على أعراض النساء من الناس » ولهم في ذلك كله مناظرات عجيبة ليس ذلك مقامها .

والعجيب أنك ترى هذه النعرة العربية مسيطرة على العصر الأموى ولا تكاد تحس بجواب لها من هؤلاء المستضعفين حتى ليخيل إليك أن القوم قد دخل في روعهم أنهم أقل حظاً في

(١) وأحب ألا تنسى أن الفارس في الجاهلية كان لا يزوج ابنته من عربى بالغاً ما بلغ شأنه .

(٢) في الأغاني ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٧٧ رواية يفهم منها أن العربى كانت ديته عشرة من الإبل ودية المولى خمسا عن الأوس والخزرج (طبعة دار الكتب)

(٣) كان من عادة الدولة العباسية إذا أقبل العربى من السوق ومعه شيء فرأى مولا دفعه إليه ليحمله فلا يمتنع إذا لقيه راكباً وأراد أن يتزله فعل (الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء) .

الإنسانية من العرب مع أنهم كانوا أضرم من العرب نكراً ، وليس بعجيب فقد كثر عدد الموالى كثرة هائلة وتعددت درجات الولاء فقد يثرى المولى ويبتاع رقيقاً فيكون للمولى موال . وكان من الموالى شعراء مجيدون كنصيب ، وإسماعيل وثابت بن قطنة وعباد وزباد والأعجم .

وإذن فيم نعلل هذا الانكماش وهذا الخضوع والاستسلام من الموالى ؟ ها هو شعر العصبية العربية في القرن الأول يزدحم كثرة فأين جواب الشعر الشعوبى .
يخيل إلى أن التعليل ليس عسيراً ، وأكاد أوقن أنه نتيجة لسياسة الحكام وحدها فلنلق نظرة شاملة على سياسة الدولة بالنسبة لهؤلاء الأجانب .

جاء النبي مؤسس الدولة فلم يؤثر عربياً على أعجمى بل كان المؤمنون لديه إخوة تتكافأ دماؤهم ، وجهد في محو العصبية العربية واستبدالها بعصبية إسلامية ، يدل على ذلك أنه نادى يوم حصار الطائف أن كل رقيق يتزل إليه فهو حر ويدل على ذلك أيضاً أنه ولى أسامة بن زيد على المهاجرين والأنصار^(١) ، وتدل عليه أحاديث « المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم » و « كلكم من آدم وآدم من تراب » و « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » و « حسب الرجل ماله وكرمه ودينه » ويدل عليه قوله « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى وليقل فتاى وفتاتى » وقوله « مولى القوم منهم » .

أما الخلفاء الراشدون فقد جروا على حكم الدين وسنة النبي في التسوية بين المسلمين وسواهم بين العرب والعجم في العطاء وولى أبوبكر سالماً مولى حذيفة على المهاجرين والأنصار يوم اليمامة . ويروى عن عمر أنه قال « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته » .

مضى عهد الخلفاء الراشدين وجاء دور الأمويين فبدأ بعض عمال معاوية يحبسون العطاء عن الموالى^(٢) . ولسنا نشك في أن هذه الأخبار كانت تصل إلى معاوية ، وإن سألتني ما الدليل ؟ قلت لا دليل لكنه أمر تدركه أنت وأدركه أنا بالبداهة ، وأحسب أن معاوية كان يغيض الطرف ويصم الأذن عما يرى ويسمع تحبباً إلى العرب في أزمة كانت السياسة المكيافيلية تنفع فيها أكثر مما ينفع الدين . وقد لام بعض المحبين لعلى علياً في التسوية بين العرب والموالى في العطاء ونصح له باتباع سياسة معاوية ليضمن نصرة العرب ، فاستكبر القول وأجاب « أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ؟ » .

ونحن نعتقد أن ملكاً على هذا جنى عليه وكان من أسباب انتصار معاوية ، لقد كان علىً بغيضاً إلى كثير من العرب ، كان بغيضاً حتى إلى قريش وأكثرها ، بل لقد حاولت قتله قريش ، وفي ذلك يقول علي :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا ولا ظفروا
إن تقتلونني فرهن ذمتي لهمو بذات ودقين ما يعفو لها أثر^(١)

ودرج الخلفاء بعد معاوية على سبته فكان الموالي يقدمون في صفوف القتال ويحرمون من العطاء حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فسرعان ما أمر بصرف العطاء إلى عشرين ألف مولى كانوا يقاتلون في خراسان حباً في سواد عيون العرب .

وبعد عمر رجع الخلفاء إلى السياسة التي نقضها ونحسبهم فعلوا ذلك إرضاء للنصرة العربية السائدة^(٢) .

تلك غاية في الظلم قصوى لأن الموالي كانوا يقاتلون مع العرب جنباً إلى جنب ، بل كانوا يقدمون في المنايا وقد كانوا مشاة والعرب هم الركبان . ولقد كان عدد المحاربين منهم أضعاف المحاربين من العرب حتى لقد قتل في بعض المعارك ستة آلاف مقاتل من الموالي وقتل من العرب سبعة^(٣) . غاية في الظلم قصوى ! لتكن . . . فما كان معاوية ولا عبد الملك ولا هشام أبراراً خيرين كما وهم كثير من المؤرخين !

أجل ! لقد كان في الخلفاء الأمويين من يعرف الدين . . . ولكن متى ؟ كانوا يعرفونه إذا لم يتعارض مع الدنيا . فإن تعارض فالحاجة خير من الآجلة ، وكذلك كان الخلفاء العباسيون من بعدهم .

والذي زاد الأمر ضغطاً على أبالة أن هذا العطاء إنما هو مال الذميين ، فقد كان العربي لا يطالب إلا بالزكاة وكان الذميون يؤدون الجزية والخراج ، وكان المجموع قسمة بين المسلمين وذلك هو «العطاء» .

واعتنق كثير من الذميين الإسلام فوجب أن تسقط عنهم الجزية والخراج ، لكن الحجاج اعتبر إسلامهم حيلة فأبى إلا أن يؤدوا الضرائب كما كانوا يفعلون . . . فطلق كثير منهم الزراعة

(١) القاموس المحيط ، مادة «ودق»

(٢) راجع ابن الأثير

(٣) راجع ابن الأثير ، حوادث سنة ٦٧ هـ

وانتشروا في المدن فأعادهم الحجاج إلى مزارعهم قسراً . أفيمكن أن يحتمل الموالى هذه المظالم صاغرين حتى نقول إنهم انكشوا أمام العصبية العربية وذلوا ؟
أنا أزعم ذلك .

فإذا استثنينا حركة قام بها الصغد في الشرق يشد أزهرهم الأتراك من وراء الحدود ، وحركة أخرى قام بها في نفس الوقت « البربر » في المغرب يشد أزهرهم الخوارج ، وقد نقص يزيد سياسة عمر بن عبد العزيز وأعاد الحال إلى ما كان عليه ، فإن الموالى لم تجرأ قط على العرب في العصر الأموي .

قد تعترض علىّ وتذكرني بفتنة ابن الأشعث ، وقد كان للموالى فيها قسط عظيم حتى قال المؤرخون إنها حركة الموالى ضد العرب ، أفترسلي بالرد على هذا الاعتراض ؟ أفلا ترى أن فتنة ابن الأشعث كانت ثورة إقليمية أكثر منها حركة شعوية ؟

فزع أهل العراق من ظلم الحجاج وضاقوا به ذرعاً ، وقد خضب أرض العراق بدمائهم ورواها ، فما هو إلا أن أرسل الحجاج يؤنب ابن الأشعث وقد أمره على جيش عظيم لمقاتلة « زنبيل » على توانيه في مقاتلته حتى بدا له ولجيشه أن يتمردوا على الحجاج فتمردوا . وتبع من كان محققاً على دولة الحجاج مولى كان أم عربياً^(١) .

وموقف الموالى في فتنة ابن الأشعث هو موقفهم مع المختار ، هو موقفهم مع الشيعة ، هو موقفهم مع كل خارج على الدولة . لم يخرج على الحكم الأموي خارج ، أيا كان باعته على الخروج ، الدين أو السياسة ، أو غير ذلك إلا وتبعه الموالى وحاربوا في صفوفه مستميتين ، ومع ذلك فلم يشهر الموالى سيوفهم في وجه الدولة منفردين طوال القرن الأول ، بل لم يشهروها في وجوه الولاة منفردين ، فهذه القبائل الخراسانية التي ثارت على قتبية بن مسلم وقتلته . أفثارت عليه إلا بزعامة تميم ؟

أذلت الدولة الموالى في القرن الأول إذلاً فكانوا إمعات مع كل خارج عليها ولم يخرجوا منفردين قط كالعصفور يلطم القفص بجناحيه فينقر أسلاكه ما غفل صاحبه أو شغل عنه . فإن انتبه إليه وفرغ من أمره عاد مطوى الجناح ، وكانوا يحاربون الدولة بأسلحة من المقاومة السلبية أقطع وأحد . ففي خلافة هشام أغار العرب الأندلسيون بقيادة ابن مالك واحتلوا ناربون Narbonne واتخذوها قاعدة حربية وجرت بينهم وبين أهل البلاد عدة مواقع أهمها

(١) لفتنا إلى ذلك أستاذنا عبد الحميد العبادي

موقعة بلاط الشهداء كما يسميها المؤرخون العرب أو «بواتيه» عند بعض مؤرخي الفرنج و«تور» عند البعض الآخر ، وقد احتشد فيها المغيرون بقيادة عبد الرحمن الغافقي وواصلوا غزوهم إلى حوض نهر اللوار بين بواتيه ، وحيث لقيتهم جيوش الفرنج يقودها «سارتل مارتل» في رمضان سنة ١١٤ هـ ، وكر العرب وفر الفرنجة ، ولو جرى الأمر في مجراه لقرع العرب باب باريس كما قرعوا باب قرطبة من قبل وبسطوا سلطانهم على قلب أوروبا ولكان التاريخ غير التاريخ ، والمصير غير المصير ، ولكن البربر فتروا وتحاذلوا فطُرد الغزاة الفاتحون . وهذه الموقعة إحدى وقائع بعدها Cocsy من الوقائع التي ذكرها في كتابه «The 15 Decisive battles of the world» وانصرف الأندلسيون بعدها عن معاودة الفتح إلى انقسامهم الداخلي فهؤلاء موال وهؤلاء عرب .

ذلك الشعور العظيم المقهور هو ما نعلل به صمت الشعوبية امام العصبية العربية وشعرها . ولقد كان للقوم شعراؤهم لكنهم ، كما رأيت ، كانوا أذلاء مستضعفين فبم يفخر الشعر ؟ ليس له إلى الحاضر سبيل . إذ ليس في الحاضر مفخرة ، وإذن فليس للشاعر إلا أن يتحول عن الحاضر إلى الماضي فيفخر بأبائه وأجداده ، لكن العصبية العربية حرمته حتى هذا الغزاء .

فلقد دخل إسماعيل بن يسار النسائي^(١) على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدته التي

مطلعها :

يَارْبَعُ مِيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ رِيَمٍ هَلْ تَرْجِعَنَّ إِذَا حَيَّتْ تَسْلِمِي

وفخر فيها بأجداده :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا عُوْدِي بِذِي خَوَرٍ	عِنْدَ الْحِفَاطِ وَلَا حَوْضِي . بِمَهْدُومٍ
أَصْلَى كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ	وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومٍ
أَحْمِي بِهِ مَجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ	مِنْ كُلِّ قَرَمٍ بَتَاجِ الْمَلِكِ مَعْمُومٍ
جَحَاجِحٍ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَازِبَةٍ	جُرْدٍ عِتَاقٍ مَسَامِيحٍ مَطَاعِمٍ
مِنْ مِثْلِ كَسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعًا	وَالْهَرْمَزَانِ لِفَخْرِ أَوْلَتْ عَظِيمٍ
أُسْدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا	وَهُمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التَّرِكِ وَالرُّومِ

(١) إسماعيل بن يسار النسائي مولى بني تميم بن مرة وكان منقطعا إلى آل الزبير (له ترجمة بالأغاني ج ٤ ص ١٦٢٢ من

وختامها :

هناك إن تسألني تُنبئني بأن لنا جرثومة قهرت عزَّ الجرائم^(١)
قال هشام غطوه في الماء ، فغطَّ في الماء حتى كادت تزهق روحه ثم نفاه إلى الحجاز ، كان
للقوم شعور قوى بماضيهم المجيد ، وكانوا ينظرون إلى هذا الماضي مدلين ، ثم ينظرون إلى
ما كان عليه العرب في الجاهلية باللحظ الشفوق :

إنما سُمِّيَ الفوارسُ بالفُرِّ سِ مِصْهاةَ رِفْعَةٍ الأنسابِ
فاتركي الفخر يا أُمَامَ علينا واتركي الجورَ وانطقي بالصوابِ
واسألني إن جَهِلتُ عِنا وعنكم كيف كنا في سالفِ الأحقابِ
إذ تُربى بناتِنا وتُدسُّو ن سَفاهاً بناتِكم في الترابِ^(٢)

لكن العصبية العربية كملت هذه الأفواه وأخذت أصحابها ، كما رأيت ، أخذ عزيز
مقتدر ، فخلا الشعر الأموي إلا من بضع أبيات في الشعوية إن دلت على شيء فعلي شعور
بالقومية الممتنة . انظر إلى قول مكحول وقد أراد عمر بن عبد العزيز أن يوليهِ القضاء فاعتذر
وأجاب « قال النبي لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه وأنا مولى » .

على أن في التاريخ الأموي ما يدل على أن الموالي بلغوا شوكة حسب لها الخلفاء والولاة
حسابها . ففي أخبار معاوية أنه دعا الأحنف بن قيس وشجرة بن جندب وقال لها « إني رأيت
هذه الحمراء قد كثرت ، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل
شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق » فأشار عليه الأحنف ألا يفعل ، فأخذ
بمشورته بعد تردد .

وفي أخبار زياد بن أبيه أنه قال « كأني بوثة من بني الحمراء على ملك العرب » .

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٦٣٦ - ١٦٣٧ من طبعة الشعب

(٢) لإسماعيل بن يسار - الأغاني ج ٤ ص ١٦٢٥ من طبعة الشعب

وثبة الموالى على العرب

الصراع مستعر بين المضرية واليمانية ولاسيا في خراسان ، والموالى يفترضون هذا الظرف فيتألبون في خراسان ويوقعون بين القبائل ، ونصر بن سيار والى خراسان يتنبه إلى الخطر فينعى على العرب تفرقهم ويصرخ فيهم داعيا إلى الاتحاد أمام الخطر :

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن
ولينصبوا الحرب أن القوم قد نصبوا
مابالكم تنشبون الحرب بينكم
وتتركون عدواً قد أحاط بكم
قوم يقولون قولا ماسمعت به
من كان يسألني عن أهل دينهم
أن اغضبوا قبل ألاينفع الغضب
حربا يحرق في حافاتها الخطب
كأن أهل الحجى عن رأيكم غيب
من تأشب لادين ولاحسب
عن النبي ولاجاءت به الكتب
فإن دينهم أن تُقتل العرب^(١)

لقد أسمعت لو ناديت حيا ! القوم مشغولون بعصبياتهم ، والخلافة في شغل عن هؤلاء وأولئك . وصاحبنا في خراسان تتألب عليه الأحداث فيستنجد ولامنجد وله في ذلك شعر كأنه صرخة اليائس :

ففرى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام^(٢)
ودعاة الهاشمية ناشطون منذ أوائل القرن الثاني ، وحقق الموالى على الدعوة الهاشمية بالغ أشده وهم لا يحلمون بنقل الخلافة إليهم ، فلم لا يتتصرون للدعوة الهاشمية ؟ ويتصل إبراهيم الإمام سنة ١٢٦ هـ بأبي مسلم الخراساني ، ويعهد إليه بالإسراع إلى خراسان ويلتف بأبي مسلم مائة ألف مولى تظلمهم الراية السوداء^(٣) . وهنا لأول مرة نشعر بسيادة الموالى ، فنصر ابن سيار يسرع إلى أبي مسلم يعرض عليه مخالفة مضر والحزب اليماني الربيعي يطلب إلى أبي مسلم مخالفته . وأبومسلم يدل على هؤلاء وأولئك ويطلب إليهم أن يوفدوا وفودهم لتنظر في أمرهم ،

(١) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٣٦٤ هامش ٢ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٢ من طبعة المطبعة البهية

(٣) الراية العباسية

ويلتقى عنده وفد مضر ووفد اليمن وربيعة ويخطب خطباء كل وفد بين يديه ثم يعلن أبو مسلم اختياره للكرماني وأصحابه من اليمن وربيعة .

وتزحف جيوش أبي مسلم إلى العراق وتستولى على البدو مدينة بعد مدينة ، أما الموقعة الفاصلة بين الجيوش العباسية والجيوش الأموية فتقع على نهر الزاب سنة ١٣٢ هـ ، قتل مروان وطويت آخر صفحة في التاريخ الأموي .

وقتل إبراهيم الإمام فبويع عبد الله السفاح وبيعته تنشر أول صفحة من صفحات العصر العباسي الأول ، وما هو إلا عصر سيادة الموالى بل سيادة الفرس . ونرجو أن نوضح مظاهر هذه السيادة وآثارها المختلفة إيضاحاً لا يخرجنا عن نطاق بحثنا . ونقول إجمالاً إن العصبية العربية مظهر الدولة الأموية ، وأن قيام الدولة العباسية واندحار الأموية انتصار للعصبية الشعبية وليس قولنا انتصار أحزاب يمانية وربيعة للدعوة العباسية واحتشادها في صفوف القتال فهي الإيمعات في هذه المرة والقسط الأكبر للموالى .

وحسبي أن أقتطف لك هذه النبذة من رسالة لإبراهيم الإمام بعث بها إلى أبي مسلم « إن استطعت ألا تدع بخراسان أحدا يتكلم العربية إلا قتلتها فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار بتهمة فاقتله ، وعليك بمضر فإنهم العدو القريب ، فأبد خضراؤهم ولا تدع على الأرض منهم دياراً »^(١) .

حسبي أن أقتطف لك هذه العبارات من خطبته للمنصور « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا »^(٢)

وفي موضع آخر من خطبته يقول « فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراسة حتى ابتعثكم الله لنا شيعاً وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم . أهل خراسان دمع بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا »^(٣) .

وهذا هو الذي قصده الموالى . رأوا أنفسهم أذلاء مستضعفين في العهد الأموي ، ورأوا ضعيفاً يناضل الأمويين فانتصروا لهذا الضعيف ليتخلصوا من الأمويين وليضمنوا سيادتهم في

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة الحلبي ١٣٢٥ هـ

(٢) الطبري ج ٨ ص ٩٢ ، حوادث سنة ١٥٨ هـ من طبعة دار المعارف

(٣) الطبري ج ٨ ص ٩٣ ، من طبعة دار المعارف .

عهد هذا الضعيف الذي انتصر على أيديهم وقد تحققت لهم هذه السيادة فاصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية .

وانتصرت الشعبية فجلبلج صوتها في الشعر العباسي . أما أول الشعراء الذين تغنوا بهذه العصبية فهو بشار بن برد^(١) ، وهو يتبرأ من ولاء العرب .

أصبحتُ مولى ذى الجلال وبعضهم
مولاك أكرم من تميم كلها
فارجع إلى مولاك غير مدافع
ومن شعره في الفخر بأنه من العجم :

ونُبئتُ قوما بهم جنة
ألا أيها السائل جاهداً
نمت في الكرام بنى عامر
فإني لأغني مقام الفتى
يقولون من ذا وكنت العلم
ليعرفني أنا أنف الكرم
فروعي وأصلي قریش العجم
وأصلي الفتاة فما تعتصم^(٣)
وفي الفخر بأنه من خراسان :

ودعاني معشر كلهم
ليس من جرم ولكن غاظهم
أنا من خراسان وبيتى فى الذرا
وحدق دام لهم ذاك الحمق
شرفى العارض قد سد الأفق
ومن لدن المسعاة فرعى قد سبق^(٤)

وأقوى شعره الشعبى قوله ردا على قول أعرابي له : ما للموالى والشعر؟

خليلى لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار

(١) أبوه من فرس طخارستان من أقاليم تركستان ، فتحه الأحنف بن قيس سنة ٢٢ من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وهبه لامرأة من بنى عقيل فتزوجته وأولدها بشارا . وهو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي وكان لنشأته بين أعراب بنى عقيل أثر كبير في فصاحة لسانه وهو آخر من احتج به النحاة في شعرهم ، عاصر الدولتين الأموية والعباسية ويعدده النقاد إمام المحدثين (الأغاني ج ٣ ص ٩٨١ من طبعة الشعب) و (ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ١٢٥) و (الشعر والشعراء ص ٧٣٣) و (ابن المعتز ص ٢١) و (تاريخ بغداد ج ٧ ص ١١٢)

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٨٥ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٩٨٤ من طبعة الشعب وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٠ من طبعة دار المعارف

(٤) الأغاني ج ٣ ص ١٠٤٧ من طبعة الشعب

سَأخْبِرُ فَأَخْرَ الْأَعْرَابَ عَنِي وَعَنهُ حِينَ تَأْذُنُ بِالْفَخَارِ
أَحِينَ كَسَيْتَ بَعْدَ الْعُرَى خَزَا وَنَادَمْتَ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ
تُفَاخِرُ يَا بَنَ رَاعِيَةٍ وَرَاعٍ بَنَى الْأَحْرَارَ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
وَكُنْتَ إِذَا ظَمِئْتَ إِلَى قَرَّاحٍ شَرَكْتَ الْكَلْبَ فِي وَلَغِ الْإِطَارِ
تُرِيغُ بِخُطْبَةٍ كَسَرَ الْمَوَالِي وَيُنْسِيكَ الْمَكَارِمَ صِيدُ نَارِ
وَتَغْدُو لِلْقَنَا فِذٍ تَدْرِيهَا وَلَمْ تَعْقِلْ بِدَرَّاجِ الدِّيارِ
وَتَشْشَحُ الشَّالَ لِلْأَبْسِيهَا وَتَرَعَى الضَّأْنَ بِالْبَلَدِ الْقِفَارِ
مُقَامُكَ بَيْنَنَا دَنَسٌ عَلَيْنَا فَلَيْتَكَ غَائِبٌ فِي حَرِّ نَارِ
وَفَخْرُكَ بَيْنَ خَنْزِيرٍ وَكَلْبٍ عَلَى مِثْلِي مِنَ الْحَدَثِ الْكُبَارِ^(١)

أما أشد شعراء العصر تعصبا على العرب وتغنيا بالشعبوية فهو أبو نواس^(٢) وأغلب شعره في هذا المذهب خلط بين الشعبوية وبين الدعوة إلى التجديد الأدبي وإلى الحياة المأجنة كقوله :

عَاجِ الشَّقَى عَلَى رَسْمٍ يَسْأَلُهُ وَعُجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةِ الْبَلَدِ
كَمْ بَيْنَ مَنْ يَحْتَسِي خَمْرًا يَلْدُ بِهَا وَبَيْنَ بَاكِ عَلَى نُؤْيٍ وَمُنْتَضِدِ
لَا جَفَ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صِفَا قَلْبٍ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدِ
يَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرَّكَ قَل لِي مِنْ بَنُو أَسَدِ
وَمَنْ تَمِيمٍ وَمَنْ قَيْسُ الْأَوْهَمَا لَيْسَ الْأَعَارِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدِ^(٣)
وقوله :

لَنَا كَرَمَةٌ لَا يَعْلَمُ الذُّبُّ سَخْلَهَا وَلَا رَاعِيَهَا نَزُو الْفِحَالَةِ وَالْخَطَرِ
تَرَاثَ أَبِي سَاسَانَ كَسَرَى وَلَمْ تَكُنْ مَوَارِيثَ مَا أَبَقْتَ تَمِيمٍ وَلَا بَكْرَ^(٤)

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠١٢ من طبعة الشعب

(٢) أبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه وهو فارسي الأم والأب أيضا ، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . ترجمته في الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٣ والأغاني ج ٢٩ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ج ٤ ص ٢٥٤

(٣) الديوان ص ٢٦٦ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٤) الديوان ص ٢٨٤ من طبعة مصر ١٨٩٨

وقوله :

دع الأطلال تُسْفِيها الجنوب
ونخل لراكب الوجناء أرضها
ولا تأخذ عن الأعراب لها
ذر الألبان يَشْرَبها رجال
بأرض نبتها عُشْر وطلح
إذا راب الحليب فُبل عليه
فأطيب منه صافية شمول
أقامت حقبة في قعر دن
كأن قراتها في الدن تحكى
يمدّ بها إليك يداً غلام
غذته صنعة الدايات حتى
ينوء بردفه فإذا تمشى
فإن جشمته خلّبتك منه
يكاد من الدلال إذا تثنى
يجر لك العنان إذا حساها
فهذا العيش لآخيم البوادي
فأين البدو من إيوان كسرى
وتبكي عهد جدتها الخطوب
تحت بها النجبة والنجيب
ولا عيشا فعيشهم جديب
رقيق العيش عندهم غريب
وأكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تخرج فما في ذاك حوب
يطوف بكأسها ساق أريب
تفور وما يُحسّ لها هيب
قراءة القس قابله الصليب
أغن كأنه رشاً ربيب
زها فزها به دل وطيب
تثنى في غلائله قضيب
طرائف تستخف لها القلوب
عليك ومن تساقطه يذوب
ويفسخ عقد تكته الدبيب
وهذا العيش لا اللبن الحليب
وأين من الميادين الزروب^(١)

قلنا إن أشد الشعراء شعوبية وأكثرهم تغنيا بها هو أبو نواس ، ونحن نرى ذلك لظاهرتين في شعره . أما الظاهرة الأولى فهي حنينه إلى كل ماهو فارسي فهو مغرم في خمرياته بذكر فارس وكسرى وبنسبة الخمر إلى فارس ، فهو يقول :

فحلّ بُزّالها في قعر كأسٍ مُحفّرة الجوانب والقَرار
رجال الفُرسِ حوّل ركاب كسرى بأعمدةٍ وأقبية قصار^(٢)

(١) الديوان ص ٢٤٤ من طبعة مصر ١٨٩٨ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٠ من طبعة دار المعارف ١٩٥٦

(٢) الديوان ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ والشعر والشعراء ج ٢ ص ٨١١

وقوله

ذخائر كسرى للذاته وغرس كرام بني الأصفر^(١)
وقوله :

عانس من عوانس الكرم بكر بنحواتيم ربهَا عذراء
عانق من غراس كسرى بن ساسا ن غدتها أم لها شهواء^(٢)
وقوله :

بنات كسرى خير مابنات جَلْبَنَ من هيت ومن عاناتِ
مُحَجَّباتٍ غيرَ بادياتِ إِلَّا بأن يُجَلْبَنَ بالطَّاساتِ^(٣)
وقوله :

ونخذها من معتقة كميث تنزل درّة الرجل الشحيح
تخيّرُها لكسرى رائدوه لها خطّان من لون وريح^(٤)
وقوله :

فقال عروس كان كسرى ربيها معتقة من دونها الباب والستر^(٥)
وقوله :

تدور علينا الراح في عسجدية حبّتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدرّيها بالقسيّ الفوارس^(٦)
وقوله :

فضها عن الماء القراح واسقني فإنك إن لم تسقني مت دونها
بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها^(٧)

(١) الديوان ص ٢٨٧ من طبعة مصر ١٨٩٨ .

(٢) الديوان بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي .

(٣) الديوان ص ١٦٥ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) الديوان ص ٢٥٨ من طبعة مصر

(٥) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٦) الديوان ص ٢٩٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٦ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ٣٤٩ من طبعة مصر ١٨٩٨

أنا أعرف أن الفرس اشتهروا بالخمرة ، وأعرف أن الأعشى الجاهلي نسب إليه :
 علاني واسقياني من شراب أصهاني
 من شراب الشيخ كسرى أو شراب خسرواني^(١)
 وأعرف أن شرب الخمر كان من الطقوس المجوسية في معابد النار ، يقول هاتف
 أصفهاني :

بيروء صدر دينكشان كروش باره مست وباره مدهوش
 نبرخندان بطتر بأمن كفت أى تراير عقل حلفه بكوش
 قوكجا ماكجا أى از شرمتم دخدرز نشسته برقع يوش
 كفتمش سوخب آبي ده وآتش من فرولسان أزجوش
 دوش مى سوخنم از اين آتش آه اكرامشيم بود جون دوش
 كفت خندان كين هين بيالى بكير ستم كفت هان زياده منوش
 جرعه دركشيدم وكشتم فارغ از كرخ عقل وزحمت هوش
 و

بيدى ساق عليه حلة من ياسمين
 و :

وعلى الأذنين منه وردتــــا آذريون^(٢)

والشئ الذى نلاحظه فى شعوبية أبى نواس هو خلطه بين العصبية وبين الدعوة إلى الجديد وإلى المجون ، كما قلنا ، حتى ليخيل لقارئه أنه يهرف ، لكن الرجل لم يكن يهرف بل كان جادا فى عصبية كل الجد ، ونحن نعلل ذلك الخلط بأنه لم يكن جريئا فى دعوته ولم لم يكن جريئا ؟ لأن العصبية العربية كانت لاتزال قوية وهو ماسندل عليه فى المقام المناسب ، ثم لاتنس أنه كان نديما للأمين ، والأمين صريح العروبة .

لم يكن أبو نواس جريئا فى دعوته ، بل ادعى أنه يمانى ، فهو القائل :

وقال أمن تميم قلت كلا ولكنى من الحى اليماني^(٣)

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢٥١ من طبعة الشعب .

(٢) الديوان ص ٧٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي .

(٣) الديوان ج ٢ ص ٣٤١ من طبعة مصر ١٩١١ .

ونحن نتهمه في عروبه ونشعر شعورا قويا بأنه كاذب في دعواه ، فأمه جليبان الفارسية تتفق في ذلك المصادر ، ولكن من أبوه ؟ هنا اللغز ! فالمصادر تتضارب في ذلك ، فأبوه كاتب مسعود المارداني على ديوان الخراج ، وأبوه راعي غنم ، وأبوه حائك ، وأبوه من جند مروان^(١) من أهل دمشق قدم الأهواز للرباط بها فتزوج بجليبان .

وأبوه غير ذلك !

فمن أبوه ؟

يتهمه الرقاشي في بعض هجائه له بأنه نبطي :

نَبْطِيٌّ فَإِذَا قِيلَ لَهُ أَنْتَ مَوْلَى حَكَمٍ قَالَ أَجَلٌ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذْ كَانَ بِهِ لَاحِقًا وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ
نَسَبٌ يَسْكُنُهُ حَيْثُ اشْتَهَى فَإِذَا مَا رَابَهُ رَيْبٌ رَحَلٌ^(٢)

فهل كان أبوه نبطيا كما يزعم الرقاشي ؟

نحن نشك في ذلك أيضا ، ونشك فيه لأن كلمة نبطي قد وردت في النصوص التي بين أيدينا غير مرة على سبيل التحقير ، قال أبو نواس في بعض خمرياتة :

لَهَا وَلشَخْصِ الْمَاءِ فِي الْكَأْسِ ضَجَّةٌ كَضَجَّةِ أَنْبَارٍ تَدَارُ خَرَجَ
وَقَالَ ذُو الرِّمَةِ :

إِنْ أَمْرًا الْقَيْسِ هُمْ الْأَنْبَاطُ زُرْقٌ إِذَا لَاقَيْتَهُمْ سِنَاطٌ^(٣)

وتفسيرا لهذا البيت أروى لك بيتا لدى الرمة من قصيدة أخرى :

تَسْمَى أَمْرُ الْقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ إِذَا اعْتَرَتْ وَتَأْتِي السَّيَالُ الصُّهْبُ وَالْأَنْفُ الْحَمْرُ^(٤)

وقال آخر :

نَبْطٌ إِذَا عَرِكَ الْهُوَانُ بِهِمْ ذَلُّوا وَإِنْ أَكْرَمْتَهُمْ ضَعُفُوا

(١) راجع في ذلك أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٣ ، ٤ والاشتقاق لابن دريد ص ٤٠٦ - نشر الخانجي .

(٢) البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٤٦ من طبعة الخانجي ١٩٣١ وديوان أبي نواس ج ١ ص ٥٣ من طبعة

لجنة التأليف .

(٣) الديوان ص ٣٣١ من طبعة كميردج ١٩١٩

(٤) الديوان ص ٢١٩ من طبعة كميردج ١٩١٩

وقال آخر :

الشيخ في الصدر وحوله الشاربون طائفة سكرى وطائفة ذهول
والقول :

قال لى الشيخ ضاحكا مازحا يامن عقله مرشد أسير
والقول :

أين أنت ؟ أين نحن يامن تبرقع بنت العنب منك حياء
والقول :

فقلت له قد احترقت روحى فاعطنى ماء واطف مائى من الغليان
ولكن أبا نواس كان يحرص على ذكر الفرس وكسرى فى خمرياته ، هذا الحرص الذى
يراه كل متصفح لديوانه ، لولا ما فيه من دم فارسى ، وحنين فطرى إلى كل ما هو فارسى .
كان يلزمه أن يذكر فارسا فى خمرياته وأن يذكرها فى غلامياته .

وساقٍ غريرِ الطرفِ والدُّلِّ فاتنٍ ريبِ ملوكٍ كان والدُّهم كِسرى (١)

وكان يضرب الأمثال الفارسية :

كقول كسرى فيما تمثله من فُرْصِ اللَّصِّ ضَجَّةِ السوقِ (٢)

لكن هناك ظاهرة أخرى أشد وضوحا وهى شعوبية عملية جدية ، هذه الظاهرة هى كثرة
الألفاظ الفارسية فى شعره كثرة لا نلاحظها فى شاعر آخر ، وهاك بعض الأمثلة :

فحللنا هناك تِكَّةَ خَزٍّ وحسَرْنَا قَبَاءَه الدِّيَابَجَا (٣)
وقوله :

لكن بها جُلُنارٌ قد تَفَرَّعَهُ آسٌ وكَلَّلَهُ وَرْدٌ وسوسان
حتى إذا اصطفقت الأقداح وانبسطت بيض القوافين من أعناق كيزان (٤)

(١) عبد الرحمن صدق : ألحان الحان ص ٢٦٩ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الديوان ص ٤٥١ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٣) الديوان ص ١٦٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ١٢٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى .

وقوله :

فَقُلْتُ لَهُ وَالرَّاحُ يَزْهُو بِكَفِّهِ وَقَدْ رَعَفَ الْإِبْرِيْقُ فِيهَا وَقَرَّقَرَا^(١)

وقوله :

وَجَنَّةٌ لُقِّبَتْ الْمُنْتَهَى ثُمَّ اسْمُهَا فِي الْعُجْمِ خُلَارٌ

وقوله :

فَالْحَمْرُ يَاقُوْتَةٌ وَالْكَاسُ لَوْلُؤَةٌ فِي كَفٍّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةٍ الْقَدَّ^(٣)

وقوله :

فَانْتَنِينَا عَنِ الْوَرْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَأَى عَنِ النَّرْجِسِ الْمَضَاعِفِ دَارًا^(٤)

وقوله :

وَاجْعَلِ الْبَسْتَانَ بَيْتًا وَاجْعَلِ الْقَرْيَةَ دَارًا

مَثَلًا فَتَّقْتَ عَنْ مَسْ لَكَ لَدَى الْعَنْبَرِ فَارًا^(٥)

وقال ذو الرمة :

إِذَا قِيلَ مِنْ أَنْتُمْ يَقُولُ خَطِيْبُهُمْ هَوَازِنُ أَوْ سَعْدٌ وَلَيْسَ بِصَادِقٍ

وَلَكِنْ أَصْلُ الْقَوْمِ قَدْ يُعْلَمُونَهُ بِحَوْرَانَ أَنْبَاطُ عِرَاضُ الْمَنَاطِقِ^(٦)

وَإِذَنْ فَنَحْنُ نَشْكُ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الرِّقَاشِي إِذْ يَخِيلُ إِلَيْنَا أَنَّ كَلِمَتَهُ «نَبَطِيٌّ» فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ

تَقَابِلُ كَلِمَةِ «دَرْزِي» عِنْدَنَا الْيَوْمَ .

وَنَكْذِبُ أَبَا نَوَاسٍ وَنَرْجَحُ أَنْ أَبَاهُ أَعْجَمِي ، وَلَكِنْ مِنْ أَى الْأَعَاجِمِ ؟ ذَلِكَ مَا لَا نَعْرِفُهُ إِذْ

لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَيْهِ .

(١) الديوان ص ٦٨٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٠٥ من طبعة دار المعارف

(٣) عبد الرحمن صدق : ألحان الحان ص ٢٤٨ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧ والديوان ص ٢٧ بتحقيق أحمد

عبد المجيد الغزالي

(٤) غير موجود بالديوان

(٥) الديوان ص ١١٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٦) الديوان ص ٤١٠ من طبعة كمبردج

دعوة أبي نواس اليمانية :

وقد عللناها ضمنا فلنرح أبا نواس ولنسترح منه لننتقل إلى شيء آيخر ، ولا بد أن نعرف قبل الانتقال إلى تناقض في موقفه الشعوبي ، فهو كما ترى من أشد متعصبى العجم وهو في نفس الوقت من أشد أنصار الأمين وأنصار الأمين هم العرب . والفرس الذين كان أبو نواس متعصباً لهم ، هم الذين قتلوا الأمين ، ونصروا المأمون وسر هذا التناقض ينكشف إذا لاحظت أن أبا نواس كان يحب الأمين نوعاً من الحب ، وأبو نواس رجل خضع طول حياته لقلبه وهواه .

حظ العصبية العربية من القوة أوالضعف :

بلغ النفوذ الفارسي مبلغه ، فالبلاط فارسي ، والوزراء فرس والقواد أغلبهم فرس ، والحضارة فارسية ومع ذلك فنحن نزع أن العصبية العربية لم تزل قوية وأن الجنسية العربية ما برحت مهيبة ودليلنا نصوص من الشعر نشرها بين يديك .

يقول بشار في هجاء باهلة :

إذا أعتك نسبة باهلي فرّع عنه حاشية الإزار
على أستاذ سادتهم كتاب « موالى عامر » كتبت بنار^(١)
فكم يريد بشار أن ينسب صفة العروبة عن باهلة .

ويقول بشار في هجاء سيبويه :

أسيبويه يابن الفارسية ما الذى تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ
أظلت تغنى سادراً فى مساعى وأملك بالمصرين تُعطى وتأخذ^(٢)
ويقول :

إن عمراً فاعرفوه عربى من زجاج
مظلم النية لا يعرف إلا بالسراج^(٣)

(١) الديوان ص ٢١ من طبعة المكتبة العربية

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٠٥٦ من طبعة الشعب

(٣) قالها فى عمرو بن العلاء لأنه كان يغمز فى نسبه (طه الحاجرى : بشار بن برد ص ٥٦ من سلسلة نوابغ الفكر بدار

ويقول أبو العتاهية في هجاء والبة :

أَوَالْبَ أَنْتَ فِي الْعَرَبِ	كَمِثْلِ الشَّيْصِ فِي الرُّطْبِ
هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصَّيِّ	د فِي سَعَةٍ وَفِي رَحَبِ
فَأَنْتَ بِنَا لَعَمْرُ الدِّ	ه أَشْبَهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ
غَضِبْتُ عَلَيْكَ ثُمَّ رَأَيْتُ	تُ وَجْهَكَ فَانْجَلَى غَضَبِي
لَا ذَكَرْتَنِي مِنْ لَوْ	نِ أَجْدَادِي وَلَوْ أَنَّ أَبِي
فَقُلْ مَا شِئْتُ أَقْبَلُهُ	وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِي الْكَذِبِ
لَقَدْ أُخْبِرْتُ عَنْكَ وَعَنْ	أَبِيكَ الْخَالِصِ الْعَرَبِيِّ
فَقَالَ الْعَارِفُونَ بِهِ	مُصَاصٌ غَيْرٌ مُوْتَشِبِ
أَتَانَا مِنْ بِلَادِ الرُّومِ	مِ أَطْلَسَ غَيْرَ ذِي نَشَبِ
أَرَاكَ وَلَدْتَ بِالْمِيرِ	خِ يَابْنَ سَبَائِكَ الذَّهَبِ
فَجِئْتَ أَقْيَشَرَ الْخَدِيِّ	نِ أَزْرَقَ عَارِمِ الذَّنْبِ
لَقَدْ أَخْطَأْتَ فِي شَتْمِي	فَخَبَّرْنِي أَلَمْ أَصَبُ (١)

ويقول في هجائه :

صَرَّحَ بِمَا قَدْ قُلْتَهُ وَاجْهَرَ	لَا بِنَ الْحَبَابِ وَقُلْ وَلَا تَحْصِرْ
مَالِي رَأَيْتُ أَبَاكَ أَسْوَدَ غِرٍّ	يِبَ الْقَدَالِ كَأَنَّهُ زُرْزُرٌ
وَكُنْ وَجْهَكَ حُمْرَةً رِثَّةً	وَكُنْ رَأْسَكَ طَائِرَ أَصْفَرٍ
مَا بَالُ مَنْ آبَاؤُهُ غَرَبَ الْأَلِ	وَأَنْ يَحْسِبَ مِنْ بَنِي قَيْصَرَ
أَتُرُونَ أَهْلَ الْبَدْوِ قَدْ مُسَخَوْا	شَقَرَا أَمَا هَذَا مِنَ الْمُنْكَرِ ؟ (٢)

ويقول أبو نواس في هجاء الهيثم بن عدي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا أَعْجَبُ الْعَجَبِ	الْهِثَمُ بْنُ عَدِيٍّ صَارَ فِي الْعَرَبِ
يَا هَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ لَسْتَ لِلْعَرَبِ	وَلَسْتَ مِنْ طَبِئِي إِلَّا عَلَى شَعْبِ

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٦٨ من طبعة الشعب والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٨٩

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٦٩ من طبعة الشعب

إذا نسبتَ عدِيًّا في بني ثعلٍ فقدّم الدال قبل العين في النسب^(١)
 ماذا تفيده هذه النصوص ؟ بشار وأبو العتاهية وأبو نواس كانوا موالى يهجون فينفون
 العروبة عن المهجو ، فهذا دليل صريح على أن العصبية العربية كانت قوية وعلى أن الجنسية
 العربية كان ينظر إليها نظراً . . . لقد شهد بذلك أهلها !
 ذلك يكفيني فلست عارضا عليك شيئا من شعر العرب .

الشعوبية المعتدلة أو «التسوية» .

رأيت كيف كان بشار ينعت العربى « خنزير » و « كلب » وكيف أن الأعراب عند
 أبي نواس « ليسوا عند الله من أحد » ، وكان يشمخ في عصبية ويقول في بعض شعره :
 « ياعربيا من صنعة السوق »
 فأحب أن أعرض عليك الآن صورة أخرى من صور الشعوبية هادئة ، يقول
 الخريّمى^(٢) :

أبا الصُّغْدِ بِأَسٍّ إِذْ تُعَيِّرُنِي جُمْلُ سَفَاهًا وَمِنْ أَخْلَاقِ جَارَتِي الْجَهْلُ
 فَإِنْ تَفَخَّرِي يَا جُمْلُ أَوْ تَتَجَمَّلِي فَلَا فَخْرَ إِلَّا فَوْقَهُ الدِّينُ وَالْعَقْلُ
 أَرَى النَّاسَ شَرَّعًا فِي الْحَيَاةِ وَلَا يُرَى لَقَبِرٍ عَلَى قَبْرِ عَلَاءٍ وَلَا فَضْلُ
 وَمَا ضُرَّنِي إِنْ لَمْ تَلِدْنِي يُحَابِر وَلَمْ تَشْتَمَلِ جَرِّمٌ عَلَيَّ وَلَا عُكْلُ
 وقال :

إني امرؤ من سراة الصغد ألسنى عرق الأعاجم جلدا طيب الخبر^(٣)
 وعلى الإجمال فشعر الخريّمى يمثل مذهب أهل التسوية أو الشعوبية المعتدلة ، كما سميناها .

(١) الديوان ج ١ ص ١٧٥ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهى الخريّمى من صغد الترك من مرو ، وهو جزرى نزل بغداد وكان له ولاء
 في غطفان جعله يلزم عثمان بن نعيم المرى الغطفانى في ولايته على أرمينية وظل وفيا له فنسب إليه . انظر في الخريّمى وأخباره
 وأشعاره : ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٥٣ وتاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٢٦ وزهر الآداب ج ٤ ص ٢٠١

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٥٧ بتحقيق أحمد شاكر

بحور المفاخرة

ظاهرة ألفت النظر لأبس من الإشارة إليها وهي أن العرب كانوا يفخرون بما يعيرهم به
الفرس ، وأن الفرس أنى كانوا يفخرون بما ينعاها عليهم العرب .

يفخر الشعوبى بحضارته ولين عيشه في حين أن العربى لا يفخر إلا بالعيش وخشونته ، يقول
الشعر :

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة دمول
فلست بتارك إيوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب بها يعوى وليث وسط غيل
ويقول العربى :

ونفخر أن مأكولا ولبا وذلك فخر العاربات حجول
ففاخرهن فى خد أسيل وفرع فى مرافقها رسيل
وأجد من أيبك إذا ترانا عداة كالليوث على الخيول

وليس فى هذه الظاهرة عجيب فهى نظيقة منطقية لاختلاف ما بين الفرس والعرب ،
فطبيعى أن ينظر الفارسى المترف إلى العربى الخشن كما ينظر أبناء الحضارة واللين إلى أبناء الريف
والبوادى . طبيعى أن يفخر الفارسى بالحضارة واللين ، وما يلحق بهما من ضروب اللهو
والقصف ، كما رأيت فى أبى نواس . وطبيعى أن يفخر العربى بالفروسية والفصاحة وما إليها
من خلال البدو فيقول :

متى عرف المنابر فارسى متى عرف الأغر من الحجول
متى عرفت وأنت بها زعيم أكف الفرس أعراب الخيول
وطبيعى أن يعيره الناس بالبداءة والخشونة :

بنى هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد صار سعر التمر صاعا بدرهم^(١)
وقوله :

أجعلت بيتا فوق راية فرع النجوم كأنه نجم

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٦ من طبعة المطبعة البهية والبغدادى : خزانة الأدب ج ٤ ص ١٧٠

كبيت شعر وسط مجهلة بفنائها الجعلان واليهام^(١)
وقوله :

عودوا إلى أرضكم بالحجا ز وأكل الضباب ورعى الغنم

نزعة إنصاف :

رأيت ما كان عليه العرب من التعصب حتى أننى قلت فيما أذكر « كأننى بالقوم خيل إليهم
أن فى عروقهم دماً ليس كالدماء » ، غير أن القواعد لا تجرى مطلقة . وأحب الآن أن أعرض
عليك صورة من شعر البحترى^(٢) تصور نزعة عربية شاذة .

يقول البحترى فى سينيته الشهيرة التى وصف بها إيوان كسرى :

ومساع لولا المحابة منى لم تُطَقِّها مسعاة عَنَسَ وعَبَسَ
فلها أن أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حبس
ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غرس
أبدوا ملكنا وشدوا قواه بكماة تحت السنور حمس
وأراني من بعد أكلف بالأشد راف طرا من كل سنخ وجنس
أتسلى عن الحُظوظ وآسى لحل من آل ساسان دَرَسِ^(٣)

ولكن ماتقول فى قوله ؟ !

أتسلى عن الحُظوظ وآسى لحل من آل ساسان درس
ولا تصدق البحترى فى قوله :

وأراني من بعد أكلف بالأشد راف طرا من كل سنخ وجنس

(١) هذان البيتان لسهل بن هارون ومع ذلك فابن قتيبة يقول « لم أر فى هذه الشعوية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا من
العرب من السفلة والحشوة أوباش النبط وأبناء أكرة الفرس ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون
ما لهم وما عليهم ويرون الشرف ثابتاً » .

(٢) هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى بن عبيد بن شملال ، ويكنى أبا عبادة . ترجمته فى الأغاني ج ٢٤ ص ١٩٩ ، من
طبعة الشعب وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٧٦ - ٤٨٠ ومعجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٤٨ - ٢٥٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز
ص ٣٨٤ - ٣٩٥

(٣) الديوان ج ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

لأنه كان متعصبا لقبيلة طيئ ، ومن العجب أن يتعصب رجل لقبيلة لاتتعصب لقوميته
أليس هو القائل :

يا بنة العامري كيف يرى قو	مك عدلا أن تبخلى وأجودا
إن قومي قوم الشريف قديما	وحديثا أبوة وجدودا
وعبيدا أومسهرأ وجديا	وتدولا وبخترا وعتودا
لم أدع من مناقب المجد مايق	نع من هم أن يكون مجيدا
ذهبت طيئ بسابقة المح	د على العالمين بأسا وجودا
معشر أمسكت حلومهم الأر	ض وكادت من عزمهم أن تميدا
نزلوا كأهل الحجاز فأضحى	لهم ساكنوه طرا عيدا
سائل الدهر مذ عرفناه هل يع	رف منا إلا الفعال الحميدا
قد لعمري زرناه كهلا وشيخا	ورأيناه ناشئا ووليدا
وطوينا أيامه وليالي	ه على المكرمات بيضا وسودا
عبد شمس شمس العريب أبونا	ملك الناس واصطفاهم عيدا
وطيئ السهل والخزوة بالأب	طال شعنا والخييل قبا وقودا
نحن أبناء يعرب أعرب النا	س لسانا وأنضر الناس عودا
وكأن الإله قال لنا في الحر	ب : كونوا حجارة أو حديدا ^(١)

وإذن فالبحتري كاذب ! أريد أنه واهم ، حين يقول أنه يكلف بالأشراف من كل سنخ
وجنس . ويجب أن نبحت عن تعليل آخر لهذه التزعة الشعبية الشاذة ، فتعال بنا نتأمل سينيته
ونراجع سيرته محاولين استخلاص التعليل الصحيح ، يقول البحتري في هذه السينية :

ولقد را بنى نبو ابن عمي	بعد لين من جانيه وأنس
وإذا ما جُفيت كنت حريا	أن أرى غير مصبح حيث أمسى
حضرت رحلى الهموم فوجه	ت إلى أبيض المدائن عنسى ^(٢)

(١) الديوان ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) الديوان ج ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

كأنا بالرجل قد رحل إلى المدائن ولسان حاله يقول قول أبي نواس :
لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره^(١)
ويقول :

واشتراني العراق خطة غبنٍ بعد بيعي الشام بيعة وكس^(٢)
فما الذي رابه من بني عمه ، وماله يبيع العراق بعد بيعة الشام بيعة وكس ؟ لعلك تذكر
قصة البحري مع أبي العنيس الصيمري .

دخل البحري على المتوكل ومدحه بقصيدته :
عَنْ أَيْ تُغْرِ تَبْتَسِمُ وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَحْيَكُمُ^(٣)
ويقال إن المتوكل أغرى به أبا العنيس . فما إن أتم البحري قصيدته حتى صاح به
أبو العنيس :

فِي أَيْ سَلَحَ تَرْتَطِمُ وَبِأَيِّ كَفٍّ تَلْتَقِمُ
أَدْخَلْتَ رَأْسَكَ فِي الرَّحِمِ وَعَلِمْتَ أَنَّكَ تَنْهَزِمُ
يَا بُحْرِي حَذَارٍ وَيَا حَكَّ مِنْ قَضَائِضٍ ضُغْمُ
فَلَقَدْ أَسَلْتَ بَوَادِيَّ لَكَ مِنَ الْهَجَا سَيْلَ الْعَرَمِ
فَبِأَيِّ عَرَضٍ تَعْتَصِمُ وَبِهْتَكَةٍ جَفَّ الْقَلَمُ^(٤)

وخرج البحري ، والمتوكل يضحك ويصفق بيديه حتى غاب عن عينيه .
ونرجح أنه رحل بعدها عن « سر من رأى » وقلبه يتميز من الغيظ ، ولعله قصد المدائن
بعدها توا .

والذي أريد أن أستنتجه من ذلك كله أن هذه النزعة لم تكن عامة - فيما أرى - إنما هي
نزعة فردية لها ظروفها .

(١) الديوان ج ١ ص ٦٦ من طبعة مصر ١٩١١

(٢) الديوان ج ٢ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٩١١

(٣) الأغاني ج ٢٤ ص ٨٢١٩ من طبعة الشعب والديوان ج ٢ ص ٢٢٤ من طبعة مصر ١٩١١

(٤) الأغاني ج ٢٤ ص ٨٢٢١ من طبعة الشعب والقصيدة طويلة . ويقول أبو الفرج « وخرج البحري ولقي بعض

أصحابه فقال لهم : فقد ضاع العلم وهلك الأدب ، أفتأذنون لي بالخروج إلى منبج بغير إذن » (الأغاني ص ٨٢٢٤)

الشعوبية تنتصر :

لأن كان أبو جعفر المنصور قد آثر الفرس على العرب حتى أن الفارسي كان يدخل عليه بعد استئذان في حين كان العربي ينتظر الإذن على بابه . ولأن كان البرامكة قد نهضوا بالنفوذ الفارسي في عصر الرشيد . ولأن كان المأمون بعد انتصار الفرس له على أخيه الأمين وقتله فرق بين الفرس والعرب فكان الفرس هم الركبان والعرب هم الرجل في الحروب . فليس من شك في أن العصبية العربية بقيت برغم الخلفاء الوزراء متينة مهابة يدل على ذلك مارويناه لك من الشعر ويدل عليه التاريخ . فنحن نعلم أن الحزب العربي وعلى رأسه السيدة زبيدة كان يناضل البرامكة .

وأنا أرجح أن هذه العصبية العربية لعبت دورها في مأساة البرامكة ، أما رجحان كفة الشعوبية فكان ذلك بعد حرب الأمين والمأمون ، أي حرب العرب والفرس ، هذه الحرب التي انتهت بقتل الأمين ، وبين يدي طائفة من الشعر يفخر أصحابها بأنهم قتلوا الأمين ، وظل نجم العرب يخبو حتى صنف أو كاد في زمن المعتصم ، وقد مدحه أبو تمام في بعض مديحه بقوله :

إقدامُ عَمْرُو في سماحة حاتم . في حلم أحنفَ في ذكاء إياس^(١)
فاستكبر القول رجال القصر ، وعنفَ أبو تمام .

وإنه ليخيل إلى من أخبار ذلك العصر وماتلاه أن لفظ « عربي » كان يقال كما يقول سفلة الفرنجة ووبشهم «Arabe» كناية عن الزراية والمهانة .

العصبية القبلية في العصر العباسي

نساجلك العداوة ماحينا فإن متنا نورثها بنينا
أحسب أن القوم انصرفوا عن عصبياتهم القبلية إلى مصارعة الشعوبية ! لابل تهادنوا أمام
السيل الشعبي المجلعب الرابع كما يتهدن البطلان في حلبة الملاكمة وقد تواب قلباهما من
الجهد حتى إذا تملكنا أنفاسهما عادا للنضال .

والشيء الطريف في العصبية القبلية هو تعصب بعض الموالى لقبائل عربية يدينون لها بالولاء .

مسلم بن الوليد^(١) مولى الأنصار ، والحكم بن قنبر المازني^(٢) .

الحكم بن قنبر شاعر متعصب كان يناقض الطرماح بعد موته ، وكان يهجو الأزدي وطيباً
فناقضه مسلم بقصيدته « آيات أطلال برامة درس » ومنها :

إن كنت نازلة اليفاع فنكّي دار الرباب وخزرجي أو أوسى
ومنها :

هل طيئ الأجيال شاكراً امرئ ذاد القوافي عن حماها الأتعس
فاعقل لسانك عن شتائم قومنا لا يعلقنك خادراً من مانس
أخلفت فخرك من أيبك وجشني بأب جديد بعد طول تلمس
أخذت عليه المحكمات طريقها فغداً يهاجي أعظماً في أرمس^(٣)

وهجا مسلم قريشا في قصيدة أذكر لك منها :

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلاً ليس . بالتيه يفخر الأحرار

(١) هو مسلم بن الوليد ، أبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبي أمامة أسعد بن زرارة الخزرجي . ولد مسلم سنة ١٤٠ هـ
وكان أبوه يشتغل بالحياكة . وفي أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً وأغلب الظن أنه كان من موالى
الفرس .

ترجمته في الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٦٣ من طبعة الشعب والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز
ص ٢٣٥ والموشح للمرزباني ص ٤٤٤ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى ج ٢ ص ١٨٦ وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٩٦
(٢) هو الحكم بن محمد بن قنبر المازني ، بصري شاعر ظريف من شعراء الدولة الهاشمية وكان يهاجي مسلم بن الوليد

الأنصاري مدة ثم غلبه مسلم (الأغاني ج ١٤ ص ٥٠٣١ من طبعة الشعب)

(٣) الأغاني ج ١٤ ص ٧٣٠٨ من طبعة الشعب

فَتَنَاهَا وَأَقْصَرُوا فَلَقَدْ جَا رَت عَنْ الْقَصْدِ مِنْكُمْ الْأَبْصَارُ
ومنها :

فَاخَرْتَنَا لَمَّا بَسَطْنَا لَهَا الْفَخْ ر قُرَيْشٌ وَفَخَرَهَا مُسْتَعَارُ
ذَكَرْتُ عِزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَجِيرَنَا مُسْتَجَارُ
إِنَّمَا كَانَ عِزُّهَا فِي جِبَالِ تَرْتَقِيهَا كَمَا تَرَقَّى الْوَبَارُ
أَيُّهَا الْفَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعِزُّ (م) لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ وَالْفَخَارُ
أَخْبَرُونَا مِنَ الْأَعَزِّ أَلَمْ نَدَّ
فَلَنَّا الْعِزُّ قَبْلَ عِزِّ قُرَيْشٍ وَوَقُرَيْشٌ تِلْكَ الدُّهُورُ تِجَارُ
ومنها :

أَيُّكُمْ حَاطَ ذَا جَوَارٍ بِعِزِّ قَبْلَ أَنْ تَحْتَوِيَهُ مِنَ الدَّارِ
أَوْ رَجَا أَنْ يَفُوتَ قَوْمًا بِوَثْرِ لَمْ تَزَلْ تَمْتَطِيهِمُ الْأَوْتَارُ
لَمْ يَكُنْ ذَاكَ فِيكُمْ فَدَعُوا الْفَخْ رَ بِمَا لَا يَسُوعُ فِيهِ افْتِخَارُ
وَنَزَارًا ففَاخَرُوا تَفَضَّلُوهُمْ وَدَعُوا مِنْ لَهُ عَيْدًا نِزَارُ
فَبِنَا عِزَّ مِنْكُمْ الذُّلُّ وَالذُّهُورُ عَلَيْكُمْ بَرِيَّةً كَرَارُ (١)

فرد عليه ابن قنبر يحرض عليه أمير المؤمنين ويهجوهم والأنصار . والغريب في هذا الرد مزيج

من العصبية القبلية والعصبية العربية :

أَلَا امْثُلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُسْلِمٍ وَأَقْلَقَ بِهِ الْأَحْشَاءُ كُلَّ مُجْرِمٍ
وَلَا تَرْجَعَنَّ عَنْ قَتْلِهِ بِاسْتِنَابَةٍ فَمَا هُوَ عَنْ شَتْمِ النَّبِيِّ بِمُحَرَّمٍ
وَلَا عَنْ مُسَاوَاةٍ لَهُ وَلِقَوْمِهِ قُرَيْشًا بِأَصْدَاءِ لَعَادٍ وَجَرُّهُمْ
وَيَفْخَرُ بِالْأَنْصَارِ جَهْلًا عَلَى الَّذِي بِنُصْرَتِهِ فَازُوا بِحَظٍّ وَمَغْنَمٍ
وَسُمُُّوا بِهِ الْأَنْصَارَ لَا عِزَّ قَائِلٍ أَرَادَ قُرَيْشًا بِالْمَقَامِ الْمُدْمَمِ
وَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَزْكَى مِنْ أَنْتُمْ إِلَى نَسَبِ زَاكِ وَمَجْدٍ مُقَدَّمِ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ قَبْلَ اعْتِصَامِهَا بَنَصْرِ قُرَيْشٍ فِي الْمَحَلِّ الْمُعْظَمِ
وَلَا بِالْأَلَى يَعْلُونَ أَقْدَارَ قَوْمِهِمْ صُدَاءَ وَخَوْلَانٍ وَلَحْمٍ وَسُلْهَمٍ

ومنها :

وإن قريشا بالآثر فضلتُ على الخلق طراً من فصيح وأعجم
يُسامى قريشا مُسلمٌ وهمُ همُ بمولى يمانى وبیت مهّدَم
جعاسيسُ أشباهُ القُرودِ لو انهمُ يُباعونَ ما اُتبعوا جميعاً بدرهم
وآخرها :

أَعْدَلُ بَيْتٌ يَثْرَى بِكَعْبَةٍ ثَوْتُهَا قُرَيْشٌ فِي الْمَكَانِ الْمُحَرَّمِ
قُرَيْشٌ خِيَارُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَصَّهْمُ بِذَلِكَ فَاتَّعَسُ أَثْثَا الْعِلْجِ وَارْغَمَ
وَمَنْ تَدَّعَى مِنْهُ الْوَلَاءَ مُؤَخَّرٌ إِذَا قِيلَ لِلجَارِي إِلَى الْمَجْدِ أَقْدِمُ^(١)

وخاف مسلم من الخليفة فرد متنصلاً من قصيدته متوددا لقريش .

أبو نواس والعصية :

كان أبو نواس يهجو اليمن ولسنا نعرف سر تحامله على اليمن إلا أن يكون ذلك للخصومة التي كانت بينه وبين هاشم بن حديج فهو ينحو نحو القدماء ، يهجو الفرد فيهجو الجماعة أو يهجو العرب عن طريق هجاء الجماعة ، ومن ذلك قوله ، والغريب أن يذكر أيام الجاهلية :

ياهاشم بن حديج ليس فخركم بقتل صِهْرِ رسول الله بالسُّدْرِ
أَدْرَجْتُمْ فِي إِهَابِ الْعِيرِ جِثَّتْهُ فَبِئْسَ مَا قَدِمْتَ أَيْدِيكُمْ لَغْدِ
أَنْ تَقْتُلُوا ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ قَتَلْتُ حُجْرًا بَدَارَةً . مُلْحُوبٌ بَنُو أَسَدِ
وَطَرَدُوكُمْ إِلَى الْأَجْيَالِ مِنْ أَجَا طَرَدَ النِّعَامِ إِذَا مَاتَاهُ فِي الْبَلَدِ
وَقَدْ أَصَابَ شَرَا حِيلَا أَبُو حَنْشٍ يَوْمَ الْكَلَابِ فَمَا دَافَعْتُمْ بِيَدِ
وَيَوْمَ قَلْتُمْ لَزِيدَ وَهُوَ يَقْتُلُكُمْ قَتَلَ الْكَلَابِ لَقَدْ أَبْرَحْتَ مِنْ وَلَدِ
وَكُلُّ كِنْدِيَّةٍ قَالَتْ لَجَارَتِهَا وَالْدَّمْعُ يَنْهَلُ مِنْ مَثْنَى وَمُنْفَرِدِ
أَلْهَى امْرَأَ الْقَيْسِ تَشِيبٌ بَغَانِيَّةٍ عَنْ نَّأَرِهِ وَصِفَاتُ التُّوَيِ وَالْوَتْدِ^(٢)

ثم صافى اليمانيين وأخذ يهجو التزاريين ويمدح اليمن وهاشم بن حديج مدعياً أنه يمانى :

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٧٣١٠ - ٧٣١١ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ج ١ ص ١٦٩ من طبعة مصر ١٩١١ وابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ٢٠ من طبعة الدار المصرية

أهاشيمُ خذ مني رضاك وإن أتى رضاك على نفسي فغير مَلُومٍ
فأقسم ما جاوزتُ بالشم والدي وعرضي وممازقتُ غير أديمي^(١)
وأخيراً هو يمانى بل أكثر من اليماني ، ينصب نفسه للدفاع عن اليمن :
وقد نافحتُ عن أحساب قومهم ورثوا مكارم ذى نواس
فإن تك أوقدت للحرب ناراً فما غطيت خوفاً الحرب راسي
سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما النبل أجم بالقياس
وفي هذه القصيدة يقول :

وقالت كاهل وبنو قُعين حنانك إننا لسنا بناس
فما بال النعاج ثغت بشتى وفي زمعاتهن دم الفراس^(٢)

ولسنا نعرف شاعراً من الموالي تعصب لقبيلة على قبيلة خلا هذين « مسلماً وأباً نواس » أما
أشد شعراء العصر تعصباً فهو الشاعر اليماني دعبل بن علي الخزاعي وهو بحق وارث الطرماح كما
يلقبه أبو سعد الخزومي في بعض هجائه . وله قصيدة يرد بها على الكميت في فخره بتزار بلغت
ستمائة بيت^(٣) روى المسعودي في مروج الذهب بعض أبياتها .

وقال أبو سعد الخزومي يناقض دعبل :

لدعبل وطر في كل فاحشة لو باد لؤم بني قحطان لم يبد
ولى قواف إذا أنزلتها بلدًا طارت بهن شياطيني إلى بلدي
لم ينبج من خيرها أو شرها أحد فاحذر شائبها إن كنت من أحد
إن الطرماح نالته صواعقها في ظلمة القبر بين الهام والصرد

(١) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) الديوان ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة مصر ١٩١١

وعندما توفي أبو نواس رثاه بعض الشعراء بقوله :

من ذا يرد نزار عند قوتها أم من يحامي على جرثومة اليمن

(٣) مطلعها :

أفئق من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مرّ الأربعينا

(مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٩)

وأنت أولى بها إذ كنت وارثه فابعد وجهك أن تنجو على البعد^(١)
 ونحن نعتقد أن الخلافة العباسية كانت خطتها منذ اللحظة الأولى إحياء العصبية القبلية
 واستغلالها . فالمنصور كان جيشه مقسماً إلى أقسام ثلاثة : خراساني ، مضرى ، يمانى .
 ومن سياسة المنصور فى التفريق بين القبائل أنه ولى على اليمن «معن بن زائدة الشيبانى»
 وهو من ربيعة إيقاعاً بينها وبين اليمن ، فقد خشيت الدولة مغبة ذلك الحلف القديم بينهما .
 وكان طبيعياً أن يشتد معن على اليمانيين لأنهم خصوم السلطان الجديد أو قل إنهم ألد
 خصومة ، فكانت النتيجة ما أراد المنصور ، وهو إضرار العداء بين الحليفين .
 وحدث فى الشام فى أثناء حكم الرشيد أن مضرىاً مرّ ببستان ليمانى من لحم فاقتطف شيئاً
 من القثاء ورآه صاحب البستان فتضارباً ، فلما كان الصباح اجتمع كل منهما فى نفر غزير من
 عشيرته واحتدم بينهما القتال وظل الفريقان يتقاتلان سبع سنوات فى حرب ضروس قتلت فيها
 الآلاف وخربت المدائن والرشيد لا يحرك كتيبة واحدة .

وأخيراً فهذه الأبيات لأبى نواس تظهرنا على بعض العصبيات فى ذلك العصر ، قال :
 لأزِدْ عَمَانٍ بِالْمُهَلَّبِ نَزْوَةً إِذَا افْتَخَرَ الْأَقْوَامُ ثُمَّ تَلَيْنُ
 وَبَكَّرُ نَرَى أَنَّ النُّبُوَّةَ أُنْزِلَتْ عَلَى مَسْمَعٍ فِي الرَّحِمِ وَهُوَ جَنِينُ
 وَقَالَتْ تَمِيمٌ لَا نَرَى أَنْ وَاحِدًا كَأَحْنَفِنَا حَتَّى الْمَاتَ يَكُونُ
 فَمَا لَمْ تُقَسَّ بَعْدَهَا فِي قُبَيْبَةٍ وَفَخِرَ بِهِ إِنْ الْفَخَارَ فُنُونُ^(٢)

(١) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٤٦ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٥٤٦ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

الشعر السياسى والفرق الدينية

الشعر السياسى فى العصر العباسى

رأيت كيف أن السياسة شغلت الشعر الأموى وكيف أنه الشعراء انقسموا شيعة وافترقوا طوائف فأمويون وعلويون وزبيريون وشرارة .

أما الشرارة فقد سحفتهم الدولة فى القرن الأول وقضت عليهم كفرقة سياسية . وأما الزبيرية فماتت بموت من قامت لهم الدعوة - موتا طبيعيا - فلم يبق مجال للشعر السياسى فى العصر العباسى إلا لشاعرين شاعر عباسى وشاعر شيعى ، ومن المعقول أن يكون للدولة الأموية الهائلة شعراء ولو فى صدر العصر العباسى ، لكنك تعرف أن الدولة الأموية لم تطو صحيفتها الأخيرة إلا بعد مرض طويل عضال صوّح شجرتها .

لم يبق إلا شاعر عباسى وشاعر علوى ، لكن أكان موقف شعراء الدولة فى العصر العباسى موقف شعرائها فى العهد الأموى .

لا ! بل تغير . فالدولة الأموية كانت تضارع خصومها فى خوض الأعاصير والعواصف فكانت محتاجة حقا إلى شعراء يناضلون عنها ويدعون لها .

أما الدولة العباسية فقد استتب لها الأمر وهى فى عهد المنصور ثانى خلفائها ، فتغير موقف الشعراء ، وأصبحوا أشبه بالمداحين منهم إلى المحامين ، وكان الخلفاء يسيغون هذا المدح ويحبونه لأنه يشبع زهوهم . كذلك الشاعر الشيعى تغير موقفه بعض الشيء فلسفة كان أجراً منه على الجهر بمبدئه وفى إعلان خصومته لا لأن الخلفاء الأمويين كانوا ألين فى خصومتهم ، لا ! إني أعتقد أن الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، قسوا قسوة نكراء وصبوا على خصومهم صنوف العذاب وافتنوا فى التنكيل بهم .

إنما كان الشاعر الأموى أجراً على الدولة لهذا السبب الذى ذكرناه من قبل ، لأن الدولة كانت أضعف مركزاً تزلزل بها الأحداث من كل جانب ، وكان خصومها يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم أو الثعبان بالطوق .

أما الدولة العباسية فكانت أوطد ملكاً وأعز نفراً . ولذلك كان شعراء الشيعة فى العصر

العباسي يشيدون بأهل البيت ويمدحون العباسيين في وقت واحد . كانوا يشيدون بأهل البيت تقرباً إلى الله وإيثارة للأجلة وكانوا يمدحون العباسيين دفعا للأذى .
ثم لاتنس أن الشعراء الأمويين كانوا معاصرين لعلی والحسين والحسن أو قريبي العهد بهم فكانت الحوادث توحى إليهم إيجاء مباشراً .
في العصر الأموي فنون ثلاثة هي أقوى فنونه ، فنّان نشأ فيه ، وهما السياسة والغزل ، وفن موروث هو الشعر القبلي . وهذه الفنون : ثلاثتها ، تتهقرت في العصر العباسي إلى الخلف خطوة واسعة لتفسح السبيل لفنون أخرى من الشعر أشد اتصالاً بالإحساس المادي .

الشيعة والعصر العباسي

قلنا ونحن نتحدث عن الشعر السياسي في العصر الأموي أن الخلفاء الأمويين كانوا يتلطفون إلى هشام بن محمد بن الحنفی ويقربونه منهم وإن طيف الغدر طاف بهشام بن عبد الملك فأمر من دس له السم .
ونقول إن هشاماً هذا شعر بالسم يدب في عروقه وهو في طريقه إلى المدينة فخرج إلى « الحميمة » حيث نزل ضيفاً على محمد بن عبد الله بن عباس ، وهناك أوصى له بالبيعة ، فلما جاءه الموت أوصى لابنه إبراهيم المعروف بإبراهيم الإمام .
والواقع أن العباسيين كانت لهم أطماع قديمة فقد كانوا يبثون الدعوة لأنفسهم سرا كما تبث الجمعيات السرية تعاليمها .
وأخذت شيعة الإمام تدعو لأهله لاتفرق بينهم ، وتوفى إبراهيم واجتمع رؤساء الدعوة الهاشمية ، وكانت الدولة الأموية إذ ذاك في طريق الانحلال - كما بينا - وبايعوا محمد بن عبد الله المعروف « النفس الزكية » ، ومن بايعه السفاح وأخوه المنصور .
وانتصر أبو مسلم الخراساني على الدولة الأموية ، واستأثر العباسيون بالأمر فبايعوا السفاح ، وسكت العلويون وزعيمهم إذ ذاك أبو سلمة الخلال خوفاً وكأنها سكتة المريض وغدر العباسيون كشيئتهم ودسوا السم لأبي سلمة .
وجاءت إلى الكوفة عصابة النفس الزكية تطالب بحقها في الخلافة فاسترضاهها الخليفة بالأموال والعطايا ومازال يسترضيها طول مدة الخلافة .

وخلف السفاح أخوه المنصور فجافاها وقسا عليها قسوة نكراء ، وفي سنة ١٤٥ هـ قتل محمدا صاحب الدعوة ، كما رأينا .

وفي زمن الرشيد قام يطالب بالخلافة يحيى أخو محمد بن عبد الله الذى قتله المنصور فغمره الرشيد بالمال وأعطاه الأمان ثم غدر به وأمر بحبسه لكن جعفر البرمكى أطلق سراحه وربما كان هذا من أسباب نكبة البرامكة .

وفي عهد المأمون خرج فى اليمن إبراهيم بن موسى الطالبي ، وتقول بعض المصادر إن المأمون كان شيعيا وذلك عجيب ، وعجيب كذلك أن يختار لولاية العهد « عليا الرضا » الزعيم والإمام العلوى . ولستنا ندرى أكان ذلك حبا منه للعلويين أم كان يسكن ثائرتهم . وأمر المأمون عماله بنجع الشعار ، الشعار العباسى الأسود وإحلال شعار الشيعة الأخضر محله ، وقد فعل ذلك هو نفسه وزوج بنتا له عليا الرضا وقد بلغ الرابعة والخمسين من عمره ، وزوج ابن علي بنتا أخرى .

وتوفى على الرضا فى خلافة المأمون . ويزعمون أن المأمون دس له السم فى الطعام وهو قول بعيد لانصدقه ، فلو أن الأمر لم يكن صحيحا وصادقا وكان سياسة ومهادنة كما يقولون لما زوجهم بناته ، ولما عرض نفسه لثورات البيت العباسى .

وقد نهض لدافعة هذا العباسى العلوى ورشح نفسه إبراهيم المهدي ، إنما كان الأمر أكثر جدا مما يظنون ، لقد فعل المأمون ما فعله ، وهو عجيب حقا ، وهو خاضع لسلطان العقيدة الشيعية .

ما السبب فى تزويج المأمون ابنتيه إلى علويين ؟ يقولون إنه زواج سياسى أو نفعى أو كما يقول الفرنسيون Mariage de raison .

كما تزوج بوران بنت الحسن بن سهل ليزداد اجتماع قلوب الفرس والتفافهم حوله ، فهو يريد بمصاهرة العلويين تألف الشيعة كما يتألف الفرس بزواجه ببوران .

أما أنا فأعتقد أن الرجل كان جادا ويؤيد عقيدتي هذه ما قاله فى حديث له عن علي بن أبي طالب وقد ليم على تشيعه له « لقد بذل ماله ودمه دون رسول الله وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة ، وعادى العشائر والعائز والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب عن داره لينصر دين الله وينصر كلمة الله فكيف لا أعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ؟ » سبحانه

الله ! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفا لكان في الأخلاق جميلا ، إن من المشركين من يرى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا معاذ الله مما نطق به الجاهلون !

الشعراء :

من أشهر شعراء الشيعة في ذلك العصر «السيد الحميري»^(١) وهو صادق في تشييعه لانهوم حوله الظنون إن حامت حول غيره من الشعراء المولدين الذين اتخذوا التشيع سلاحا «شعوبيا» فالسيد صريح العروبة ويظهر أنه ممن كانوا يدينون «بالوصاية» فهذه الأبيات التي نروها لك تدل على أنه كان يعتقد أن الخلافة حق لعلي بعد وفاة النبي ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان اعتدوا على حق شرعي لعلي . وكتب السيد على رقعة وقد جلس المهدي أيام كان ولي العهد يعطى الصلوات للناس فرفع الرقعة قائلا إن فيها نصيحة للأمير^(٢) :

قُلْ لابنِ عَبَّاسٍ سَمِيَّ مُحَمَّدٍ	لَا تُعْطِينَ بَنِي عَدِيٍّ دَرَهَمًا
أَحْرِمُ بَنِي تَيْمٍ بِنِ مَرَّةٍ إِنْهُمْ	شَرُّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
إِنْ أَتَمَنْتَهُمْ أَوْ اسْتَعْمَلْتَهُمْ	خَانُوكَ وَأَتَّخَذُوا خِرَاجَكَ مَغْنَمًا
وَإِنْ تُعْطِهِمْ لَا يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً	وَيَكْفَأُكَ بَأْنُ تُذَمُّ وَتُشْتَمًا
وَلَنْ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَّوْكُمْ	بِالْمَنَعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمًا
مَنَعُوا ثُرَاتَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامَهُ	وَابْنَيْهِ وَابْنَتَهُ عَدِيلَةَ مَرِّمًا
وَتَأْمُرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا	وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هُنَالِكَ مَأْثَمًا
لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِنْعَامَهُ	أَفِيْشْكُرُونَ لغيره إِنْ أَنْعَمَا
وَاللَّهُ مِنْ عَلَيْهِمْ بِمُحَمَّدٍ	وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجُنُوبَ وَأَطْعَمَا

(١) هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ويكنى أبا هاشم ، وكان يتقن الفارسية ولذلك يرجعونه إلى أصول إيرانية ولكنه كان يفتخر بجمييته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين . وكان شاعرا متقدما مطبوعا .

ترجمته وأخباره في (الأغاني ج ٧ ص ٢٦٦٩ من طبعة الشعب) و(ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٢) و(الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٠) و(البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٠) و(ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ج ٢ ص ٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤) و(الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٣٠٥)

(٢) رفع الرقعة إلى الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أوصل الرقعة إليه (الأغاني ج ٧ ص ٢٦٨٣) من طبعة الشعب .

ثم انبروا لوصيّه ووليّه بالمنكرات فجرّعوه العلقم^(١)
 والسيد ممن دانوا بالرجعة ، وقد تحدثنا عن هذه البدعة ونحن نتحدث عن الشيعة في
 العصر الأموي ، وروينا شعرا لكثير فيها . والآن نروي هذه القصيدة للسيد الحميري ، وكثير
 من أبياتها ينطق بهذه البدعة :

أشأقتك المنازلُ بعد هند	وتربيتها وذات الدّلّ دعدٍ
منازلُ أقفرتُ منهنّ محتٌ	معالمهنّ من سيلٍ ورعدٍ
وريح جرجفٍ تستنّ فيها	بسافى التّرب تُلجم ما تُسدّي
ألم يبلُغك والأنباء تنمى	مقالُ محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى على	وخولةُ خادمٍ فى البيت تردى
ألم تر أن خولةً سوف تأتى	بوارى الزّند صافى الخيم نجد
يفوز بكنيتى واسمى لأنى	نَحلتُها هو المهدى بعدى
يُغيب عنهم حتى يقولوا	تضمّنه بطيبة بطنٍ لحد
سنين وأشهرًا ويرى برضوى	بشعب بين أنهار وأسد
مقيم بين آرامٍ وعين	وحفّان تروح خلال رُبْد
تُراعيها السّباع وليس منها	ملاقيهنّ مفترسًا بحدّ
أمنّ به الرّدى فرتعن طوراً	بلا خوف لدى مرعى وورد
حلفتُ بربّ مكة والمُصلّى	وبيتٍ طاهر الأركان فرد
يطوف به الحَجيجُ وكلّ عامٍ	يحلّ لديه وفدٌ بعد وفدٍ
لقد كان ابنُ خولة غيرَ شك	صفاء ولايتى وخلوص وُدّى
فما أحدٌ أحبّ إلىّ فيما	أسير وما أبوح به وأبدى
سوى ذى الوحي أحمد أو علىّ	ولا أذكى وأطيب منه عندى
ومن ذا يابنُ خولة إذ رمتى	بأسهُمها المنية حين وعدى
يُذيّبُ عنكم ويسدّ مما	تثلم من حصونكم كسدّى
ومالى أن أمرّ به ولكن	أؤمل أن يؤخّر يومُ فقدى

فادرك دولةً لك لستَ فيها بجبار فتوصف بالتعدي
على قوم بغوا فيكم علينا لتعدي منكم ياخير مُعدي
لتعلُّ بنا عليهم حيث كانوا بغورٍ من تهامة أو بنجد
إذا ما سرتَ من بلد حرام إلى من بالمدينة من معد^(١)

وقد روى الموصلي أن للسيد ألفين وثلاثمائة قصيدة في التشيع فأين هذا الشعر؟ لقد عصفت به السياسة من غير شك ، فليس بين أيدينا منه سوى أشات مبعثرة هنا وهناك .

بشار :

ومن شعراء الشيعة بشار بن برد ، ونعتقد أنه كاذب في تشيعه ككثير من الشعوبيين في ذلك العصر .

ومن شعره في هجاء المنصور ومدح إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم	ولا سالم عمًا قليلٍ بسالم
على الملك العجبار يفتحهم الردى	ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج	عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم	وأمسى أبو العباس أحلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة	عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيمًا على اللذات حتى بدت له	وجوه المنايا حاسرات العائم
وقد ترد الأيام غرًا ورما	وردن كلوحًا باديات الشكائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحي	وكان لما أجمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً في طريقهم	ولا تبقى أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله	وتعري مطاه للبوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله	عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزراً يُنجيك يا بن سلامة	فلست بناجٍ من مضيم وضائم

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٧٣ من طبعة الشعب .

لِحا الله قوما رَأْسُوكَ عَلَيْهِمْ
أَقُولُ لِبَسَّامٍ عَلَيْهِ جَلَالَةٌ
من الفاطميين الدُّعَاةِ إِلَى الهدى
سِرَاجٌ لَعِينُ المستَضَى وتارةً
إذا بَلَغَ الرَّأْيُ المَشُورَةَ فاستعن
ولا تَجْعَلِ الشُّورى عَلَيْكَ غَضَاضَةً
إلى أن قال :

وما قرع الأقوام مثل مشيع أريب ولا جلى العمى مثل عالم^(١)

ديك الجن^(٢) :

له مرات كثيرة في الحسين إلا أن رأينا فيه كرائنا في بشار ، وأنت تعرف أن ديك الجن من أشد الشعراء تعصبا على العرب .

دعبل^(٣) :

أعتقد أنه أشد شعراء العصر تشيعا .

يقول عنه الأستاذ عباس العقاد في كتابه «مراجعات في الآداب والفنون» أنه وابن الرومي الهجاءان المطبوعان من بين شعرائنا ، ويقول عنه إنه رجل شديد الشعور بالنقمة ، وأنه صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة^(٤) .

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠٢ من طبعة الشعب

(٢) هو عبد السلام بن رغبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميا من أهل مؤتة بالشام أسلم على يد مولاة حبيب بن مسلمة الفهري صاحب معاوية . وولد ديك الجن بجمص سنة ١٦١ هـ ، وكان يتشيع تشيعا حسنا وله مرات كثيرة في الحسين بن علي ، وقد ضاع أكثر شعره ، وتوفي سنة ٢٣٥ للهجرة . انظر ترجمته في الأغاني ج ١٤ ص ٤٩٢٥ من طبعة الشعب ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهمي ص ١٠٢

(٣) هو دعبل بن علي بن رزين ، وقيل دعبل لقبه واختلفوا في اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن وهو من نخزاعة صلبا لا ولاء ومن بيت شعر وهو شيعي إمامي ويقال إنه غير صادق في تشيعه . ترجم له (صاحب الأغاني ج ٢٢ ص ٧٧٧٠ من طبعة الشعب) و (ابن قتيبة ص ٨٢٥) و (تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٨٢) و (المرزباني : الموشح ص ٢٩٩) .

(٤) عباس العقاد : مراجعات في الآداب والفنون ص ١٤٥ من طبعة المطبعة العصرية .

والهجاء المطبوع عند العقاد هو الذى يولد بفطرته ناقما هاجيا لا يرضى عن شىء ولا يستريح إلى مدح أحد ولا يكف عن النقد والعيب ، كلفا بهما واندفاعا إليهما لاجلها لكسب أو درء لمساءة ، أو ذلك الشاعر الذى أوتى من الفطنة وسعة الخيلة واستعداد الطبع ما يفتح له معانى الهجاء إذا أرادها ناقما أو غير ناقم ومعتمدا ما يقول أو عابثا فيه .

ولى فى دعبل رأى يخالف رأى الأستاذ مخالفة تامة .
أعتقد ببساطة أن هجاءه المتواتر للخلفاء والولاة أثر لتشييعه العميق ، لم ينج من لسانه خليفة وشعره قوى ، وأعتقد أنه ممثل الجاهلية فى العصر العباسى ، ولا أعرف من هو أصدق تمثيلا له منها فى شعره وخلقه على السواء .

انظر إلى هذه الأبيات ناطقة بذلك الكرم الذى طالما تمدح به وتغنى الشعراء الجاهليون :

بانت سليمي وأمسي حبلها انقضبا	وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سلامة أين المال قلت لها	المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالى فى الحقوق فما	أبقين ذما ولا أبقين لى نشبا
قالت سلامة دع هذى اللبون لنا	لصبية مثل أفرار القطا زعبا
قلت احبسها ففيها متعة لهم	إن لم يُنخ طارق يبغي القرى سغبا
لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها	بكى العيال وغنت قدرنا طربا
هذى سبيلي وهذا فاعلمى خلقي	فارضى به أو فكونى بعض من ذهبها
ملا يفوت وما قد فات مطلبه	فلا يفوتنى الرزق الذى كُتبا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبني	والرزق أكثر لى منى له طلبا
هل أنت واجد شىء لو عُنيت به	كالأجر والحمد مرتاداً ومكتسبا
قوم جوادهم فرد وفارسهم	فرد وشاعرهم فرد إذا نُسبا ^(١)

رجل جاهلى تأخر به الزمن قرنين . وأعتقد أن غلوه فى التعصب للشيعة أنفة من الخضوع للسلطان وقديما كان الجاهلى يثور على السلطان إن رأى فى سلطنته ما يقيد حريته أو يحددها . لم ينج من لسانه خليفة ، كما قلنا ونمثل لذلك فيما يلى :

(١) الديوان ص ١٢١ - ١٢٢ من طبعة النجف ١٩٦٢

قال في الرشيد وقد دفن في طوس وبها قبر الرضا :
 قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر
 ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر^(١)

وقال في المأمون يهدده ويذكره بمصرع أخيه الأمين :
 أيسؤني المأمون خطّة جاهل أو ما رأى بالأمس رأس محمد
 يوفي على هام الخلائق مثلاً توفي الجبال على رءوس القرد
 ونحل في أكناف كل ممنع حتى يذلل شاهقاً لم يصعد
 إن الترات مسهد طلابها فاكف لعابك عن لعاب الأسود
 إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
 شادوا بذكرك بعد طول خموده واستنفذوك من الحضيض الأوهد^(٢)

وقال يعرض بإبراهيم بن المهدي وكان مغرماً بالغناء :
 يامعشر الأجناد لاتقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
 فسوف تعطون حنينة يلتذها الأمرد والأشمط
 والمغبيات لقوادكم لاتدخل الكيس ولا تربط
 وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط^(٣)
 وقال يهجو :

نصر بن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أخرق مائق
 أني يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
 إن كان إبراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق^(٤)
 وقال يهجو المعتصم :

وقام إمام لم يكن ذاهداً فليس له دين وليس له لب

(١) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٥٠ من طبعة الشعب

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٤٩ بتحقيق أحمد شاكر

(٣) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٧٧٤ من طبعة الشعب وكذلك ص ٧٨١١ - ٧٨١٢ من نفس الطبعة

(٤) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٥١ من طبعة الشعب

وما كانت الأنباء تأتي بمثله
ولكن كما قال الذين تتابعوا
ملوك بني العباس في الكتب سبعة
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
وإني لأعلى كلهم عنك رتبة
لأنك ذو ذنب وليس له ذنب^(١)

وقد تحدث صاحبه محمد بن القاسم بن مهروبه قال : كنت مع دعبل بالصيمرة^(٢) وجاءنا
نعي المعتصم وقيام الواثق فأملى على البديهة :

خليفة مات لم يحزن له أحد
وفي المتوكل يقول :

ولست بقاتلٍ قذعاً ولكن لأمرٍ ما تعبدك العبيد^(٤)
يتهمه بشيء ربما أشرنا إليه في باب الغلانيات .
وله في الوزراء هجاء ليس أقل مرارة مما رويناه
نستطيع بعد ذلك أن نفهم قوله « أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ولا أجد من
يصلبني عليها »

وقد عاش الرجل طول حياته طريدا مشردا في الآفاق ، قيل عنه إنه من الشطار ،
والشطار كلمة غامضة في كتب الأدب . يقولون إن الشطار جماعة من اللصوص كانوا يقطعون
الطريق على السابلة ، وكان لهم زى خاص ، وذلك القول يناقض المعقول إذ كيف يعلن لص
عن نفسه ؟ وكيف يؤدي وظيفته بعد ذلك ؟
أنا أرجح استنباطا أن كلمة الشطار كانت تطلق على هؤلاء الفتيان المستهترين بكل شيء ،
وأفهم أن حياة الشطار تشبه الحياة التي نقول عنها في أيامنا هذه ، الحياة « البوهيمية » وليس
من شك في أن أبا نواس كان يفهم معنى الشطار أحسن مما نفهمه « وقد وردت هذه الكلمة
إفرادا وجمعا أكثر من مرة في ديوانه :

(١) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٠٤ من طبعة الشعب
(٢) الصيمرة ، موضعان ، أحدهما : بالبصرة على فم نهر معقل ، والآخر : بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان
(٣) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٠٧ من طبعة الشعب
(٤) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٠٧ من طبعة الشعب

بينما نحن عنده صرخ الور دُ إلينا يا أيُّها الشُّطَّار
عندنا قهوةٌ تغافل عنها دهرها فالوجودُ منها ضِمارٌ^(١)
وقوله :

فقلنا أنسقاها على وجه أهيف له تيه معشوق وشجرة شاطر^(٢)
وردت في مثل هذه المناسبات كثيرا في شعر أبي نواس المجونى .
إذا استثنينا هجاء دعبل للخلفاء ومن الخلفاء إلى الخلفاء^(٣) من رجال الدولة فلسنا نعرف
له هجاء إلا هجاءه لأستاذه مسلم بن الوليد ، ومع ذلك فهجاءه لمسلم لا يشف عن جحود بل
هو أقرب إلى الشعور بالألم منه إلى الحق .
قال مسلم يهجوه :

أما الهِجاءُ فدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَاذْهَبَ فَأَنْتَ طَلِيقُ عِرْضِكَ إِنَّهُ عِرْضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ^(٤)
فيم رد عليه دعبل ؟ اكتفى بيت واحد ، أرويه لك :
فَهَبْكَ يَمِينِي اسْتَأْكَلَتْ فَقَطَعَتْهَا وَجَشَّمْتُ قَلْبِي صَبْرَةً فَتَشَجَّعَا^(٥)
وهو قول ينم عن نبل في الإحساس ، وشعور بالجميل والوفاء .

وأخيرا فرأى الأستاذ العقاد « أن الهجاء المطبوع هو الذى لا يرضى عن شيء ولا يستريح إلى
مدح أحد ولا يكف عن النقد والعيب كلفا بهما واندفاعا إليهما لاجل بلا لكسب ولا درءا لمساءة ،
أو ذلك الذى أوتى من الفطنة وسفه الخيلة واستعداد الطبع ما يفتح له معانى الهجاء إذا أراد
ناقما أو غير ناقم »^(٦) .

والأستاذ لا يعرف فى الأدب العربى غير شاعرين اثنين نابيين بهذه الصفة هما دعبل وابن
الرومى . وعنده أن دعبلا هو ممثل النوع الأول ، فقد كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع

(١) عبد الرحمن صدقى : ألحان الحان ص ١١٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٢) الديوان ص ٢٨١ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) وإذا استثنينا كذلك شعره فى هجاء مضر

(٤) الموازنة بين أبى تمام والبحترى ج ١ ص ٦٠ من طبعة دار المعارف

(٥) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٨٢٣ من طبعة الشعب

(٦) عباس العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص ١٤٦ من طبعة المطبعة العصرية

النايبة النافرة التي تخرج على المجتمع وتثور به ولا تزال في حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يوارىها الموت في ثراه .

ولست أرى أن دعبلا مريض النفس ، مريض الأعصاب ، كما يفهم من الأستاذ ولو أردت أن أمثل للنوع الأول من الهجاء لاخترت رجلا كأبي دلالة الذي يهجو أمه فيقول :
 هاتيك والدتي عجوزٌ هِمةٌ مثلُ البليّةِ درعُها في المشجب
 مهزولةٌ اللّحين من يرها يقلُّ أبصرتُ غولاً أو خيالَ القطرِ
 ما إن تركتُ لها ولا لابنٍ لها ما لا يؤمل غير بكرٍ أجرب^(١)
 وهجاء زوجته قائلا :

شوّهاً مشنّةً في بطنها تجلُّ وفي المفاصل من أوصالها فدعُ^(٢)
 وقال فيها :

ليس في بيتي لتهيب يد فراشي من قعيده
 غيرُ عَجفاء عَجُوزٍ ساقُها مثل القديده
 وجهُها أقبحُ من حو تِ طريُّ في عصيده
 ما حياةٌ مع أنثى مثل عِرسى بسعيدة^(٣)

أو مثلت برجل كالحطيئة^(٤) وقد هجا أمه وامراته وبنيه ونفسه ، أو برجل كابن بسام^(٥) وقد هجا الأمراء والحكام وإخوته وأهله جميعا .

ومجمل رأينا في دعبل أنه صادق ومغال في تشيعه وأنه جاهلي أنف من الخضوع للسلطان اعتزازا واعتدادا ، وأنه رجل قوى النفس كان يرى إخوانه أهل الشيعة تتمزق أوصالهم ويحرقون أحياء فتثور نفسه فينطق بأبيات ليست ثورة على المجتمع إنما هي صرخة الرجل اليائس ، يرى ماذا يفعل بإخوانه ويرى من بقي منهم نائما فيقول مثل قوله :

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٣٧٢٣ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٣٧٠٢ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٣٧٢٧ من طبعة الشعب

(٤) توفي سنة ٥٩ هـ

(٥) توفي سنة ٣٠٣ هـ

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً^(١)
 وإنما خصصنا بالذكر هذا البيت لأن الأستاذ العقاد استشهد به^(٢)
 وأغلب شعر الشيعة في ذلك العصر مراثي للأئمة من أولاد علي فهو شعر مطبوع بطابع
 الحزن الصحيح أو المزعوم حتى يقال إنه الشعر الباكي . تسمعه فكأنك تسمع نواحة تنوح ،
 انظر إلى قول السيد الحميري :

أمرُّ على جدثِ الحُسِّ بينَ فُقلٍ لأعْظَمِه الزَّكِيَّةُ
 أعْظَمًا لازلَتِ من وَطْفاء ساكِبةٍ رَوَّبه
 وإذا مررتَ بقبره فأطِلْ به وقِفَ المطيِّه
 وابكِ المطهَّرَ للمطهَّرِ (م) والمطهَّرة النقيَّة
 كبُكاءِ مُعَوِّلَةٍ أتت يوماً لواحدَها المنيَّة^(٣)

وقد رأينا الناس فرسا وعربا يجتمعون في مساجد الشيعة بالنجف ويخرجون إلى طرقاتها
 ليلة عاشوراء يوم كنا في العراق فيصيحون ويلطمون ويولولون بكلام منظوم على شهيد
 كربلاء ، وخيل إليّ في هذه الليلة أن أبيات السيد الحميري هذه أعدت للنواح ، وأن الناس
 كانوا يخرجون كما يخرج هؤلاء فيصيحون ويولولون .

رأينا علوج الرجال من الفرس يخرجون في حلقات مثقلين رءوسهم بقلانس من نحاس
 يضربون عليها بأساور من نحاس موللين بشعر فارسي ، ورأينا أجلاف العرب في المساجد عراة
 الصدور يدقونها دقا شديدا ويلطمونها حتى ليكاد الدم ينبثق منها أو يتفجر يصيح فيهم مولولا
 بنغم إمام منهم والنساء يلطمن الخدود ويصحن بصيحات حزينة كما لو فوجئن بفقد وحيد .
 فوددت والله لو استحال ميدان الكاظمية محطبا تتميز فيه النار وتحشر إليه هذه الزمر من
 المخلوقات المحسوبة على الإنسانية .

(١) عباس العقاد : مراجعات في الآداب والفنون ص ١٤٦ من المطبعة العصرية بمصر

(٢) عباس العقاد : مراجعات في الآداب والفنون ص ١٤٦ من طبعة المطبعة العصرية بمصر

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٨٠ من طبعة الشعب

المعتزلة

فرقة ظهرت في أواخر القرن الأول للهجرة . نشأ الاعتزال في البصرة وانتشر منها إلى غيرها واعتنقه من الخلفاء الأمويين يزيد بن الوليد ومروان بن محمد . وعظم شأن هذه الفرقة في العصر العباسي ولا سيما في عصر المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ إذ اعتنق المأمون مبادئ المعتزلة واشتط في الانتصار لهم ونكل بكل من عارضهم في فكرة خلق القرآن .

وتتلخص مبادئ المعتزلة في القول بأن الإنسان مخير لا مُجبر ، أي أنه هو الذي يخلق أعماله والقدر يسيره أو يجبره .

وعندهم أن صاحب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً^(١) ، إنما هو مذنب يستحق النار . ومبادئ أخرى فقهية حول التوحيد ونسبة الصفات إلى الله وغير ذلك مما ليس يعنينا في هذا البحث .

والمعتزلة يعتمدون إلى حد بعيد على القياس العقلي فعمدتهم الجدل وهم بحق أصحاب اليد الطولى على « علم الكلام » وإن شئت فقل هو ربيبهم .

وقد ترجموا كثيراً من كتب الفلسفة اليونانية ولا سيما المنطق اليوناني ليستعينوا على ابن سيار المعروف « بالنظام »^(٢) « والواصلية »^(٣) أتباع « واصل بن عطاء » والهلالية^(٤) أتباع « محمد بن

(١) وقد قيل بل يرون أن صاحب الكبيرة مخلد في النار لا تقبل له توبة

(٢) توفي النظام سنة ٢٣١ هـ ويقول الشهرستاني إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وأنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلاح لعباده وأن إرادته التي يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ وأعلن في مباحثه سلطان العقل إعلاء بعيداً . (الشهرستاني : الملل والنحل ص ٣٧) .

(٣) توفي واصل بن عطاء بالبصرة سنة ١٣١ هـ وهو أول من قال بأن مرتكب الكبيرة في مترلة وسط بين منزلي الإيمان والكفر وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل (المرتضى : الأمالي ج ١ ص ١٦٥ من طبعة الحلبي) .

(٤) توفي أبو الهذيل العلاف سنة ٢٢٧ هـ وقيل بل سنة ٢٣٥ هـ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلاً وبعد المؤسس الحقيقي للاعتزال وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية وفرق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح وتحدث في مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ أو مسألة الكون ككون النار في الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية (الشهرستاني ص ٣٤) (وأمالي المرتضى ج ١ ص ١٧٨) و (أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٩٨) .

الهذيل العلاف» والعمرية^(١) أتباع «عمرو بن عبيد» .

واسم المعتزلة فيما يقال أصله أن واصل بن عطاء زعيم الفرقة الواصلية كان تلميذا للحسن البصرى ، فلما كفرت الخوارج مرتكب الكبيرة وقالت الجماعة إنه مؤمن فسق بالكبيرة اعتزل واصل الفريقين وقال إن مرتكب الكبيرة بين الإيمان والكفر ولذلك تفسيرات أخرى كثيرة يخرجنا تفصيلها عن دائرة بحثنا .

ومن شغل بهجاء المعتزلة أبو نواس وكان يخص بهجائه واصل بن عطاء ، وفيه يقول :
 فقل لمن يدعى في العلم فلسفة عرفت شيئا وغابت عنك أشياء
 لا تحظر العفو إن كنت امرأ فطنا فإن حطره في الدين إزراء^(٢)
 بم تعلل خصومة أبي نواس ؟

أبو نواس رجل يلهو بحياته يدعو الناس إلى المجون وهؤلاء يضيّقون عليه بتعاليمهم باب الرجاء وهو واسع الأمل في عفو الله ، لأن له في الدين فلسفة خاصة ، أليس هو القائل :
 تكثّر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربّاً غفوراً
 ستبصر إن وردت عليه عفوا وتلقى سيّدا ملكاً كبيراً^(٣)
 وإذن فلم لا يخاصم أبو نواس ومن على شاكلته من الشعراء المجان جماعة المعتزلة ؟ وقد قسا الأمين في أواخر أيامه على أبي نواس وحبسه في بيت الدجاج وله في ذلك قصيدة طويلة ، وله قصيدة أخرى قالها في سجنه وبعث بها إلى المأمون منها :

أما الأمين فلست أرجو دفعه غنى فمن لى اليوم بالمأمون
 لكن المأمون لم يلتفت إليه بعد ذلك ، فإن صح أنه كان معتزلياً ففي ذلك تعليل لمخافة أبي نواس .

(١) عمرو بن عبيد ختن واصل بن عطاء وتوفي سنة ١٤٥ هـ وكان يكثر من الجدل (أمالى المرتضى ج ١ ص ١٦٩) و(ضحى الإسلام ج ٣ ص ٩٧) .

(٢) الديوان ص ٢٣٥ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الديوان ص ٧٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

بشار بن برد :

يقال إنه كان زعيما من زعماء المعتزلة بل رئيسا لفرقة من فرقهم وله شعر يمدح فيه واصلا
ويصفه بالبلاغة منها :

أبا حُذَيْفَةَ قد أُتيتَ مُعْجَزَةً من خُطْبَةٍ بدهت من غير تقدير
وإن قولاً يروق الخالدين معا لمسكت مُخْرَس عن كل تحبير^(١)
ومن قصيدة أخرى :

فهذا بَدِيهٌ لا كَتَحْبِيرِ قائل إذا ما أراد القول زَوْرَهُ شهرا^(٢)

وقال يمدحه وقد خطب خطبة تجنب فيها « الرأء » وكانت به لثغة :
تَكَلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا وحَبَرُوا خُطْباً ناهيكَ من خطبِ
فقام مرتَجِلاً تَغْلَى بَدَاهَتُهُ كَمِرَجَلِ القَيْنِ لما حَفَّ بِاللَّهَبِ
وجانَبَ الرأء لم يَشْعُرْ به أحدٌ قبل التصفُّح والإغراقِ في الطلبِ^(٣)
ولأمر ما قد انقلب بشار على المعتزلة وتحول « جبريا » وواصل حملته على واصل وهجاءه
له بحيث لا يتجاوز نعته بعيوب خلقية ، مثال ذلك :

مالي أشابعُ غَزَّالاً^(٤) له عُنُقٌ كَنِقْنِقِ الدَّوِّ^(٥) إنْ وَلَّى وإنْ مثلاً
عُنُقَ الزَّرَافَةِ ما بالى وبالكُم تُكَفِّرُونَ رجالاً كَفَّرُوا رَجَلاً^(٦)
ومن شعره في مذهب الجبر :

طُبِعْتُ على ما في غير مُخَيَّرٍ هَوَايَ ولو خُيِّرْتُ كِنتُ المهذَّباً
أريدُ فلا أُعْطَى وأُعْطَى ولم أَرِدْ وقَصَرَ عِلْمِي أنْ أُنَالَ المَغْيَا

(١) الديوان ص ٦٣ من طبعة المكتبة العربية

(٢) الديوان ص ٦٣ من طبعة المكتبة العربية والراغب : محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٥

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٣٢ والأغاني ج ٣ ص ١٠٧٠ من طبعة الشعب

(٤) عرف واصل بن عطاء بالغزال لكثرة جلوسه في سوق الغزالين إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي (الجاحظ : البيان

والتبيين ج ١ ص ٢٠)

(٥) الدو : الفلاة

(٦) الأغاني ج ٣ ص ٩٩١ من طبعة الشعب ، (البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠) (والجواليقي : أدب الكاتب ص

١٠٦ من طبعة مكتبة القدسي)

فَأَصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مُقَصَّرٌ وَأُمْسِي وَمَا أُعْقِبْتُ إِلَّا التَّعَجُّبُ (١)
وقوله :

تَأْتِي الْمَقِيمَ وَمَا سَعَى حَاجَاتِهِ عَدَدَ الْحَصَى وَيَنْجِبُ سَعَى السَّاعِي (٢)
وممن كان يهجو واصلاً إسحق بن سويد العدوي :

بَرِئْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ مِنَ الْغَزَالِ مِنْهُمْ وَابْنُ بَابِ
وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ
وَلَكِنِّي أَحِبُّ بِكُلِّ قَلْبِي وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ
رَسُولَ اللَّهِ وَالصَّدِيقَ حَبِيبًا بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ الْمَأْبِ (٣)

على بن الجهم (٤) :

زَعِيمُ الشُّعْرَاءِ الْجَبْرِيِّينَ غَيْرَ مَدَافِعَ ، وَهُوَ هَجَاءُ الشَّيْعَةِ .
وهو القائل :

وَرَافِضَةُ تَقُولُ بِشُعْبِ رَضْوَى إِمَامٌ ، خَابَ ذَلِكَ مِنْ إِمَامِ
إِمَامٌ مَنْ لَهُ عَشْرُونَ أَلْفًا مِنْ الْأَتْرَاكِ مُشْرَعَةُ الشُّهَامِ (٥)
وقد اضطهد ذلك الرجل في حياته اضطهاداً فاصلاً يوماً إلى الليل عارياً ، وله في ذلك
قصيدة منها :

لَمْ يَنْصَبُوا بِالشَّاذِيَاخِ (٦) عَشِيَّةَ (م) الْاِثْنَيْنِ مَسْبُوقًا وَلَا مَجْهُولًا

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٧٣ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٣٣ من طبعة المكتبة العربية

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢٣ من طبعة المكتبة التجارية

(٤) هو على بن الجهم بن بدر بن الجهم ، كان شاعراً فصيحاً مطبوعاً وخص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه

لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه وكان يهجو آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة . ترجمته في (الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٦٧ - ٣٦٦٩ من طبعة الشعب) .

(٥) الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٦٩ من طبعة الشعب .

(٦) الشاذياخ من ضواحي نيسابور ببلاد خراسان وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين ملاصقاً بمدينة

نيسابور فبنى فيه داراً ثم أمر الجند بالبناء حوله فعمرت حتى اتصل بناؤها ببناء نيسابور وصارت من جملة محالها (معجم البلدان لياقوت) وكان للمتوكل نفاه إلى خراسان وأمر واليها طاهر بن عبد الله بن طاهر بأن يصلب يوماً إلى الليل مجرداً . (الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٧٢ من طبعة الشعب)

نصّبوا بحمد الله مِلَّ قلوبهم شرفاً ومِلء صدورهم تبجيلاً^(١)

وسجن مرة وقال بعد خروجه من السجن :

قالت حُبِسْتُ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبْسِي وَأَيْ مُهَنْدٍ لَا يُعْمَدُ
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ كَبِيراً وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدَّدُ
وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مُحْجُوبَةٌ عَنْ نَاطِرَيْكَ لَمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
وَالْبَدْرُ يُدْرِكُهُ السَّرَارُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ
وَالْغَيْثُ يَحْصُرُهُ الْغَمَامُ فَمَا يُرَى إِلَّا وَرَيْقُهُ يَرْوِعُ وَيَرْعُدُ
وَالزَّاعِيَّةُ^(٢) لَا يُقِيمُ كُعُوبَهَا إِلَّا الثَّقَافُ وَجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَحْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثْرَهَا الْأَزْنَدُ^(٣)

ونرجح أن لمذهب الرجل في الجبر وهجائه للفرق الدينية السياسية دخلا كبيرا في اضطهاده . وله شعر كثير في ذلك المذهب نعدل عنه ، فليس إلى الإسهاب والتفصيل سبيل . وأخيرا نروى هذه المساجلة الفلسفية بين بشار وزعيم الجبرية جهم بن صفوان الأنصارى . فنرى كيف اصطبغ شعر الفرق الدينية في هذا العصر بالفلسفة :

يقول بشار مفضلا النار على الطين في قصيدة مطلعها :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَيْيَكُمُ آدَمِ فَتَنَّبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ
النَّارُ عَنْصَرُهُ وَآدَمُ طِينُهُ وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سَمَوِ النَّارِ^(٤)
وقوله :

الأَرْضُ مَظْلَمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْكَانَتِ النَّارِ^(٥)

ونثبت فيما يأتي رد صفوان الأنصارى عليه لأنه ضرورة واضحة كل الوضوح لهذه المساجلات :

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٧٢

(٢) الزاعية : رماح منسوبة الى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يعمل الأسنة

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٧٧

(٤) أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ج ٢ ص ١٣٧ - نشر كامل كيلاني والأغاني ج ٣ ص ٩٩١ من طبعة الشعب

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ١٦ من طبعة مصر ١٣٣٢ هـ ومقدمة ديوان بشار ص ٢٤ من طبعة لجنة

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عنُصراً
ويُخلقُ في أرحامها وأرومها
وفي القعرِ من لُجِّ البحارِ منافعُ
كذلك سرُّ الأرضِ في البحرِ كله
ولابدَّ من أرضٍ لكلِّ مطهرٍ
كذاك وما ينسأحُ في الأرضِ ماشياً
ويسرى على جلدٍ يقيمُ حوزهُ
وفي قُللِ الأَجبالِ خلفَ مُقطمٍ
وفي الحرَّةِ الرُّجلاءِ تكفي معادِناً
من الذهبِ الإبريزِ والفضةِ التي
وكل فيلٍ من نحاسٍ وأُنك
وفيها زَرَانيخٌ ومكْرٌ ومرْتكٌ
وفيها ضُروبُ القارِ والشَّبِّ والنهي
ومن إثمِدِ جَوْنٍ وكِلْسٍ وفضةٍ
وفي كلِّ أغوارِ البلادِ معادنُ
وكل يواقيتِ الأنامِ وحليها
وفيها مقامُ الخِلِّ والركنُ والصِّفا
وفي صَخْرَةِ الخلدِ التي عند حوتها
وفي الصخرةِ الصَّماءُ تَصْدَعُ آيَةً
مَفَاخِرُ للطينِ الذي كان أَصلنا
فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ
أَتَجْعَلُ عمراً والنَّطاسِيَّ واصلاً
وتَفْخُرُ بالميلادِ والعِلجِ عاصمٍ
وتَحْكِي لَدَى الأَقْوامِ شُئْعةَ رأيهِ
وسميتهُ الغَزَالَ في الشَّعرِ مُطْنِياً

وفي الأرضِ تحيا بالحجارةِ والزندِ
أعاجيبُ لا تحصى بخط ولا عقد
من اللؤلؤِ المكنونِ والعنبرِ الوردِ
وفي الغَيْضةِ الغنَّاءِ والجبلِ الصِّلْدِ
وكل سُبوحٍ في الغمائرِ من جدٍّ
على بطنهِ مشى المُجانبِ للقصدِ
تَعَمُّجُ ماءِ السيلِ في صَبَبٍ حَرْدٍ
زَبْرَجْدُ أَملاكِ الوَرى ساعةَ الحَشْدِ
لهنَّ مَغاراتُ تَبَخُّشٍ بالنقدِ
تُرُوقُ وتُصْبِي ذَا القنَاعَةِ والزُّهْدِ
ومن زَبَقٍ حى ونوشادرٍ يُسْدِي
ومن مرقشيشا غيرِ كَابٍ ولا مَكْدِي
وأصنافُ كبريتِ مطاولةِ الوَقْدِ
ومن ثُوباءٍ في مَعادِنه هِنْدِي
وفي ظاهرِ البَيْداءِ من مُستوى نجدٍ
من الأرضِ والأحجارِ فَاخِرَةُ المَجْدِ
ومُسْتَلَمُ الحُجَاجِ من جَنَّةِ الخلدِ
وفي الحجرِ المُهمي لموسى على عَمْدِ
لَأْمِ فَصِيلِ ذِي رُغَاءٍ وَذِي وَجْدِ
ونحنُ بنوهُ غيرِ شَكٍّ ولا جَحْدِ
وأوضحُ بُرْهانٍ على الواحدِ الفَرْدِ
كَاتِبَاعِ دَيْصانٍ وهم قَشُّ المَدِّ
وتَضَحْكُ من جيدِ الرئيسِ أَيْ جَعْدِ
لتَصْرِفَ أهواءِ النفوسِ إلى الرَّدِّ
ومولاكَ عند الظلمِ قصتهُ تُرْدِي

فيا بن حليف الطين واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طُرق الرشيد
 أتتهجو أبا بكر وتخلع بعده عليا وتعزو كل ذاك إلى برد
 كأنك غضبان على الدين كله وطالب دحل لا يبيت على حقد
 رجعت إلى الأمصار من بعد وأصيل وكنت شريداً في التهايم والنجد
 أتجعل لي الناعية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد
 عليك بدعد والصدوف وفرتنى وحاضيتى كف وزاملتى هند
 ثواب أقراراً وأنت مشوه وأقرب خلق الله من شبه القرد^(١)

وظهرت فرق جديدة كفرقة الحمزية ، وظهرت تلك الفرقة في سنة ١٧٩ هـ أى أيام الرشيد وهم أتباع حمزة بن أكر ك ومبادئهم باختصار مزيج من مبادئ الخوارج والقدرين . وقد حارب الدولة واستولى على بعض البلاد وجعل قاضيه أبا يحيى يوسف بن بشار ، وأمر على جيشه جسيويه بن معبد وولى رئاسة الحرب عمرو بن صغد ، ولقبه أتباعه أمير المؤمنين ، يقول فيه شاعره طلحة بن فهد :

أمير المؤمنين على رشادٍ وخير هداية نعم الأمير
 أمير يفضل الأمراء فضلاً كما فضل السها القمر المنير^(٢)

ومن شعرائه شاعر يقال له الجلندى .

وكان مقر فتنة خراسان وكرمان وسجستان وقهستان .

وقد هدد الدولة وانتصر عليها غير مرة وكانت تجرد عليه في كل يوم بعض المدافع وعشرات الألوف من جندها . وقتل في عصر المأمون .

الصوفية

الصوفية طائفة مبدؤها الرئيسى الاعتكاف على العبادة والنقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الناس من مال وجاه والابتعاد عن الخلق في خلوة للعبادة ، أو هي فلسفة دينية إسلامية نشأت عن الزهد وتطرفت إليها بعض المبادئ

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ١٦ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٣٢

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٧ من طبعة مطبعة المعارف

الأجنبية فغيرتها هذا التغير.

والتصوف كما عرفه الكرخي « هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق »^(١) أو كما يقول الجنيد « أن تكون مع الله بلا علاقة »^(٢) . ويقول ذو النون المصري^(٣) « لا أحياء ولا أموات ولا أصحاب ولا سكرى ولا مقيمون ولا ظاعنون ولا مضيقون ولا صرعى ولا أصحاء ولا مرضى ولا متبهون ولا نوم فهم كأصحاب الكهف في فجوة الكهف لا يدرون ما يفعل بهم وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

ويرى أبو نصر عبد الله بن السراج الطوسي^(٤) أن اسم الصوفية ليس محدثا لأن الحسن البصري الذي أدرك بعضها من الصحابة^(٥) رأى صوفيا يطوف بالكعبة .

وعند الأستاذ نيكلسن أن هذا الرأي اختلاق من متصوفي العهد الأخير تبريرا لمسلكتهم وإرجاعا بتعاليمهم إلى عهد الرسول^(٦) .

ويرى ابن خلدون أن الصوفية لفظ مشتق من الصوف ويأخذ عنه ذلك الرأي الأستاذان نيكلسن ونولدكه ويناقضها قول القشيري « من قال بالاشتقاق من الصفاء أو الصفة فبعيد من جهة الاشتقاق اللغوي وكذلك من الصوف لأن القوم لم يختصوا بلبسه »^(٧) .

لفظة الصوفية ، أول من استعملها وأول من أطلقت عليه يظهر أن أول من استعملها من كتاب العرب هو الجاحظ^(٨) في كتاب البيان والتبيين بقوله « الصوفية من النساك »^(٩) .

على أن كلمة « لبس الصوف » وردت كما قال نولدكه كثيرا في أدب الجاهلية ، وكان معناه « البعد عن زخرف الدنيا » ولكنها تخصصت وضاق نطاقها بعد الإسلام وصارت تطلق على

(١) الرسالة القشيرية ص ١٢٧ والسهورردى : عوارف المعارف ص ٥٤

(٢) كتاب اللمع في التصوف للسراج الطوسي ، طبعة الأستاذ Nicholson

(٣) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ

(٤) توفى سنة ١٤٦ هـ تقريبا

(٥) Literary History of the brabs, R.A. Nicholson-London 1923, p. 3.

(٦) مقدمة ابن خلدون

(٧) توفى ٢٨٧ هـ تقريبا / ٨٦٩ م وذهب البيروني إلى أنها مشتقة من كلمة « صوفيا » اليونانية بمعنى الحكمة (ماللهند من

مقولة ص ١٦ من طبعة أوروبا) .

(٨) توفى سنة ١٩٦ هـ تقريبا ٧٧٨ م

(٩) ج ٣ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٣٢ هـ

تلك الفئة الخاصة « الصوفية » .

وأول من أطلقت عليه هذه اللفظة أبو هاشم الكوفي^(١) الذي عاش في قرية من قرى « فلسطين » .

والظاهر أن هذه اللفظة جاءت بمعناها الخاص في دورى الانتقال والتحول من الزهد إلى التصوف في نهاية القرن الثانى للهجرة^(٢) .

الفرق بين الزهد والتصوف

أولاً - فى الغاية :

فالزهد يأمر بالانصراف عن ملذات الدنيا وإنكار النفس وشهواتها وتحمل مرارة الجوع والعطش طمعا فى الآخرة وجنات النعيم .
أما الصوفية فهى أن يقضى الصوفى فى حاضره فناء وأن يكون هدفه معرفة الله والاتصال به^(٣) .

ثانياً - فى الفكرة :

فالزاهد محوط بجلال الله وجبروته وعقابه وبطشه .
والصوفى ناعم البال فى رحمته ولطفه وكرمه وفوق كل شىء محبته .

ثالثاً - فرق عام :

الزهد عام فى جميع الأقطار وفى كل دين وجيل
أما الصوفية فتزعة خاصة ولدتها عوامل شتى فى ظروف خاصة تحت راية الإسلام .

(١) السراج الطوسى : اللمع فى التصوف ص ٢٢ من طبعة ليدن ١٩١٤
* جاء فى كتاب عوارف المعارف للسهروردى ص ٦٤ « روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرباء » . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً .

(٢) Encyclopoedia of Religion and Ethiss-Edited by James Hastings 1921. Vol. XII. p. 10. Sulism-by Nicholson.

(٣) مثال ذلك ما روى عن رابعة العدوية - توفيت سنة ١٨٥ هـ

سئلت : أتحبين الله ؟ قالت نعم !

وسئلت : أتلعنين الشيطان ؟

قالت : إن حى لله لا يترك متسعا من الوقت لألعمه فيه

الصوفية في القرن الثاني والثالث

في القرن الثاني :

نشأ عن الزهد ولم يكن للمتصوفة في هذا الدور رابطة منتظمة تجمعهم أو مكان يزاوون فيه طقوسهم التي استنوها لأنفسهم بل كانوا يرحلون من مكان إلى آخر يرتلون القرآن ويؤلفون حلقات الذكر ، ولم تنشأ عندهم نظرية الشمول الإلهي ^(١) «Pantheism» والصوفية في هذا الدور إسلامية محضة لم تدخل فيها العناصر الثورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف «الاتصال» لا «الخلاص» Salvation .
وجملة القول أن التصوف في هذه الفترة يجتاز المرحلة بين الزهد والمعرفة .

في القرن الثالث :

دخلت العناصر في التصوف ونظامه ، ومن أشهر تلك العناصر فكرة الشمول ^(٢) ، ويعتقد الأستاذ نيكلسن Nicholson أن أوليات ذلك الاعتقاد مسطورة في القرآن الكريم ويستشهد على ذلك بقوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) ^(٣) وقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ^(٤) وقوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) ^(٥) .
وهكذا في ظرف قرن انقلب الزهد إلى تصوف فيه عناصر الزهد ثم إلى تصوف محض .

(١) أي أن الله حال في جميع القوى والنواميس الطبيعية وهي هو ، ومدخلها الحلاج الذي أعدم سنة ٩٢٢ م لادعائه أن الله حال في جسده ، وفي ذلك يقول :

يارب أنت خلقتني وخلقت لي وخلقت مني
سبحانك اللهم عا لم كل غيب مستكن
مالي بشكرك طاقة ياسيدي إن لم تعني

وقد ساعد على رواج هذه النظرية اعتقاد الشيعة بالحلول Insarnation « راجع التفاصيل في

C.Field, Mystics & Saints of Islam p. 4.

(٢) Ensyclopedia of Religion and Ethies, Vol. XII. P. II.

(٣) سورة القصص آية ٨٨

(٤) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧

(٥) سورة البقرة آية ١١٥

والتصوف إلى الاتصال والاتصال أخيراً إلى نظريات الشمول . والراجع أن التصوف أصبح « زهداً وتصوفاً ومعرفة وشمولاً » نزعات مجتمعة متلاصقة لا فارق بين الواحدة والأخرى . ويرى الأستاذ نيكلسن وغيره من المستشرقين « أن مبادئ الصوفية داخلية في دائرة الإسلام ، وإن كان من الخطأ تجاهل أثر المسيحية لأن الصوفية نشأت عن الزهد والزهد في طبيعة الإسلام .

ويقول الأستاذ نيكلسن أيضاً في كتاب The mystics of Islam. « لو لم يحتك المتصوفة بغيرهم لبقوا كما كانوا في طور الزهد ، فالتصوف كان سائراً إلى التحول شيئاً فشيئاً »^(١) .

وقد اشتد الجدل بين المتصوفة ورجال النصرانية ، وأخذت آيات من الإنجيل تظهر في أقوالهم ، وقد رويت قصة في الكامل للمبرد توضح هذه الظاهرة خلاصتها « أن راهبين قدما من سوريا إلى البصرة فقال أحدهما للآخر : ألا نذهب لزيارة حسن البصري فحياته كحياة المسيح^(٢) » .

أما الأثر الذي تركته النصرانية في حياة التصوف فهي « نظرية الحب الإلهي » ، خذ لذلك مثلاً هذه القصة « مر المسيح عليه السلام بثلاثة قد نحلت أجسامهم واصفرت وجوههم فقال لهم : ما أتى بكم إلى هنا ، قالوا : محبة في الله ، فهتف المسيح : أنتم أقرب إلى الله مني . فإذا أردت أن تعرف ما المعرفة عندهم تهت في بيداء .

فقالوا « المعرفة إحضار السر بصنوف الفكر في مراعاة مواعيد الأذكار على حسب توالي أعلام الكشوف » .

« إن الله عرفنا نفسه بنفسه ودلنا على معرفة نفسه بنفسه فقام شاهد المعرفة بالمعرفة بعد تعريفه المعترف به » .

يقول أحدهم « لا فرق بيني وبين ربي إلا بصفتين : جودنا به وتوأمنا به » ولهم شعر كله ألغاز كقول الحلاج :

وَخَدَّتْني وَاحِدِي تَوْحِيدَ صِدْقٍ مَا إِلَيْهِ مِنْ الْمَسَالِكِ طُرُقُ
هُوَ الْحَقُّ وَالْحَقُّ لِلْحَقِّ حَقُّ وَلَا يَسُ مَلْبَسُ الْحَقَائِقِ حَقُّ

(١) p. 20.

(٢) ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة أوروبا

قد تَجَلَّتْ طَوَالِعُ الزَّهْرَاتِ يَتَشَعَّشَعْنَ لَوَامِعِ بَرَقٍ^(١)
وللحلاج شعر كثير ضاع معظمه ويقول Louis Massignon ناشر كتاب الطواسين
وترجمه إلى اللغة الفرنسية باسم

“Kitab-Al Tawasin”.

“Plus de cent ans qu’ils sont poétiques provenant de son Diwan
Ash’ar monâyant. Classés par ordre de rimes selon l’Usage.”

واعتنق متصوفو المسلمين مبدأ « الحلول » ونعتقد أو نرجح على أقل تقدير أنه من عقائد
الفرس القديمة ويقول الحسين بن منصور الحلاج^(٢) البيضاوى البغدادي :
أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٣)
ويقول :

عِلْمُ النُّبُوَّةِ مِصْبَاحٌ مِنَ النُّورِ مَعَانِي الْوَحْيِ فِي مِشْكَاةِ مَأْمُورٍ
فَاللهُ يَنْفُخُ فِي جِلْدِي لِخَاطِرِهِ وَيَنْفُخُ الرُّوحَ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ
إِذَا تَجَلَّى لِرُوحِي أَنْ يُكَلِّمَنِي رَأَيْتُ فِي غَيْبَتِي مُوسَى عَلَى الطُّورِ^(٤)
ويقول أيضا :

لَمْ يَتَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَقِّ تَبَيَّانٌ وَلَا دَلِيلٌ وَلَا آيَاتُ بُرْهَانٍ
هَذَا تَجَلَّى طُلُوعِ الْحَقِّ ثَائِرَةً قَدْ أَزْهَرَتْ فِي تَلَاثِهَا بِسُلْطَانٍ^(٥)
ويقول أيضا :
رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ رَبِّي فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ أَنْتَ^(٦)

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٨ من طبعة باريس ١٩١٣

(٢) وقد أعدم في أوائل القرن العاشر بعد المسيح لاتهامه بالهرطقة . وقبل أن يفارق الحياة قال « أنا الحق » وكانت آيته

التي طالما ردها . توفي سنة ٣٠٩ هـ (Kitab el-Tawasin, par lois massignon.)

(٣) طه عبد الباقي سرور : الحلاج ص ٢٣٢ من طبعة المكتبة العلمية

(٤) كتاب الطواسين ص ١٣٤

(٥) المصدر السابق ص ١٦١

(٦) المصدر السابق ص ١٦٧

ومن شعره :

جُنُونِي لَكَ تَقْدِيسُ وَظَنِّي فِيكَ تَهْوِيسُ
وَقَدْ حَيَّرَنِي حُبُّ وَطَرَفُ فِيهِ تَقْوِيسُ
وَقَدْ دَلَّ دَلِيلُ الْحُبِّ أَنَّ الْقُرْبَ تَلْبِيسُ^(١)

ومن شعره أيضا :

جحودي لَكَ تَقْدِيسُ وَعَقْلِي فِيكَ تَهْوِيسُ
فَمَنْ آدَمُ إِلَّا كَ وَمَنْ فِي الْبَيْنِ إِبْلِيسُ^(٢)

وقال « اعلم أن من أهل النار أناسا عند الله أفضل من كثير من أهل الجنة ، أدخلهم دار الشقاوة ليتجلى عليهم فيها فيكون محل نظره من الأشقياء ، وهذا سرّ غريب وأمر عجيب يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد^(٣) .

عن كتاب الطواسين المذكور يقول :

سبحان من أظهر ناسوته سِرَّ سَنَا لاهوته الشاقب
ثم بدا لخلقهِ ظاهرا في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خَلْقُهُ كلحظة الحاجب بالحاجب^(٤)

ومن اعتقادات الصوفية في العصر العباسي - ونظن هذا من أثر الفرس - أنه من وصل إلى مقام « المعرفة » أصبح له روحان قديمة لا تتغير بها يعلم الغيب ويفعل المعجز وأخرى تتبدل وتشكل ، وفي ذلك المعنى يقول الحلاج :

أنت بين الشُّغاف والقلب تجرى مثل جرى الدموع من أجفاني
وتحل الضمير جوف قوادي كحلول الأرواح في الأبدان
ليس من ساكن تحرك إلا أنت حركة خفي المكان

(١) كتاب الطواسين ص XVI من المقدمة .

(٢) المصدر السابق ص XVI من المقدمة

(٣) المصدر السابق ، المقدمة ص XXIII

(٤) الدكتور شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ص ٤٧٩ من طبعة دار المعارف وتاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٩ من

ومن المتصوفين :

ذو النون المصري

هو أبو الفيض ثوبان وأبوه من أهل النوبة ، وقيل من أهل أحميم وهو مولى لقريش .

شعْذته :

سئل ذو النون عن سبب نونيته فقال « خرجت من مصر إلى بعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحارى ، وفتحت عيني فإذا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض وخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذه وتشرب من تلك ، فقلت حسبي قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني » .

وقد اتهم بالزندقة ومات سنة ٢٤٥ هجرية بالحيرة وقيل ٢٤٦ هـ وقيل ٢٤٨ هـ .
سيق ذو النون وفي يده الغل وفي رجله القيد وهو يساق إلى « المطبق » والناس سيكون حوله وهو يقول « هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه وكل فعاله عذب حسن طيب » .
ثم أنشد :

لك من قلبي المكان المصون كل يوم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا فيك والصبر عنك مالا يكون^(١)
ومن شعره :

فيك يا سؤلي ومنيتي قد أبخل وقد كده
لو أن ما في القلب من حبكم بالجنادل الصلد لقد هده
وله شعر مشئت هنا وهناك .

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٦٦ - دار الفكر العربي .

رابعة العدوية

من المتصوفات الشهيرات ، وهى من أهل البصرة ، والراجح أنها توفيت سنة ١٨٥ هـ وهى تمثل (الحب الإلهى) فى دور الانتقال من عالم الخوف إلى عالم الحب ، قيل لها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حبا فى جنته ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، ثم قالت :

أحبك حبين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عَمَّنْ سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا^(١)

وروى لها فى كتاب « عوارف المعارف » لشهاب الدين الطوسى :
إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبجت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلوس مؤانسى وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى^(٢)
ومن وصاياها « اكنموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم »

وكانت تصلى طول الليل فإذا طلع القمر هجعت هجعة خفيفة فى مصلاها ثم وثبت صائحة « كم تنامين يا نفس ، وإلى متى تنامين يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور »^(٣) .

وعند موتها أوصت خادمتها أن تكفنها فى جبة من الشعر كانت ترتديها فى تعبدها ، كما أوصتها ألا تخبر بموتها أحدا .

(١) طه عبد الباقي سرور : رابعة العدوية ص ١٠٦ من طبعة دار الكتاب العربى .

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

الشعر الصوفي

من ذلك أبيات لأبي نواس زعيم المجان ، أعتبرها من الشعر الصوفي ، قيل إنه كان يتغنى بها في الطواف وقد خرج للحج :

إلهنا ما أعد لك ليك إن الحمد لك
ليك قد ليت لك ليك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما أن حلك
والساجحات في الفلك على مجارى المنسلك
لولاك ياربى هلك كل نبي ومملك
وكل من أهل لك سبح أو لى فلك
يا مخطئا ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بنخير عمملك ليك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز لا شريك لك^(١)

ولأبي نواس من قصيدة أخرى :

جَفَنُ عَيْنِي قَد كَادَ يَسُّ قُطُّ مِنْ طُولِ مَا اخْتَلَجُ
وَقُوَادِي مِنْ حَرِّ حُبِّكَ (م) والهجر قد نَضَجُ
خَبْرِي فِدَتِكَ نَفْسِي وَأَهْلِي مَتَى النَّرَجُ^(٢)

وأنا أعرف أن الظريف اللعين عاد فقال :

كَانَ مِيعَادُنَا خَرُو جَ زِيَادَ فَقَدْ خَرَجُ
أَنْتَ مِنْ قَتْلٍ عَائِدَ بَكَ أَضَيَقُ الْحَرَجُ^(٣)

فخرج كما ترى من العشق الإلهي إلى العشق الإنساني .

(١) الديوان ص ٦٢٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي والأغاني ج ٢٢ ص ٧٦٩٨ من طبعة الشعب .

(٢) الديوان ص ٢٣٠ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي والأغاني ج ٢٢ ص ٧٦٩٩ من طبعة الشعب .

(٣) الأغاني ج ٢٢ ص ٧٦٩٩ من طبعة الشعب وهي نفس القصيدة السابقة .

لكن ذلك ليس يعنيني ، فأنا أعرف أنه ما خرج إلى الحج لأن العشق الإلهي صرفه عن عشق الغلمان والقيان ، ومن يدري ؟ ربما خرج إلى الحج لأن جنان خرجت إليه في هذه السنة ، إنما الذي يعنيني هو أن هذه الأبيات الدينية على نسق الشعر الفارسي الصوفي تحمل معانيه وتجري على أسلوبه . أما أنه تغزل في هذه القصيدة بصاحبته فذلك لا ينبغي كون هذه القصيدة « صوفية » بأدق معاني هذه الكلمة ، فالصوفيون يخلطون في شعرهم بين الصفتين . ويمثل مذهبهم قول الشيخ سعدى :

بجهان خرم از آنم كه جهان خرم از دست
عاشقم برهمه عالم كه همه عالم از دست

« أنا سعيد في هذه الدنيا والدنيا سعيدة به »

• أنا عاشق لكل العالم لأن العالم منه »

وإني لأرى ذلك المعنى نفسه في شعر لأبي العتاهية :

آه من غمي وكربي آه من شدة حبي
لم أنل منه نوالا غير أن كدر شربي
أنت ممن خلق الرحمن (م) من ذا الخلق حسبي^(١)

والبيت الأخير يحمل معنى الشيخ سعدى وهو معنى طالما رددته شعراء الفرس . ولذلك أقول إن في زهد أبي العتاهية نزعة تصوفية وأحسبه كان متصلا بهذه الجماعة المتصوفة . ولو اتسع الوقت لقارنت بين نص لأبي العتاهية ومتصوفي الفرس .

الفرق الحلولية

تحدثنا عن الحلول وذكرنا الفرق الحلولية في العصر الأموي وأهمها :

١ - السبئية (قالت بحلول روح الإله في علي)

٢ - البيانية (زعمت أن روح الإله دارت في الأنبياء والأئمة واحدا فواحدا حتى انتهت إلى علي فانتقلت إلى ولده محمد بن الحنفية ثم إلى ولده هاشم ثم إلى بيان بن سميان فوقفت عنده ولم تتجاوزه .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٢ من طبعة الخانجي

٣ - الخطائية (زعمت أن الحسن والحسين وأولادهما أبناء الله ودخل في أحلامها أن البرق ضوء على والرعد صوته فكان الواحد إذا سمع الرعد قال « وعليكم السلام يا أمير المؤمنين » ويقال : إنهم أول من قال بخلق القرآن . فإن صح ذلك فنسبة الفتنة إلى عصر المأمون غير صحيحة .

وتكاثرت هذه الفرق الحلولية بعد العهد الأموي ونحن ذاكرون فيما يلي الفرق الحلولية في العصر الجديد .

٤ - النيرية : زعمت أن روح الله حلت في عليّ وأولاده وفاطمة بعد أن حلت في النبي .

٥ - الجناحية : زعمت أن روح الله حلت في عليّ وأولاده ثم في عبد الله سليل عبد الله ابن جعفر .

٦ - الرزامية : ألّهمت أبا مسلم وفضلته على جبريل وميكائيل وقالت إنه حي لا يموت ما قتل بل قتل شيطان تصور في أبي مسلم .

٧ - المقنعية وقد تفرعت من الرزامية فرعيمها المقنع كان في شيعتها ثم ادعى الألوهية . وقال إنه هو آدم ونوح وإبراهيم ومحمد وعليّ وأبو مسلم « إني إنما أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها ، ومن رأى احترق بنوري » . وقد أسقط عن أتباعه الصلاة والصيام وأنواع العبادات وأحل لهم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك . وكثر أتباعه وعظم أمره ، وحسبك أن الدولة ظلت تقاتله وجنوده أربعة عشر عاما .

٨ - الحلاجية : أتباع الحسين بن منصور الحلاج وقد تحدث عنه عند الحديث عن الصوفية ونقول إنه صوفي فسدت صوفيته فاعتقد الحلولية وقد اختلف في أمره الصوفية والمتكلمون ، أما الأولون فقالوا إن كلامه أشكل من أن يفهمه المتكلمون أو غير المتكلمين ، أما الآخرون فقد كفروه واستدلوا بعبارات نسبت إليه مثل « من هذب نفسه في الطاعة والصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقى في درجات المصاافة حتى يصفو عن البشرية فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم . ، ولم يرد حينئذ شيئا إلا كان كما أراد وكان جميع فعله فعل الله تعالى » .

وقيل إن الحلاج ادعى لنفسه هذا المقام وقد ظفر بعضهم بكتاب أرسله إليه أحد أتباعه ، يقول « يا ذات اللذات ومنتهى غاية الشهوات نشهد أنك المنصور في كل زمان بصورة وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور ونحن نستجير ونرجو رحمتك يا علام الغيوب » .

وهناك روايات تصور الحلاج كزيرنساء ، وتقول إنه ادعى ما ادعاه ليستهوى حرم الخليفة وإنه استهوى كثيرات من نساء القصر فإن صح ذلك فهو إمام راسبوتين

Raspoteen

٩ - الحلمانية : نسبة إلى حلّمان الدمشقي ، فارسي نشأ في الشام ، زعم أن روح الإله حالة في كل جميل ، فإن رأى أو رأى أحد من أتباعه جميلاً أو جميلة أو فرساً رائعاً أو طيراً مليحاً أو شجرة فينانة خرّ على الأرض ساجداً .

وزعم أنه من تصفوا نفسه وتشف يعنى من الواجبات الدينية ويحل له كل حرام . أما سجودهم للجميل فللاعتقاد بأن روح الله حالة فيه ومن تعليلهم قوله تعالى للملائكة في آدم (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)^(١) .

الغزل

كلمة عن الرق

كان الإنسان الأول لا يدين إلا بالقوة ، فكان الاسترقاق نظاما اجتماعيا شائعا تستوى فيه الأمم والجماعات .

فاليونان أسواق شهيرة في أثينا وقبرص وسلموس وغيرها . ومتزلة الرقيق كمتزلة المتاع يرهن كما يرهن الشيء . وأرسطو يعرفه فيقول « آلة ذات روح ومتاع حي » Une Machine animee, une poriste vivante وكان يعاقب بالجلد وبالطحن على الرحى .

والإفرنج جعلوا بين الأحرار والرقيق حدا فاصلا ، فالقانون « السالى » Loi Salique نص على أن الحر الذى يتزوج رقيقة يفقد حريته ، وكذلك الحرة تفقد بالتزوج من رقيق حريتها . وكان الرقيق عند « الأنجلو سكسون » ملحقا بالأرض ، وكان الجرمانيون يقامرون على الرقيق كما يقامرون على المال . وعند اللومبارديين كانت الحرة إذا تزوجت رقيقا وجب إعدامها حرقا . ولا نحدثك عن الرق عند البابليين والآشوريين والمصريين والصينيين والهنود ، فأنت تعلم بأنه لم يكن أحسن حالا منه عند هذه الأمم .

الرق فى الجاهلية

والعرب فى الجاهلية كانوا يسترقبون من يأسرونه
فما أنكحونا طائعين بنا .هم ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا^(١)
وكانوا يشترون الرقيق من الأمم الأخرى ، وهذا الرقيق كان يوضع فى عنقه حبل ويقاد إلى منزل شاربه ، كما تقاد السوائم ، وكانوا يؤجرون إماءهم للبغاء ، وقد أبطل ذلك الإسلام
(ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا^(٢)) .

(١) من شعر حاتم الطائى ، عبد الله عفيفى : المرأة فى جاهليتها وإسلامها ج ١ ص ٤٥ من طبعة مصر ١٩٢١

(٢) سورة النور ، آية ٣٣ .

وكان الرقيق عند الجاهليين كالرقيق عند الرومانيين لا مال له : ما اكتسبه فليسيدته وما غير ذلك فهو لملكه . ومنهم من كان ملحقاً بالأرض وهو « القن » يقابل ذلك Serf في النظام الروماني يباع ويشترى ويؤجر مع الأرض .
وقليل ما كان يعتق جاهلي رقيقاً فإن أعتق جزت ناصيته وأصبح مولى للمعتق أو لمن يشاء المعتق

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجزّ ناصية كنا موالها
والمولى منزله بين الحرية والرق ، وهو أقرب إلى الرق فيما أرى إذ كان لا يجوز له الزواج من الحرة .

الإسلام والرق

وقوع الكافر أسيراً في يد المسلم يجعله رقيقاً ، ذلك حكم الإسلام . وهذا الرقيق كان كثيراً جداً في صدر الإسلام وهو مال ، فحكمه حكم سائر الغنائم ، خمسه لبيت المال وأربعة أخماس توزع على الجيش المقاتل ؛ للراجل سهم وللفرس سهان (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)^(١) .

وخير الشارح الإمام في الأسرى بين العفو والفداء وهو أن يفدى الإنسان نفسه بمال يقدره الإمام (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)^(٢) .

وقد عفا الرسول عن قريش بعد انتصاره في غزوة الفتح إذ صعد المنبر وقال « يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم » فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . أما الفداء ، فقد افتدى الأسرى أنفسهم في غزوة بدر ، فالغنى افتدى بالمال والفقير يقوم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة .

وكان الرسول إذا ضرب على الأسارى الرق وقرقهم غنائم بين المسلمين ، دخل كل رقيق في ملك سيده وصار السيد في حل أن يطأ الأمة (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على

(١) سورة الأنفال آية ٤١

(٢) سورة محمد آية ٤

أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ^(١) (وإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) ^(٢) .

فالعلاقة الجنسية قوامها في الشرع الزواج أو ملك اليمين وولد الجارية حر ، أو يزوجها غيره من الأرقاء أو الأحرار عند فقدهم مثنوة النكاح (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ^(٣) .

وكان الرقيق مالا يتوارث بالأبناء عن الآباء ولا يحل للولد افتراش موطوءة الأب . الرق في الجاهلية يختلف عن الرق في الإسلام اختلافا كبيرا .

وأرى أن الإسلام لم يبح الرق إلا تمشيا مع عقلية الناس ، ولا يغضبني قولي المتعصبين فليس فيه ما يشين الإسلام . إنك تعط العليل دواء قويا فلا تحتمله أمعاؤه ويلفظه . كان لابد للإسلام من مجازاة العقول التي تلقى عليها تعاليمه وإلا ما احتملته ولا أبهت به . ويظهر أن هناك أمرا آخر قصده الشارع وهو نشر الإسلام وذلك مستفاد من قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) ^(٤) ، نستطيع أن نفهم من جزء الآية الأخير « إن علمتم فيهم خيرا » أن الشارع أباح الرق لنشر الإسلام بضم هؤلاء إلى حظيرته حتى يتأدبوا بآداب هذا الدين الجديد ويرضوا عن أحكامه حتى رقابة المسلمين حتى إذا أنس السيد من رقيقه الميل إلى الصلاح والركون إلى التقوى وامثال أوامر الشريعة رغبه الشارع في إطلاق سراحه وفك رقبتة ، وفي القرآن آيات كثيرة تحض على العتق ، فالله لا يقبل ممن امتن حرمة اسمه المقدس ومن حلف كاذبا عليه أن يفك رقبة عبد من عبده (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) ^(٥) ، وجعل العتق كفارة للظهار (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) ^(٦) وجعله كفارة للقتل الخطأ (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية

(١) سورة المؤمنون الآيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة النساء آية ٣

(٣) سورة النور آية ٣٢

(٤) سورة النور آية ٣٣

(٥) سورة المائدة آية ٨٩

(٦) سورة المجادلة آية ٣

مسلمة إلى أهله^(١) جعله تارة آية للشكر وتارة كفارة (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيا ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنو وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة)^(٢) وأوصى الله بالإحسان إليهم (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا)^(٣) .

وجاء الحديث متما لدعوة القرآن « لقد أوصانى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » و « اتقوا الله فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم » و « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » .

وروى ابن عمر أن رجلا جاء إلى النبي فقال له « إلى كم أعفو عن عبدى فلم يجبه ، فأعاد عليه السؤال مرة ثانية وثالثة ولم يجبه ، فلما سأله المرة الرابعة صاح فى وجهه : اعف عن عبدك فى كل يوم إذا أردت نوال الأجر والثواب » .

رأى رجلا على دابة وغلامه يسعى خلفه فقال : احمله خلفك يا عبد الله فإنما هو أخوك وروحه مثل روحك . من كان له جارية فعلمها وأحسن تعليمها وتزوجها كان له أجران . وحرّض على العتق كما حرّض القرآن « ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار » .

الغناء والموسيقا

فى الجاهلية :

أحسب أن أبونا آدم وحواء كانا يغنيان . فالغناء طبيعة فى الإنسان وربما كان الغناء فى الجاهلية متفقا مع بساطة البداوة أقرب إلى الهزج والحداء منه إلى الصناعة الفنية . ولسنا نعرف عن موسيقا الجاهلية إلا الدف والنأى والمزهر .

وأشهر مواطن الغناء فى الجاهلية المدينة والطائف وخيبر^(٤)

(١) سورة النساء آية ٩٢

(٢) سورة البلد آيات ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨

(٣) سورة النساء آية ٣٦

(٤) كما ذكرها العقد الفريد وراجع فى ذلك الدكتور شوقى ضيف : الغناء فى الأمصار الإسلامية .

الغناء في صدر الإسلام والعصر الأموي :

أهم موطن للغناء في هذا العصر هو المدينة حيث كانت الأرستقراطية الحجازية التي انصرفت عن السياسة أو صرفت عنها بعبارة أوضح . عكفت على اللهو واشتهرت المدينة بذلك في هذا العهد . يقول الشاعر المدني ردا على شاعر كوفي :

قالوا المدينة أرض لا يكون بها إلا الغناء وإلا اليمن والوزير
لقد كذبت لعمر الله إن بنا قبر النبي وخير الناس مقبور
ويلى المدينة في الشهرة بالغناء مكة والطائف .

ولم يك في دمشق غناء قبل الوليد بن يزيد - فيما يقول بعض المؤرخين - وكان بعض الخلفاء والولاة يكره الغناء والمغنين كمعاوية واشتط سليمان بن عبد الملك في طردهم وأمر بإبعاد غير واحد منهم ، وهو القائل :

هدر الجمل فضيعة الناقة وهدر الحمام فهاجت الحمامة . وغنى الرجل فطربت المرأة .
ومن ولادة المدينة من اضطهد المغنين حتى هم بطردهم منها . أما عمر بن عبد العزيز فكان يقبل على الغناء أيام أن كان واليا على المدينة حتى أنه ألف في فن الغناء ، فلما آلت إليه الخلافة كره الغناء أو أظهر ذلك الكره . وفتن الوليد بن يزيد به فتونا .

وفي هذا العصر دخلت الألحان الفارسية والرومية في الغناء العربي ، ويقال إن أول من مزجه بها سعيد بن مسجع ، وقد سمع بعض البنائين الفرس يغنى إذ كان يحدد في بناء الكعبة بعد هدمها في أثناء محاربة الزبير ، فاقتبس هذه الألحان ثم سافر إلى فارس والشام وجوّد بعض الألحان ، وهو كما ترى كلام أشبه بالعروض منه بالوقائع .

ومهما يكن فإن المغنين الموالى لحنوا الأصوات فارسية ورومية ونقلوا منهم أنواعا مختلفة من الآلات الموسيقية كالعود والصنج وهما فارسيان ، والقيثارة والأرغن وهما يونانيان والكلكلة وهي هندية ، والطنبور وهو ديلمى ^(١) .

ومن الصعب أن نفرق بين هذه الآلات . وتنسب هذه إلى العصر الأموي وهذه إلى العباسي ، إلا أننا نرجح أن أغلبها وجد في العصر الأموي . وفي تاريخ التمدن الإسلامي ^(٢) أنه

(١) عن المخصص

(٢) نقلا عن ابن الأثير

عثر في معسكر الأمويين بأصبهان بعد سقوطه في يد العباسيين على عدد لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير .

القيان

القيان هن الجوارى المغنيات ، وللقيان في الجاهلية بعض أخبار ، ففي رواية لحسان بن ثابت أنه رأى عند جيلة بن الأيهم عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ^(١) .

وكان لعبد الله بن جدعان أمتان تغنيان في الجاهلية وهبها لأمية بن أبي الصلت الثقفي ^(٢) وكان يقال لهما الجرادتان .

تغنيانا الجراد ونحن شرب نعل الراح خالطها النشور
وفي أخبار عبد الله بن جدعان أنه كان نحاسا في الجاهلية وأنت تعرف أن جدعان كان قائد قريش في حرب الفجار وترى معي أن ذلك يدل على عظم شأن هؤلاء النحاسين في الجاهلية .
يقول دريد بن الصمة من قصيدة يمدح بها عبد الله بن جدعان :

رَحَلْتُ الْبِلَادَ فَمَا إِنْ أَرَى شَيْهَ ابْنِ جُدْعَانَ وَسَطَّ الْعَرَبُ
سوى مَلِكٍ شامخٍ ملكه له البحرُ يَجْرِي وعَيْنُ الذَّهَبِ ^(٣)

القيان في صدر الإسلام :

في تاريخ حسان بن ثابت أنه كانت له قينة تغنيه وأصحابه هي « سيرين » وأبو محجن الثقفي ^(٤) يقول :

وقد تَقُومُ على رَأْسِي مُنْعَمَةٌ فيها إذا رَفَعْتَ مِنْ صَوْتِهَا غَنَجٌ
تُرْفَعُ الصوتُ أحياناً وتَخْفُضُهُ كَمَا يَطْنُ ذُبَابُ الرُّوضَةِ الهَزَجِ ^(٥)

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٤٥٣ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٣٠٧٣ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٣٤٨٥ من طبعة الشعب والنويري : نهاية الأرب ج ٥ ص ٤٠ من طبعة دار الكتب

(٤) شهيد القادسية وأبلى فيها بلاء حسنا

(٥) الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٣٣ من طبعة الشعب

القيان في العصر الأموي :

أخبار القيان في هذا العصر كثيرة وأشهر موطن لهن هو المدينة حيث كانت الأرستقراطية القرشية ، كما تقدم . ومن أشهر قيان هذا العصر « جميلة » مولاة الأنصار ، وهي أول من غنى بالمدينة ، وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطاة :

إِنْ الدَّلَالُ وَحَسَنَ الغَنَا ء وَسَطَ بِيوتِ بَنِي الخَزْجِ
وَتَلَكُمُ جَمِيلَةُ زَيْنُ النساءِ (م) إِذَا هِيَ تَزْدَانُ لِلْمَخْرَجِ
إِذَا جَثَّتْهَا بَذَلْتُ وَدَّهَا بِوَجْهِ مُنِيرٍ لَهَا أَبْلَجُ^(١)

وسلامة القس وحبابة فاتنة يزيد بن معاوية^(٢) وعزة الميلاء وخليدة وعقيلة واللماسية ولذة العيش وفرعة ونبيلة والفرهة وسعيدة الزرقاء . ولكل منهن أخبار طوال لا نتعرض لها .
وقيان العصر الأموي لم يكن لهن في الشعر الأموي أثر يذكر بالقياس إلى قيان العصر العباسي ، وإن كنا نعرف أن بعض شعراء الحجاز كعمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق وابن الرقيات والأحوص كان متصلا بهن وبين أيدينا طائفة من أشعار في سلامة القس^(٣) وحبابة وجميلة وغيرهن . بل غير شعراء الحجاز ، فالأخطل كانت له قينتان وهو القائل :
وَقَدْ أَكُونُ عَمِيدَ الشَّرْبِ تُسْمِعُنَا بِجَاءِ تَسْمَعُ فِي تَرْجِيْعِهَا صَحَلَا
مِنْ الْقِيَانِ هُتُوفُ طَالَ مَا رَكَدَتْ بِفَتِيَةٍ يَشْتَهُونَ اللَّهُوَ وَالْغَزَلَا^(٤)
والفرزدق يقول في أمة زنجية :

يَارَبْ خُودٍ مِنْ بَنَاتِ الزَنْجِ تَمْشِي بَتْنُورٍ شَدِيدِ الْوَهْجِ
أَغْرَ مِثْلَ الْقَدَحِ الْخَلْنَجِ يَزْدَادُ طَيِّبًا بَعْدَ طَوَّلِ الْهَرْجِ^(٥)
نكتفي بهذه النبذة عن قيان العصر الأموي فما قصدنا الحديث عنهن بل عن قيان العصر

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٩٣٢ من طبعة الشعب

(٢) وكان لها أثر كبير في سياسة الدولة

(٣) في رواية محمد بن سلام أن يزيد بن عبد الملك اشتراها بعشرين ألف دينار (وقد اشترى غيرها في العصر العباسي

بمائة ألف دينار)

(٤) الديوان ص ١٤٢

(٥) الديوان ص ١٤٣ من طبعة الصاوي

العباسي وأثرهن في الشعر . ونقول بالإجمال : إن علاقة الشعراء الأمويين بالقيان لا تذكر بالقياس إلى شعراء بغداد وقيانها .

الغزل الأموي أغلبه كما رأيت ، في امرأة بدوية أو امرأة حضرية من بنات الأشراف ذلك أن النساء في العصر الأموي وفي صدر الإسلام كن سافرات يجلسن إلى الرجال ويرحبن بالضيف ويسامرنه وقد نزل على أهلهن في غير ما خرج وربما برزن معهم في صفوف القتال ، ثم تبدل الحال في أواخر العصر الأموي منذ أيام الوليد بن يزيد وحجبت المرأة عن الرجل . يعلل ذلك المؤرخون بسوء سيرة الوليد فيقولون إن الأشراف خافوا على نساءهم من الوليد فحجبتهن وقلدهم عامة الناس بالتدريج . وأراه تعليلاً بعيداً ، وأحسب أن عادة الحجاب انتقلت إلى العرب باختلاطهم مع الفرس ، وأنت تعرف أن الفرس كانوا يحجبون نساءهم منذ أقدم عصور التاريخ الإيراني .

لا ينشأ الحجاب في بيئة بدوية وإنما ينشأ في الحضارات ولا يزال الشاهد أمامنا في مصر حيث تحجب المرأة في المدن وتخرج الفلاحة إلى الحقل تشاطر الرجل في الزراعة وتقضي حوائج البيت .

لا نستطرد ونعود إلى المرأة العربية فنقول إن بدعة الحجاب تسربت إلى العرب في أواخر العصر الأموي مثلما كان العصر العباسي ، كان بين الرجل والمرأة سد منيع . فيمن يتغزل الشعراء ؟

أراك سبقتني إلى الجواب ! بالقيان ، أليس كذلك ؟

اقتصر الغزل إذن على القيان فهن عرائس الشعر العباسي .

وقيان العصر العباسي - قيان بغداد - لا يُقسن بقيان العصر الأموي ، قيان المدينة ، في الخلاعة والتهتك .

نقول ذلك في شيء كثير من الاطمئنان بل يسرف غيرنا فيصف غير واحدة منهن بالنسك والتقوى فصاحب نهاية الأرب يحدثك عن إسلام عزة غير المشوب^(١) وعن عفة جميلة ويقول أبو الفرج إنها لم تغن خارج منزلها قط .

(١) ويقول صاحب الأغاني « كانت . . . على خلق فاضل وإسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهي من أهله وتنتهي عن السوء وهي بجانب له فناهيك بها ما كان أنبلها وأنبل مجلسها » (ج ١٨ ص ٦٤٤٩ من طبعة الشعب)

أقول إن فتيات المدينة لم يبلغن ما بلغته نساء بغداد في فنون الخلاعة ، تفننت قيان بغداد
 في التجميل حتى إن منهن من كانت تتزيّا بزى الرجال وهن الجوارى الغلاميات :
 تأمل حسن جارية يحار بوصفها البصر
 مذكرة مؤنثة فهي أنثى وهي ذكر^(١)
 والقول :

صور إليك مؤنثات الدل في زى الذكور
 ومن ضروب خلاعتن أن كتبن على العصائب والثياب أبياتا من الشعر ، فما كتب على
 العصائب :

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت فاغرب بعينيك يا مغرور عن عيني
 فإن لي سيف لحظ لست أغمده من صنعة الله لا من صنعة القين
 وكتبت أخرى :

مالى رميت فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتنى يا رامى
 وغيره :

ظلمتنى فى الحب يا ظالم والله فيما بيننا حاكم
 وكتبت إحداهن على قلنسوة خرجت بها على لناس :

تأمل حسن جارية يحار بوصفها البصر
 إلخ .

وكن بلا ريب أفتن من قيان العصر الأموى لأن تقدم الحضارة هيا لها أسباب التجميل
 فمنهن من كن يلبسن غطاء للرأس يشبه فى شكله « العزوزية » عند سيداتنا اليوم إلا أنه كان من
 ذهب لا من حرير ، وكان محاطا بالجواهر لا بالتطريز . وكن يصبغن الشفاه والخدود بأنواع
 الأصباغ ويتزين بخلاخل وأساور من فضة وذهب ، ويلبسن ثيابا من سندس وإستبرق ، ولم
 تكن أنواع الأصباغ معروفة فى هذا العصر .

وكثر القيان فى العصر العباسى لكثرة الجوارى فقد كان فى بيت الرجل عشرات أو مئات
 من الإماء ، وكان فى قصر الرشيد ألف جارية منهن ثلاث مغنيات وعازفة ومن بينهن العوادة

(١) عبد الله عفيفى . المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ج ٣ ص ١٤ من طبعة المطبعة الرحمانية

والجنكية وضاربة الدف والنأي . وهذه الكثرة سببها أن الجوارى فى العصر الأموى كن من السبايا . أما فى العصر العباسى فلم يكن التسرى مقصورا على السبايا بل تعداه إلى الاتجار ، فكثرت النخاسون ، وكان فى بغداد دار للرقيق يجلب إليها أنواع هؤلاء من أملك الجوارى من الروم وأرمينيا وتركيا والحبشة والهند ^(١) وغيرها .

ومن المغنين من كان يتجر بالجوارى فقد كان ينتقى منهم من يتوسم فيهن حسن الاستعداد فيشتريها بثمن بخس ويعلمها أصول الغناء ثم يبيعها بربح وافر ولأبى عينة فى ذلك شعر . ومن الأدباء من كان يشتري الجارية الصبية المليحة ويعلمها العروض أو يرويها الشعر ثم يبيعها . ولذلك كثرت الجوارى الشوارع والأديبات فى هذا العصر ، وكان لهن فى الأدب أثر ظاهر . ومساجلات عنان وأبى نواس فى المجون شهيرة .

ومن الناس من كان يجمع عددا من القيان الوسيات فى بيته ويفتح بابه لعشاق الغناء ومن هؤلاء يحيى بن نفيس وعبد الملك بن رامين . ومن جوارى ابن رامين :

الزرقاء وربيحة وسعدة وكلهن شهيرات . وفيهن يقول إسماعيل بن عمار :

هَلْ مِنْ شِفَاءٍ لِقَلْبٍ لَجَّ مَحْزُونٍ	صَبَا وَصَبَّ إِلَى رِثْمِ ابْنِ رَامِينَ
إِلَى رُبَيْحَةٍ إِنْ اللَّهَ فَضَّلَهَا	بَحْسِنَهَا وَسَمَاعٍ ذِي أَفَانِينَ
نَعَمْ شِفَاؤُكَ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ لَهَا	أَضْنَيْتَنِي يَوْمَ دَيْرِ اللَّجِّ فَاشْفِينِي
أَنْتِ الطَّيِّبُ لِدَاءٍ قَدْ تَلَبَّسَ بِي	مِنَ الْجَوَى فَانْفُتِّى فِى فِى وَارْقِينِي
نَفْسِي تَأْتِي لَكُمْ إِلَّا طَوَاعِيَةً	وَأَنْتِ تَأْبِينَ لَوْمًا أَنْ تُطِيعِينِي

ومنها :

لَا أُنْسَ سَعْدَةَ وَالزَّرْقَاءَ يَوْمَ هُمَا	بِاللُّجِّ شَرْقِيَهُ فَوْقَ الدَّكَاكِينِ
يُغْنِيَانِ ابْنَ رَامِينَ عَلَى طَرَبٍ	بِالْمِسْجَحِيِّ وَتَشْيِيبِ الْمُحِبِّينِ
فَمَا دَعَوْتَ بِهِ فِى عَيْشِ مَمْلَكَةٍ	وَلَمْ نَعِشْ يَوْمَنَا عَيْشَ الْمَسَاكِينِ ^(٢)

وخرج ابن رامين للحج مرة فساء حال الشعراء ، وفى ذلك يقول أحدهم :

أَيُّهَ حَالٍ يَا ابْنَ رَامِينَ حَالُ الْمُحِبِّينِ الْمَسَاكِينِ

(١) Short history of the Saracens, by Ameer Ali, Sayed.

(٢) الأغاني ج ١١ ص ٤١٥١ من طبعة الشعب

تركهم مَوْتَى وما مَوْتُوا قد جرَّعوا منك الأمرين
 ياراعى الذَّودِ لقد رُعَّتْهُمْ وَيَلَكَّ من رَوْعِ الْمُحِبِّينِ
 فَرَّقْتَ قوما لا يُرى مثلهم ما بين كُوفانٍ ^(١) إلى الصَّينِ ^(٢)

ومن أشهر قيان هذا العصر بصبص التي يقول فيها عبد الله بن مصعب :
 فخذُ عليها مجلسي لَذَّةً ومَجْلِساً من قَبْلِ أن تَشْخَصَا
 أَحْلِفُ بالله يَمِيناً وَمَنْ يَحْلِفُ بالله فقد أَخْلَصَا
 لو أنها تدْعُو إلى بَيْعَةٍ بايَعْتُها ثم شَقَقْتُ الْعَصَا ^(٣)
 ومن أشهر قيان العصر ذات الخال ، وكم تغزل بها الشعراء ، ودنانير مولاة خالد البرمكي .

والمساجلات بين الشعراء والقيان كثيرة جدا وكلها فحش ومجون ، ونحن نختار هذه
 المساجلة الخفيفة بين الحسن بن دعبل وإحدى الجوارى لترى كيف كان ألسنة هؤلاء القيان -
 من تأدب منهن - تنطلق بالشعر في غير تكلف ولا جهد .

يقول صاحب الأغاني « حدثني الحسن بن دعبل قال سمعت أبي يقول : بينا أنا جالس
 بباب الكرخ إذ مرت بي جارية لم أر أحسن منها وجهها ولا قدًّا تشنى في مشيتها وتنظر في
 أعطافها فقلت متعرضا لها :

دموع عيني بها انبساط ونوم عيني به انقباض
 فأجابتنى غير متوقفة فقالت :

إن كنت تبغى الود منا فالود في ديننا قراض
 قال فما دخل أذني قط كلام أحلى من كلامها ولا رأيت أنضر وجهها منها ، فعدلت بها عن
 ذلك الوجه وقلت :

أترى الزمان يسرنا بتلاق ويضم مشتاقا إلى مشتاق
 فأجابتنى بسرعة :

ما للزمان وللتحكم بيننا أنت الزمان فسرنا بتلاق
 قال فمضيت أمامها أدم بها داري . . . إلخ .

(١) كوفان : الكوفة وكوفان أيضا : قرية بهراة

(٢) الأغاني ج ١١ ص ٤١٥٣ من طبعة الشعب ويقول : إن الشعر لإسماعيل بن عمار

(٣) شق العصا : يكنى به عن الخلاف ومفارقة الجماعة . الأغاني ج ١٥ ص ٥٣٠٣ من طبعة الشعب

الغزل العباسي :

رأيت أن عروس الشعر الأموى لا تعدو واحدة من ثلاث :
 امرأة بدوية تعيش مع أهلها في خيام نصبت بالعراء يمرّ بنجيمتها صياد فيستسقيها ماء فيأسره
 جمالها ، أو راع يراها وهو سارح بغنمه تلعب وتلهو مع أترابها فيعلق قلبه بحبها فيتوجه إليها كما
 يتوجه الوثني إلى اللات والعزى والمجوسى إلى المخطب والصابئي إلى الشعرى .
 وامرأة تخرج مع القافلة في المواسم فيراها فتى من صبيان الحجاز المترفين وهى فى هودجها أو
 طائفة بالكعبة أو مستلمة الحجر الأسود فيحتال إليها بالأساليب التى يحتال بها عشاق الحضر .
 وامرأة أبت السياسة إلا أن يتغزل بها خصم سياسى لزوجها أو أبيها أو أخيها .
 أما عروس الشعر العباسى فلها مهنة خاصة ولها بالناس صلة خاصة لا هى بدوية فقد
 مصرت الأمصار وعاش الشعراء فى هذه الأمصار فلا رعى ولا استسقاء ولا خيام ولا
 صحراء ، ولا هى زوجة أو أخت لزعيم سياسى لأن هذا النوع من الغزل شاذ استنه بعض
 الناس وتبعه البعض حيناً ، ولأن الغناء فى خدورهن محجة ، فهن فى معتصم من افتراء
 الشعراء ، ولا هى امرأة تخرج فى مواسم الحج فشعراء العصر لا يعرفون مواسم الحج ولا شعائر
 الدين بل يعرفون اللهو والقصف .

لقد تغير العصر فانتصر الشباب ، وفى طليعتهم الشعراء إلى الحياة الجديدة الفاتنة لأنهم -
 أى الشعراء - أسرع تحولا وأشد ميلا لأن نفوسهم أدق حساسية ولأنهم أيسر من غيرهم حالا
 وأوفر مالا . . قضى الأمر وانتصرت اللادينية فهاهم أولاء شعراؤنا يعيشون فى بغداد يقضون
 للشباب ديونه . . هاهم أولاء يسهرون الليل تغنيهم القيان فيستمعون إلى الأنغام العلوية
 وسرعان ما تنتبه الغريزة فيهم فيتوجهون إليها هى لا يغنون بلحنها ويقبلون عليها هى لا على
 صوتها فحسب .

وهؤلاء القيان لا يعرفن التمتع والصول وإنما يعرفن التأبى والدلال . فالصلاّب بينهن وبين
 الشعراء قائمة أو ستقوم وإنى لأترك لهؤلاء وصف هؤلاء القيان :

صَحَوْتُ فَأَبْصَرْتُ الْغَوَايَةَ مِنْ رُشْدِي وَأَيَقَنْتُ أَنِّي كُنْتُ جُرْتُ عَنْ الْقَصْدِ
 فَلَا يَعْشَقُنْ مَنْ كَانَ يَعْشَقُ قَيْنَةً فَمَا هُوَ مِنْهَا فِي سَعِيدٍ وَلَا سَعْدِ
 تَوَدُّكَ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَتَرَفُّدَكَ عِشْقًا مَا غَنَيْتَ أَخَا رِفْدِ

غَنِيًّا حَبَبَتْهُ بِالتَّحِيَّةِ وَالْوَدِّ
 وَقَالَتْ لَهُ مَاذَا تُرِيدُ أَنَا أَفْدِي
 فَقَدْ حُزَّتْ قَلْبِي وَاشْتَمَلَتْ عَلَى وَدِّي
 سُرُوراً يَرَى أَنَّ الْمَقَالَ عَلَى جِدِّ
 لِفِرْقَتِهِ حَتَّى يَقُومَ عَلَى وَعْدِ
 يُسَائِلُهُ مَا كَانَ حَالُكَ مِنْ بَعْدِي
 رَعَيْتَ نَجُومَ اللَّيْلِ كَفَى عَلَى خَدِّي
 سُرُوراً بِتَعْجِيلِ الزِّيَارَةِ مِنْ بَدْ
 حَبَبَتْهُ بِتَعْجِيلِ الْحِجَى عَلَى عَمْدِ
 يَدَيْهِ وَأَبَدَتْ فَرَحَةً قَلَّ مَا تُجْدِي
 لِيَحْزَنِي أَنْ تَصْنَعِي هَكَذَا عِنْدِي
 أَوْمَلُ أَنْ يَتَأَعْنِي سَيِّدِي وَحْدِي
 وَأَمِنْ مِنْ سَوْمِ التَّفَرُّقِ وَالْبُعْدِ
 سَقِيمَ فُؤَادٍ مَا يُعِيدُ وَلَا يُبْدِي
 وَلَكِنْ لَتَكْلِفِ الْهَدِيَّةُ فِي الْفَصْدِ
 وَمَنْ دُمْلُجٌ يُهْدَى عَلَى أَثَرِ الْعِقْدِ
 وَمَنْ مُصْمَتٌ يُشْرَى عَلَى أَثَرِ الْبَرْدِ
 وَعُودٌ وَكَافُورٌ نَقِيٌّ وَمَنْ نَدٍّ
 تَجَنَّتْ وَأَبَدَتْ جَانِبَ الْهَجْرِ وَالصَّدِّ
 مَقَالِي فَإِنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ جَهْدِي (١)

إِذَا مَا رَأَتْ فِي مَجْلَسٍ مَنْ تَخَالَهُ
 وَغَنَّتْ عَلَى أَقْدَاحِهِ كُلِّ مَا اشْتَهَى
 وَتُومَى إِلَيْهِ اشْرَبِ الرَّطْلَ وَاسْقِنِي
 فَيَمْتَلِىَ الْمَغْرُورُ عِنْدَ مَقَالِهَا
 فَإِنْ جَاءَ وَقْتُ الْإِنْصِرَافِ تَحَازَنْتُ
 وَيَغْدُو إِلَيْهِ فِي الْفِرَاشِ رَسُولُهَا
 وَيَالَيْتَ شَعْرَى كَيْفَ بَتَّ فَإِنِّي
 فَلَا يَجِدُ الْمَغْرُورُ مِنْ دَفْعِ جَذْرِهَا
 وَيُسْرِعُ فِي إِتْيَانِهِ لِيُظْنُّهَا
 فَإِنْ هِيَ جَاءَتْ عَانَقَتْهُ وَقَبَّلَتْ
 وَتَخْدُمُهُ عَمْدًا فَإِنْ قَالَ إِنَّهُ
 تَقُولُ لَهُ ذَا الْبَيْتِ بَيْتِي وَإِنَّمَا
 فَتُصْبِحُ عَيْنِي بِالْوِصَالِ قَرِيرَةً
 فَذَا دَأْبُهَا حَتَّى يَعُودَ مِنْ الْهُوَى
 فَتَفْصِدُ لَا مِنْ حَاجَةٍ لِفَصَادِهَا
 فَمَنْ بَيْنَ خُلْخَالٍ يُصَاغُ وَخَاتَمٍ
 وَمِنْ ثَوْبٍ خَزَّ بَعْدَ وَشْيٍ وَمُلْحَمٍ
 وَيَالِكَ مِنْ مِسْكِ ذَكِيٍّ وَعَنْبَرٍ
 فَذَا فِعْلُهَا حَتَّى إِذَا عَادَ مُفْلِسًا
 فَقُولَا لِمَنْ يَهْوَى الْقِيَانَ تَفَهَّمَا

وبعد فهذه القصيدة غنية عن التعليق كل الغنى ومثيلاتها كثيرة بين أيدينا لكننا نكتفي بها .
 وإذن فطبيعي أن يكون هذا الغزل مطبوعاً بطابع الغريزة الجنسية اليقظة والحساسية الحيوانية المتوثبة .

وخودا أقبلت بالقصر سكرى ولكن زين السكر الوقار
 وهز المشى أردافاً ثقلاً وغصناً فيه رمان صغار

(١) أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء : الموشى أو الظرف والظرفاء ص ١١٩ - ١٢١ من طبعة الخانجي ١٩٥٣

وقد سَقَطَ الرِّدَا عَنْ مَنَكِبَيْهَا مِنْ التَّخْمِيشِ وَأُنْحَلَّ الإِزَارُ
فقلت : الوعد سيّدتي فقلت : كلامُ الليل يمحوه النهار ^(١)
ولأبي نواس :

ألا ربما زرت الملاح وربما لمست بكفى البنان المخضبا
ولمسلم بن الوليد :

فَقَطَّطْتُ رُمَّانَ الصُّدُورِ لِلذِّةِ وَلَمَسْتُ أُرْدافاً كَفَعَلِ اللاعِبِ ^(٢)
والقول :

إن المطية لا يلذ ركوبها حتى تذلل بالزّمام وتركبا
والحبّ ليس بنافع أربابه حتى يفصل بالنظام ويثقبا ^(٣)

العباس بن الأحنف ^(٤)

هو الشاعر العباسي الوحيد الذي وقف شعره على الغزل ولذا يقرنه كثيرون بجميل والمجنون ،
فلنلق نظرة عامة على شعر العباس غزل العصر .

كان يهوى فوزا جارية محمد بن منصور ثم اشتراها بعض البرامكة وحج بها ، فلما قدمت
قال العباس :

أَلَا قَدْ قَدِمْتُ فَوْزُ فَقَرْتُ عَيْنُ عَبَّاسِ
لَمَنْ بَشَّرَنِي الْبُشْرَى عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
وَيَا دِيبَاجَةَ الْحُسْنِ وَيَا رَائِحَةَ الْآسِ
يَلُومُونِي عَلَى الْحُبِّ وَمَا بِالْحُبِّ مِنْ بَاسِ ^(٥)

(١) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ٢٨٨

(٢) الديوان ص ١٨٧ من طبعة دار المعارف

(٣) الديوان ص ٣٠٥ بتحقيق الدكتور سامي الدهان من طبعة دار المعارف وصبح الأعشى ج ٢ ص ٣٠٥

(٤) العباس بن الأحنف عربي من بني حنيفة ، كان أباه يتزلون في خراسان واتصلوا بالعباسيين . راجع ترجمته في ابن
المعتر ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغاني ج ٨ ص ٣٠٩٨ من طبعة الشعب وتاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٢٧ وشذرات
الذهب ج ١ ص ٢٣٤

(٥) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٢ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٤ من طبعة الجوائب ١٢٩٨

أترى في هذا الشعر ظلاً لجميل . . . شتان ما هما ، وفي ذهابها للحج قال :

يارب رُدَّ عَلَيْنَا مَنْ كَانَ أَنْسَأَ وَزَيْنَا
مَنْ لَا نُسَرَّ بِعَيْشٍ حَتَّى يَكُونَ لَدَيْنَا
يَا مَنْ أَتَاحَ لِقَلْبِي هَوَاهُ شُؤماً وَحَيْنَا
مَازِلْتُ مُذْ غِبْتَ عَنِّي مَنْ أَسْخَنَ النَّاسَ عَيْنَا
مَا كَانَ حَجَّكَ عِنْدِي إِلَّا بَلَاءً عَلَيْنَا (١)

كلام مصنوع ولفظ مرصوص كما ترص حجارة البنيان .

وجه العباس رسولا إلى فوز فأخبره أنها تجد صداها وأنه رآها معصوبة الرأس ، فقال

العباس :

عَصَبْتُ رَأْسَهَا فَلَيْتَ صُدَاعاً قَدْ شَكَّتْهُ إِلَى كَانَ بَرَاسِي
ثُمَّ لَا تَشْتَكِي وَكَانَ لَهَا الْأَجْرُ رُ وَكُنْتُ السَّقَامَ عَنْهَا أَقَاسِي
ذَاكَ حَتَّى يَقُولَ لِي مَنْ رَأَى هَكَذَا يَفْعَلُ الْمُحِبُّ الْمُوَاسِي (٢)

ولست أعلق على هذه الأبيات فقد نطق البيت الأخير بزيف العاطفة وقال :

أما والذي أبلى المُحِبَّ وَزَادَنِي بَلَاءً لَقَدْ أَسْرَفْتُ فِي الظُّلْمِ وَالْهَجْرِ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا زَعَمْتَ أَتَيْتُهُ إِلَيْكَ فَقَامَ النَّائِحَاتُ عَلَى قَبْرِى
وَإِنْ كَانَ عُدُوَانًا عَلَى وَبَاطِلًا فَلَا مَتَّ حَتَّى تَسْهَرَى اللَّيْلَ مِنْ ذِكْرِى (٣)

ما هذه اللغة المخنثة « فقام النائحات على قبرى » ما كان لجميل ولا أمثاله من فتيان البادية

العربية وعشاقها أن يقول مثلى بل يقولون :

من حبها أتمنى أن يلاقينى من عند بلدتها ناع فينعاها
ومن يدرى ؟ ربما كان بينه وبينها علاقة أخرى هى علاقة الذكر بالأنثى لا علاقة الشاعر

بعروسه ، وإلا فكيف تفسر قوله :

هَزَنْتُ إِذْ رَأْتُ كَثِيباً مُعْنَى أَقْصَدْتُهُ الْخُطُوبُ فَهُوَ حَزِينٌ

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٣ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٣ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٤ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٣ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

(٣) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٥ من طبعة الشعب

هَزَيْتُ بِي وَنَلْتُ مَا شِئْتُ مِنْهَا يَالْقَوْمِ فَأَيْنَا الْمَغْبُونُ^(١)
وصاحبتنا فوز يظهر أنها كانت من طبقة مخصوصة من النساء يدل على ذلك شعر
صاحبها :

وَمُظْهَرَةٌ لِيَخْلُقَ اللَّهُ وَدًّا وَتَلْقَى بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ
أَتَيْتُ فُؤَادَهَا أَشْكُو إِلَيْهِ فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ
فِيَا مَنْ لَيْسَ يَكْفِيهِ مُحِبٌّ وَلَا أَلْفًا مُحِبٌّ كُلَّ عَامٍ
أَظُنُّكَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى فَهَمْ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ^(٢)
وقوله :

كَتَبْتُ تَلُومَ وَتَسْتَرِيبَ زِيَارَتِي وَتَقُولُ لَسْتُ لَنَا كَعَهْدِ الْعَاهِدِ
فَأَجَبْتُهَا وَدُمُوعُ عَيْنِي جَمَّةٌ تَجْرِي عَلَى الْخَدَّيْنِ غَيْرَ جَوَامِدِ
يَا فَوْزُ لَمْ أَهْجُرْكُمْ لِلْمَلَامَةِ مِنِّي وَلَا لِمَقَالِ وَاشٍ حَاسِدِ
لَكِنِّي جَرَّبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ لَا تَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ وَاحِدِ^(٣)
هؤلاء الجوارى بعثن روحا قويا جديدا في بغداد فتن به الناس أى فتون ، وحسبنا دليلا أن
شاعرا من الشعراء الذين رثوا بغداد بعد حريقها على يد الأتراك لم ينس البكاء على دار الرقيق
في بغداد :

فَأَيْنَ فَتْيَانٍ تَسْتَجِيبُ لِنَغْمِهَا إِذَا هُوَ لِبَاهَا حَنِينُ الْمَزَامِرِ
وختم بعض الشعراء رثاءه لبغداد بقوله :
ومهما أنس من شيء تولى فإني ذاكر دار الرقيق^(٤)

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٦ من طبعة الشعب والديوان ص ١٥٠ من طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٨ من طبعة الشعب والديوان ص ٥٤٢

(٣) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٤٧ من طبعة الشعب

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٩ من طبعة المطبعة البهية

الفنون الجديدة

الخمريات :

الخمريات من الفنون الجديدة في الشعر العباسي ، وإن كان الأمويون والجاهليون ذكروها ووصفوها ، ذلك لأن هؤلاء لم يصفوها لذاتها بل ووصفوها عرضا . أما العباسيون فوقفوا عليها قصائد كاملة وقصدوا إليها لذاتها .

وإذن أفلا يجوز أن نقارن بين ما قاله الشعراء الأمويون وما قاله الشعراء العباسيون في الخمر؟

بلى إنه ليجوز كما يجوز أن نقارن غزل جرير بغزل جميل .
لجرير قصائد في مدح الخلفاء سبعون أو ثمانون من أبياتها في الغزل وعشرة أو عشرون في المدح ، فهلا يجوز أن نقارن هذه الأبيات الثمانين بقصيدة لجميل أو لعمر بن أبي ربيعة خاصة بالغزل؟

وغزل الجاهليين ليس فنا مستقلا ، أفلا يجوز أن نقارن بين غزل الجاهليين وغزل الأمويين أو العباسيين ؟ يجوز بلا ريب ، وقد فعلناه .

لكن اعتراضا آخر قد يوجه ، فأنا إن قارنت خمريات أبي نواس بما سبقها خشيت أن يعترض علىّ بأن لأبي نواس ولعا خاصا بالخمر غريبا نطق به شعره ، فأنا مجيب بأن فيمن سبقه من فُتِن بالخمر افتتانه كالأعشى الذي قصد الرسول ليمدحه بقصيدة :

ألم تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا (١)
فلما اعترضه في طريقه من قال له إنه سيحرّم عليك الزنى والخمر ، أجاب : « أطيعه في الزنى ، أما الخمر فلا أستطيع » (٢) ورجع .

بقي اعتراض واحد أخشى أن يوجه ، فأنا مجيب عليه لأمضي في المقارنة مطمئنا .
قد يقال إن الأمويين والجاهليين لم يحبوا في ظل الحضارة والنعم فليس يمكن أن يكون

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢٤٥ من طبعة الشعب

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٤٦ من طبعة الشعب

وصفهم للخمر كوصف العباسيين . أجيب بأن من الجاهليين من عاش في الحضارة والترف ووصف الخمر . منهم من لم ير الصوف والوبر وحدهما ، بل عرف الدمقس أو الحرير كالمنخل الشكري الذي يقول :

ولقد دَخَلْتُ على الفَتَاة الخَدْرَ في اليَوْمِ المَطِيرِ
الكاعِبِ الحَسَناء تَرُ فُل في الدَّمَقْسِ وفي الحَرِيرِ^(١)
وما لي أتلَمِس مظاهر الترف ؟

لقد كان المنخل يعيش في الحيرة وينادم النعمان وأنت تعرف ما بلغت الحيرة إذ ذاك حتى قرنهما بعض ببغداد وحتى استباح بعض الباحثين القول بأن الحيرة بلغت ما لم تبلغه العواصم الكبرى في عصرنا هذا وهو قول فيه من الغلو والإسراف ما أنت به عليم . لكننا على كل حال نقول بلغت مبلغا من الحضارة والترف . ومن الشعراء الجاهليين من عاش في ظل الحضارة فاستطاع أن يشبه الحباب بالدركعدى ابن زيد :

وطفت فوقها فقايع كالدُّرِّ (م) صغار يثيرها التَّصْفِيقُ^(٢)
وهذا التشبيه الذي ألح عليه فيما بعد أبو نواس :
فما زالت مجالَ الشَّرْبِ حتى تَغَالَوْها وقالوا ما رَوينا
وإنا سوف تُدْرِكُنَا المَنَيا مُقَدَّرَةٌ لنا ومُقَدَّرِينَا^(٣)

خمريات الأمويين

أشهر من تغنى بالخمر في العصر الأموي الأخطل والوليد بن يزيد ، أما الأخطل شاعر القصر الأموي المتوج بالنار على رغم نصرانيته ، فقد كانت له على عبد الملك دالة حتى ليحكى أنه كان يدخل عليه ولحيته تنفض خمرا ، وقد طلب إليه عبد الملك أن يقلع عنها فأجاب « والله ما ملكك بالقياس إليها إلا مكتته من ماء الفرات » .

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨١٥٢ من طبعة الشعب

(٢) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٧٣ من الطبعة ١٢ بدار المعارف

(٣) البيتان من شعر عمرو بن كلثوم ، انظر : جمهرة أشعار العرب ص ٣٣٨ من طبعة دار نهضة مصر

والأخطل هو القائل :

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ أَبَدًا أَنَادِي كَمَثَلِ الْغَيْرِ «حَيٌّ عَلَى الْفَلَاحِ»
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمٍ الْأَضَاحِي
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ^(١)

وأول ما نلاحظه في خمريات الأخطل أنها وصف لأثر الخمر لا للخمر ، وقد ترى في خمرياته أبياتا متناثرة معدودة يصف فيها الخمر كقوله :

فَصَبُّوا عُقَارًا فِي إِنَاءٍ كَأَنَّهَا إِذَا لَمَحُوهَا جُدُوءٌ تَتَاكَلُ^(٢)

لكنه يقتصر على هذا البيت فنفسه في ذلك الميدان (ميدان الوصف) قصير جدا لأنه لا يجرى مع طبيعته فهو يتحول إلى طبيعته ويبدأ في وصف الخمر :

فَلَذْتُ لِمُرْتَاكِ وَطَابَتْ لَشَارِبٍ وَرَاجَعْنِي مِنْهَا مَرَّاحٍ وَأُخْبِلُ
فَمَا لَبْنَا نَشْوَةً لَحَقَتْ بَنَا تَوَابِعُهَا مِمَّا نَعْلُ وَنَهْلُ
تَدْبُ دَيْبًا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ دَيْبٌ نَمَالٍ فِي نَقَا يَتَهِيلُ
فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمَزَاجِهَا وَأَطِيبْ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تَقْتُلُ^(٣)

وانظر إلى هذه الصورة البديعة في وصف أثر الخمر (في وصف مخمور) .

صَرِيعٌ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ لَيْحِيًا وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَفْصِلٌ
نُهَادِيهِ أحيانًا وَحِينًا نَجْرُهُ وَمَا كَادَ إِلَّا بِالْحُشَاشَةِ يَعْقِلُ
إِذَا رَفَعُوا صَدْرًا تَحَامِلُ صَدْرُهُ وَآخِرُ مِمَّا نَالِ مِنْهَا مُحْمَلٌ^(٤)

الوليد بن يزيد :

الوليد شخصية فذة من بعض نواحيها ، ومن كل نواحيها .

كان الوليد ولي عهد يزيد بن عبد الملك فتوفى أبوه وهو غلام ونما الأمر لعنه هشام بن عبد الملك فوسوست له الأثرة بأن ينقل الملك لابنه ويهضم حق الوليد ، فاضطهده وحاربه

(١) الديوان ص ١٥٤

(٢) الديوان ص ٤

(٣) المرزباني : الموازنة بين أبي تمام والبحرئ ص ٨٥ من طبعة دار المعارف

(٤) الدكتور شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٧٤ من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٢

بكل سلاح مشروع وغير مشروع وأخذ يشنع عليه ويرميه بكل منقصة ، والوليد يعاني ما يعاني ويسكن همومه في المجون والشعر .

وأخبار الوليد أكثر من شعره وكلها طعن فيه مُر وقذف بالمنكر وإيهام بالكفر . ولنا عودة إليه بعد بيان مكانة الخمر عند الجاهليين .

الخمر عند الجاهليين

أخبار الجاهلية تدل على شيوع الخمر في الطبقات المختلفة ، ومن الشعراء من فتن بها فتونا كالأعشى الذي قصد الرسول ليمدحه ، وقد سبق أن عرّفنا بنخبره .

وإذا استثنينا معلقة عمرو بن كلثوم فلنا أن نعرف قصيدة جاهلية بدئت بذكر الخمر :
 ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
 مشعشة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
 تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا
 ترى اللحزَّ الشحيح إذا أُمرت عليه لماله فيها مهينا^(١)

وأحب أن نقف عند هذا البيت وقفة فنلاحظ أن هذا المعنى هو الذى طالما رددته الشعراء الجاهليون في الافتخار بإتلاف المال في الخمر كما في قول عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
 فإذا سكّرت فإننى مُستهلكٌ مالى وعرضى وافرٌ لم يُكلم
 وإذا صحتُ فما أقصّر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى^(٢)

وهو معنى شائع لم يذكر الشعراء الخمر إلا ذكروه ، وربما ذكروا الخمر ليدكروه ، على أن منهم من وصف الخمر وأوصفهم لها عدى بن زيد ، وسنحدثك عنه في موضع آخر . ومنهم من ذكر الندمان كعدى بن زيد :

وندامى لا يفرحون بما نا لُوا ولا يرهّبونَ صَرْفَ المُنون
 قد سَقِيتُ الشَّمُولَ فى دارِ بِشْرِ قَهْوَةً مُرَّةً بماءِ سَخِينِ^(٣)

(١) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٨٧ والبغدادى : خزائن الأدب ج ٢ ص ٣٢٤

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٣٣٤١ من طبعة الشعب

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٢١

وكالجدى :

تَذَكَّرْتُ وَالذُّكْرَى تَهِيْجُ عَلَى الْفَتَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْدِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرِ الْأَرْضِ مُقْفِرَا ^(١)
ولا يمكن أن يعتبر ذلك أصلاً لوصف يجالس الندمان في شعر مسلم أو أبي نواس ، ومهما
يكن فأغلب هذا الشعر الجاهلي في الخمر لا يزن شيئاً ، فهي أبيات ساذجة لا عمل فيها للعقل
أو الخيال .

الخمر في الشعر الجاهلي أغلبه أبيات غنائية قصد بها إلى الفخر - وقد ضربنا الأمثلة - أو
الحماس ، كقول عمرو بن كلثوم :

وَكَأْسٌ قَدْ شَرِبْتُ بِيَعْلَبِكَ وَأُخْرَى فِي دِمَشْقٍ وَقَاصِرِينَا ^(٢)
إِذَا صَمَدْتُ حُمَيَّاهَا أَرِيَا مِنَ الْفَتَيَانِ خِلْتُ بِهِ جُنُونَا ^(٣)
فالصورة التي يصوره بها المؤرخون من أقبح الصور وسيرته من أفحش السير ، وأبى الله إلا
أن ينصف الرجل ، وقد درجت القرون فنشر الدكتور طه حسين من حديث الأربعاء فصلاً من
خير فصوله يدافع عن الرجل وينصفه من التاريخ ^(٤) .

ونعود مرة أخرى إلى الوليد بن يزيد :

لم يكن الوليد كما يصورون ، لكن حزب هشام نسب إليه ما شاء له التعصب ثم كانت
الفتنة العباسية ، فأصبح بنو أمية جميعاً في رأى الخلفاء العباسيين وعامة الناس ومن يتملق
الخلفاء وعامة من العلماء والفقهاء - كفرة فجاراً وأصبح الوليد مثلاً لكفرهم وفجورهم
وكذلك يكتب التاريخ فَيُظَلَّمُ فيه ناس من الحق ألا يظلموا - كما يقول الأستاذ ، وقد
عصفت السياسة بشعر الوليد ، فلم يبق منه سوى أشات مبثرة هنا وهناك لا تنفع غلة
الباحث .

وكان هذا الشعر معروفاً شائعاً أيام الوليد يحدثنا بذلك صاحب الأغاني ، ويكتفى بهذا
الشيوع فلا يكلف نفسه عناء الرواية .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٩٠ بتحقيق أحمد شاكر

(٢) قاصرينا : بلد قرب بالس ، وبالس بلدة بالشام

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ من طبعة دار نهضة مصر

(٤) طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٢ من طبعة دار المعارف الثانية عشرة

ويحدثنا بذلك شعر الوليد :

شاع شعري في سليمي وظهر ورواه كل بدو وحضر
وتهادته الغواني بينها وتغنن به حتى انتشر^(١)
أما سليمي هذه فهي سلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان ، كان الوليد زوجا لأختها فعشق
سليمي وطلق زوجته فأشار هشام على أبيها ألا يزوجه سليمي ، فامتثل الرجل ، وندم الوليد
على طلاق الزوجة ، وكان الوليد يَحْتال على رؤية سليمي فيتنكر في ثياب الباعة .
وزفت إلى الوليد سليمي بعد موت هشام ولكنها ماتت بعد أربعين يوما من زفافها .
كان الوليد سيئ الطالع طول حياته ، فوجد في الشعر نديماً وفي الخمر سميماً وهو في
خمرياته كسائر شعره سهل لا أثر للتكلف فيه .
الرجل يقول الشعر لأنه يجد فيه عزاء وليس يعنيه أن يعجب الناس شعره فهو ولي
عهدهم ، ثم خليفتهم ، إنما كان يعنيه هذا العزاء ، كان يعنيه أن يشبع بشعره هواه ، فإنه يجد
فيه صدى لصوت روحه .

كان الوليد يأمر بالشراب فيشرب ، ثم يقول الشعر ثملاً ويسمعه من أفواه المغنين سكرانا :

عللاني واسقياني من شراب أصفهاني
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرمزان
إن بالكاس لمسكا أو بكفى من سقاني
إنما الكاس ربيع يتعاطى بالبنان
وحميا الكاس دبت بين رجلى ولساني^(٢)

أنا لا أعرف أطبع من هذا الشعر ولا أصلح للغناء :

ليت حظي اليوم من كل معاش لي وزاد
قهوة أبذل فيها طارفي ثم تِلَادِي
فيظل القلب منها هائما في كل واد
إن في ذاك صلاحى وفلاحى ورشادى^(٣)

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٢ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٥١٠ من طبعة الشعب و ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٥ .

ويقول :

أَدِرِ الكاسَ يميناً لا تُدِرْها لَيْسارَ
اسْقِ هذا ثم هذا صاحبَ العودِ النُّصارِ
من كُـمِيت عَتَّقوها منذُ دهرٍ في جرَّارِ
خَتَموها بالأفَاويدِ هـ وكافورٍ وقارِ
فلقد أيقنت أني غيرُ مبعوثٍ لنارِ (١)

ونقف عند البيت الأخير موقف الشك والتردد ، وينسب للوليد شعر كثير في الكفر وإنكار البعث ، ولا يسعنا إلا الوقوف عنده وقفة المستريب . رجل تحاول السياسة أن تحطمه بأى وسيلة ، ألا يجوز أن تنسب وتزور عليه الشعر ؟ ويقول المؤرخون إن الوليد ولى إمارة الحج في سنة من السنين ، فضرب على الكعبة قبة وأخذ الندامى يشربون فيها ويسمرون ، ويتهمون به بنكاح زوجات أبيه ، ويقول فيه بعض معاصريه :

يا وليد الخنا تركت الطريقاً واضحاً وارتكبت فجاً عميقاً
وتماذيت واعتديت وأسرفت وأغويت وانبعثت فسوقاً
أبداً هات ثم هات ثم هات ثم هاتى حتى تخر صعيقاً
أنت سكران ما تفيق فما تَرُّ تق فتقا وقد فتقت فتوقاً (٢)

أما أنه سكران ما يفيق فقد سلمنا به ، أما ما عداه فعلمه عند الديان . هذه الوصمات التى تنسب إلى الوليد بن يزيد وإلى محمد الأمين وإلى من لف لفهما من الملوك المغلوبين على أمرهم أغلبها اختلاق من خصومهم فى الهزيمة والموت . يجب أن ننظر إلى الإنسان الماضى ونفهمه على صورة الإنسان الحاضر . الإنسان فى كل زمان إمعة يتشيع للقوة .

لنعد إلى خمريات الوليد !

أحب أن نلاحظ أن هذه الخمريات مختلطة فى شعر الوليد بغيرها ، وكذلك سائر شعره

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٨٦ من طبعة الشعب والمعري : رسالة الغفران ص ١٤٥

(٢) الطيرى ج ٧ ص ٢٣٦ من الطبعة الثالثة بدار المعارف

سوانح متفرقة. انظر إلى هذه الأبيات :

عَلَّلَانِي بِعَاتِقَاتِ الْكُرُومِ وَاسْقِيَانِي بِكَأْسِ أُمِّ حَكِيمٍ ^(١)
 إِنِّهَا تَشْرَبُ الْمُدَامَةَ صِرْفًا فِي إِنَاءٍ مِنْ الرُّجَاجِ عَظِيمِ
 جَنَّبُونِي أَذَاةَ كُلِّ لَثِيمٍ إِنَّهُ مَا عَلِمْتُ شُرَّ نَدِيمِ
 ثُمَّ إِنْ كَانَ فِي النَّدَامَى كَرِيمٌ فَأَذِيقُوهُ مَسَّ بَعْضِ النَّعِيمِ
 لَيْتَ حَظِّي مِنَ النِّسَاءِ سَلِيمِي إِنْ سَلِمَايَ جَنَّتِي وَنَعِيمِي
 فَدَعُونِي مِنَ الْمَلَامَةِ فِيهَا إِنْ مِنْ لَامِنِي لَغَيْرِ رَحِيمٍ ^(٢)

وذكر الخمر والنديم وتشبب بسلمي في ستة أبيات : ذلك الرجل لا يصنع الشعر بل يلهو به لهما . شعر وجداني (غنائي) محض لا يعتمد على الفكر ، بحوره ملائمة للوضوح حسنة الاختيار ، وإهمال اللفظ .

هذه خصائص شعر الوليد !

لست أدري لم لا أذكر الوليد إلا ذكرت « موسى » إن بينهما تشابها شديدا . كان « موسى » يلهو بالشعر هو الوليد ، وإن كان كلاهما جادا ، وكان موسى نزقا منهمكا في اللذة وفاقه في ذلك الوليد لاختلاف ظروفهما .

خَذُوا مُلْكَكُمْ لَا ثَبْتَ لِلَّهِ مَلِكُمْ ثَبَاتًا يَسَاوِي مَا حَيَّتُ عِقَالَا
 دَعُوا لِي سَلِيمِي وَالنَّبِيدَ وَقِينَةَ وَكَأْسَا أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
 أَبَالُمُلْكَ أَرْجُو أَنْ أَخْلُدَ فِيكُمْ أَلَا رَبُّ مَلِكٍ قَدْ أَذَلَّ فِرَالَا ^(٣)

ومن يقرأ موسى يقرأ شاعرا يسكب قلبه في شعره بقوله الشعر ليفرج عن نفسه ، أما الفن الشعري فما خطر بباله الحرص عليه كالوليد يؤدي المعاني كما تخطر له دون عناية بالألفاظ ، فإذا أداها فهو لا يفكر في تحوير الألفاظ لأنه يرى فرقا بين الشعر والصناعة على هؤلاء « المصححين » شاعريتهم .

(١) أم حكيم كانت زوجة عبد العزيز بن عبد الملك ثم طلقها فتزوجها هشام بن عبد الملك وكانت منهومة بالشراب مدمنة عليه لا تكاد تفارقه وكأسها التي كانت تشرب فيها مشهورة عند الناس إلى اليوم .

(٢) الأغاني ج ١٧ ص ٦٠٩٤ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٥١٩ من طبعة الشعب وابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٥ من طبعة المطبعة الأزهرية ١٩٢٨ وأبو العلاء المعري : رسالة الغفران ص ٣٨٠ من طبعة دار المعارف وص ٢٣٧ من طبعة كامل كيلاني

Que Celui -la rature et barbouille à son aise. Il peut tant qu' il voudra à tour de bras... Grand homme si l'on veut, mais poète non pas.

موسيه كان لا يقول الشعر إلا إذا جاشت في صدره عاطفة واستخفه طرب وكذلك كان الوليد .

الفرنسيون يقولون عن موسيه إنه « طفل الشعر » وطفلنا نحن هو الوليد . وذلك شعر الوجدان الخالص :

علاني واسقياني من شراب أصفهاني
إن بالكاس لمسكاً أو بكفى من سقاني
إنما الكاس ربيع يتعاطى بالبنان
وحميا الكاس دبت بين رجلى ولساني

انظر إلى هذه الشاعرية « الكاس ربيع يتعاطى بالبنان » ثم ماذا ؟

وحميا الكاس دبت بين رجلى ولساني^(١)

خمريات العباسيين

أول من أغرق في وصف الخمر من العباسيين ابن عبد القدوس^(٢) وتبعه كثيرون ، أو قل تبعوا روح العصر الجديد ، لكن أحدا من الشعراء لم يسرف في حب الخمر بعد إسراف أبي نواس ، أليس هو القائل :

كأن قرقرة الإبريق بينهم رجع المزامير أو تغريد فأفاء^(٢)

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٥ من طبعة المطبعة الأزهرية بمصر ١٩٢٨
(٢) هو صالح بن عبد القدوس ، بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل وكان في أول نشأته يتردد على حلقات الوعاظ والمتكلمين ، ولم يلبث أن تشوش عقله بما كان يسمع في تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل ، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم . راجع ترجمته في : (المرتضى : الأمل ج ١ ص ١٤٤ من طبعة الحلبي) و (ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٠) و (أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ص ١٤٣ من طبعة أمين هندية) و (الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٠٣)

(٣) الديوان ص ٢٣٦ من طبعة مصر ١٨٩٨

وقوله :

أجل عن اللثيم الراح حتى كأن الروح تُعَصَّرُ عن عظامي ^(١)

وقوله :

طربت إلى قطربل فأتيتها بمال من البيض الصراح وعين ^(٢)
بيع ملابسه ليشرب الخمر :

ثمانين دينارا جياداً أعدّها فأنفقتها حتى شربتُ بدين
وبعت قيصا سابريا وجبة وبعت إزاراً معلّم الطرفين
يقول لي الخمار عند وداعه وقد ألبستني الخمر خف حنين
الأرْحُ بزین يوم رحت مودعا وقد رحت منه يوم رحت بشين ^(٣)
وقوله :

رُدُّوا على الكاس إنكما لا تدريان الكاس ما تجدى
خوفتاني الله جُهدكما وكخيفتيه رجاءه عندي
لا تعذلا في الراح إنكما لا تعلمان الراح ما تُسدى
لو نلتما ما نلت ما مزجت إلا بدمعكما من الوجد
ما مثل نعمها إذا اشتملت إلا اشتمال فم على خد
إن كنتما لا تشريان معاً خوف العقاب شربها وحدي ^(٤)
وهو أشهر وأحسن من وصف الخمر.

أبو نواس والسلف :

ليست معاني أبو نواس كلها مبتكرة ، كما يظن ، فكثير من معانيه مأخوذ عن القدماء ،
وهأنذا مورد لك الأمثلة :

-
- (١) الديوان ص ٢٠٣ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٢) الديوان ص ٢١١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٣) الديوان ص ٢١١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ
(٤) الديوان ص ١٥٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

- لفتيق المسك الفتيت إذا ما
وهو مأخوذ من قول الأخطل :
كأنها المسكُ نُهيَّيْنِ أَرْجُلِنَا
ويقول أبو نواس :
نسج العنكبوت بيتا عليَّها
ويقول :
لم تزل في قعر دن
والأصل في شعر الأخطل :
لها رِداءان نسجُ العنكبوتِ وَقَدْ
ويقول أبو نواس :
خطبنا إلى الدهقان بعض بناته
وما زال يغلى مهرها ويزيده
والأصل في شعر الأخطل :
عذراء لم يَجْتَلِ الخُطَّابُ بَهْجَتَهَا
إذا أقولُ تَراضِينَا على ثمن
وقوله :
ودم الشادن الذبيح وما تج
جلبت في الإناء منها ذكاء^(١)
فيما تَصَوَّعَ من نَاجُودِهَا^(٢) الجَارِي^(٣)
فعلى دِنِّهَا دقاق الغبار^(٤)
مشعرا زفتا وقارا^(٥)
حُفَّتْ بِآخِرٍ من لَيْفٍ ومن قَارٍ^(٦)
فزوجنا منهن في خدره الكبرى
إلى أن بلغنا غاية القصوى^(٧)
حتى اجْتَلَاهَا عِبَادِيَّ بَدِينَارٍ
ضَنَّتْ بِهَا نَفْسُ خَبِّ البَيْعِ مَكَّارٍ^(٨)
تلب الساقيات منها هواء^(٩)

(١) الديوان ص ١٢١ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ
(٢) كأسها وقيل الناجود أول ما يخرج من الخمر
(٣) الديوان ص ١١٩ من طبعة بيروت ١٨٩٨
(٤) الديوان ص ٢٨١ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٥) الديوان ص ٢٧٤ من طبعة مصر ١٨٩٨
(٦) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩١
(٧) الديوان ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ
(٨) الديوان ص ١١٧ ، ١١٨ من طبعة بيروت ١٨٦١
(٩) غير موجود بالديوان

وقوله :

- فقلت قُمْ واضْطَبِّحْ إِنْ كُنْتَ مَصْدَاحًا مِنْ قَهْوَةٍ كَدَمٍ أَوْ ضَوْءٍ مَصْبَاحٍ (١)
ويقول أبو نواس :
كَأَنَّهُا وَالْمَزَاجُ يَقْرَعُهَا فِي قَعْرِ كَأْسٍ نَجِيعٍ أَجْوَافٍ (٢)
ويتبعها الأعشى بقوله :
وَسَلَافَةٍ مِمَّا تُعْتَقُ بِأَبْلِ كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبَتِهَا جَرِيَالَهَا (٣)
ويقول أبو نواس :
وَاطْبُخِ الرِّيحَ بِشَمْسٍ فَكْفَى بِالشَّمْسِ نَارًا (٤)
ويقول الأخطل :
لَيْسَتْ بِسَوْدَاءَ مَنْ مِثَاءَ مَظْلَمَةٍ وَلَمْ تُعَذِّبْ بِإِنَاءٍ مِنَ النَّارِ (٥)
وتبعها الأقيشر بقوله :
وَصَهْبَاءُ جَرَجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفِ بِهَا حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْغْرِ بِهَا سَاعَةٌ قَدَرٍ (٦)
وقوله :
كَأَنَّهُا الشَّمْسُ إِذَا مَا صَفَتْ وَبَيْنَهَا الْكَبْشُ أَوْ الْحَوْتَ (٧)
ويقول أبو نواس :
أَشْمَسَا أُعْرَتْ الْأَنْسُ أَمْ هِيَ لَمْعَةٌ مِنَ الْبَرْقِ أَمْ أَقْبَلَتْ بِالْكَوْكَبِ السِّنْدِ (٨)
وقوله :
كَأَنَّمَا الْكَوْكَبُ الدَّرَى وَافْقَهَا فِي الْكَاسِ أَوْ جَمْرَةٍ مِنْ لَهَبِ النَّارِ (٨)

(١) الديوان ص ١٥١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٢) الديوان ص ٣٠٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ و ص ١٨٩ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٨١ من طبعة بيروت ١٩٦٤

(٤) الديوان ص ٢٨٥ من طبعة مصر ١٨٩٨ و ص ١٧٦ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩٨

(٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٦٢ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ١٥٧ من طبعة مصر ١٢٧٧ هـ

(٨) الديوان ص ١٧٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

ويقول الأخطل :

فَجَاءَ بِهَا كَأَنَّمَا فِي أَنَائِهِ بِهَا الْكُوكَبُ الْمُرِّيخُ تَصْفُو وَتُزِيدُ^(١)

ويقول أبو نواس :

إِذَا أَخَذْتُهَا الْكَاسَ حَارَتْ بِرِيحِهَا تَخَالُ بِهَا عَطْرًا وَمَا تَعْرِفُ الْعَطْرُ^(٢)

وقول الأخطل :

تَفُوحُ بِمَاءٍ يُشْبِهُ الطَّيْبَ طِيبُهُ إِذَا مَا تَعَاظَتْ كَأْسُهَا مِنْ يَدٍ يَدُ^(٣)

ومعان أخرى أخذها أبو نواس :

فَاشْرَبُ سُلَافًا كَعَيْنِ الدِّيكِ صَافِيَةً مِنْ كَفِّ سَاقِيَةِ كَالرِّيمِ حَوْرَاءَ^(٤)

وقول الأخطل :

وَكَأْسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ صِرْفُ تُنْسَى الشَّارِبِينَ لَهَا الْعَقُولَا^(٥)

وسبقها عدى بن زيد :

قَدِّمْتَهُ عَلَى عُقَارِ كَعَيْنِ الدِّيكِ لَكَ صَفَى سُلَافِهَا الرَّأْوُوقُ^(٦)

ويقول أبو نواس :

ذَهَبِيَّةٌ تَخْتَالُ فِي أَلْوَانِهَا كَالدُّرِّ أَلْفَهُ نِظَامُ الْفَاتِقِ^(٧)

وقوله :

تَفْتَرُ فِي الْكَأْسِ حِينَ تَمْزِجُهَا بِمَاءٍ مِزْنٍ عَنْ دُرٍّ أَصْدَافٍ

مَنْتَظِمٌ وَغَيْرَ مَنْتَظِمٍ تَفُورُ فِيهَا وَبَعْضُهَا طَافِي^(٨)

ويقول عدى بن زيد :

وَطَفْتُ فَوْقَهَا فِقَاقِيعَ كَالدُّرِّ (م) صِغَارُ يَشِيرُهَا التَّصْفِيقُ^(٩)

(١) الديوان ص ٣٢١ من طبعة بيروت ١٨٩٨ (٢) الديوان ص ١٢٥ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٣) الديوان ص ٣٢١ من طبعة بيروت ١٨٨٨

(٤) الديوان ص ٣٤ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٥) الأغاني ج ٨ ص ٣٠٤٢ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٧١ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٦) الأغاني ج ٦ ص ٢١٥٧ من طبعة الشعب

(٧) الديوان ص ١٩١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٨) الديوان ص ١٨٩ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٩) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٧٣ من الطبعة ١٢ بدار المعارف

ويقول أبو نواس :

كَأَنَّ صَغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دَرِ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ (١)

وقول يزيد بن معاوية :

إِذَا مَا طَفَى فِيهَا الْحَبَابُ حَسْبَتِهَا كَوَاكِبُ دَرِ فِي سَمَاءٍ عَقِيقِ

ويقول أبو نواس :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ فِيهَا رَوَاكِدُ أَقْنَى عَلَى التَّأْلِيفِ آنَسَهَا الْبَدْرُ (٢)

وقول الحسين بن الضحاك :

كَأَنَّمَا نُضِبَ كَاسُهُ قَرُّ يَكْرَعُ فِي بَعْضِ أَنْجَمِ الْفَلَكَ (٣)

معان عامة بسطها أبو نواس :

تشبيه الخمر بالعدراء :

قال أبو نواس :

فَقُلْتُ لِشَيْخٍ مِنْهُمْ مَتَكَلِّمْ لَهْ دِينَ قَسِيسٍ وَفِي نَظْقِهِ كَفَرِ أَعْنَدَكَ بِكْرٌ مَرَّةً الطَّعْمُ قَرَقَقِ طَبِيعَةُ دَهْقَانٍ تَرَاخَى لَهُ الْعَمَرُ فَقَالَ عَرُوسُ كَأَنَّ كَسْرَى رِيْبَهَا مَعْتَقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسِّرُّ (٤)

وقوله :

فَإِنِّي خَاطَبْتُ مَلِيحَ إِلَيْهَا ذُو وَشَاحٍ مَوْزَرَ بِإِزَارِ نَقْدَ الْمَهْرِ ثُمَّ زَفْتُ إِلَيْهِ فِي سَرَاوِيلِهَا وَفِي الزَّنَارِ (٥)

وقوله :

إِنِّي بَذَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ صَاعًا مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتَ مَائِقِبَا فَاسْتَوْحِشْتُ وَبَكَتْ فِي الدَّنِّ قَائِلَةً يَا أُمِّ وَيْحَكَ اخْشَى النَّارَ وَاللَّهْبَا قُلْنَا لَهَا لَا تَخَافِي عِنْدَنَا أَحَدًا قَالَتْ وَلَا الشَّمْسُ قُلْتَ الْحَرُّ قَدْ ذَهَبَا

(١) الديوان ص ٢٤٣ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر ١٨٩٨

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٥٩٥ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٢٨٠ من طبعة مصر .

(٥) الديوان ص ٢٨١

قالت فمن خاطبي هذا فقلت أنا
 قالت لقاحي؟ فقلت الثلج أبرده
 قلت القناني والأقداح ولدها
 وقوله :

عنت في الدن حتى شمطت من غير شعر
 ففتحنا الخدر يوما وأبوها ليس يدرى
 فبدت تسعى إلينا عانسا من خوف عذرى
 فخلونا بعروس بيننا في الكاس تجرى
 تلك هي في حياتي يا خليلي يا ابن بشر^(٢)
 وغير ذلك .

وقد سبقه إلى ذلك المعنى بشار :

حُبِسْتُ للسَّراةِ في يَتِّ رأس عُنْتُ عانساً عليها الخِتَامُ^(٣)
 أما أصل هذا التشبيه فهو قول الوليد بن يزيد :

أشهى إلى الشَّربِ يوم جَلَّوتها من الفتاة الكريمة النَّسبِ^(٤)
 وهو تشبيه غريب ، وما وجه الشبه بين العذراء والحمراء ؟

وقفت عند هذه التشبيهات حائرا حتى فسرها لي قول أبي نواس في إحدى خمرياته :

وقهوة كالعقيق صافية يطيرُ من كأسها لها شرُّ
 زَوْجَتِها الماء حتى تَذِلُّ له فامْتَعَصَتْ حين مَسَّها الذَّكْرُ^(٥)

والمعنى واضح ، والخمر « تنفر » من الماء أول مرة :

بين المدام وبين الماء شحنة تتقد غيظا إذا ما مسَّها الماء^(٦)

(١) الديوان ص ٢٧٤

(٢) الديوان ص ١٨١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) الأغاني ج ٣ ص ١٠٨١ من طبعة الشعب

(٤) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٥٩ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٦٧٣ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٦) ديوان أبي نواس ص ١٢٣ من طبع حجر ١٢٧٧ هـ

قدم الخمر :

يتفنن في ذلك أبو نواس فيقول :

دهرية قد مضت شببتها واستنشقتها سواف الحقب (١)

وقوله :

عمرت يكاتمك الزمان حديثها حتى إذا بلغ السامة باحا (٢)

وقوله :

أدركت موسى بن عمرا ن على العهد ونوحا (٣)

وقوله :

قهوة حمراء حقا غرست أزمان نوح (٤)

وقوله :

فقلت لها كسرى حواك فعبست
سمعت بذي القرنين قبل خروجه
وقالت لقد قصرت في قلة الصبر
وأدركت موسى قبل صاحبه الخضر (٥)

وقوله :

فجاء بها قد أنهك العمر جسمها
فقلنا لها لما أضاء سناؤها
أبيني لنا يا خمر كم لك حجة
شهدت ثمودا حين حلّ بها البلا
وأوجعها في الصيف حر الهواجر
على صحن كأس قد علا الكف زاهر
فقلت لحاك الله لست بذاكر
وأدركت أياما لعمر بن عامر (٦)

(١) الديوان ص ١٣٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٢) الديوان ص ١٤٥ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) الديوان ص ١٥١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٤) الديوان ص ١٤٧ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) الديوان ص ١٧١ - ١٧٢ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٦) الديوان ص ١٧٤ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

وقوله :

فقلت لها من تذكرين فلم تزل
حَلَفْتُ ونوح في السفينة لم يكن
تعدد أنسابا وقالت على الذكر
وآدم من قبل الخطيئة في شهر^(١)
وقوله :

ذخيرة نوح فيها الزمان الذي اجتنى
وقوله :

نبئت أن أبا جدى تخيرها
من ذخّر آدم أو من ذخّر حواء^(٢)
..... إلخ إلخ

وليس ذلك الوصف بالقدم جديدا في خمريات، ألى نواس فقد سبقه الوليد :
من قهوة زانها تقادّمها
فهي عجوز تعلو على الحقب^(٤)
وسبقها الأخطل :

كُتِّمَتْ ثلاثة أحوالٍ بِطِيبَتِهَا
حتى إذا صرّحت من بعد تهذار^(٥)

تخيل الخمر :

ومانحة شرابها المُلْكَ قهوة
سبقة إليه الأخطل :

إذا شرب الفتى منها ثلاثاً
وقوله :

إذا ما نديى علّنى ثُبَّ علّنى
ثلاث زجّاتٍ لهنّ هديرٌ

(١) الديوان ص ١٧٩ من طبعة حجر ١٢١٧هـ

(٢) الديوان ص ١٩٢ من طبعة حجر ١٢٧٧هـ

(٣) الديوان ص ١٢٥ من طبعة حجر ١٢٧٧هـ

(٤) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٥٩ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ١١٧ من طبعة بيروت ١٨٩١

(٦) لمسلم بن الوليد ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٣٦ من طبعة دار المعارف

(٧) الديوان ص ٣٧١ من طبعة بيروت ١٨٩١

خرجت أجرُ الذَّيْلِ خلفي كأنني عليك أميرَ المؤمنينَ أميرُ^(١)
وسبقها حسان :

ونَشَرُهَا فَتَشْرِكُنَا مُلُوكًا وأَسَدًا ما يُنْهِنُهَا اللقاءُ^(٢)
وسبقهم جميعا المنخل اليشكري :

فإذا سكرت فاني رَبُّ الخَوَرْتِ والسَّدير
وإذا صَحَوْتُ فإني رَبُّ الشَّوْهَةِ والبَعير^(٣)

هل جدد في الخمريات شيئاً ؟

رأيت كيف سلخ أبو نواس تشبيهات القدماء ، وإذا كان كل ذلك مسخا وفسخا فهل
جرد الخمر في خمرياته شيئاً ؟
بعض تشبيهات جديدة :

كأنها دمة في عين غادية مرهء رقرقها ذكر المصيبات^(٤)
وقوله :

فجاءت كالدموع صفاء وحسنا كمثل الدرع في صافي الرخام^(٥)
ولم أر من شبه صفاء الخمر بالدمعة قبل أبي نواس :

فتنفس في الكاس إذ مزجت كتنفس الریحان في الأنف^(٦)

وهو يشبه رائحة الخمر حين مزجها بورقة الورد عند التنفس ، ويكمل إذ الخمر من لون
الورد ، وهو تشبيه بديع ، والخيال فيه موج .

فإذا علاها الماء ألبسها حبياً شبيه جلاجل الحجل
حتى إذا سكنت جوامحها كُتِبَتْ بمثل أكارع النمل
سَطْرَيْن من شتى ومجتمع غُفْل عن الإعجام والشكل^(٧)

(١) الديوان ص ١٥٤ من طبعة بيروت ١٨٩١ (٣) الأغاني ج ٢٣ ص ٨١٥٢ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ١١ من طبعة مطبعة السعادة (٤) الديوان ص ١٤٠ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) الديوان ص ٢٠٢ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٦) الديوان ص ١٨٨ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٧) ديوان أبي نواس ص ١٩٤ من طبعة حجر - مصر ١٢٧٧ هـ

ولم أر من شبه الخمر بالسطور ، وهو تشبيه ما كان للأقدمين أن يستنبطوه لأنهم كانوا وأغلبهم أميين ، فمن أين يعرفون الإعجام والشكل .

لها من المزج في كاساتها حديق ترنو إلى شرها من بعد إغضاء^(١)

أثر الفلسفة اليونانية :

١ - شيوع اصطلاحات علمية :

أنت من دونها الأيام حتى تعادم جسمها واللون باق^(٢)
وقوله :

قامت ترين وأمر الليل مجتمع صبحا « تولد » بين الماء والذهب^(٣)
وسنوضح ذلك عندما نحدثك عن الفروق الفنية في العصرين عامة .
بل أسماء أعلام يونانية كذكره لجالينوس الطبيب اليوناني :
مما اقتنى جالينوس للملك الهندى قد أنفذت له الصبرا^(٤)

٢ - الاستقصاء :

فهو ، كما رأيت ، يذكر تشبيها : أباه وأمه ، عمرها ، لونها ، فورانها ، حبابها ،
بريقها ، صوتها عند المزج ، أثرها ، وقد تجتمع هذه الأوصاف كلها في قصيدة واحدة .
هذا الاستقصاء لا نشك أنه من خصائص الشعر العباسى الجديدة ، ولا نشك في أنه من
آثار الفلسفة اليونانية وتعاليمها .

٣ - وصف مجالس الخمر :

كثر وصف الشعراء لمجالس الخمر في ذلك العصر ، كقول أبي نواس :
أقننا حلبة اللهو فأجريننا بها كاسا

(١) لأبي نواس : الديوان ص ١٢٧ من طبعة حجر - مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) لأبي نواس : الديوان ص ١٩٠ من طبعة حجر - مصر ١٢٧٧ هـ

(٣) لأبي نواس : الديوان ص ١٣٣ من طبعة حجر - مصر ١٢٧٧ هـ

(٤) لأبي نواس : الديوان ص ١٨٠ من طبعة حجر - مصر ١٢٧٧ هـ

وأنشأنا به من طر ف الريحان أجناسا
 بميدان جعلنا خي له طاسا وأكواسا
 بكى وانتحب العود وأبدى الدف وسواسا
 وقام الناي يشكو بث ما لاقى وما قاسى
 وصاح الصبح حتى أخذ رَسَ الندمان إخراسا
 إلخ^(١)

وقول صريع الغواني :

وسادة سراة ما فيهم مسود
 بان السّفاهُ عنهم فرأيهم سديد
 يسقون صفو راح لذيذها موجود
 كانت بعهد نوح وهم لها جنود
 حتى إذا أبيدوا أوراها ثم سود
 من عمل النصارى لم تغذها اليهود
 وعندنا غزال بطرفه يصيد
 فلم يزل يسقينا وعيشنا رغيد
 مدامة لها من جدودنا توريد
 كأن شاريها في سوقهم قيود
 في مجلس نصير زيّنهُ الشهود
 وعندهم دفاف وزامر وعود
 حتى انتشوا وقاموا مجلسهم محمود
 هذا الخلود عندى لو دام لى الخلود^(٢)

وقوله :

ظللنا نناغى الخلد فى مشرع الصبا علينا سماء العيش دائمة الهطل

(١) الديوان ص ١٨٤ - ١٨٥ من طبعة حجر مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) الديوان ص ٢٩ - ٣١ من طبعة مصر ١٩٠٧

ودارت علينا الكأس من كف طفلة مبتلة حوراء كالرشا الطفل
 وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عطل
 تُصاحكه طورا وتبكيه تارة خدلجة هيفاء ذات شوى عبل
 وأسعدها المزمар يَشْدُو كأنه حكى نائحات بتن يبكين من ثكل
 غدونا على اللذات نجنى ثمارها ورحنا حميدى العيش متفقى الشكل^(١)

ويصف هذه المجالس فى قصيدة أخرى ، فيقول :

ومهذبين أكارم لأكارم أدباء حازوا نجدة وكمالا
 ثاروا إلى صفق الشمول فأشعلوا نيران حرب كأسها إشعالا
 بوأتهم غرفا جعلت ترابها مدر العبير وعنبراً قسطالا^(٢)
 فهل وصف الأمويون مجالس الخمر؟

لم يصفوها ! وذلك طبيعى لأن الشعراء لم يعرفوا مجالس الخمر . سيد هشك هذا القول لأن الخلفاء جميعا إذا استثنينا عمرا الثانى وهشاما ويزيد الثالث ، كانوا يشربون الخمر ، وكانوا يشربون بإفراط ويجلسون إلى المجالس .

يصف المؤرخون هذه المجالس فيقولون مثلا : إن الستائر الرقيقة كانت تعلق فى وسط البهو لتحجب الملك عن الندمان والمغنين ، وكان فى بيوت العظماء شئ من ذلك ، لكن مجالس الخمر هذه لم توصف فى العصر الأموى لأن الشعراء لم يكونوا بدمشق بل كانوا فى العراق والحجاز والبادية ، كما تعرف .

وإذن فيذكر الوليد بن يزيد قائلا : لم لم يصف المجلس شاعر كهذا ، ليله ونهاره هو وقصف؟

فالجواب أن الوليد ، كما قلنا ، لم يكن ينظم الشعر للناس بل كان ينظمه لنفسه . على أن الوليد له بعض أبيات فى الندمان ، ولا يمكن أن تعتبر أصلا لوصف مجالس الخمر فى العصر العباسى .

(١) الديوان ص ٦٥ من طبعة مصر ١٩٠٧

(٢) الديوان ص ٩٣ من طبعة مصر ١٩٠٧

العلمانيات

تطور الفكر البشرى فى أواخر القرن الماضى تطوراً كبيراً ، وكان من آثار تطوره اتجاه العلماء فى أواخر القرن الماضى إلى بحث حقائق الحياة البشرية فى جو من الحرية الجريئة السافرة . ولعل لمباحث علم الإنسان . Anthropology أثراً كبيراً فى ذلك التطور . من ذلك أنا أصبحنا نجد للمباحث التناسلية مكاناً ظاهراً بين دائرة المعارف البشرية ، وزعيم هؤلاء الذين تناولوا تلك المباحث هو فرود Freud فقد سلك سبيلاً جريئاً أسخط عليه أوساطاً مختلفة ، وعدّه أيضاً « حرية البحث » إماماً . ومهما يكن فقد وضع « فرود » الحجر الأساسى فى بناء هذه الأبحاث ، وتوصل إلى نتائج هامة حتى عدّه أنصاره جباراً من جبابرة الفكر فى هذه العصور . ويكفى أن نقرأ مقدمة مباحثه (Introduction to Psycho Analyses) وهى كتاب متوسط الحجم لرى فى أى جويبحث هذا الرجل .

ومن تناول هذه المباحث غير فرود ، دوجال M.C. Dogal فى كتابه :

Elles : Psychology of sex Outline of abnormal Psychology Social Psychology
Paul Bousfield⁽¹⁾ : Sex & Civilisation, J. Jenebaum: The Riddle of Sex.

وتناولت هذه المباحث فيما تناولته الاتصال الجنسى الشاذ ، وعقدت له فصولاً مستقلة وأفردت له كتباً برمتها .

وفى سبيل هذا البحث المدعم ببعض ما كتب فى هذا الموضوع⁽²⁾ أقول إن المختصين فى التناسليات متناقضون فيه تناقضاً شديداً ، ولكل حججه المدعمة بالبراهين وبالتجارب ، ولا أستطيع تلخيص هذه الآراء وعرض الحجج حرصاً على البقاء فى منطقة البحث ، غير أن

(١) واشترك الجنس النسوى فى هذه الأبحاث ، وكتبت الدكتورة ماري ستوبس كتاباً جريئاً فى كل ما يتناول العلاقة الزوجية ، وقد طبع ست عشرة مرة

(٢) ولو شئت لهوت على نفسى الأمر وقلت ما قاله « الرجل الطيب » جورجى زيدان : « إن غلة انتشار هذه الرذيلة هو المسكر الذى زين لهم مالم يعصمهم علمهم ولا أدبهم ولا مقامهم فى الدولة عن ارتكابها » .

ذلك ليس يمنع من الإشارة إلى جوهر الخلاف حرصاً على جلاء «البحث». هذه الظاهرة غريزة أصيلة في الإنسان تبعثها الظروف أهي غريزة تورث كما تورث الصفات والماديات من الآباء أم عادة؟ ذلك جوهر الخلاف.

أما الرأي الأول فأهم حججه أن في الإنسان مناطق شهوية أربعة يشترك الرجل والمرأة في اثنين منها : الدبر والفم ، ولهم حجج مختلفة ، وهو رأي باطل ، يرد عليه مخالفوه بأدلة علمية تهدمه هدمًا ، إلا أنني أحرص على البقاء في منطقة البحث كما قدمت .

والرأي الثاني يقول على قانون العادة القائل بأن تكرار شيء يحوله إلى غريزة *Habit is secret nature* إلى سلالة تنقل الصفات النفسية والأشياء المادية ، فهي غريزة في هذه السلالة ، أوهى على الأقل استعداد بالطبع ، وما الغرائز إلا ميول مورثة . أما عن تحول العادة إلى غريزة فيعتمدون على الطب ، ويقولون إن الخلايا العصبية في جسم الإنسان تنقسم إلى مورده ومصدره ورابطة ، وأن كل نوع من هذه الخلايا يتفق في أشياء ثلاثة هي الجنس^(١) والتوصيل^(٢) والتغير^(٣) ، فكلها تنفعل ثم توصل هذا الانفعال الواقع على جزء منها إلى سائر الأجزاء . وهكذا تتأثر الخلايا جميعاً بهذا السير ، وتضعف مقاومة الأصل ، وتكرار «عمل ما» يصبح التيار العصبي شديد الميل إلى الانحراف إلى هذا الطريق المعين ، ويقولون إن هذا الانحراف يسهل كلما كانت الغريزة الجديدة التي أنشأتها العادة متعا بغريزة أخرى ، فإذا ما انحرفت اكتسبت من الغريزة الأصلية قوة دافعة . وفي التجربة الأولى يقاوم «الوصل» التيار العصبي مقاومة شديدة جداً ، وفي العملية الثانية يقاوم مقاومة شديدة وفي الثالثة يقاوم مقاومة أضعف ، وهكذا يقولون إن كل عمل يخلف في الجهاز العصبي أثراً ما . فإذا تكرر فإن العمل يصبح لا شعورياً يتم كما تتم الغريزة الأولى .

وهذا «اللاشعور» هو الذي يحول العادة إلى غريزة ، وقد تطغى الغريزة الجديدة على الغريزة الأولى الأصلية فتقتلها قتلاً إذا ما قوى سلطانها بتكرارها وتعطيل الغريزة الأولى ، وقد تسير معها جنباً إلى جنب إذا استخدمت الغريزتان ، وقد تُضعف الثانية الأولى إذا قل استخدامها .

أما الرأي الثالث فيقول ببساطة : إن من غرائز الإنسان الأولى «غريزة التجريب» وهي

ميل نظري أى تقليب الأمور على وجوهها المختلفة ، أما أنا فمقتنع بالرأى الثانى وآمل أن تكون متفقاً معى برغم هذه الخلاصة الموجزة .

وعلى أساس هذا الاقتناع أقول : إن الأمر « غريزة عند الفرس »^(١) ، وما ظنك بقوم اشتهر هذا عنهم منذ ألفى سنة ونيف ، لقد أحلها نبيهم « مانى » منذ ألف سنة ونيف^(٢) وتحليل « مانى » لها دليل على أنها أقدم من « مانى » فما الشرائع الوضعية إلا من روح المجتمع ، بل إن الشرائع السماوية لتحسب لذلك حساباً ، ثم لا يزالون مشتهرين به فى أيامنا هذه ، وعندى هو تعليل الغلانيات فى الشعر العباسى .

أبو نواس من الشعراء المولدين الذين ورثوا دماء فارسية تغزلوا بالغلان وأنشئوا هذا الفن لأنهم يحبون بطبعهم ، بغريزتهم ، الغلان - وليس يجوز أن يحتج علينا بشيوع هذه العادة فى عرب صميمين ، نحن نعرف أن البحترى تغزل بنسيم وشقران وشهدان ، ونعرف أن أول شعر البحترى فيما يزعمون بيتان فى شقران :

نَبَتَتْ لِحْيَةُ شُقْرَا نَ شَقِيقِ النَّفْسِ بَعْدَى
حُلِقتْ كَيْفَ أَتَتْهُ قَبْلَ أَنْ يَنْجِزَ وَعْدَى^(٣)
ونعرف أنه ملأ الدنيا غزلاً بنسيم .

ونعرف غير البحترى ، ونعرف أن بعض الخلفاء « العرب الخالصى العروبة » كان متهماً بعلاقات كهذه ولا نميل إلى تبرئته ، ولكن ذلك نتيجة محتومة لاختلاط العرب بالفرس ، فإن شئت فقل امتزاجهم ، والاستهواء غريزة فى الجماعة ، أى أن بين العضو وبين المجموع نوعاً من الجذب والتأثير ، فالفرد مؤثر فى الجماعة ، والجماعة مؤثرة فيه ولولا هذا الاستهواء الخارجى Hetero Suggestion ما عرفت البيئة بل لكانت كل جماعة أغصانا متفرقة ليس يجمعها طبيعة وليس يوحدتها جذع ولولا ما استطاع مصلح أن ييث فى الجماعة فضيلة ولا استطاع صاحب رذيلة نشرها ، فالفضيلة والرذيلة إيجاء قبل أن تكونا طبيعين .

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٠٧

(٢) يحكى أنه حل قضاء الشهوة فى الغلان إن اهتمجت على الإنسان ، ويستشهد على ذلك باختصاص كل واحد من المانية بخادم يخدمه أمرأه . وفى التاريخ القديم أن أبرويز ملك الفرس أهدى إلى يوريس ملك الروم مائة من أجمل غلمان الترك وفى آذانهم أقراط من لؤلؤ ودر وذهب .

(٣) الأغاني ج ٢٤ ص ٨٢٠٧ من طبعة الشعب والديوان ص ٦٨٧ من طبعة دار المعارف والصولى : أخبار البحترى ص ٥٨ من طبعة لجنة التأليف

شاع « الأمر » في العصر العباسي شيوعاً غريباً وتواردوا الغزل الفاضح بالغلام في شعر أغلب الشعراء ، ومن خلا شعره من هذا الغزل لم تخل أخباره من الغلانيات .
أما هؤلاء الغلمان فأغلبهم كانوا أرقاء بالشراء والأسر وهم من جنسيات مختلفة ، فرس وخراسانيون وروم وصقالبة وترك ، وأغلبهم كان يسقى الخمر وكانت أثمانهم تتفاوت تفاوتاً كبيراً يتراوح بين أربعة آلاف دينار وستة آلاف وظهور هؤلاء الغلمان سافرين في بغداد مظهر يتفق وشيوع هذا الميل العام .

لو شئت أن تلثمني والناس حولي حلق
لقام لا تمنعه أبصارهم والحدق^(١)

وأول ما يحبه الباحث ويلفت نظره أن هذه اللوطية طمعت في البيت المالك نفسه وحامت حول الخلافة ، فالتاريخ يحدثك بأن الأمين كان باهر الجمال ، في خلقه خورولين ، وأن الرشيد أباه كان يخشى عليه من ذلك الجمال ، فعين نفر من الرقباء والحراس له ، وأن حماد عجرد يريد منه مأرباً وأنه اتهم « قطرب » مؤدب الأمين بشيء من ذلك ، فكتب رقعة إلى الرشيد يقول فيها :

قل للإمام جراك الله صالحة لاتجمع الدهر بين السخل والذئب
السخل غير وهم الذئب فرصته والذئب يعلم ما في السخل من طيب^(١)

فعزل الرشيد المؤدب وأبعده :

وأبو نواس يطمع في تقبيل الأمين فيرجو أستاذة الكسائي أن يكون واسطة « خير » في هذه القبلية ، فيتخرج من ذلك الكسائي ويهدده أبو نواس أن يتهمه لدى الرشيد بأنه يريد بتلميذه الأمين أمراً ليخاف الكسائي ويقول له « سأنكشف لك ، غب عنا أياماً ، ثم احضر كأنك قادم من غيبة ، فأسلم عليك وأعانقك فيفعل كذلك الأمين وتبلغ حاجتك فكان لأبي نواس ما أراد ، وفي ذلك يقول :

قد أحدث الناس ظرفاً يعلو على كل ظرف
كانوا إذا ما تلاقوا تصافحوا بالأكف

(١) لأبي نواس : الديوان ص ٢٥٩ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٥٢٠٨ من طبعة الشعب

فَأَحْدَثُوا الْيَوْمَ رَشْفَ الْخُدُودِ وَالرَّشْفُ يَشْفِي^(١)

ولما استخلف الأمين حشد قصره بالخصيان^(٢)

ومن الصعب أن نتكهن بوظيفة هؤلاء الخصيان عند العرب في العصور القديمة وكل ما نقوله أننا نرجح أن العرب أخذوا هذه العادة عن اليونان ، ونظن أن العرب فعلوا ذلك . والشائع أن المأمون أول من جمع في قصره الخصيان ، وليس كذلك ، ففي الأغاني أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى والي المدينة يقول : اخص من قبلك من الفتية المختشين ، ويقول صاحب « ألف باء » ذكر ثابت في الدلائل أول من اتخذ الخصيان من بني أمية هشام بن عبد الملك ويقول فون كرامر Von Kramer إن أول من استخدم الخصيان هو الوليد الثاني . والروايتان غير صحيحتين لأننا نرى ذكرا لحديج خصي كان في خدمة معاوية .

غير أن الأمين أفرط بلا ريب في اقتنائهم . ويظهر أنه كان يميل إلى الغلمان الخصيان ميلا خاصا . وفيه وفي خصيانه يقول بعض الشعراء موجهها الخطاب إلى الرشيد :

ألا يأمُرُ مِنِ المَثْوَى بطوس	غريباً ما يفادى بالثُّفُوسِ
لقد أبقيت للخصيان بعلا	تحملُ منهم شَوْمَ البَسُوسِ
فأما نوفلُ فالشأنُ فيه	وفي بدرٍ فيالك من جليس
وما للمعصمى شيءٌ لديه	إذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير أخسُّ حالا	لديه عند مخترق الكئوس
لهم من عمره شطر وشر	يعاقر فيه شرب الخندريس
ومالغانيات لديه حظ	سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيا	فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس	لعر على المقيم بدار طوس ^(٣)

وفيه يقول آخر :

صَيَّرَ الْخِصْيَانَ حَتَّى صَيَّرَ التَّعْنِينَ دِينَا

(١) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ١٦٢

(٢) أقدم من خصي الآشوريون والبابليون والفراعنة ، وعندهم أخذ هذه العادة اليونان ومن اليونان انتشرت في بلاد العالم . وكان الخصاء في سني الطفولة الأولى .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٠٨ من الطبعة الثانية بدار المعارف

فاقتدى الناس جميعا بأُمير المؤمنين^(١)
وقال بعض الشعراء معرضا بالأمين :
أضاع الخلافة غش الوزير وحمق الأمير وجهل المشير
لواطُ الخليفة أعجوبة وأعجبُ منه خلاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ كذاك لعمري اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك لكانا بعرضة أمر ستير
فشنعَ فعلاهما منها وصارا خلافاً كبول البعير
وأعجب من ذا وذا أننا نباع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يُحسنُ غسل استيه ولم يخلُ من بؤله حجر ظير^(٢)
وكان في خدمة المتوكل^(٣) غلمان اشتهر منهم شفيع ، وكتب على عاتق قبائه الأيمن :
بدر على غصن نصير شرق التراب بالعبير
وعلى الأيسر :

خطت صحيفة وجهه في صفحة القمر المنير

أول من تغزل بالغلمان من الشعراء حماد عجرد^(٤) ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وتبعهم
الشعراء وربما كان أشهر من هؤلاء والبة بن الحباب^(٥) وأبو نواس ، وكان ثانيهما صغيرا عندما
تعرف به أستاذه والبة ونشأت بين الاثنين صداقة متهمة . ووالبة جرىء في غلانياته ، مكشوف
الألفاظ :

قُلْتُ لِسَاقِينَا عَلَى خَلْوَةٍ أَذُنُ كَذَا رَأْسُكَ مِنْ رَاسِيَا

(١) المصدر السابق ج ٨ ص ٢٥٧

(٢) راجع القصيدة في الطبرى حوادث ١٩٥ هـ ج ٨ ص ٣٩٦ من الطبعة الثانية

(٣) اتهم هو والأمين بالأبنة

(٤) عاش في العصر الأموي وكان نديما للوليد بن يزيد ، وتوفي سنة ٦١ هـ على أرجح الأقوال وكان يهوى غلاما اسمه
أبو بشير . (ترجمته في الأغاني ج ١٤ ص ٥١٩٤ والشعر والشعراء ص ٧٧٩ - ٧٨١) و (طبقات الشعراء لابن المعتز ص
٦٩ - ٧٢) و (معجم الأدباء ج ١٠ ص ٢٤٩ - ٢٥٤) و (وفيات الأعيان ص ٢٩٤ - ٢٩٦)

(٥) والبة بن الحباب كوفي من شعراء الدولة العباسية ، وهو أستاذ أبي نواس (ترجمته في الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٦٣
من طبقة الشعب وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٨٧ - ٨٩)

وَنَمَّ عَلَى جَنَبِكَ لِي سَاعَةً إِنِّي امْرُؤٌ أَنْكَحَ جُلَاسِيَا^(١)
وَأَجْرًا مِنْهُ وَأَكْثَرَ غَزَلًا تَلْمِيزُهُ أَبُو نَوَاسَ :

حَتَّى إِذَا أَلْقَى قَنَاعَ الْحَيَا وَدَارَ كَسَرَ النُّومِ فِي مَقْلَتِهِ
سَرَتْ حَمِيَا الْكَاسِ فِي رَأْسِهِ وَدَبَّتِ الْخَمْرَةُ فِي وَجْنَتِهِ
مَلَّكْنِي حَلَّ سِرَاوِيلِهِ إِذْ شَغَلَتْهُ الرَّاحُ عَنْ تِكَّتِهِ
فَصَارَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَكَانَ لَا يَأْذُنُ فِي قَبْلَتِهِ
دَبَّ لَهُ إِبْلِيسُ وَاقْتَادَهُ وَالشَّيْخُ نَفَاعٌ عَلَى لَعْنَتِهِ
عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تَيْهِهِ وَخَبِثَ مَا أَضْمَرَ مِنْ نَيْتِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ وَصَارَ قَوَادًا لَذَرِيَّتِهِ^(٢)

والغريب في هذا الرجل أن ينصب نفسه أستاذًا وإمامًا للناس في كل شيء فهو لا يكتفي بالتغزل بالغلماں بل يعلن دائمًا أنه يفضل الغلام على المرأة ويحرص على هذا الإعلان :
ولو أنها في الحُسْنِ كانت كَيُوسُفَ وَبَلْقِيسَ أَوْ كَانَتْ كَخَطِّ مِثَالِ
وَقَالَتْ تَزَوَّجْنِي عَلَى مَهْرٍ دَرَاهِمٍ لَقُلْتُ اعْزِزِي عَنِّي فَهَرُكُ غَالِ^(٣)
ويقول :

مَنْ كَانَ تُعْجِبُهُ الْأُنْثَى وَيُعْجِبُهَا مِنْ الرِّجَالِ فَإِنِّي شَفَنِي الذَّكَرُ
فَوْقَ الْخُمَاسِيِّ لَمَّا طَرَّ شَارِبُهُ رَخَّصُ الْبَنَانِ خَلَا مِنْ جِلْدِهِ الشَّعْرُ
لَمْ يُجَفَّ مِنْ كِبَرٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ وَلَا أُرَى بِهِ صِغَرُ^(٤)
ويقول :

أَنَا امْرُؤٌ أَبْغِضُ النَّعَاجَ وَقَدْ يُعْجِبُنِي مِنْ نَتَاجِهَا الْحَمَلُ
مَنْ عَذَبَ اللَّهَ بِالزَّيْنِ فَأَنَا لَانَاقَةٍ لِي فِيهَا وَلَا جَمَلُ
يُعْجِبُنِي الْأَمْرُدُ الطَّرِيرُ إِذَا أَبْصَرْتُهُ أَهِيْفَا لَهُ كَفَلُ^(٥)

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٦٨٦٤ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٢٣١ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٣) الديوان ص ٣١٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) الديوان ص ٢٤٣ من طبعة حجر ١٢٧٧ هـ

(٥) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ١٠٥

ويقول :

أأختار البحار على البرارى وأحيانا على ظبي الفلاة
دعيني لاتلوميني فإني على ما تكهين إلى المات
بذا أوصى كتابُ الله فينا بتفضيل البنين على البنات^(١)

ويقول :

وليس لي في الحر حاجة نيكه عندي لجاجة
ما يُريدُ الحر إلا كلُّ ذى فقر وحاجة
أدخِلوا بالله ياقو م مكان الأيسر ساجة
وإذا نكثتم فنيكوا أمرداً في لَوْن عَاجَه^(٢)

وحدث أن تزوج أبو نواس بجميلة فأمسى معها ليلة ، فلما أصبح طلقها وقال :

صاحبة القرقر لاتشغبي تحملي طالقـة واذهي
مرى فكم مثلك من حرة رائعة لم تك من مطلبي
لا أبتغى بالطمث مطمومة ولا أبيع الظبي بالأرنب
أولا فإن كنت غلامية من شرط مثلي فردى مشرى^(٣)

وأبو تمام ليس أقل غزلا بالغلان من أصحابه :

ظبي من الترك من هندی ناظره في كل جارحة منا جراحات

وقوله :

أشكو إلى ردفه المرتج لو سمعت شكوى الغريق من الأرداف أمواج
وهو تلميذ أبي نواس في هذا المجون ، ألا ترى في هذه الأبيات تقليدا لأبي نواس ظاهرا حتى
في بعض الألفاظ :

أبا علىٌ لصرف الدهر والغير وللحوادث والأيام والعبير^(٤)

(١) الديوان ص ٧١٥ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالي ١٩٥٣

(٢) ابن منظور : مختار الأغاني ج ٣ ص ٦٢

(٣) أبو هفان : أخبار أبي نواس بتحقيق عبد الستار فراج

(٤) حكايتها أنه كان يعشق غلاما خزريا للحسن بن وهب وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبي تمام فرآه أبو تمام يعبث

بغلام له . (الأغاني ج ١٧ ص ٦٢٤٧ من طبعة الشعب) .

أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ لَمْ يَحْظِ الْمَغِيبُ بِهَا وَأَنْتَ مُضْطَرَبُ الْأَحْشَاءِ لِلْقَمَرِ
 إِنْ أَنْتَ لَمْ تَتْرَكِ السَّيْرَ الْحَثِيثَ إِلَى جَاذِرِ الرُّومِ أَعَنَقْنَا إِلَى الْخَزَرِ
 إِنْ الْقَطُوبَ لَهُ مِنِّي مَحَلُّ هَوَى يَحُلُّ مِنِّي مَحَلَّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
 وَرُبَّ أَمْنَعٍ مِنْهُ جَانِبًا وَحِمَى وَتَكْتُهُ مِنِّي عَلَى خَطَرِ
 جَرَدْتُ فِيهِ جُنُودَ الْعَزْمِ فَاُنْكَشَفَتْ مِنْهُ غَيَابَتُهَا عَنْ نَبْكَةِ هَدَرِ
 سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحْتَهُ كُلُّ جَارِحَةٍ مَا فِيكَ مِنْ طَمَحَانَ الْأَيْرِ وَالنَّظَرِ
 أَنْتَ الْمُقِيمُ فَمَا تَعْدُو رَوَاحِلُهُ وَأَيْرُهُ أَبَدًا مِنْهُ عَلَى سَفَرٍ^(١)

وبالجملة فقد حل الغزل بالغلان في هذا العصر محل الغزل بالمرأة ، وقد شد مسلم بن الوليد فخلا ديوانه من الغلانيات ، ومع ذلك فأبو الفرج يحدثنا أنه كان يجتمع هو وأبو نواس ودعبل وأبو الشيص عند إسماعيل القراطيسي فيأتيهم بالخمير والغلان والقيان . ونحن لانميل إلى تبرئة مسلم برغم نقاء شعره ، ونميل إلى رواية الأغاني ، ونحن نعرف أنه عندما كبر استحي من شعره الماجن فألقاه في اليم ونحسب أن غلامياته كانت من نصيب اليم ، أو أنه كان يشترك مع أصحابه فيكتفي بالفعل تاركاً لهم القول ، وذلك من المحتمل جداً ، فسلم فيما بين أيدينا من شعره رجل عف المقال ، ويظهر أن الاستحياء كان من طبعه ، وليس بين المجون والاستحياء تناقض ، أفلا نعرف بين أصحابنا مجانا لا ينطقون بالفحش ولا يتحدثون إلى الناس إلا في العلم أو الأدب أو السياسة أو السباحة ؟ . يلوح لنا أن مسلماً كان من هؤلاء . وشارح ديوانه المطبوع في ليدن يقول تعليقا على قول مسلم :

نَهَضْتُ إِلَيْهِ فَقَبَّلْتُهُ وَعَانَقْتُهُ وَحَلَلْتُ الْإِزَارَ^(٢)

هذا البيت إن كان مروياً هكذا صحيحاً فلم يقله مسلم ، وإن كانت روايته « وتركت الإزارا » فهو له .

لا ! لا ! إنما كان مسلم كأصحابه مهتكا ، كان مسلم كأبي نواس إلا أن مسلماً كان رجلاً حياً ، وأبو نواس كان رجلاً خشن الوجه سافراً .

لغير واحد من رجال الدولة في الغلانيات شعر كالحسن بن وهب عاشق سعيد ، وسليمان

(١) الأغاني ج ١٧ ص ٦٢٤٧ - ٦٢٤٨ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٥٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١٥٢ من طبعة بريل ١٨٧٥ م

ابن وهب عاشق إبراهيم بن ميمون ، ويحيى بن أكرم قاضي المسلمين ، ومن شعره في غلام كان يكتب بين يديه وقبل هذا الغلام الحسن بن وهب^(١) ولاعب خذّه فغضب الغلام وألقى القلم وانتضى :

أياقراً خَمَشْتَه فتغضبنا وأصْبَحَ لى من تيهه متجنبنا
إذا كنت للتَّخْمِيش والعَضْ كارهاً فكن أبدا يا سيدى متنبهاً
ولا تظهر الأصدَاغَ للناس فِتْنَةً وتجعل منها فوق خديك عقربا
فَتَقْتُلْ مِسْكِيناً وتفتن ناسكاً وتترك قاضى المسلمين مُعَذِّباً^(٢)

ومن الغلانيات ما كان يغنى به في ذلك العصر ، فمن ذلك لحن لمشدود :
لما استقل بأرداف تجاذبه وأنخضر فوق حجاب الدر شاربه
وتم في الحسن والتأمت محاسنه ومازجت بدعاءيها غرائبه
وأشرق الورد في نسرين وجته واهتر أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه^(٣)
ولحن لديس أوله :

بدر من الأنس حفته كواكبه قد لاح عارضه واخضر شاربه^(٤)
ويخيل إلى أن إقراء قول على بن الجهم وقد بعث به إلى قينة :
دعى الهجر لا أسمع به منك إنما سألتك أمراً ليس يُعْرِى لكم ظهراً^(٥)
أقول : يخيل إلى أن الأمر قد اختلط إلى حد وجب معه البيان والإيضاح .

قبل العصر العباسى :

وليس بين الشعراء من عرف عنه شيء من ذلك خلا الأحوص ، ففي الأغاني : قال

(١) أخبار تهتكه في الأغاني وزهر الآداب

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٠ من طبعة بولاق

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١١٣ - ١١٤ من طبعة المطبعة الأزهرية

(٤) أما غلمان ذلك العصر فأغلبهم من سقاة الخمر ومن الغلمان من كان يتربياً بزي النساء تجملاً والغناء في العقد الفريد

ج ٤ ص ١١٤

(٥) الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٧٤ من طبعة الشعب

أبو عبيدة «كان سبب نفي الأحوص أن شهوداً شهدوا عليه أنه قال : « لا أبالي أى الثلاثة أكون ناكحاً أو منكوحاً أو زانياً »^(١) وفي الأغاني وخزانة الأدب أنه راود بعض وصفاء الوليد ابن عبد الملك ، فأرسل به الوليد إلى ابن حزم وإلى المدينة وأمره أن يجلد مائة جلدة ويصب على رأسه زيتاً^(٢) .

ونحن نشك في هذا الاتهام للأحوص لاتعصبا لأحد بل لأن الرجل أدلى في السياسة بدلوه ، وطلما زورت هذه السياسة على الناس الاتهام الباطل .
وفي القاموس المحيط مادة (هيت) « هيت مخنث نفاه النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة » وهيت كما ترى بعيد عن الأسماء العربية .

وفي الأغاني في أخبار طويس المغني مولى بني مخزوم أنه « أول من ألقى الخنث بالمدينة » ويقول صاحب الأغاني^(٣) أنه « أول من غنى بالعزى بالمدينة وكان ينقر الدف » ، وكان ظريفاً يضحك الثكلى ، وكان مع هذا مخنثاً « ما وضع شيء إلا خنثته »^(٤) .

قال عبد الله بن جعفر لجاعة من أصحابه وهم في الخلاء والسماء تمطر « ليس معنا جنة نستجن بها ، وهذه سماء أخشى أن تبل ثيابنا فهل لكم في منزل طويس فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدثنا ويضحكنا . فقال له عبد الرحمن بن حسان : جعلت فداك وما تريد من طويس - عليه غضب الله ! مخنث شائن لمن عرفه . فقال له عبد الله : لا تقل ذلك ، فإنه مليح خفيف لنا فيه أنس »^(٥) ولقى طويس يزيد بن بكر بن دأب اللثي وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان فدعاها إلى منزله ، فقال سعيد : أين نذهب مع هذا المخنث^(٦)

وفي الأغاني ذكر لخنث يقال له « هيت » من موالى عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي^(٧) والذي نستطيع استنتاجه من هذه الأخبار أن هذا الخنث كان غالباً في بعض الموالى ، وأرى أن هذه الأخبار في العصر الأموي أو قبله نادرة جداً .

ليس من شك لدى ، في أن هذا اللواط أثر من آثار الفرس في العصر العباسي . ولولا

(٥) الأغاني ج ٣ ص ٨٧٨ من طبعة الشعب

(٦) الأغاني ج ٣ ص ٨٧٩ من طبعة الشعب

(٧) الأغاني ج ٣ ص ٨٧٦ من طبعة الشعب

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٤٤٧ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٤٥٠ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٨٧٣ من طبعة الشعب

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٨٧٥ من طبعة الشعب .

الفرس لما سرى هذا الداء إلى العرب ، لأن العرب قوم بدويون ، والبداءة تتلاءم هي والفطرة ، ولا شك .

إن نظرة إلى تاريخ هذا الأمر ومنشئه تنبئنا أنه كان شائعا في المدنيات القديمة ، وقد ظهر على أرجح الأقوال في أواسط آسيا وانتقل إلى جزيرة كريت ، والميثولوجيا اليونانية تعطينا أمثلة من هذا الاتصال الجنسي بين الآلهة . وفي إسبانيا كان هذا الاتصال محرما على العبيد وكانوا يعاقبونهم عليه لأنه كان معتبرا نوعا عاليا من أنواع اللذة لا يجوز للعبيد أن يستمتعوا بها . وفي كريت كان يجوز للرجل أن يتزوج بـ غلام في حفل رسمي حاشد^(١) وكان ينظر إلى الشاب الذي تعدى سن المراهقة ، ولما يرتبط بـ غلام ، كما ينظر إلى العانس التي تعدت السن الصالح للزواج .

واتهم أرسطو بتلميذه أفلاطون كما هو مشهور ، وكان سقراط يخص بحبه شابا فاتنا اسمه Alaliades وكانت تتحرق غيرة خطيبة سقراط . «Anjippe» وعلى أنه كان يحب معاشرة الغلمان عامة ، وقد سئل في ذلك فأجابهم متفلسفا «أفعل ما يفعل مروضو الخيل عندما يروضون المهر !» أما القرن الرابع فإن القرامطة كانوا يعبدون غلاما اسمه «ابن أبي زكريا الطمامي» وكان فاجرا يؤجر نفسه ، وسن لهم قوانين عدة منها : الفجور بالغلمان على ألا يفرط في الإيلاج ، ومن أفرط في ذلك جر على وجهه أربعين ذراعا ، ومن امتنع من الغلمان ذبح علنا عند القصاب وأمرهم بلعنة الأنبياء وأوليائهم .

وهذا المنكر منتشر اليوم في ألمانيا وإنجلترا واليونان انتشارا فاحشا ، وتسرب إلى فرنسا أخيراً ، وقطع شوطاً بعيداً ، ويكفي دليلاً أن اسم أبي نواس شائع يعرفه أبناء المقاهي البلدية في مصر ، أتظنهم يعرفون أبا العلاء أو أبا الطيب ؟ .

أما اليونان فكانوا ينظرون إلى هذا الاتصال الشاذ كمظهر من مظاهر إتلاف القوة والجمال في الشباب .

ومن اتهم بشيء من ذلك نابليون وفكتور هيغو وأوسكار وايلد وغيرهم من المشاهير ، ولاحظ بعضهم شيوع هذه المظاهر بين الفنانين والشعراء والمغنين ورجال الموسيقى خاصة ، والذي يعيننا أن هذا الشذوذ لا يمكن أن ينتج من البادية الخشنة الفطرية ، إنما نشأ هذا الخنث بين أحضان النعيم والترف .

الزهد

علل غيرنا من الباحثين في بحث خاص بأبي العتاهية نشأة فن الزهد في الشعر العباسي بقسوة الخلفاء وفضاعتهم ، ولا نرى ذلك رأيا .

والحق أن السياسة الأموية اشتملت على فظائع كثيرة ، ومع ذلك فلم ينشأ في ظلها قوة الزهد ، حسبنا أن نذكر الفظائع التي حدثت في عهد الطغاة من عمال الدولة كزياد وعبيد الله ، ولقد قتل في عهد الحجاج فيما يقول المؤرخون مائة وعشرون ألف رجل وكان في السجون يوم مات خمسون ألف رجل . ومن هذه الفظائع التي تنسب إلى الحجاج أنه بعد هزيمة ابن الأشعث كان لا يقبل البيعة ممن أقر على نفسه بأنه بخروجه قد كفر ، وقد امتنع شيخ طاعن في السن عن الاعتراف فهو عليه الحجاج إلى غير ذلك من الفظائع الشهيرة ، حتى إن بعض معاصريه قال فيه :

إذا ما بدا الحجاج للناس أطرقوا وأسكت منهم كل من كان ينطق
فما هو إلا بائل من مخافة وآخر منهم ظلّ بالريق يشرق
وطارت قلوب الناس شرقا ومغربا فما الناس إلا مهجس وملقلق

ونستطيع أن نقرأ شعرا فزع فيه الشعراء إلى الخلفاء من العمال ، فترى كيف أن هؤلاء كانوا يضربون الناس بالسياط ، ويستترزون منهم المال ، حتى كان الرجل منهم لا يجد ما يعينه على الرحيل إلى الخليفة لتقديم ظلامته :

أخذوا حَمُولَتَهُ وأصبح قاعداً لا يستطيع عن الديار حويلا
يدعُو أمير المؤمنين ودُونَهُ خَرَقُ تجرُّ به الرياح ذيولا

ثم هذا الصراع المجنون بين الأحزاب السياسية في العصر الأموي الذي راح ضحيته الكثير ، أليس من شأنه أن يولد في النفوس هذه العوامل التي تنتج الزهد ، لو صح ما ذهب إليه صاحب أبي العتاهية في تعليل نشأة فن الزهد ؟ لقد استعملت في هذا الصراع مختلف النصال بلا تفريق بينها ، فالأمويون في سبيل تدعيم سلطانهم شؤوا بالنيران من امتدت إليه

يدهم من الشيعة ومزقوا أوصالهم ، ومنهم من ضرب حتى انبترت منه أعضاؤه ومنهم من قذف من علو شاهق ، كما يقذف الشيء .

والزبيريون ارتكبوا من المنكرات ماتأباه أول مبادئ الإنسانية ، فمن ذلك ما فعله مصعب ابن الزبير ، فإنه بعد أن انتصر على المختار ، وقتل المختار بعث إلى امرأته فقال لها : ماتقولان في المختار ؟ قالت الأولى : أقول ماتقولون ، فخلى سبيلها . وسئلت الأخرى ، وهى بنت النعمان ابن بشير الأنصارى ، فقالت : « رحمه الله ! إنه كان عبدا من عباد الله الصالحين » فأمر مصعب بأن تضرب بحد السيف على مرأى من الناس فضربت ثلاث ضربات ثم سقطت تتخبط في دمه ، وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة شعرا منه :

إِنْ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ عِنْدِي قَتَلَ بِيضَاءَ حَرَّةٍ عُطْبُولِ
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرُّ الذُّيُولِ^(١)

ويقول سعيد بن عبد الرحمن بن ثابت :

فَلا هَنَاتُ آلِ الزَّبِيرِ مَعِيشَةً وَذَاقُوا لِبَاسَ الذِّلِّ وَالْخَوْفِ وَالْحَرْبِ
كَأَنَّهُمْ إِذَا أُبْرَزَوْهَا وَقَطَعَتْ بِأَسْيَافِهِمْ فَازَوْا بِمَمْلَكَةِ الْعَرَبِ

ولقد كدنا نستطرد في فظائع العهد الأموى ومذابجه فتمسك أنفسنا عن الاسترسال ونقول مباشرة إنه لو سلمنا بأن العهد العباسى كان أفضح وأنكى من العهد الأموى فليس تعليلا صحيحا لنشأة الزهد ، وعندنا أن السياسة القاسية لا تحوّل الناس إلى الزهد ولا تصرفهم إلى الدين إنما ينشأ الزهد في نفوس هادئة مطمئنة سكن روعها ، فأخذت تفكر في هذا الكون وتتأمل . تفكر وتتأمل كما يفكر ويتأمل الفيلسوف . ينشأ الزهد في نفوس هادئة ليس لها من ظروف الحياة ما يثقلها ويرهقها ، وتنصرف إلى التفكير في الدين وفي المصير .

يظهر لى أن الزهد أثر من آثار الفرس ، وأنت تعرف كيف شحن تاريخهم القديم بأخبار النحل المتزهدة ، ثم هذه المذاهب الدينية المتعارضة في العصر العباسى ثم « التوليد » ذلك التوليد الذى أعتقد أن من نتائجه المباشرة هذا المزاج السوداوى ويتمثل هذا المزاج في قول سعيد بن وهب :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ فَتَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا

نَرْمُقُهَا مِنْ كَثْبِ حَسْرَةٍ كَأَنَّا لَفْظُ بَلَا مَعْنَى (١)

وزعيم هذا النوع في الشعر العربي هو أبو العتاهية (٢) وشعره أقرب إلى النظم التعليمي منه إلى أى شىء آخر ، والمحور الذى يدور عليه زهد أبى العتاهية هو «القناعة» وله أرجوزة في الحكم قيل إنها بلغت أربعة آلاف بيت متضمنة مختلف الأمثال ، ولا شك في أن أغلبها مقتبس من الشعر الفارسي ، وبعض حكمه مقتبس من الأحاديث النبوية كقوله :

أَلَا إِنَّمَا مَالِي الَّذِي أَنَا مُنْفِقٌ وَلَيْسَ لِي مَالٌ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ (٣)

وقوله :

إِذَا كُنْتُ ذَا مَالٍ فَبَادِرْ بِهِ الَّذِي يَحِقُّ وَإِلَّا اسْتَهْلَكْتُهُ هَوَالِكُهُ (٤)

والمعنى مأخوذ بلا ريب من الحديث الشريف «إن مالك من مالك ما أكلته فأفنيته أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيته» .

وَإِذَا امْرَأُ لَدَغَتْهُ أَفْعَى مَرَّةً تَرَكْتَهُ حِينَ يُجَرُّ حَبْلٌ يَفْرَقُ

مقتبس من الحديث الشريف «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»

وليس شعره كله في الزهد بل له شعر في الغزل والمجون ، ويحدثنا المنصور أنه كان يجتمع وأبو نواس ومن إليهما من الشعراء المجان يقضون الليل مع غلام أو قينة أو على شراب ولهم في ذلك مساجلات كثيرة ، ثم نسك وزهد .

وليس هذا الفن مقصوراً على أبى العتاهية ، فمن الشعراء الزهاد في هذا العصر صالح بن عبد القدوس (٥) ، القائل :

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨٠٣٨ من طبعة الشعب

(٢) هو مولى واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ومنشؤه بالكوفة وكان في أول أمره يتخبث ويحمل زمالة المخنثين ولد في عين التمر بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ هـ وكان أبوه نبطياً من موالى بنى عترة (ترجمته في الأغاني ج ٤ ص ١٢١٥ وج ١٥ ص ٥٦١١ من طبعة الشعب والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وتاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٠ وابن خلكان . وفيات الأعيان وزهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٤ ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٤٠ ، ٢٧٤ - ٣٥٨)

(٣) الديوان ص ١٩١ من طبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٨٨٧

(٤) الديوان ص ١٩١

(٥) صالح بن عبد القدوس بصرى من موالى الأزدي ، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل . راجع ترجمته في ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٦ وابن شاعر الكتيبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٩١ وتاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٠٣ وابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٦ ص ٣٧١ وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٠ وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٤٤ من طبعة الحلبي

أنستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي فطاب الأنس لي وصفا السرورُ
وأدبني الزمانُ فلا أبالي بأني لا أزارُ ولا أזורُ
ولست بسائلٍ ما عشت يوماً أسارَ الجندُ أم ركب الأمير^(١)
والغريب في هذا الزاهد أنه أول من أسهب في وصف الخمر ، ولأبي نواس طائفة من
الشعر في الزهد منها :

ألرب وجه في التراب عتيق ويارب حُسن في التراب رقيق
ويارب حزم في التراب ونجدة ويارب رأي في التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك داخل إلى منزل نائي المحل سحيق
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا ليب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق^(٢)

(١) بهاء الدين العاملي : الكشكول ج ١ ص ١١ بتحقيق طاهر أحمد الزواوي من طبعة الحلبي (والصفدي : نكت
الهميان في نكت العميان ص ١٧١ من طبعة مصر ١٩١١) .
(٢) الديوان ص ٦٢١ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالي ١٩٥٣ .

النظم

١ - النظم التعليمي

ظهر هذا الفن الجديد في العصر العباسي الأول وزعيمه أبان بن عبد الحميد اللاحقي^(١) شاعر البرامكة المقدم ، والذي جعلوا إليه امتحان الشعراء .

عنى بنقل الكتب المنتورة إلى الشعر المزدوج والمسمط ، وإلى الرجز نقل كتاب كلية ودمنة ، وقد ضاع هذا الكتاب ، وأول مقدمته :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كلية ودمنة
فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله^(٢)
وعدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا .

وقد أثبت الصولي في كتابه «الأوراق» باب الأسد والثور ، وأوله :

وإن من كان دنىء النفس يرضى من الأرفع بالأخس
كمثل الكلب الشقيء البائس يفرح بالعظم العتيق اليابس
وإن أهل الفضل لا يرضيهم شيء إذا ما كان لا يعينهم
كالأسد الذي يصيد الأرنب الخ^(٣)
فاقرأه في الأوراق .

(١) أبان بن عبد الحميد اللاحقي من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء وسرعان ما اصطدم بالمعدّل بن غيلان واستطار بينهما الشر ، ونرى المعدّل في هجائه يتهمه بأنه مانوي زنديق ، وهي تهمة ظلت عالقة به ، مما يدل على أن لها أساسا في حياته كما أن الجاحظ لا ينفى عنها بل يثبتها ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئا من العكوف على اللهو والمجون . (راجع ترجمته في الأغاني ص ٩٣٠٩ من طبعة الشعب والصولي : الأوراق - قسم أخبار الشعراء من طبعة الصاوي ، وابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٠٢ والجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢١١ وتاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٤ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٦٧)

(٢) ابن منظور : مختار الأغاني ج ١ ص ٥٠٣

(٣) الأوراق للصولي ص ٤٨ من طبعة الخانجي ١٩٣٤

ويقول ابن النديم^(١) إنه نقل إلى الشعر العربي من كتب الفرس كتاب المزهرو كتاب سيرة أردشير ، وكتاب سيرة أنوشروان وكتاب «بلوهر» وكتاب «بروانيه» وكتاب حكم الهند ، وكتاب رسائل وكتاب السندباد وكتاب مزدك .
وله قصيدة في الصوم والزكاة ، أولها :

« هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع » وهي طويلة جدا . وذكر ابن النديم أن له كتابا في الصوم والزكاة ، فلهذه القصيدة المنظومة .
وله منظومة كبيرة في وصف الهوى وضروبه والعشاق وأحوالهم ، وكلها من بحر واحد لكنها غير مقيدة بقافية ولا روى ، إنما قيد نفسه بذلك في شطري البيت الواحد ، وأولها :

ما بال أهل الأدب منا وأهل الكتب
ومنها :

وحالفوا السهادا	وخالفوا	الرقادا
فليلهم طويل	ونومهم	قليل
أبدانهم نحيلة	متعبة	عليلة
نفوسهم حزينة	مشفوفة	رزيينة

وأغلب شعر أبي العتاهية في الزهد أميل إلى اعتباره نظما تعليميا فهو أشبه بالنظم منه إلى الشعر ، كلام مصطنع لا يشف عن نفسية زاهدة ولا له روعة الشعر . مثال ذلك النظم :

أَقِمِ الصَّلَاةَ لَوْفَتَهَا بِطُهْرِهَا وَمِنَ الضَّلَالِ تَفَاوُتِ المِيقَاتِ
وَإِذَا اتَّسَعَتْ بِرِزْقِ رَبِّكَ فَاجْعَلْنِ مِنْهُ الْأَجَلَ لِأَوْجِهِ الصَّدَقَاتِ^(٢)

... إلخ .

وله :

من	سَأَلَمَ	النَّاسَ	سَلَمَ	مَنْ	شَاتَمَ	النَّاسَ	شَتِمَ
من	ظَلَمَ	النَّاسَ	آسَى	مَنْ	رَجِمَ	النَّاسَ	رُجِمَ
من	طَلَبَ	الْفَضْلَ	إِلَى	غَيْرِ	ذَوِي	الْفَضْلِ	حُرِمَ
من	حَفِظَ	العَهْدَ	وَفَى	مَنْ	أَحْسَنَ	السَّمْعَ	فَهِمَ

(١) ص ١٧٢ ، ٢٣٢ من كتاب الفهرست .

(٢) الديوان ص ٤٣ .

مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ عَلا مِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ عِلِمٌ
 مَنْ خَالَفَ الرُّشْدَ غَوَى مِنْ تَبِعَ الْغَىَّ نَدِمٌ
 مَنْ لَزِمَ الصَّمْتَ نَجَا مِنْ قَالَ بِالْخَيْرِ غَنِمٌ^(١)

٢ - الصناعة :

تفنن الشعراء في ضروب النظم فأصبح صناعة متشعبة المسالك ، ومن مسالكهم في صناعة النظم أن أخذوا يرمزون إلى المعاني بحروف هجائية تبدأ أو تختتم بها الأبيات ،

مثال :

اسمع	بنعت	عرائس	الحانات
ألف	ألفتُ	الراح	في قيطونها
باء	بذلت	دنانها	في جوسق
تاء	تخير	كرمها	خمارها
ثاء	ثوت	في جحرها	محجوبة
جيم	جعلت	المال	ذمة نفسها
حاء	حلفت	لها	يميناً برة
خاء	خلعت	لها	العدار مجانة
دال	دعوت	بدنها	لما انتهت
ذال	ذهبت	لصوتها	فقرنمت
راء	رمت	بصواعق	من ضوئها
زاي	زهت	بشعاعها	لما رأى
سين	سرت	مهج	الدجى بصيامها
شين	شربت	زجاجة	وسقيتها
صاد	صفت	حتى	استقر قرارها

وبأحرف قُسمت على أبيات
 مع كل مخلوع العذار موائى
 وجعلتها للشرب في الخلوات
 في عهد آدم صاحب الكلمات
 فكأنها من أملح الفتيات
 وقتلتها بالماء في الطاسات
 والرب لا أجفوك طول حياقي
 ولصُحبة الأوتار والنايات
 في حسن رقها إلى الغايات
 شوقاً إلى الطنبور والأصوات
 تفرى بهن غلائل الظلمات
 أيدي الندامي منه مختضبات
 وتنخص ضوء الصبح بالآيات
 ظبياً بها متورد الوجنات
 بمكانها في أرفع الدرجات

ضاد ضربت يدي على كف الذي كانت له بسكون سبع نبات
طاء طلبت من النديم فزادها في مهرها ودعوت بالبركات
ظاء ظفرت به وسدفة ليلنا تمحو العيون مطارف اللحظات
عين علوت على دساكر حانة معتمة بعمائم الزهيرات
غين غدوت بفتية وقت الندى وفد الربيع بوشى كل نبات
فاء فضضت لها ختام مدامة تغنى عن المصباح باللمعات
قاف قضت أيامها فتنسمت كالبرق بين سحائب رجلات
كاف كفاك بأن يفوح نسيمها فيعطر الريحان بالنفحات
لام لمت بعتابنا مترنما كترنم الداعين في عرفات
ميم ملأت الكاس منها فارعوت بشراها كالرامي بالجمرات
نون نظرت إلى غزال مفتن يجميل منطقته وبالحرركات
هاء هممت به فقال لسكره أقبلت تطلب أصعب الحاجات
واو وقفت على خصائص روضة مخصوصة بظرائف اللذات
لاء لأنى جئته متنبها فتركته وقد انتهى بسبات
ياء يغط فقامت من وجدى به فشفيت منه النفس قبل مماتى

٣ - الإلغاز

صناعة شعرية غلبت على العلماء ، وأتقنهم لها أبو محمد الإيدى ، وقد روى الزبيدي في الطبقات بيتين من الشعر تضمنتا حروف الهجاء ، هما :

١- ولقد شجنتي طفلةً برزت ضحاً كالشمس خثماء العظام بذى غصاً

٢- فطلبتها ومضى الفرزدق ظاعناً إذ ضجَّ شخصٌ بالمغيثة كهمساً^(١)

وله شعر تعمد فيه أن تؤلف أوائل الأبيات بيتاً كاملاً صحيح المعنى ، مثال ذلك :

قَوَادِي مَشْتَاقٍ وَقَلْبِي نَاتِقٌ إِلَى ذَاتِ دَلٍّ بَيْتِهَا لِي شَائِقٌ

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص ٨٥ بتحقيق محمد أبو الفضل من طبعة دار المعارف وفي كل بيت منها

حروف ا ، ب ، ت ، ث .

بجُمْلٍ صَبَا قَلْبِي كَمَا أَنهَا صَبَتْ مَتَى تَدُنُّ يَوْمًا يَأْلَفُ النَّوْمَ عَاشِقُ
 مُعْنَى شَكَا مَا تَشْتَكِيهِ فَإِنَّمَا يَحْنُ كَلَانَا ذَاتُ وَجْدٍ وَوَامِقُ
 كَثِيبٌ تَرَاهُ يُظْهِرُ الصَّبْرَ جُهْدَهُ عَلَى أَنْ دَمَعَ الْعَيْنَ بِالشَّوْقِ نَاطِقُ
 وَجُمْلٍ بِأَرْضٍ لَوْ إِلَيْهَا تَخْلُصُ لَوَلِّيتُ أَسْعَى نَحْوَهَا وَأَسَاقُ
 تَضَنُّ عَلَيْنَا زَيْنَبُ بَنَوَالِهَا وَهَلْ إِنْ دَنْتُ جُمْلُ بِنَا لَا تَفَارِقُ
 وَلَيْسَتْ كَجُمْلٍ زَيْنَبُ جُمْلُ إِنْ تُنْبُ أُنِيبُ وَإِنْ تَفْسُقُ فَإِنِّي فَاسِقُ
 تُثِيبُ إِذَا أَحْسَنْتُ وَالْعَذْرُ عِنْدَهَا رَحِيبٌ إِذَا عَاقَتْ لَدَيْهَا الْعَوَاقِقُ

فلو أخذ من كل بيت كلمة لتكوّن من هذه الكلمات بيتا مفهوما له معنى ، وأوائل الأبيات ، كما ترى ، تؤلف بيتا هو :

فَوَادِي بِجُمْلٍ مُعْنَى كَثِيبٌ وَجُمْلُ تَضَنُّ وَلَيْسَتْ تُثِيبُ^(١)

٤ - المدح

أنا أفجؤك بأن كل ما قيل في مدح الخلفاء والأمراء والوزراء والعمال وكل ما يقال ليس شعرا ، إنما هو كلام موزون مقفى ، وهو مع ذلك يهمننا لأنه وثيقة من وثائق التاريخ . وإذن فأنا أخرج من الشعر جملة لأضمه إلى طائفة أخرى من الكلام اصطلاح الناس على أنها شعر .

ليس شعرا ، كلام لا يعتمد على عاطفة ، فالعاطفة عنصر من عناصر الشعر الأولى . أما أن الشعر هو « الكلام الموزون المقفى » كما عرفه القدماء فقول هراء ، وأنت تسلم معي بهذا ، فتعال بنا نبحث عن العاطفة في هذا الكلام الذى قيل على أبواب الخلفاء والأمراء ، ومالنا لانتصر الطريق فننطق هذه النصوص ؟

جرير يمدح عمر بن عبد العزيز ، فيقول فى الختام :

إِنِّي لِأَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا عَاجِلًا وَالنَّفْسُ مَوْلَعَةٌ بِحَبِّ الْعَاجِلِ^(٢)

(١) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص ٨٤

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٩٤ من طبعة الحلبي

والأعشى^(١) ، وهو كما تعرف من أشد أنصار الأمويين يمدحهم فيقول :
 آل الزبير من الخلافة كالتى عجل النَّاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا
 أو كالضَّعَافِ مِنَ الْحُمُولَةِ حَمَلَتْ مَا لَا تُطِيقُ فَضِيعَتْ أَحْمَالُهَا
 قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَتَّامُوا عَنْهُمْ كَمَ لِلْغَوَاةِ أَطْلُتُمْ إِمَّهَالَهَا
 إن الخلافة فيكم لا فيهم مَا زِلْتُمْ أَرْكَانَهَا وَثَمَالُهَا
 أمسوا على الخيرات قَفْلًا مَغْلَقًا فَانْهَضْ يُمْنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا^(٢)

فهو يمدح الأمويين ويكره الزبيريين لأن الأمويين يعطونه ، ولأن الزبيريين « قفل مغلق »
 وهذه الأبيات تصور المذهب السياسى لكثير من الشعراء السياسيين فى الدولتين على السواء .

وأبو محمد اليزيدى يمدح المأمون فيقول :
 مَهِيْبٌ عَلَيْهِ لِلْوَقَارِ سَكِينَةٌ جَرَىءُ جَنَانٍ لَا أَكْعُ هَيُوبُ
 إذا ما علا المأمونُ أَعْوَادُ مِنْبَرٍ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ ضَرِيبُ
 وَرِثْتُمْ بَنَى الْعَبَّاسِ إِرْثَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ لِحَى فِي الثُّرَاثِ نَصِيبُ^(٣)
 ثم يقول :

وَإِنِّي لأَرْجُو يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ عَطَايَاكَ وَالرَّاجِيكَ لَيْسَ يَخِيبُ^(٤)
 وأبو نواس يمدح الخصب فيختم بقوله :
 وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتَكَ بِالْمَنَى وَأَنْتَ بِمَا أَمَلْتَ مِنْكَ جَدِيرُ^(٥)
 أو بقوله :

أَنْتَ الْخَصِيبُ . وَهَذِهِ مِصْرُ فَتَدْفَقَا فَكَلَاكَمَا بِحَرْ
 لَا تَقْعِدَانِي عَنْ مَدَى أَمَلِي شَيْئًا فَمَا لَكُمَا بِهِ عَذْرُ
 وَيَحِقُّ لِي إِذْ صَرْتَ بَيْنَكُمَا أَلَا يَحِلُّ بِسَاحَتِي فَقْرُ^(٦)

(١) أعشى ربيعة

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٨١ من طبعة فينا ١٩٢٧

(٣) الأغاني ج ٢٣ ص ٧٩١٨ من طبعة الشعب

(٤) من قصيدة طويلة ، راجع : السيراني : طبقات النحاة

(٥) الديوان ص ٣٨ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

(٦) الديوان ص ٣٩ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

أو بقوله :

فأفنع بسبيك غلة نزحت بي عن بلادى وارتهن شكرى^(١)

أبو نواس يمدح الخصيب ما أعطاه الخصيب ، فهو إذ يعطى يقول :

فإن يكُ باقى إفكُ فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب^(٢)
وهو إذ منع قائل :

نفس الخصيب جميعها كذب وحديثه جليسه كرب
تبكى الثياب عليه معولة أن قد يجر ذيوها كلب^(٣)

وأبو نواس الذى يقول فى الخصيب :

فما جازه جود ولا حلّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير^(٤)
هو الذى يقول فيه :

خبز الخصيب معلق بالكوكب يحمى لكل مسقف ومشطب
جعل الطعام على بنيه محرماً قوتا وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم رأوا الرغيف تطربوا طرب الصّوام إلى أذان المغرب^(٥)

وموقف أبى نواس يذكرنا بموقف المتنبي من كافور وبكثيرين غير المتنبي ، ونكره أن نسترسل فى كلام يطول .

لكننا لا نرى الإسراف رأيا ، فلسنا مخرجين من الشعر كل مدح ، بل لقد استثنينا شعراء الفرق المغلوبة والطوائف المهضومة ، ولا بد أن نستثنى طائفة أخرى ، فرجل كالأخطل كان يمدح البيت الأموى ، فمن أى القبائل هو ؟ هو من تغلب ، وأنت تعرف أن تغلب كانت موالية للبيت الأموى ، فلا بد أن ننظر إلى شعر الأخطل نظرة أخرى ، فالرجل كان يمدح عن هوى ، وإن كان المال هدفا بلاريب .

(١) الديوان ص ٤٠ من طبعة حجر ، مصر ١٢٧٧ هـ

(٢) المرجع السابق ص ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٧٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٧

(٥) المرجع السابق ص ٧٠

ورجل كالنابغة الجعدي لا يكفي مدحه ابن الزبير لاعتباره من أنصار الزبيرية ، ليس يكفي أن يقول الجعدي :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لَمَّا وَلَيْتَنَا وَعُمَانُ وَالْفَارُوقَ فَارْتَاخَ مُعَدَّمُ
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَقِّ فَاسْتَوُوا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّوْنِ مُظْلِمُ
لنعه زبيريا ، بل يجب أن نفهم بجانب ذلك قوله :

أَتَاكَ أَبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدُّجَى دُجَى اللَّيْلِ جَوَابُ الْفَلَاةِ عَثْمَمُ^(١)
لَتَجْبُرُ مِنْهُ جَانِبًا زَعَزَعْتَ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالزَّمَانُ الْمُصَمَّمُ^(٢)

ذلك الشعر الذي كان يزن الخلفاء البيت الواحد منه بمائة دينار أو بألف لا يزن عندنا شيئا بل نحن نخرجه - على كثرته الفاحشة - من الشعر غير آسفين .

بمثل هذه الدقة نستطيع أن نقسم ما قيل من المدح إلى قسمين : قسم صادق ، وهو ما نضمه إلى الشعر ، وقسم متسول نضيفه إلى طائفة أخرى من الكلام ، ونطلق على الجميع « فن النظم » أو بعبارة أصح « صناعة النظم » .

رواج المدح في العصرين والمقارنة

كان المدح من أقوى فنون الشعر العربي في العصرين الأموي والعباسي ، ذلك أن الحكام كانوا يتنافسون في ترغيب الشعراء بالعطايا لأن الناس جميعا كانوا يفهمون الشعر ، فكان الشعر يذيع ويتنقل من قبيلة إلى قبيلة .

ومن لطيف ما يروى في ذلك الصدد أن مسكينا الدارمي كسدت لديه بضاعة كبيرة من الخمر السود فصنع هذين البيتين :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخَمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا صَنَعْتَ بَرَاهِبٍ مُتَعَبِدٍ
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ حَتَّى وَقَفَتْ لَهُ بَابُ الْمَسْجِدِ^(٣)

فسرعان ما ذاعا ورغب النساء في الخمر السود فراجت تجارتها ونفدت بضاعة الرجل في أيام .

(١) العثمم : الجمل الشديد الطويل

(٢) الأغاني ج ٥ ص ١٦٧٢ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٨٩٢ من طبعة الشعب

ومرّ ذوالرمة في طريقه على خيمة بالصحراء ، وكان يشكو ألما في عينه فعرج عليها ،
فعالجته خرقاء ربّتها وهي امرأة متقدمة في السن ، فأراد أن يجزى صنعها فتغزل بها في شعر
منه :

تَمَامُ الْحَجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرْقَاءَ وَاضِعَةَ اللَّثَامِ^(١)
فَتَسَابِقَ الْخُطَّابُ إِلَى خَرْقَاءَ !

وأنت تعرف أن الأوانس والعوانس كن يتسابقن إلى ترضية غزل الحجاز عمر ليشب
بهن ! والنوادر في ذلك كثيرة .

تسابق الشعراء الأمويون على أبواب الخلفاء ومدحوا عظماء الدولة كآل المهلب ، وخالد
ابن عبد الله القسري ، وتسابق العباسيون على أبواب الخلفاء ، وأشهر شعراء القصر : مروان
ابن أبي حفصة ، ومنصور النمرى . وعلى باب البرامكة وأشهر شعرائهم أبان بن عبد الحميد
اللاحق وابن منذر والرقاشي وأشجع السلمي وكل ما أراه من فرق بين مدح الأمويين ومدح
العباسيين أن معاني الأولين بسيطة قريبة إلى العقل بعكس العباسيين !

انظر إلى هذه البساطة في قول جرير في مدح الأمويين :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ^(٢)

أو قول الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا^(٣)

أو قول جرير يمدح الحجاج :

إِنْ ابْنُ يُوسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا مَاضِيَ الْبَصِيرَةِ وَاضِحَ الْمِنْهَاجِ
مَاضٍ عَلَى الْغَمَرَاتِ يَمْضِي هَمَّهُ وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي^(٤)

أو قول الخطيئة يمدح بغيض بن لؤي :

تُرُورُ امْرَأٍ يُؤْنِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُوتَ أَثْمَانُ الْحَامِدِ يُحْمَدُ

(١) الأغاني ج ١٩ ص ٦٧٨٠ و ٦٧٨٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٥٢

(٢) الأغاني ج ٨ ص ٢٧٨٧ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٣٠٥١ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣١٣

يرى البخل لا يبقى على المرء ماله ويعلم أن المرء غير مُخلد
 كَسُوبٌ ومِثْلَافٌ إذا ماسأله تهَلَّلَ فاهتَزَّ اهْتَزَّزَ المِهْنَدُ
 متى تأتته تَعْشُو إلى ضوء ناره تَجِدُ خَيْرَ نارٍ عندها خَيْرُ موقد^(١)
 أو قول الأخطل يمدح الأمويين :
 حُشْدٌ على الحقِّ عَيَّافُو الخَنَا أنْفُ إذا أَلَمَّتْ بهم مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
 لا يَسْتَقِلُّ ذُو الأَضْغَانِ حَرْبَهُمْ ولا يُبَيِّنُ في عِيدَانِهِمْ خَوَرُ^(٢)
 أو قوله :

بني أُمَيَّةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ تَمَّتْ فلا مَنَّةٌ فيها ولا كَدَرُ^(٣)

وأخيرا انظر إلى الجمال والروعة في قول حزين الكنانى^(٤) ببساطة :
 لما وقفتُ عليها في الجُمُوعِ ضُحَى وقد تَعَرَّضَتِ الحُجَّابُ والخَدَمُ
 حَيَّتُهُ بِسَلامٍ وهو مُرتَفَقُ^(٥) وَضَجَّةُ القومِ عند البابِ تَزْدَحُمُ
 في كَفِّهِ خَيْرُ زَانِ رِيحُهَا عَبَقُ من كَفِّ أَرَوَعِ في عِرْنِينِهِ شَمَمُ
 يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي من مَهَابَتِهِ فما يُكَلِّمُ إلا حين يَبْتَسِمُ
 كِلْتَا يَدَيْهِ رَيِّعٌ غير ذِي خُلْفٍ فتلُك بَحْرٌ وهذَى عَارِضٌ هَزَمُ^(٦)

انظر إلى الرجل كيف لطف وخف ظله ، فلفظ ممدوحه وخف برغم هذه المبالغات
 الطفيفة والبيت الرابع على بساطته من أجمل ما مدح به الشعراء .

قد يروقني قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان :
 وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع

(١) أبو عبيد البكري : سمط اللآلئ ج ١ ص ٣٤٥

(٢) الديوان ص ١٠٤ ، ١٠٥ من طبعة بيروت ١٨٩١ .

(٣) الديوان ص ١٠٥

(٤) اسمه عمرو بن عبيد بن وهيب ويكنى أبا الشعثاء ، والحزين لقب غلب عليه وهو من كنانة وأنه صليبة - أى

خالص النسب - وهو من شعراء الدولة الأموية . وقال هذه القصيدة في مدح عبد الملك بن مروان . (الأغاني ج ١٦ ص ٥٦٧١ من طبعة الشعب)

(٥) مرتفق : متكئ على وسادة أو نحوها

(٦) الأغاني ج ١٦ ص ٥٦٧٨ - ٥٦٧٩ من طبعة الشعب

أكثر مما يروقي قول الراعي :

متى ما تَأْتِه تَرْجُو نَدَاهُ فلا بُخْلًا تَخَاف ولا اعتذاراً^(١)
أكثر مما يروقي :

من جوده لوقيل يا ابن محمد قل لا وأنت مخلد ما قالها
لكن الشعراء العباسيين لم يفتنوا إلى جمال البساطة أو تعمدوا التهويل والمبالغة .

أمثلة :

البحري :

مفروضة في رقاب الناس طاعته عاصيه من ربة الإسلام منخلع
وقوله :

وليس بمسلم من لم يبايع خلافتكم ولو صلى وصاماً^(٢)
أبو الشيص :

ملك كأن الموت يتبع قوله حتى يقال قطيعة الأقدار
أبو تمام :

لو أن إجماعنا في فضل سُودْدِهِ في الدين لم يَخْتَلِفْ في الأمة اثنان^(٣)

منصور النمرى يمدح الرشيد :

أى امرئ بات من هارون في سَخَط فليس بالصلوات الخمس يتنفع
إذا رفعت امرأً فالله يرفعه ومن وضعت من الأقوام مُتَضَع^(٤)

(١) الأغاني ج ٢٨ ص ٩٦١٢ من طبعة الشعب وشعر الراعي ص ٨١ من طبعة المجمع العلمي بدمشق

(٢) الديوان ج ١ ص ١٩ من طبعة الجوائب

(٣) الديوان ج ٣ ص ٣١١ من طبعة دار المعارف

(٤) الأغاني ج ١٣ ص ٤٦٥٩ من طبعة الشعب

وقوله (١) :

بِمُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ قَدْ عَصِمَتْ بِهِ عَرَا الدِّينِ وَالتَّقَتْ عَلَيْهَا وَسَائِلُهُ
رَعَى اللَّهُ فِيهِ لِلرَّعِيَةِ رَافَةً تُزَايِلُهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ تُزَايِلُهُ
تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيَّتْهُ اللَّهُ سَائِلُهُ
العكوك يمدح أبا دلف :

أنت الذي تنزل الأيام منزلها وتثقل الدهر من حالٍ إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحدٍ إلا قضيت بأرزاقٍ وآجالٍ (٢)
أبو نواس في مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تُخلق (٣)
ونجمل القول فنقول إن الشعراء الأمويين كانوا أقرب إلى البساطة والمعقول ، وهول
العباسيون وجسموا المعاني حتى نسب بعضهم إلى الممدوح صفات قد تجوز في مقام الألوهية ،
ويظهر أن تعليل هذا البون الكبير ليس عسيرا ، فالدولة الأموية كانت تصارع خصومها
الكثيرين والأحداث تتألب عليها فتزلزلها كل يوم زلزالا عنيفا ، فكان شعراؤها أشبه بمحامين
يدفعون عنها الخصوم .

أما الدولة العباسية فكانت أوطد مركزا وأدعم أساسا فلم يكن الخلفاء في حاجة إلى محامين
حاجتهم إلى إرضاء شهوة إنسانية هي حب الثناء .

ولقد روى في أخبار الرشيد أنه أحرق في يوم واحد ٣٠,٦٧٦,٠٠٠ بيتاً من الشعر في المدح
تأمل !

وإذا استثنينا السيد الحميري والساس بن الأحنف وصالح بن عبد القدوس ، فإننا لا
نعرف شاعرا عباسيا تنزهه عن المدح أجود من شعر السيد الحميري ، وفيه نزعة أخلاقية :
أيها المادح العباد ليُعْطَى إن لله ما بأيدي العباد

(١) لم يكن هذا الشعر لمنصور الفري ولكنه من شعر أبي تمام في مدح المعتصم ، راجع ديوانه ج ٣ ص ٢٦ من طبعة
دار المعارف

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٨٦٦ بتحقيق أحمد شاكر

(٣) الديوان ص ٤٠١ من طبعة أحمد عبد المجيد الغزالي ١٩٥٣

فاسأل الله ما طلبت إليهم وارزُ نفع المنزل العواد
لا تنقل في الجواد ماليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد^(١)

ولانستثنى من الشعراء الأمويين إلا بعض شعراء الفرق كالطرماح ، ومن لطيف ما يروى عنه وعن صاحبه الكميت أنها دخلا على مخلد بن يزيد المهلبى ، فبدأ الطرماح ينشد شعره فقال مخلد : أنشدنا قائما ، قال الطرماح « كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط منى بمقامى وأحط منه بضراعتى وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لماثر العرب » فأبى مخلد أن يسمع منه قاعدا ودعا الكميت لينشد ، فقام وأنشد فأجازه بخمسين ألف درهم . فلما خرج قال الكميت لصاحبه « أنت أبا ضبيبة أبعد همة وأنا أطف حيلة » . وقسم المال بينه وبين صاحبه شطرين .

تدوين العلوم

الثقافات الأجنبية في العصر العباسي :

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يحسن القراءة والكتابة فيهم إلا نفر من اليهود فيما يظهر ألا تلمس ذلك في قول ذي الرمة :

كَأَنَّ قَرَأَ جَرَّعَائِهَا^(١) رَجَّعَتْ بِهِ يَهُودِيَّةُ الْأَقْلَامِ وَحَى الرِّسَائِلِ^(٢)

وعن هؤلاء اليهود أخذها نفر قليل من العرب منهم عثمان بن عفان فقد كان يكتب الوحي للنبي ﷺ . ولكن هؤلاء اليهود ، وهذا نفر الذي أخذ الكتابة عنهم كان ضئيلا بدليل خلو ذلك التاريخ الجاهلي من الآثار العلمية المدونة ، كما أن النبي في غزوة بدر افتدى من يحسن الكتابة والقراءة من الأسرى بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة .

وجاء الإسلام وليس يعرف الكتابة إلا بعض اليهود ، ويظهر أنهم الغالبية وبضعة عشر نفرا من قريش . وكان من الصحابة من يعرف الكتابة وهم قليلون فكانوا يكتبون الآيات على سعف النخل والعظام والحجارة .

أما الورق الصيني فلم يجلب إلا في العصر العباسي ، وكان الخط خاليا من النقط فتمم ذلك أبو الأسود الدؤلي وتلميذه يحيى بن يعمر .

ومن الثابت أن شعراء الأمويين - أغلبهم - كان يجهل الكتابة حتى ليدهشنا أن رجلا سما به أصل ومحمد كالفرزدق كان أميا ، بل لقد كانت الكتابة أمرا مشينا عند بعض القبائل إذ كان ذو الرمة يقرأ ويكتب ، ولكنه كان يكتّم ذلك ، وقد سأله بعضهم : أتقرأ وتكتب ؟ فقال له : أكتب وأقرأ ، اكتمّ علىّ ذلك فإنه عندنا عيب^(٣)

(١) الجرعاء : الرمل ، والوحى : الكتابة

(٢) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٢٧ من الطبعة الثانية بدار المعارف

(٣) دكتور يوسف خليف : ذو الرمة ص ٢٤ من الطبعة الثانية بدار المعارف

الفلسفة اليونانية وأثرها

الثقافة الفارسية

كانت العلوم في العصر الأموي لاتدون لذاتها ، إنما كان يدون منها ما كان متصلا بالدين . فكان مجهود النحويين للقرآن التماسا للدقة في ضبط معانيه ، وجهود المؤرخين لمعرفة غزوات النبي ﷺ وللتفريق بين الأمم التي فتحت بحد السيف والتي دخلها العرب صلحا ، كما كانت العناية بالشعر لتفسير اللغة ، والعناية باللغة لأجل القرآن ، وهكذا يمكننا أن نمضي في القياس . وما كان العلم يدرس لذاته لأن في دراسته لذة أو فائدة بل لأن الله حث عليه فهو من الدين ، كما قال بعض العرب مستشهدا بقوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . كما أن النحاة الأول كانوا نحاة لأجل القرآن والمؤرخون كان تاريخهم شرحا لقصص القرآن^(١) . ورأى قوم ذكر الشمس والقمر والأفلاك والأبراج فأخذوا يدرسون ما اتصل بهذه الأجرام ، وهذه الدراسة هي التي كوّنت فيما بعد علم المواقيت بل ضاقت عقليات بعض الناس إلى حد السخف ، فهي تأبى إلا أن تفسر كل شيء تفسيراً دينياً .

قال رجل من أهل مكة ما سمعت بأكذب من بني تميم زعموا أن بيت الفرزدق :
بيت زرارة محتب بفنائيه ومجاشع وبنو الفوارس نهشل
أنه في رجال منهم . قيل له فما تقول أنت فيهم ؟

قال : البيت بيت الله ، وزرارة الحجر . قيل : فما مجاشع ؟ قال : زمزم جشعت بالماء .
قيل : فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قبيس . قيل : فنهشل ؟ قال : نهشل أشدها . ففكر ساعة ثم قال : نهشل مصباح الكعبة لأنه طويل أسود^(٢)

(١) وليس يدهشنا هذا فلا يزال إلى اليوم من يؤلف في الأدب والعلم لفكرة دينية ، ففي مصر كتاب مطبوع اسمه « أراجيز العرب » للسيد توفيق البكري ، نستطيع أن نقرأ مقدمته القصيرة فنفهم أن فضيلته لم يؤلف الكتاب (أو يجمعه) إلا لأنه روى أن النبي ﷺ قال يوم حنين : أنا النبي لا كذب :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأنه قال إذ جرحته أصبعه :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

وقال « فأما القصيدة من الشعر فلم يبلغني أنه أنشد بيتا تاما على وزنه » وأن النبي كان يحب سماع الرجز من الشعر (٢) عن ابن قتيبة .

تدوين الكيمياء :

كان خالد بن يزيد بن معاوية طامعا في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم ، وانتقلت به الخلافة من بيت أبي سفيان إلى بيت مروان . ولما يش من الخلافة وهو ذومطامع وذكاء انصرف ذهنه إلى اكتساب العلا بالعلم ، وكانت صناعة الكيمياء رائجة وقتئذ في مدرسة الإسكندرية ، فاستقدم جماعة من المشتغلين بها : منهم راهب رومى اسمه « مريانوس » طلب إليه أن يعلمه صناعة الكيمياء . فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية . فنقلها له رجل اسمه « اسطفان القديم » ، وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة ، وهو كذلك آخر تغن في العصر الأموى . ومما يزيد ذلك وضوحا أن القس « هارون بن رامن » ألف في اللغة السريانية في عهد مروان بن الحكم كتابا في الطب هو من أنفس الكتب نقله إلى العربية ماسرجويه . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب بالشام فنصح به بعضهم بإخراجه إلى المسلمين للانتفاع به فاستخار الله في ذلك إذ تردد يوما ثم أخرج به إلى الناس وبثه في أيديهم .

ذلك يدلنا على تردد الخليفة في إخراج هذا الكتاب ، مع أنه من كتب الطب ، وأن فيه شفاء للناس ومنفعة للمسلمين .

أما الدولة العباسية فكانت في إبان نشأتها تعمل جهدها لأن يكون لها أسمى درجة وأعظم منزلة في العلوم والحضارة ، فسارت شوطا بعيدا في سبيل الترجمة والتأليف حتى أن الخلفاء أنفسهم كانوا من فطاحل العلماء . والخلفاء الذين اهتموا بذلك النقل هم :

المنصور : وكان أغلب اهتمامه بالنجوم والطب

أما المهدي : فقلما اشتغل بذلك

والرشيد : لم ينقل في أيامه إلا كتاب المجسطي

ثم المأمون : وهو الذى اهتم بنقل كتب الفلسفة والمنطق على الخصوص

أما نقلة العلم في العصر العباسي فهم أهل العراق والشام وفارس والهند وأكثرهم من السريان والنساطرة لأنهم أقدر على الترجمة من اليونانيين وأكثر اطلاعا على كتب الفلسفة والعلم اليوناني .

ومن مشاهير أولئك النقلة آل بنخيشوع السرياني النسطورى طيب المنصور وآل حنين من

سلالة حنين بن إسحاق العبادى شيخ المترجمين وأحد أنصار الحيرة ، وحبيش الأعشم الدمشقى ابن أخت حنين والحجاج بن مطر ، والبطريق يحيى بن البطريق وأبو عثمان الدمشقى وغيرهم من أشهر نقلة العلم من اليونانى أو السريانى إلى العربى .

أما النقلة من الألسنة الأخرى فمنهم من نقل من الفارسية إلى العربية كابن المقفع وآل نوبخت كبيرهم نوبخت ، ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد ، وكانا يخدمان دواوين عبد الله بن حميد بن قحطبة وينقلان له من الفارسية إلى العربية .

ولم يكن النقل مقصوراً على الفارسية بل تخطاه إلى اللغة السنسكريتية (الهندية) فنقل منها منكه الهندى ، وكان من جملتهم إسحاق بن سليمان بن على الهاشمى ينقل من الهندية إلى العربية . أما الكتب التى نقلت فى ذلك العصر فعددها بضع مئات أكثرها من اليونانية ، منها ثمانية فى الفلسفة والأدب لأفلاطون وتسعة عشر كتاباً فى الفلسفة والمنطق والأدب لأرسطو وعشرة فى الطب لبقرات وثمانية وأربعون لجالينوس وثلاثون فى الرياضيات والنجوم .

وأما منقولات اللغات الأخرى فمنها نحو عشرين كتاباً نقلت عن اللغة الفارسية فى التاريخ والأدب ونحو عشرين كتاباً عن اللغة السريانية أو النبطية أكثرها فى السحر والطلسمات . وقد نقل ابن المقفع شيئاً من مبادئ المانوية ، كما نقل كتب «ابن ديسان» إلى العربية ، وترجم ابن المقفع كتاب كليله ودمنة وترجم على ما يظهر «قاطيفورياس» المقولات العشرة من الفارسية ، كما ترجمها إسحاق بن حنين من اليونانية .

وكذلك ترجم ابن المقفع وإسحاق «الأنا لوطيقا الأول» وهى تشمل القياس وأشكاله وتحليله ، كما ترجم «منطق أرسطو» و«إيساغوجى» أى المدخل أو المقدمة - وهو كتاب ألفه قرقوريوس الصورى تمهيداً لدراسة المنطق .

أما نقلة الكتب اليونانية إلى العربية فهم السريان ، ترجموا كتب اليونان وترجموا كتبهم هم . وما الثقافة السريانية إلا الثقافة اليونانية ، فلقد كان للسريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم اليونانية والسريانية على السواء وأشهرها مدرسة الرها فى القرن الخامس الميلادى وقنسرين ونصيبين فى القرن السابع .

لقد كان عهد المنصور خصيباً فى الترجمة والإنتاج الأدبى فنقل فيه عدة مقالات عن أرسطوطاليس وكتاب المجسطى لبطليموس فى الفلك وكتاب إقليدس فى الهندسة ومواد أخرى عن اليونانية .

وفي سنة ١٠٦ هـ وفد هندی إلى بغداد يحمل مقالة في الرياضيات وأخرى في علم الفلك هي مقالة «سدهانتا» المعروفة عند العرب باسم كتاب «السند هند» فترجمها إبراهيم الفزاري . أما المقالة الرياضية فكان لها أثر كبير في الرياضيات فقد أدخلت الأرقام الهندية واتخذت أساسا للعدد في العربية .

وقد كتب بختيشوع بن جورجيس السرياني النسطوري مدخلا لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذية والمشاريب وملخصا في الطب أخذ عن ديوسقورس وجالينوس وبولص الأجانسطي .

ومن الكتب التي ترجمت من العربية إلى اليونانية كتاب «إيثولوجيا» المنسوب إلى أرسطوطاليس سنة ٢٢٦ هـ ، كما وضع إسحاق بن حنين كتابا في منطق أرسطو ، كذلك ترجم إسحاق بن حنين لأرسطو بطوريقا في الخطابة وأنواع الخطب ، كما ترجم «الديوتيقا» الشعر .

تدوين التاريخ

لم يفكر المسلمون في القرن الأول في تدوين التاريخ ، إنما بدأ الرواة يجمعون الأحاديث وسيرة النبي فيتناقلونها لا للتاريخ بل لتفسير أحكام الدين ، وهؤلاء أصحاب السير وآخرون عنوا بأخبار الحروب في فجر الإسلام ، فتناقلوها لا لذاتها بل لتمييز البلاد التي فتحت بحد السيف من التي بسط المسلمون حكمهم عليها سلما ، وذلك لأن الدين يفرق بينها في الجزية والخراج ، وهؤلاء هم أصحاب المغازي .

أما تدوين التاريخ لذاته فأمر بدأه المسلمون في القرن الثاني عندما اشتد امتزاجهم بالموالي ، وكانوا يحسنون القراءة والكتابة ، ثم كانوا يفتنون إلى مزايا تدوين العلوم . وأول كتاب جامع لذلك هو كتاب ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ في السيرة وكتاب آخر له في المغازي ، وقد ضاع كتاباه . لكن ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ لخصها في سيرته . وألف الواقدي وهو من موالي بني هاشم كتابين جليلين ، أحدهما في المغازي والآخر في فتوح الشام ، ونحاه نحوه تلميذه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ فألف كتاب الطبقات الكبير ، وهو لا يزال إلى اليوم من أوثق المراجع التاريخية وأهمها شأنًا .

تدوين الشعر :

وابتدأ تدوين الشعر في القرن الثاني وأشهر جامعيه أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ هـ جمع فيما يقولون شعر ثمانين قبيلة .

تدوين البلاغة :

أول ما ألف في البلاغة كتاب لأبي عبيدة بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ هـ .

تدوين النحو :

كان النحويون يرحلون إلى البادية ، كذلك كانوا يستقدمون الأعراب - أي سكان البوادي وكان هؤلاء الأعراب يتحدثون باللغة الفصحى سليقة ولا يفهمون ما عداها ، فإن قيل لأحدهم « ذهبت إلى أبو زيد » و « رأيت أبي عمرو » فهو لا يفهم شيئاً^(١) . وكانوا يرحلون إلى القبائل التي اشتهر أمرها بالفصاحة ، وأول من رحل إلى البادية فيما نعرف يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ والخليل وخلف الأحمر المتوفيان في أواخر القرن الثاني وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ ثم الكسائي والنضر بن شميل . فكانوا يأخذون عن الأعراب .

ومن هذه القبائل التي كانوا يرحلون إليها تميم وقيس وهذيل . وإليك عبارة لأبي زيد يفهم منها أن هذه الرحلات لم تكن إلا إلى القبائل المعروفة بالفصاحة « لست أقول قالت العرب إلا إذا سمعت من هؤلاء بكر وهوازن وبنى كلاب وبنى هلال ، أو من عالية السافلة أو من سافلة العالية ، وإلا لم أقل قالت العرب » .

وفي سبيل القرآن عن العرب بالنحو فوضعوا قواعده ودوّنوا نحوهم وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد .

وأول من باشر ذلك منهم الأسقف ابن يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب والمتوفى سنة ٤٦٠ م . والظاهر أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٥ من مطبعة المطبعة العلمية - بمصر ١٣١١ هـ

فأعجبهم ، فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان . بدءوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان .

ومن دواعي استعمال العرب في تدوين النحو استعجالهم في الفتح ونشر الدين لأن الفتوح دعت إلى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا إلى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الإعراب علاوة على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن ، إلا أن الموالي والمتعربين كانوا أيام النبي ﷺ يخطئون الإعراب . وقد ذكروا أن رجلا لحن بحضرة النبي ﷺ فقال « أرشدوا أخاكم فقد ضل » . وقال أبو بكر رضى الله عنه « لأن أقرأ فأسقط خير من أن أقرأ فألحن » ومع ذلك لم يكثر اللحن إلا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، فتذمر العمال مما كانوا يسمعون من اللحن وخصوصا في قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللغة .

وتقول المصادر إن أبا الأسود الدؤلى هو واضع علم النحو بإشارة على بن أبى طالب وإرشاده ، ويطعن في هذه النصوص أستاذ النحو بكلية الآداب ، وليس بعيدا أن يكون هذا الاعتقاد الشائع اختلاقا من الشيعة ، ولم لا يكون ؟ .

لقد زعموا أن عليا ألقى شيعته نوعا من أنواع علوم القرآن ، بل زعم غلاتهم أن فيه روح على ، ولو صح ما يزعمون فأين هذه الكتب التى أملاها على ؟ أأكلها الضبع جميعا ؟ ! وإن كان أكلها فأين أشلاؤها حتى نطمئن ونصدق ؟

ويمكننا أن نقول في عبارة موجزة إن العباسيين نقلوا إلى العربية معظم ما كان معروفا من الفلسفة والتاريخ والأدبيات والعلوم وغيرها فقد أخذوا من كل أمة أحسن ما عندها فتصيدوا الجواهر وتركوا الأصداغ ، وأخذوا اللباب وتركوا الألياف .

ولا يستهان بما اقتضاه ذلك النقل عن أشهر الأمم في ذلك العصر من التأثير في الآداب الاجتماعية والتاريخ والفلسفة .

أثر الفلسفة اليونانية

يظهر أن الفلسفة الإسلامية نتيجة الفلسفة اليونانية ، فقد كان لليونانية أثرها العميق في كل فرع من فروع الثقافة العربية المختلفة في ذلك الوقت .

البلاغة :

إننا لا نستطيع فهم كتاب من كتب البلاغة القديمة إلا إذا كنا نتقن المنطق ، وما المنطق العربى إلا وليد المنطق اليونانى ، وليد منطق أرسطو الذى ترجم له العصر العباسى .

١ - فاطيفورياس «المقولات» .

٢ - بىرى أرمنياس «العبرة أو القضايا التصديقية» .

٣ - أنالوطيقا الأولى «القياس» .

٤ - أنالوطيقا الثانية «البرهان» .

٥ - طوبيقا «الجدل» .

٦ - سفسوطيقا «السفسطة» .

في النحو :

وقد ظهر في كل فرع من فروع العلم المعروفة في هذا العصر ومظهره في النحو ميل النحويين إلى التعليل في القرن الثانى والثالث فكانت دراستهم فلسفية أكثر منها مدرسية وكتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصرة والكوفة» خير شاهد على ما نقول .

في علم الكلام :

وكان للفلسفة أثرها في نشوء علم الكلام «إن شئت فقل علم المنطق اليونانى» على يد المعتزلة بنوع خاص .

وكان لعلم الكلام أثر في الشعر ظاهر - سنييه في موضعه - كذلك كان للفلسفة أثرها في البلاغة ، وحسبك أن واضعى أسسها رجال درسوا الفلسفة وامتزجت بها عقولهم وأسبقهم في

ذلك سهل بن هارون سنة ٢٢٠ هـ . وأنت واجد هذا الأثر أيضا في هذه المحاورات البلاغية التي تشبه أن تكون محاورات كلامية ، وأجد في هذه التحديدات البلاغية التي تجعل البلاغة أقرب إلى القضايا المنطقية منها إلى الأبحاث الأدبية الفنية ، وأنت واجد في علم المعاني دقائق أبحاث المنطق .

الكتاب الثالث

المقارنة الفنية بين الشعر الأموي والعباسي

ما الشعر ؟

سلنى : ما الشعر ؟ قبل أن تسمع منى مقارنة بين شعر وشعر .

سلنى : لتستطيع وأستطيع أن ننقد هذا الشعر على ضوء هذا التعريف .

سلنى : لتستطيع وأستطيع أن نزن بهذا الميزان .

سلنى : ما الشعر ؟

الشعر عند Wordsworth هو «الحق يلقيه الشعور حيا إلى القول» وهو «فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء» .

وهو : عند ابن خلدون «الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصلة بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله الجارى على أساليب مخصوصة» .

وهو : عند رسكن «إبراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال» .

وهو : عند أستاذنا الدكتور طه حسين «الكلام المقيد بالوزن والقافية والذي يقصد إلى الجمال الفنى» .

وهو عند : بروننج «التعبير عن العلاقة بين العالم والله أو بين المادة والدم أو بين العلاقة والمثال» .

وهو عند : أمرسون «الشوق الدائم للتعبير عن روح الأشياء» .

وهو عند : Boileau «ما أملاه الله وذلك مستفاد من قوله .

“Ce serait profaner son genie insulter son âme, en retrouvant ce que dieu leur a dicté”.

والشعر عند : Hunt «التعبير عن الحق والقوة والجمال عن طريق التصور أو الخيال» .

والشعر عند Sully Prudhomme هو «الحلم الذى يحس فيه الإنسان بأن يعيش فى عالم أرقى وأرفع» .

ويعرفه بعض الأدباء السوريين بقوله «الشعر شعور لطيف أحسته الأرواح قبل الأشباح ،

ووجدان وجد على الغرائز والفطر قبل الهيولى والصورة ، يجرى على الخواطر مجرى الكهرباء في مسارى الهواء وتسيل في الضمائر بسيل الماء في ثنايا الإدماء ، فهو أشبه بسلك أثري بين القلب والدماغ يسرى على أهواء الضلوع ، وهذه تدفعه بقوتها المكهربة « تكهربا معنوياً أو حياً على الرأى الحديث إلى مركز الدماغ ، ومنها إلى القوة الخيالية التصويرية ، ومن هناك تجذبه أسلة اللسان المغناطيسية ، فتحمله على جناح تموجاتها الهوائية (المجازية) إلى عالم الأدنى فيدخلها باستئذان أو بلا استئذان !

الشعر هو الشعر ! لقد عرّف السادة النقاد الشعر بالشعر ، أين التعريف الدقيق المحدود ، التعريف العلمى ؟ . . . لهم العذر ، إذ ليس من الممكن تعريف الشعر . من اليسير أن تعرف النحو والمنطق والجبر ، وليس من اليسير فحسب بل من المستحيل أن تعرف الشعر . الشعر كالفن والروح والخلود والجمال والفتنة والسحر والعقل والفكرة وما وراء الطبيعة والذوق معان شائعة عن عقولنا وأنفسنا نفهمها فهماً ، بل إن منا من قد يحسون أثر الشعر في جسامهم فيهتز لإنشاده أو سماعه منهم عضو أو أعضاء عن غير وعى ، وتختلج عيون وتنفق قلوب ، وقد تكون أنت وأنا من هؤلاء ، بل قد تكون أنت وأنا شاعرين ، ومع ذلك فأنت وأنا عند تعريفه محاولان ، محاول غير موقعه ، ومحاول خائب !

لقد حاول الشاعر الفرنسى العظيم Lamartine تعريف الشعر فقال « هو تجسم ظاهر لأعمق البواطن الإنسانية » وكأنه أحس بغموض قوله فأضاف « ثم هو تجسد للأصوات فأعذب ألحانها والطبيعة فى أجمل مظاهرها » فكان غموضاً بعد غموض .

وحاول تعريفه الشاعر الإنجليزى الفحل « شلى » فكان الشعر عنده « هو الكاشف النقاب عن الجمال الخبأ فى هذا العالم » ، شاعر يعرف الشعر بالشعر !

وكاننا بيبكون تحير مثل حيرتنا وأحس مثل إحساسنا ، فقال :
Plus de cent an quants frangmens poetiques ، وإذن فعلى أى أساس سأبنى هذا التعريف ؟ بأى دليل علمى نحس ، سأقارن بين شعر وشعر وبأى ميزان سأزن ؟

إنما سأقارن وأنقد مستمداً ما أبتنه وما أفصله من فهمى الخاص وذوقى الخاص مستعيناً - بلا ريب - بما أفادتني دراسة النقد الأدبى ، وما أكسبنيته اتصالى به ، ذلك النقد الأدبى الذى يحاول أن يكون علماً كالعلوم وأن تكون له قوانين كقوانين العلوم المضبوطة Exacte Sciences من رياضية وطبيعية ، وأظنه مستطيعاً .

لا تطمع إذن في فوارق وفواصل واضحة وضوح الشوارح المنطقية ظاهرة الحدود ظهور الرسوم الميزانية لا تكلفني ما لا تكلفه نفسي لأن المقياس العلمى غير موجود .
وهب أن ذلك المقياس العلمى الذى يقاس به الشعر كان موجوداً وفي يميني ، أفكنت تطمع في هذه الفواصل والحدود ؟

هيهات ! فليس بين الشعر والشعر مثل هذا البعد ، الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان ، فطبعي أن يتشابه ذلك الأثر المتصل «بأعمق البواطن الإنسانية» وإن اختلفت مصادره وتنوعت مراميها .

لكن مقارنة هذا التمهيد ليست مستحيلة وإن كانت عسيرة - هي عسيرة لأن الناس كما يقول ابن خلدون متشابهون مهما اختلف أزمنتهم وأمكنهم ، وهي غير مستحيلة لأن الناس كما يقول ابن خلدون مختلفون مهما تشدد بينهم وجوه الشبه .
الناس كذلك ، والأدب هو المرآة التي تنعكس عليها الحياة الإنسانية . الأدب الأموى والعباسي متشابهان لكنها مختلفان ، ونرجو أن نقدم لك من كل عصر صورة واضحة بعض الوضوح ، ولا نطمع إلى أبعد من ذلك .
لشد ما يخطئ Renan إذ يقول في كتابه .

L'Avenir de la Science "L'étude de l'histoire littéraire est destinée a remplacer en grande partie la lecture directe des oeuvres de l'esprit. humain".

أسرف Renan. برغم تحفظه، فتاريخ الأدب لا يغني كثيراً ولا قليلاً عن قراءة الأدب ، وكان ينصف لو أنه قال إن تاريخ الأدب يعين على فهم الأدب .
نحن نطمع أن نقدم لك صورة واضحة بعض الوضوح ، أما الصورة الواضحة فلن يظهرها عليها سوى نصوص الشعر الأموى ونصوص الشعر العباسي .

الثورة على القديم

تمهيد :

نسج الأمويون على منوال الجاهليين في استهلال القصائد بالوقوف على الدمن والبكاء على الطلول ، ثم وصف الآرام^(١) والصحراء والنوق .

فيقول امرؤ القيس :

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
فَتَوَضَّحَ فَالْمِقْرَاءِ لَمْ يَعْفُ رَسْمَهَا لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جُنُوبٍ وَشَمَالٍ^(٢)

ويقول طرفة بن العبد :

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِيرْقَةٍ تَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطْيِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَلَّدِ^(٣)

ويقول زهير بن أبي سلمى :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تُكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَثَلِّمِ
وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مَعْصَمِ^(٤)

ويقول لبید :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمَنَى تَابَدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا
فَمَدَافِعُ الرِّيَانِ عُرَى رَسْمَهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيُ سِلَاقُهَا^(٥)

وقوله :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدٍ نَعَمْ أَوْ رَمَاكَ الشُّوقُ قَبْلَ التَّجَلَّدِ
وَدَرَجُ الْأُمُويِّينَ عَلَى هَذَا الْمَنَاجِ :

(١) الآرام : من الظباء ، وهي خالصة البياض وتسكن الجبال

(٢) الديوان ص ١٢٤ من طبعة حسن السندوي

(٣) الديوان ص ٣ من طبعة أوروبا ١٨٢٩

(٤) الديوان ص ٣ ، ٤ من طبعة برلين ١٩٠٥

(٥) الديوان ص ٤٨ من طبعة الدكتور إحسان عباس ، وطه حسين : حديث الأربعاء ص ٣٣ من طبعة الحلبي ١٩٣٧

فيقول جرير :

لِمَنِ الدِّيَارُ رُسُومُهُنَّ خَوَالِي أَقْفَرْنَ بَعْدَ تَأْنُسٍ وَجِلَالِ
عَفَى الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزِلِنَا بِهَا مَطَرٌ وَعَاصِفٌ نَبْرَجٍ مِجْفَالِ^(١)

ويقول الفرزدق :

أَتَنَسَى يَوْمَ حَوْمِلٍ وَالدَّخُولِ وَمَوْقِفِنَا عَلَى الطَّلَلِ الْمَمِيلِ
وَقُلْتَ قَدْ نَحَلْتَ وَشَبْتَ بَعْدَى يَحِقُّ الشَّيْبَ بَعْدَكَ وَالنَّحُولِ
فَإِنْ كَانَ يَمْدَحُ فَهُوَ مُنْتَقِلٌ مِنَ الْأَطْلَالِ أَوْ الْغَزْلِ إِلَى وَصْفِ الصَّحْرَاءِ ثُمَّ النَّاقَةِ الَّتِي رَكَبَهَا فِي
طَرِيقِهِ إِلَى الْمَدُوحِ .

فيقول النابغة :

كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ
فَتَلَّكَ تُبْلِغُنَّ النُّعْمَانَ إِنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبَعْدِ^(٢)

ويقول :

وَكَمْ كُفِّتَ دُونَكَ مِنْ سَهُولٍ وَمِنْ لَيْلٍ يُوَصِّلُ بِالنَّهَارِ
وَأَنْ الْعَيْسَ قَدْ رَفَعْتَ إِلَيْكُمْ بَعِيدَ الْأَهْلِ مُعْتَمِدَ الْمَزَارِ
أَوْ بَعْدَ وَصْفِ النَّاقَةِ :

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَحَلَهَا عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ
وَكَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي الْأَسْتِهْلَالِ وَالِانْتِقَالِ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْقِدَاسَةِ وَشَيْءٌ مِنَ الْحَرَمَةِ لَا يَجُوزُ
أَنْ يَتَخَطَّاهُمَا شَاعِرٌ ، فَقَدْ عَرَّفَ الشَّعْرُ ابْنَ خَلْدُونَ ، ذَلِكَمُ النَّاقِدُ الْجَبَّارُ ، فَقَالَ « هُوَ الْكَلَامُ
الْمُوزُونُ الْمُقَفَّى . . . الْجَارِي عَلَى أُسَالِيبٍ مَخْصُوصَةٍ » . وَأَنْكَرَ الْقِدَمَاءُ عَلَى الْمُتَنَبِّيِّ وَأَبَى الْعِلَاءُ
شَاعِرَيْتَهُمَا ، بَلْ قَالُوا هُمَا فِيلَسُوفَانِ أَوْ حَكِيمَانِ . أَمَّا الشَّاعِرُ فَهُوَ الْبَحْتَرِيُّ لِأَنَّهُ لَزِمَ عَمُودَ الشَّعْرِ
الْعَرَبِيِّ . وَقَالَ دَعْبَلُ : لَنْ كَانَ كَلَامُ أَبِي تَمَامٍ شِعْراً فَشَعَرَ الْعَرَبُ كُلُّهُ بَاطِلٌ !
هَذَا التَّقْدِيرُ لَهُ أَمْثَلَةٌ فِي آدَابِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى وَهُوَ جُحُودٌ ، مَنْشِؤُهُ التَّقْلِيدُ لَا يُنْجِزُ النَّاسَ
مِنْهُ إِلَّا ثَوْرَةً مُتَّصِلَةً تَنْبِهَ النَّاسَ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى فُسَادِهِ .

(١) الديوان ص ٤٦٦ من طبعة الصاوي

(٢) الديوان ص ٢٥ ، ٢٩ من طبعة مطبعة السعادة بمصر

التزعة إلى الجديد والثورة على القديم في العصر العباسي :

أدر الكأس أن تسقينا وانقر العود إنه يلهينا
ودع الوصف للطلول إذا ما دارت الكأس يسرة ويمينا^(١)
الشاعر الأموي كالجاهلي حليف أسفار أنى رحل ففي رأسه ذكريات وفي قلبه وجيف يذكره
بعهد غابر طلل دارس فهو على دمنه واقف وعلى أيامه ولياليه لاهف . حياته ستتسع لهذه
الذكريات أو هي لا تتسع إلا لها ويقتضى ذلك الوفاء للراحل والمقيم ، فهو رجل بدوى
أو كالبدوى يحيا حياة ساذجة لا هو فيها ولا فتنة فيشغل بهما « عن حبيب ومترل » .
ومن الطبيعي أن تتسع حياة قوم للهوى العذرى وحياة آخرين للهوى الحجازى .
أما الشاعر العباسي ففي حياته ما يشغله عن الحبيب الراحل والطلل البالى ، في بغداد هو
وقصف ، في بغداد قينة و غلام وغناء وراح .

أجل ! لقد تطور الشعر العباسي لأن الحياة تطورت ، ولكن الشعر يغير الشعر ، لأن
الزمن يغير الزمن ، وإني لتارك الكلام لأبى نواس فهو قائل عنى ما أريد قوله :
صاح مالى وللرُسوم القِفَارِ ولنسعتِ المطى والأكوارِ
شغلتنى المدام والقصفُ عنها بقراع الطنبورِ والأوتارِ
واستماعى الغناء من كل خود ذاتِ دلٍّ بطرفها السحارِ
فدعوني فذاك أشهى وأحلى من سؤالِ الثرابِ والأحجارِ^(٢)
وقوله :

أحسنُ من مترلٍ بذى قارِ	منزلُ خمارة بالأنبارِ
وشمُ ريحانةٍ ونرجسةٍ	أحسنُ من أينقٍ بأكوارِ
وقبله لا تزال تخلصها	من رشأٍ عاقد الزنارِ
ألدُّ من مَهمٍ أكيدُ به	ومن سرابٍ أجوبُ غرارِ
ونقرُ عودٍ إذا تُرجَّعه	بنانُ رُودِ الشَّبابِ معطارِ

(١) ديوان أبى نواس ص ٣٣٨ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٦٧٦ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

أحسن عندي من أم ناجية وأم عمرو وأم عمارة^(١)
وقوله .

دع الوقوف على رسم وأطلال ودمنة مثل سحق اليمنة البالي
وعج بنا يجتلي حمراء واقدة في حمرة النار أوفى رقة الآلى
لم يذهب الدهر عنها حد سورتها ولم ينلها الأذى في دهرها الخالى
في بيت كافرة بالخمير تاجرة شمطاء شاطرة تعتر بالوالى
وعندها قر في طرفه حور في دله خفر في حسن تمثال
فعاكه خنث مؤنث أنث في طرفه نفث قتال أبطال
فذاك أهناً من ربع وراحلة ومن وقوف على ربع بأطلال^(٢)

ترى أننى أكثر من ذكر أبي نواس وأستشهد بشعره . وألح في تصويره وأخشى أن يتهمنى أحد بالإسراف قائلاً : إن أبا نواس ليس يصور إلا جماعة من المجان في ذلك العصر ، وقد وجه فعلاً ذلك الاعتراض إلى بعض أساتذتنا يوماً من الأيام إذ كان ينشر في بعض الصحف صوراً من العصر العباسي ، ورد عليه الأستاذ بعد أسبوعين من نشره رداً لا يزال عالقاً بذهني لأنه يمثل الخصومة بين شيعة القديم ومقدسيه وبين قوم آخرين ، وكان في استطاعتي أن أغفل ذكر أبي نواس ، وأنا أحدثك عن هذا التجديد في العصر العباسي فليس أبو نواس المجدد الوحيد ، بل كان في استطاعتي أن أصور التجديد في هذا العصر مستشهداً بنكرة من النكرات ، إذ أقيس الفحول - مستشهداً بآثار شاعر كمطيع بن إياس ، القائل :

لأحسن من ييد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلماً
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه صرعى
لكنني أعدل عن مطيع وأعدل عن شعر المجددين من فحول شعراء العصر إلى أبي نواس لا لشيء إلا لأن أبا نواس وشعر أبي نواس يمثلان عصر أبي نواس تمثيلاً واضحاً كل الوضوح .
ليس أبو نواس ممثلاً لفرقة من الفتيان المجان ، كما قد يظن بل يمثل أبو نواس المجتمع البغدادي ، يمثل كثيراً من أهل بغداد دهماءها وفضلاءها على السواء . ولم يكن أبو نواس

(١) الديوان ص ١٦٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٢) الديوان ص ٦٨٠ من الطبعة السابقة

نكرة من النكرات ، وإنما كان نديماً للخليفة جليساً وزعيماً للشعراء تلميذاً أو أستاذاً للعلماء حتى لعلماء الدين ، فابن عساكر في كتابه «تاريخ دمشق» يذكر أن أبا نواس روى الحديث عن حماد بن حماد ، وحماد بن زيد وأزهر بن السمان وغيرهم ، وروى عنه عمرو بن الجاحظ ويعقوب بن زيد الفارسي ومحمد بن إبراهيم ومحمد بن إدريس الشافعي وغيرهم ، وأهل الفقه والعلماء يعرفون أقدار من ذكرنا .

ودخل أبو عمرو الشيباني على المأمون فسأله من أشعر الناس ؟ فأجابه « لقد اختلف في ذلك ، فقبل امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابعة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب » فقال له المأمون : دعني من كل هذا ، فمن الذي يقول :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ فَدَهْرُ شُرَابِهَا نَهَارُ^(١)
ومن الذي يقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ^(٢)
ومن الذي يقول :

إِذَا مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى دَعَاهُمُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ^(٣)
قال : أبو نواس .

فأجابه : هو أشعر الأولين والآخرين .

فلسفة أبي نواس :

أبو نواس مازح طروب ينظر إلى الحياة نظرة الفيلسوف المتفائل يسخر من أولئك الذين ينظرون إليها من خلال النظارة السوداء لأنه لا يعرف الحزن ، أولاً لأن الحياة عنده أهون من أن يحزن عليها ، هو لا يعرف الحزن ، ولم يحزن والأرض زهراء والخمر شمطاء ! إنه لا يحزن بل يقول للحزين :

أَمَا يُسْرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ زَهْرَاءُ وَالْخَمْرُ مَمَكِنَةٌ شَمَطَاءُ عَذْرَاءُ

(١) أبو نواس : مختار الأغاني لابن منظور ج ٣ ص ٣٨

(٢) الديوان ص ٤١ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٧٣ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٣) الديوان ص ١٦ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

ما في قعودك عذرٌ عن مُعْتَقَةٍ كالليلِ والدُّهَاءِ والأُمِّ خُضْرَاءِ
 بادِرُ فَإِنْ جَنَّانِ الْكَرْخِ مُونَقَةٌ لَمْ تَلْتَقِفْهَا يَدٌ لِلْحَرْبِ عَسْرَاءُ^(١)
 عفا الطلل ! فليعف ولتعف معه الطلول ! إنه لا يبكي عليها بل هو يريد أن يحتلب من
 الحياة ثديها الحلو .

دعِ الرُّبْعَ ما للرُّبْعِ فيكَ نصيبٌ وما إن سَبَّني زينبٌ وكَعُوبُ
 ولكن سَبَّني البابليةُ إنها لَمَثَلِي في طولِ الزمانِ سَلُوبُ^(٢)
 ويقول :

مَالِي وَدَاراً دَرَسْتُ اسْتَوْحَشْتُ أُمِّ أَنْسَتْ
 وَمَا أَذْكَارِي دِمْنًا وَسَطَّ عِرَاصِي رُمِسَتْ
 وَعَرِصَةٌ كَانَ بِهَا طَالَ بِهَا مَا خَرَسَتْ
 وَأَتْرَكْتُ الْكَرْمَةَ لَا أَبْكِي لَهَا إِذْ يَسَتْ^(٣)
 لَمْ يَصِفُ الْأَطْلَالُ وَيَبْكِي عَلَيْهَا ، إِنَّمَا دُنْيَاهُ دَارُ فَانِيَةٍ ، فَلَمْ لَا يَسْتَبِقْ إِلَى لَذَّتِهَا ؟
 أَتَرَكَ الْأَطْلَالَ لَا تَعْبَأُ بِهَا إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَةٌ
 وَاشْرَبِ الْخَمْرَ عَلَى تَحْرِيمِهَا إِنَّمَا دُنْيَاكَ دَارُ فَانِيَةٍ^(٤)
 لَمْ لَا يَسْتَبِقْ إِلَى « فَرَاةِ الْكَرْبِ » يَنَادِيهَا وَيَشْكُو هُمُومَهُ ؟ إِنَّهُ لَيْسَ خَلِيًّا مِنَ الشَّجَى وَهَلْ
 خَلَا مِنْ شَجْنِهَا وَشَجَاهَا أَحَدٌ ؟

أَدِيرَا عَلَى الْكَأْسِ تَنْكَشِفُ الْبَلَوُ وَتَلْتَدُ عَيْنِي طَيْبَ رَائِحَةِ الدُّنْيَا^(٥)
 وَصَاحِبُنَا مَقْبَلُ عَلَى الدُّنْيَا وَدَّ لَوْ أَزْدَادَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ إِقْبَالًا فَيَزْدَادَ بِإِقْبَالِهَا عَلَيْهَا وَيَلْذُ
 بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ الْمَلْتَدُ .

وَلَوْ أَنَّ مَالِي يَسْتَقِلُّ بِلَدِّي لِأَنْسَيْتُ أَهْلَ اللَّهْوَ كَسْرِي وَقِصْرًا^(٦)

(١) الديوان ص ٧٠٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٢) الديوان ص ١١٠ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٣) عبد الرحمن صدقي : ألحان الحان ص ١٩٢ من طبعة دار المعارف ١٩٥٧

(٤) الديوان ص ١١٩ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٥) الديوان ص ١١٩ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٦) الديوان ص ٦٨٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

اللذة هي اللذة فهو يريد أن يحصل عليها من أى سبيل ، لتكون حراماً أو غير حرام
إن كنّا لا تشربان معي خوف العقاب شرئها وحدى^(١)
ويقول :

وإن قالوا حرام قل حرام ولكن اللذّة في الحرام^(٢)
يريد اللذة ، فما للدين وماله ، لا الدين يمنع ، ولا الاحتشام أمام الناس يردعه :
ترك الصُّبُوح علامة الإِدْبَارِ فاجعلُ قرارَكَ عَرَصَةَ الخَّارِ
لا تُطْلِعِ الشَّمْسَ المنيرة ضَوْءَها إلا وأنتَ فضيحة في الدار^(٣)
رجل يئس من الحياة زاهدٌ فيها يلهو باللذات :

لا الصُّوْلَجَانُ ولا الميدان يعجبني ولا أحنُّ إلى صوتِ البَواشِيقي
لكنّا العيشُ في اللذاتِ متكئاً وبالسَّماعِ وفي مَجِّ الأَبَارِيقِ^(٤)
يعنى يتقاسمها الزهد واليأس وهى مع ذلك - أو لذلك - مقبلة على لذات الحياة فى شره
ونهم .

وشاعرنا لا يريد أن يغنم اللذة وحده ، بل يريد أن يشرك الناس معه ، وهو كعادته يأبى
إلا أن ينصب نفسه معلماً للناس (الخمر عذراء) والرياض موقنة واللهو مباح فلم لا يشترك
الناس معه فى سروره .

يا إخوتى ذا الصُّباحُ فاصطَبِّحُوا فقد تَغَنَّتْ أَطيارُهُ الفُصْحُ^(٥)
ويقول :

لا تَبْكِ ليلي ولا تَطْرُبْ إلى هند واشربْ على الوردِ من حَمراءِ كالوردِ
كأساً إذا انحدرتْ فى كَفِّ شاربِها أَجَدَّتْهُ حُمُرتها فى العينِ والخَدِّ^(٦)
هذه دعوة أبى نواس الفلسفية فهل هى رسالة جديدة انفراد بها ؟ ليس كذلك بل هى

(١) الديوان ص ١٨٢ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٢) الديوان ص ٦٩٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٣) الديوان ص ٦٨٤ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ٤٣ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٥) الديوان ص ٤٤ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٦) الديوان ص ٢٧ من طبعة مطبعة مصر بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

فلسفة العصر أوجدتها الحياة وخلقتها الظروف المشتركة فهي في أبي نواس صدى لما تردد في صدور الناس .

لكن صاحبنا فنان وله دعوة في الفن جديدة ودعوته نبذ القديم من أساليب الشعر لأنه أصبح لا يلائم الحياة الواقعية ، فما دعوته في الواقع إلا وليدة الدعوة الأولى ، فهي كذلك صدى لما جال في خواطر أبناء العصر الجديد ، إنما كان أبو نواس جريئاً ، فجاهر بالدعوة وألح فيها . والدليل على أن الأمر كان يتطلب جرأة أن أبا نواس اضطر إلى مسامرة المذهب القديم أكثر من مرة ، وكان السلطان أشد الدعاة له ، فقد لام أبا نواس لعدوله عنه ، كما سنين .

حمل أبو نواس على المذهب القديم وأخذ يتهم على أصحابه في لغة لاذعة :

يا نجى الديار كيف تناجيه لك ديار من الأنيس خلاء
ليس فيها إلا الجنادل والصُّمُّ هُمُّ وهام تجيها الأصداء
وقبيح بعد الثلاثين والعش رين بدا لشييه الكبير البكاء
وقوله :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسَ واقفاً ما ضَرَّ لو كان جلس^(١)
وما فتئ يدعو إلى التحلل من هذه الأساليب العتيقة :

لستُ لِدَارٍ عَفَتَ بِوصَافٍ ولا على رَبْعِهَا بِوَقَّافٍ
ولا أُسْلَى الهُمومَ في غَسَقِ الدَّ ليلٍ بِحَادٍ في البِيدِ عَسَافٍ
لكنْ بوجهِ الحبيبِ أَشْرُبُهَا بين ندامى وبين أَلْفِ
فذاك أَشْهَى من الوقوفِ على رسمٍ لَأَسْمَاءَ آيةُ عافٍ^(٢)
وقوله :

يا واصلف البید والقفار ویا واصف أسرارها ومكاهها
أحسن من ذاك نعت صافية تنزو إذا ما تدرعتها ماها^(٣)
وقوله :

يَاطِلُّلا غير مأنوس قد حف بعد النعيم بالبوس

(١) الديوان ص ١٣٤ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ١٤٩ من طبعة مطبعة مصر

(٣) الديوان ص ٢٤٠ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

لم يلمنى فيك غير صافية خيرية من بنات قابوس
أخنى عليك الزمان كلكله واكتنفها جنود إبليس
تاهت علينا بمنظر أنق وزهو نفس كزهو بلقيس
وقوله :

فاسقنيها وغنّ صو تا لك الخَيْرُ أعجا
ليس في نعت دمنة لا ولا زجر أشأما^(١)

أبو نواس يبشر بالخمير ويهلل لها ويدعو إلى وصفها ، فهل ذلك كل حظه من التجديد ،
يجب أن تفهم هذه الدعوة بأوسع معانيها ، فقد وهم الأستاذ «جورجي زيدان» وظن أن
الأمر لا يعدو أبياتاً عرضية تخالف القديم مخالفة غير مقصودة ، والواقع أنها دعوة مقصودة
وأنها دعوة جدية سلك فيها صاحبها السبيل الوحيد الذي يسلكه كل داعية جادٍ في دعوته .
ليست دعوة أبي نواس مقصورة على وصف الخمر ، ولو كانت ، لما اعتبرنا أبا نواس مجدداً ،
وما أحدث أبو نواس شيئاً . فالواقع أن في استهلاله بالخمير دعوة إلى وصف الحياة الجديدة
بكل ما فيها ، فهو إن يكن قد استهل بالخمير فقد أتبعها بوصف الغلام مرة :

ولما استقرت في يميني قرعتها فدارت حما حمياها على ظهر كوكب
تدير عيوناً شاخصات كأنها نواظر مكرور على ظهر أشعب
يطوف بها ساق أغن كأنه من الوحش مكروم بدا وسط ربرب
يعطف أصداعاً على وجناته فتذهب بالأحداق في كل مذهب
ويخطو بردف حشوه اللين وافر له شهوة تقضى على كل أعزب
وينظر من عيني غزال مكحل ويضحك عن صاف من الدر أشنب
وكم من غزال صدّعي معرضا
وقوله :

كأن الزُّجَاجَ البيضَ منها عرائسُ عليهنّ بين الشَّربِ أُرْدِيَةُ حُمُرُ
إذا قُهِرَتْ بالماء راق شعاعُها عيُونُ الندامى واستمرَّ بها الأمرُ
وصار من الدر المُضَاعَفِ فوقه بدر ومرجان تألفهُ الشَّدْرُ

(١) الديوان ص ٣٢٧ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨ والأغاني ج ٢٩ ص ٩٨٥٤ من طبعة الشعب .

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ فِيهَا رَوَاكِدُ
وَضَبِي خُلُوبِ الظِّي حُلُومِ كَلَامِهِ
نَحَلَتْ لَهُ مِنْهَا فَخْرٌ لَوَجْهِهِ
وَقَلْبُهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَتَارَةً
إِلَى أَنْ تَجَلَّى نَوْمُهُ عَنْ جَفُونِهِ
فَأَعْرَضَ مُزَوَّرًا فَكَانَ بِوَجْهِهِ
فَمَا زِلْتُ أَرْقِيهِ وَأَلْتَمِ خَدَّهُ
أَلَا يَا اسْلَمَى يَا دَارَ مَيٍّ عَلَى الْبَلَى

أَوْ هُوَ يَتَّبِعُهَا بِذِكْرِ قَيْنَةٍ أَوْ سَاقِيَةٍ فَيَصِفُ وَيَتَغَزَلُ :

قَدْ عَتَّقْتُ فِي دَنِّهَا حَقَبًا
سَلَبُوا فَقَاعَ الدَّنِّ عَنْ رَمَقٍ
فَتَنَفَّسْتُ فِي الْكَاسِ إِذْ مَزَجْتُ
دَارَتْ فَوَاقِعُهَا لِنَازِلِهَا مَتَصْنَعًا
مَنْ كَفَّ سَاقِيَةٍ مُقَرَّطَقَةٍ
نَظَرْتُ بَعِينِي جُوذِرٍ خَرَقٍ
فَشَرِبْتُ مِنْ فِيهَا وَمِنْ يَدِهَا
قَالَتْ وَقَدْ جَعَلْتُ تَمَائِلُ لِي
حَتَّى إِذَا آلَتْ إِلَى النُّصْفِ
حَيُّ الْحَيَاةِ مُشَارِفِ الْحَتْفِ
كَتَنَفُّسِ الرِّيحَانِ فِي الْأَنْفِ
بِخِلَافٍ مَا يُخْفِي
نَاهِيكَ مِنْ حَسَنِ وَمِنْ ظَرْفِ
وَتَلَفَّتْ بِسَوَالِفِ الْخِشْفِ
وَرَشَفَتْ غَيْرَ مَلْعَنِ رَشْفِي
كَتَمَائِلِ الْمَاشِي عَلَى الدَّفِّ
إِلْخ (٢)

أَوْ هُوَ يَتَّبِعُهَا بِوَصْفِ الْمَكَانِ :

جَاءَتْكَ مِنْ بَيْتِ خَمَارٍ بَطِينَتِهَا
فَقَامَ كَالْبَدْرِ قَدْ شَدَّتْ مَنَاطِقَهُ
فَسَلَّهَا مِنْ فَمِ الْإِبْرِيقِ فَانْبَعَثَتْ
يَا حُسْنًا وَبِحَارِ الْقَصْفِ تَغْمَرُنَا
صَهْبَاءُ مِثْلَ شِعَاعِ الشَّمْسِ تَتَقَدُّ
ظَبْيٌ يَكَادُ مِنَ التَّهْيِيفِ يَنْعَقِدُ
مِثْلَ اللِّسَانِ جَرَى وَاسْتَمْسَكَ الْجَسَدُ
فِي لُجَّةِ اللَّيْلِ وَالْأَوْتَارُ تَغْتَرِدُ

(١) الديوان ص ١٠٠ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر

في مجلسٍ حوله الأشجارُ مُحَدِّقَةٌ وفي جوانبه الأنهارُ تَطَّرِدُ^(١)
وقوله :

فَعَاطِ نَدَمَانِكَ مِنْ خَمْرَةٍ مزاجُها من مُعْرِقِ الْقَطْرِ
على خِزَامَاهَا وَحَوَازِيهَا ومَشْكِلٍ من حُلَلِ الزُّهْرِ
في مَسْرَحٍ يَرْتَعُ أَكْنَافُهُ شَوَادِنُ من بَقَرِ زُهْرِ
يا حَبِذا الصُّبْحَةُ في العُمُرِ وحَبِذا نَيْسَانُ من شَهْرِ^(٢)
أَوْ هُوَ يَتَّبِعُهَا بِالتَّحَدُّثِ عَنْ نَدَمَائِهِ :

وَنَدَمَانٍ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ بَأَنْ يُمَسِّيَ وَلَيْسَ بِهِ انْتِشَاءُ
إِذَا نَادَيْتَهُ مِنْ نَوْمٍ سَكْرٍ كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ
وَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ إِيَّاهُ دَعْنِي وَلَا مُسْتَخْبِرٍ لَكَ مَا تَشَاءُ
إِذَا أَدْرَكَتْهُ فِي الظَّهْرِ صَلَى وَلَا عَصْرٍ عَلَيْهِ وَلَا عِشَاءُ
يَصَلِي هَذِهِ فِي وَقْتِ هَذِي فَكُلْ صَلَاتِهِ أَبَدًا قَضَاءُ
وَذَا مُحَمَّدٌ تَفْدِيهِ نَفْسِي وَحَقٌّ لَهُ وَقَلٌّ لَهُ الْفِدَاءُ^(٣)

هذه هي الحياة الجديدة في بغداد يصفها أبو نواس ، كما ترى ، وصفاً شاملاً . هذه حياة الناس ، إلا أن أبا نواس كان أجراًهم ، ولترى كيف أن الأمر كان يتطلب جرأة ، أعرض عليك من شعر أبي نواس هذه الأبيات :

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللُّومِ لُومًا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيمًا
نَالِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
فَاصْرِفَاها إِلَيَّ سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا قَعَدِي يُزِينُ التَّحَكِيمَا
كُلٌّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرْ بٍ فَأَوْصِي الْمُطِيقَ أَلَّا يُقِيمَا^(٤)

(١) الديوان ص ٧٩ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ٨٢ من طبعة مطبعة مصر

(٣) الديوان ص ٢٣ من طبعة مطبعة مصر والأغاني ج ٢٩ ص ٩٩٠٠ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٢٩ من طبعة مطبعة مصر

وهذه الأبيات الأخرى :

أعاذلَ بَعْتُ الجَهلَ حيثُ يباعُ وأبرزتُ رأسَ ما عليه قناعُ
 نهاني أمير المؤمنين عن الصُّبا وأمر أمير المؤمنين مُطاع
 ولهو لتأديبِ الأمير تركتهُ وفيهِ لِإِلَهِ منظرٌ وسَماعُ
 ورِيانَ من ماءِ الشباب كأنما يُظَمَّأُ من ضَمَرِ الحِشا وَيُجَاعُ
 صبرت عليه النفس دون مدامَةٍ هي اليومَ حربٌ وهى بَعْدُ شِيعٌ^(١)

وإذن فالخليفة لام أبا نواس في الخمر ونهاه عنها ، فهل كان الخليفة يكرهها حتى يحرم ذكرها ، عندى أن الخليفة كان يشرب الخمر كما كان يشربها الناس ، كان الخليفة يلهو كما يلهو الناس ، وربما كان أسبقهم إلى ذلك والأدلة كثيرة .

والناس كانوا ينهون ، وما الناس إلا على دين ملوكهم ، لكن الخليفة مع ذلك كره أن يذاع هذا الشعر في الناس وهو إمامهم في مسوح الرهبان وثياب الأولياء فيقولون ماله يغضى عن شعر أبي نواس .

وفي الحق أن أبا نواس كان يعبث بالخليفة ، كان يصف الخمر والغلام ، كما كان يفعل ، ثم يحامل السلطان بيت أوبيتين ، كقوله :

لوترى الشَّربَ حولها من بعيد قلتَ قومٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُّونَا
 وغزالٍ يُدِيرُهَا بِبَنانٍ ناعماتٍ يَزِيدُهَا الغَمَزُ لِينَا
 كلما شِئْتُ عَلَّنى بَعْضابٍ يترك القلبَ للسُرورِ قَرِينَا
 ذاكَ عَيْشٌ لودامَ لى غيرَ أنى عِفَّتُهُ مَكْرُهَا وَخِفْتُ الأَمِينَا^(٢)

يذكرنا موقف أبي نواس مع الأمين بموقف بشار مع المهدي ، كلاهما كان يمجن في شعره ، وكلاهما نهاه الخليفة عن الخمر ، كلاهما عبث في شعره بالخليفة عبثاً .

انظر إلى أبي نواس كيف يهزأ بالخليفة ويذكر نهييه ثم يعبث به ، ويمضى في وصف الخمر :

أَطِيعُ الخَلِيفَةَ واعصِ ذا عِزِّ وتَنَحَّ عن طَرَبٍ وعن قَصْفِ
 عَيْنُ الخَلِيفَةِ بى مَوَكَّلَةٌ عَقَدَ الحِذَارُ بطرفها طرفى

(١) الديوان ص ١٢ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ٣٠ من طبعة مطبعة مصر

فلئن وعدتكَ تركها عدةً إني عليكَ لحائفَ خلفي
ومدامة يحيا الملوك يبابها جلّتْ مآثرُها عن الوصفِ
قد عتقت في دنّها حقباً حتى إذا آلتُ إلى النصفِ^(١)

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فالخليفة لم ينه أبا نواس عن وصف الخمر لأنها الخمر فحسب بل نهاه لأن في مذهبه الجديد عدولاً عن أساليب القدماء التي اصطلاح الناس على أنها أساليب الشعب العربي ، فالعدول عن أساليب القدماء كان يتطلب كذلك جرأة ، فإن سألتني فيم الاجترأ ؟ تركت أبا نواس يرد عليك :

أعزَّ شعركَ الأطلالَ والدّمَنَ القفراً فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى وصف الطلولِ مُسلّطُ يضيقُ لساني أن أجوزَ له أمراً
فسمّعُ أمير المؤمنين وطاعةً وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرأ^(٢)

ولقد سمع صاحبنا وأطاع مجاملاً الخليفة مهادنا أنصار القديم غير مرة ، فقد استهل عدداً من قصائده بوصف الطلول :

لمن الديارُ تسرّبتْ ببلاها أنستك ربّتها وما تنساها^(٣)
وأعقب ذكر الربوع بوصف الناقة ، ثم عطفها إلى الممدوح ، كما كان يفعل القدماء تماماً :

أربع البلى إن الخشوع لبادى عليك وإني لم أخنك ودادى
فمعدرة منى إليك بأن ترى رهينة أرواح وصوت غوادى
ولا أدراً الضراء عنك بحيلة فمايك فيها قائل بسعاد
وإن كنت قد بدلت بؤساً بنعمة فقد بدلت عيني قذى برقاد
سأرحل عن قود المهادى شملةً مسخرة لا تستحث بحادى
مع الريح إن فأت وإن هى أعصفت تهوس برأس كالقلاة وهاد
فكم حطمت من جندل بمفازة وخاضت كتيار الفرات بواد

(١) الديوان ص ٦٦ من طبعة مطبعة مصر

(٢) الديوان ص ٢١ من طبعة مطبعة مصر

(٣) الديوان ص ٤٩٦ من طبعة مطبعة مصر

وما ذاك في حب الأمير وزوره ليعدل من عنسى مدب قراد^(١)
«لمن طلل ، لم أشججه وشجاني» و«عوجا صدور النجائب . . .» و«أربع على الطلل
الذي انتسفت . . .» و«دمن ألم بها فقال سلام» و«يا دار ما صنعت بلك الأيام» .
لكن الرجل وطد دعامة بنيانه فتبعه نفر من الشعراء غير قليل ، بل كانوا يقلدونه حتى في
المعاني البسيطة فإذا قال أبو نواس :

لما نظرت إلى الكرى في عينه قد عقل الجفنين بالإغفاء
حركته بيدي وقلت له انتبه يا سيد الخلطاء والندماء^(٢)
حرص على تقليده الرقاشي ، وقال :
نَبَّهْتُ نَدْمَانِي الموفى بِذِمَّتِهِ من بعد إتعاب طاسات وأقداح^(٣)
وإذا قال أبو نواس :

فناولته كأساً جلت عن فؤاده وأتبعها أخرى فثاب له لب
إذا أرعشت يمينه بالكاس رقصت به ساعة حتى يسكنها الشرب
فغنى وما دارت له الكاس ثالثاً «تعزى بصبر بعد فاطمة القلب»^(٤)
فالرقاشي قائل :

فما حسا ثانياً أو بعضَ ثالثة حتى استدار وردّ الراح بالراح
فقال خذْ واسقني واشربْ وغنْ لنا يا دار مَثْوَى بالقاعين فالساح^(٥)

فها أنت ذا ترى أن حركة التجديد كانت ذات خطر وأثر ، وأن عامة الشعراء كانوا يتأثرون
بزعماء الشعر تأثراً قوياً جداً ويحاكونهم محاكاة واضحة جداً ، كما يتأثر اليوم عامة الأدباء
بزعماء الأدب تأثراً قوياً جداً ويقلدوهم تقليداً واضحاً جداً .
وبالإجمال نقول إن أبو نواس وصف كل جديد ودعا الشعراء إليه فتبعه فريق كبير لأن
الحياة أصبحت لا تتلاءم مع الأسلوب القديم ، لأن في الحياة ما شغل عن القديم :

(١) الديوان ص ٧٣ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٢٤١ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٣) ديوان أبي نواس ج ١ ص ٥٣ بتحقيق إيفالد فاغنر من طبعة لجنة التأليف ١٩٥٨

(٤) الديوان ص ٢٤٤ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٥) ديوان أبي نواس ص ٥٣ بتحقيق إيفالد فاغنر والشعر لأبي نواس وليس للرقاشي

ياربع شغلك أنى عنك فى شغل لا ناقتى منك لوتدرى ولا جمل
على عين وأذن من مذكرة موصولة بهوى اللوطى والغزل
ومدرسة مسلم بن الوليد كانت عنايتها بالتجديد الشكلى وستحدث عنها فيما بعد ، ونقول
الآن إنها جددت شيئاً فى المعانى ، فن تجديد مسلم وصفه للسفينة بدلاً من الناقة :
وَمُلْتَطِمِ الْأَمْوَاجِ يَرْمِي عُبَابَهُ بَجَرَجَرَةٍ الْآذَى لِلْعَبْرِ فَالْعَبْرِ
إِذَا اعْتَنَقَتْ فِيهِ الْجَنُوبُ تَكْفَأَتْ جَوَارِيهِ أَوْقَامَتْ مَعَ الرِّيحِ لَا تَجْرِي
كَأَنَّ مَدَبَّ الْمَوْجِ فِي جَنَابَاتِهَا مَدَبُّ الصَّبَا بَيْنَ الْوَعَاثِ مِنَ الْعُفْرِ
كَشَفَتْ أَهَاوِيلَ الدُّجَى عَنْ مَهُولِهِ بِجَارِيَةٍ مَحْمُولَةٍ حَامِلٍ بِكْرٍ
لَطَمَتْ بِخَدَيْهَا الْحَبَابَ فَأَصْبَحَتْ مَوْقِفَةً الدَّايَاتِ مَوْثُومَةً النَّحْرِ
إِذَا أَقْبَلَتْ رَاعَتْ بِقُنَّةٍ قَرْهَبٍ وَإِنْ أَدْبَرَتْ رَاقَتْ بِقَادِمَتَيْ نَسْرِ
تَجَافَى بِهَا النُّوَى حَتَّى كَأَنَّمَا يَسِيرُ مِنَ الْإِشْفَاقِ فِي جَبَلٍ وَعَرٍ
تَخْلُجُ عَنْ وَجْهِ الْحَبَابِ كَمَا اثْنَتْ مُخْبَأَةً مِنْ كِسْرِ سِتْرِ إِلَى سِتْرِ^(١)
والقصيدة طويلة وأنت ترى أنها سمجت بعض الشيء برغم جمال معانيها لإسرافه فى البديع
كما فى قوله « بجارية محمولة حامل بكر » و « لطمت بخديها الحباب » . ولطف بديعه أحياناً فظهر
المعنى رائعاً كما فى قوله :

تخلج عن وجه الحباب كما اثنت مخبأة من كسر ستر إلى ستر
ولا نعرف أن أحداً من القدماء سبقه إلى وصف البحر خلا طرفه بن العبد ، ولأبى نواس
شعر شبيه بهذا ، يصف فيه « حراقات » الأمين .
ونختم هذا الفصل مسجلين أن بشار بن برد هو الأستاذ الأول لمدرستى أبى نواس ومسلم
على السواء .
ولو أمهلنا الوقت لوضحنا ما نريد إيضاحاً ، فرددنا كثيراً من ظواهر شعر أبى نواس والزعيم
الآخر مسلم إلى أصولها فى شعر بشار ، وليته أمهلنا .

أثر الفلسفة اليونانية في الشعر العباسي

الجدل والتدليل المنطقي من أظهر خواص الشعر العباسي ، وهاك الأمثلة :

يقول أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتَق من المال نفسه تَمْلِكُه المَالُ الذي هو مالِكه
ألا إنما مالى الذي أنا مُنْفِقٌ وليس لى المَالُ الذي أنا تَارِكُهُ (١)

ذلك أقرب إلى . دل المناطقة منه إلى خيال الشعراء .

وانظر إلى قول أبان اللاحق :

نشدتُ بحقَّ الله مَنْ كان مسلماً (أَعْمُ) بما قد قتلته العُجَمَ والعَرَبَ
أَعْمُ رسول الله أَقْرَبُ زُلْفَةً لديه أُم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَبِ
وأَيُّهما أُولى به وبعهدِهِ ومن ذا له حَقُّ التَّراثِ بما وجِبَ؟
فإن كان عباسٌ أَحَقُّ بَتَلَكُمُ وكان علىُّ بعد ذاك على سَبَبِ
فأَبْناءِ عباسٍ هُمُ يرثونه كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإِراثِ قد حَجَبَ (٢)

هذا الشعر جدلى محض تأمل كيف يسلك سبيل المناظر الذى يسد على خصمه المسالك فما

يدع له حجة حتى يدحضها ويفندها .

ثم هذان الاصطلاحان المنطقيان (التعميم والرتبة) .

وانظر إلى قول مروان بن أبى - فغصة يجادل الفاطميين :

فإن قالوا بنو بنت فحن ورد ما يناسب للذكور
وما لبنى بنات من حقوق مع الأعمام فى ورق الزبور (٣)

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ٢٧ ص ٩٣١٧ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٤٦٥٥ من طبعة الشعب

يجادلهم بأسلوب من أساليب المناظرة فيقيم حججهم عليهم (معارضة بالقلب) ، تقولون إنكم أبناء فاطمة بنت الرسول ، وهذا صحيح أسلم به ، وهي حجة لنا عليكم لا لكم علينا لأن الأعمام أحق بالميراث من أبناء البنات . . . وإنك لتكاد تلمس هذه الدعوى نتيجة لقياس منطقي تضمنه البيتان .

وكذلك قوله :

هل تَطْمِسُونَ من السماء نجومَهَا بأَكْفُكُمْ أو تسترون هلالَهَا
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبي فقاها
شَهِدْتُ من الأنفال آخرُ آية بترائهم فأردتمُ إبطاها^(١)

زعم وجوب الخلافة للعباسيين لأنهم أعمام النبي وحرمان بنى البنات منها ، والآية التي يشير إليها هي « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله »^(٢) وكأنه أساء فهم الآية واستشهد بها في غير موضع لأنه يريد أن ذوى الرحم يتراحم بعضهم بعضا بحيث لا يزاحمون العصبية في الميراث بل تنفرد العصبية بالاستيلاء على جميع التركة .

وشبيه بهذا الجدل قول مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام^(٣)

وانظر إلى هذا التدليل في قول مسلم بن الوليد :

دَلَّتْ علي عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا ما اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مما كانَ أعطاني^(٤)

كذلك ازدحمت دواوين الشعراء بالاصطلاحات والآراء الفلسفية والعلمية كما في قول أبي تمام :

وقدِمة قبل الزمان حديثة جاءت وما نسبت إلى آناء

روح بلا جسدٍ تعين بلا قوى وقوى خلقنَ خفيةً من ماء^(٥)

فهو يصف الخمر بالقدم والحدوث قبل الزمان ويشبها بالجواهر المجردة التي منها الأرواح

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٣٥٥١ من طبعة الشعب

(٢) سورة الأنفال آية ٧٥

(٣) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٨٩

(٤) الديوان ص ٩٩ من طبعة ليدن ١٨٧٥

(٥) الديوان ص ١٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

التي يسميها بالقوى الخفية المدبرة للأجساد ، ولذلك يدعى قدمها قياساً على قدم النفوس الناطقة كما يزعم أرسطو زعيم الفلاسفة .

وانظر إلى هذه الأبيات من خمريات أبي نواس :

كرخية قد عُنَّتْ حَقْبَةً حتى مضى أكثر أجزاءها
فلم يكد يدرك خمارها منها سوى آخر حوبائها^(١)
فكأنك أمام عالم طبيعي يحدثك عن خواص الأجسام لا أمام شاعر يصف خمرا ، ومن ذلك قول الرقاشي :

ألم تر أن الشيء للشيء علة تكون له كالنار تقدح في الزند
ومنه قول أبي نواس :

مازلت أَسْتَلُّ روح الدُّنِّ في لُطْفٍ (وَأَسْتَقِي دمه غير مجروح)
حتى انشَيْتُ ولى رُوحانٍ في جسدٍ والدنُّ مُفْطِرُحٌ جسماً بلا روح^(٢)
وقوله :

وَذَاتِ خَدٍ مُورَدٍ قوهيَّة المتجرَّد
تَأْمَلُ العين منها مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفَدُ
وبعضها قد تناهى وبعضها يَتَوَلَّدُ^(٣)

وقوله :

تَرَكْتُ مِنِّي قليلاً من القليل أَقْلاً
يكاد لا يتجزأ أَقْلاً في اللفظِ مِنْ لا^(٤)

(١) الديوان ص ٢٣٩ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) هكذا في الديوان ص ٩٢ ورواهما أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب « مختلف الحديث » بشكل آخر

مازلت آخذ روح الدن في لطف وأستبيح دما من غير مذبح

حتى انتشيت ولى روحان في بدن والزق مطرح جسم بلا روح

وصاحب العقد الفريد رواها رواية الديوان إلا أنه نسبها لإبراهيم النظام وراجع فيها كذلك الآمدى : الوساطة بين شعر

أبي تمام والبحري ج ١ ص ٨٥ بتحقيق السيد أحمد صقر من طبعة دار المعارف

(٣) الديوان ص ٢٣٢ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢٤٣ من طبعة مطبعة الاستقامة

والأغاني ج ٢٩ ص ٩٨٤٦ من طبعة الشعب .

ومن اصطلاحات علم الكلام « الجواهر » و« العرض » .

ويقول أبو تمام :

مودّة ذهبٌ أثمارها شبهٌ وهمّةٌ جواهرٌ معروفها عرضٌ^(١)

وانظر إلى « الدعوى » و« الفلسفة » في قول أبي نواس يخاطب النظام :

فقل لمن يدعى في العلمِ فلسفةً عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء^(٢)

وانظر إليه يشير إلى أن الخمر للطافتها وصفائها تشبه الصور الذهنية والمعاني المجردة عن

أشخاصها الخارجية :

صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنى دق في ذهن لطيف

وشبيه به قوله :

جاءت بخاتمها من بيت صاحبها روح من الكرم في جسم من القار^(٣)

وانظر إلى الغرض والنتيجة في قول أبي تمام :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت أجاً إذاً ثقلت وكان خفيفاً^(٤)

ونقول إجمالاً في أبي تمام أن عقليته تأثرت بالفلسفة اليونانية وبالمنطق بنوع خاص حتى

أصبح « فنه » متسماً « بالتركيب » .

يقول أبو تمام :

ولكنني لم أحو وفراً مُجمَعاً ففُزْتُ به إلا بشملي مُبدّد

ولم تُعْطِنِي الأيامُ نوماً مُسَكَّنًا أَلَدُّ به إلا بنوم مُشرد

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخلِقٌ لديباجتيه فاغتربُ تتجدد

ثم انظر إليه في الرابع يأبى إلا أن يدلل على البيت الثالث فيعمد إلى التمثيل

فإني رأيت الشمس زِيدت مَحَبَّةً إلى النَّاسِ أن لَيْسَتْ عليهم بسرمد^(٥)

(١) الديوان ص ٣٥٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ٧ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٣) الديوان ص ٦٨٦ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) الديوان ص ١٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) الأغاني ج ١٧ ص ٦٢٣١ من طبعة الشعب والديوان ص ٩١ من طبعة بيروت ١٨٨٩

وانظر إلى قوله :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء^(١)
وإلى قوله :

أَغْلَى عَذَارَى الشُّعْرِ إِنْ مُهَوَّرَهَا عِنْدَ الْكِرَامِ وَإِنْ رَخُصْنَ غَوَالٍ^(٢)

من أين له بهذا التعبير « عذارى الشعر » . . . لأن كان هذا المعنى « بنات الشعر » شائعاً اليوم فما كان شائعاً في القديم ، نظنه أخذه عن اليونانية ، وعرائس الشعر ، وآلهة الشعر ، كثيرة عند اليونان .

وأبو نواس كما رأيت متأثر بهذا الجو العلمى فكثير من معانيه الشعرية جار عليها العلم ، فأخفى الحسن فيها مثال ذلك قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد^(٣)

وأنت إذ تسمع هذا البيت لأول مرة تعمل فيه فكرك لتفهمه ولو لحظة قصيرة من الزمن ، ومع ذلك فالمعنى بسيط صاغه جرير في قالب آخر ، قال :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضاباً^(٤)

المعنى هو هو بعينه ، ومع ذلك فقد أعملنا الفكر في البيت الأول ووصل المعنى في بيت جرير بوصول الألفاظ إلى السمع ، فالأول أشبه بالكلام العلمى المحبوك لأن صاحبه متأثر بعلم الكلام وبالقضايا المنطقية والثانى يؤدي ذلك المعنى فى يسر وسهولة .

ويصرخ البحتري من هذا المنطق الذى تملك ألسنة الشعراء ويقول :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يكفى من صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمد طق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه^(٥)

(١) الديوان ص ١٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الأغاني ج ١٧ ص ٦٢٤١ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٤٥٤ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣

(٤) الديوان ص ٢٨ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٥) الديوان ص ١٣٣ من طبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ

وليس من شك في أن البحترى أقرب شعراء العصر إلى الوجدانية ، بل فيه شيء من
البداءة والسذاجة ، ومع ذلك فشعره لم يخل من تأملات فلسفية ، كقوله :
بربك أيها الفلك المدار أنهب ما تصرف أم خيار
أو ليس هذا مذهب الجبر والاختيار ؟

الحكم اليونانية

لقد أخذ الشعراء من تلك الحكم ما ضمنوه أشعارهم ، كما يتضح من الأمثلة الآتية :
- قال أرسطو « الحكيم الصالح لا يخادع أحدا والعاقل الكامل لا يخدعه أحد » .
فقال أبو تمام في هذا المعنى :

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي (١)

- قال أرسطو « ليس شيء من خلقه بأدل عليه من شيء واحد » ردا على سؤال
أفلاطون له « ما الدليل على وحدة الباري ؟ » .
فقال أبو العتاهية :

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ (٢)

- رأى ديوجونيس لقيطا يرمى بالحجارة ، فقال له « لا ترم فلعلك تصيب أباك وأنت لا
تدرى » وترى ذلك المعنى بأوضح ما فيه في قول الشاعر أبي نواس :
لا تهج أسنَّ منك فرما تهجو أباك وأنت لا تدري

- قال ديمستانس « يجب على من اصطنع معروفا أن يتناساه من ساعته » ، ألا ترى أن
فيما قيل في يحيى بن الفضل ما يتضمن ذلك المعنى :

ينسى الذي كان من معروفة أبدا إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد

- رأى الإسكندر رجلين من أصحابه تخاصما ، وهتك كل واحد منهما صاحبه ، وكانا
صديقين فقال « ليحق للرجل إذا آخى أن يكون حذرا فلا يسترسل في ذكر ما قد يشينه » .

(١) الآمدى : الوساطة بين أبي تمام والبحترى ج ٢ ص ١٠٣ بتحقيق السيد أحمد صقر من طبعة دار المعارف

(٢) الديوان ص ٦٩

مقارنة الأسلوب في الشعر

الأموي والعباسي

نلاحظ أن القصيدة في الشعر العباسي أفكارها مرتبة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، ونلاحظ عكس ذلك في الشعر الأموي ، فالقصيدة أجزاؤها مهلهلة مفككة لا يربطها إلا الوزن والقافية وما استرسل من المعاني اتفاقا ، لا تعتمد إلا على وحدة البيت ، فلو أنك أحللت البيت الرابع محل البيت الثاني والخامس محل الثاني ، لما تغير المعنى أو فسد .

والشاعر المداح يبدأ قصيدته بالغزل ثم ينتقل فجأة إلى المدح ، كما في قول جرير يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

قتلتنا	بعيون	زانها	مرض	وفي	المرض	لها	شجو	وتعذيب
حتى	متى	أنت	مشغوف	بغانية	صب	إليها	طويل	الدهر
هل	يصبون	حلیم	بعد	كبرته	أمسى	وإخوانه	الأعمام	والشيب
إن	الإمام	الذي	ترجى	نوافله	بعد	الإمام	ولى	العهد

أيوب^(١)

ثم يمضى في المدح .

أما الشاعر العباسي فهو على سنة الأوائل يبدأ بالغزل وقد يحوم حول الدمن والمغانى ، لكنه فنان يحاول أن يجعل قصيدته وحدة متماسكة يكمل بعضها بعضا فهو جاهد في حسن التخلص من باب إلى باب ، جاهد في خلق المناسبات لهذا الانتقال موفقا كان أو غير موفق .

فانظر إلى أبي نواس كيف يناجى الربوع ثم يصف ناقته ثم يمدح على نحو ما كان يفعل الجاهليون والأمويون وقصيدته مع ذلك متماسكة الأجزاء تراه فيها واثبا من هنا إلى هناك بل متنقلا بتؤدة وأناة .

أربع	البلى	إن	الخشوع	لباد	عليك	وإني	لم	أخنك	ودادى
فعدرة	منى	إليك	بأن	ترى	رهينة	أرواح	وصوب	غوادى	

(١) الديوان ص ١٥ ، ١٦ من طبعة مصر ١٣١٣

ولا أَدْرَأُ الضَّرَاءَ عَنْكَ بِحِيلَةٍ فَمَا يَكُ فِيهَا قَائِلٌ بِسَعَادِ
وإن كنتَ قد بدَّلتَ بؤساً بنعمة فقد بدلتَ عيني قَذًى بَرَقَادِ
سأرحلُ عن قُودِ المَهَارَى شِمْلَةً مسخَّرةً لا تَسْتَحِثُّ بِجَادِ
على الريحِ إن قامتَ وإن هي أعصفتُ نُهَوِزُ بِرَأْسِ كَالْعَلَاةِ وَهَادِ
وما ذاكُ في حبِّ الأميرِ وزَوْرِهِ لِيَعْدَلَ مِنْ عَنَسِي مَدْبِ قُرَادِ
رأيتَ الفضلَ في السَّاحَةِ هَمَةً أطالتَ لِعَمْرِي غِيظَ كُلِّ جَوَادِ^(١)

وليس هذا التفكك في القصيدة الواحدة وانقطاع ما بين أجزائها مقصوداً على الغزل والمدح ، كما قد يظن ، لكنك ترى ذلك عاماً شائعاً . فالشاعر الأموي ينظم القصيدة خواطر متفرقة ليس يوحدتها موضع أو يؤلف بينها فكرة .

انظر إلى جرير يبدأ بالتحدث عن الأمير :

بكر الأمير لَغُوبَةً وتَنَائِي فلقد نسيتَ برامتين عزائي
إن الأمير بذى طلوح لم يبل صدع الفؤاد وزفرة الصعداء
ثم هو منصرف عن حديث الأمير إلى حديث الحسان :

قلبي حياي بالحسان مكلف ويحبهن صداي في الأصدا
ولقد وجدت وصاهن تخلياً كالظل حين تفي للأفيا
بالأعزلين عرفت منها منزلاً ومنازلاً بقتادة الحرجاء
ومن الحسان ينتقل إلى خصومة الشعراء :

خزى الفرزدق والأخيطل قبله والبارقي وراكب القصواء
ولأعورى نيهان كأس مرة ولتيم برزة قد قضيت قضائي
ولقد تركت أباك يابن محب حطم القوائم دامي السياء
والمستنير أجير برزة عائداً أمسى بالألم منزل الأحياء
وبنو البعيث ذكرت حُمرة أمه فشفيت نفسي من بني الحمراء
فسل الذين قذفت كيف وجدتمو بعد المدى والقاذف الأرجاء
فاركض قفيرة يا فرزدق جاهداً واسأل قفيرة كيف كان جزائي

ثم هو عائد إلى الأمير عبد العزيز بن الوليد :

عبد العزيز هو الأغر نما به عيس تفرع معظم البطحاء^(١)
فأنت ترى أن القصيدة ثوب رقيق كهذه الثياب الصفراء الخضراء الحمراء الدكناء التي
يلبسها المتدروشون ذوو اللحي الطويلة والعائم العريضة من مشعوزى حى السيد الحسين أوحى
السيد البدوى .

أحب أن نقارن هذه القصيدة بقصيدة أخرى لأبي نواس فى نفس الموضوع (المدح)
ولتكن قصيدته « أجارة بيتنا » فى مدح الخصيب ، نراه يبدأ بالغزل لكنه يتخلص منه إلى مدح
الخصيب تحلصا نشعر معه بجهد عقلى يحاول أن يؤلف بين أجزاء القصيدة لأنه ، فيما نرى يدين
بوحدة القصيدة لا بوحدة البيت :

أجارة بيتنا أبوك غيورٌ وميسورٌ ما يرجى لديك عسيرٌ
فإن كنتِ لا حلماً ولا أنتِ زوجةً فلا برحتِ منا عليك ستورٌ
وجاورتِ قوما لا تراورَ بينهم ولا وصل إلا أن يكون نُشورٌ

إلى أن يقول :

تقول التى عن بيتها خفّ مركبى عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلبٌ بلى إن أسباب الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلتها بواديرُ جرت فجرى فى جرحهن عيرُ
ذرينى أكثر حاسديك برحلةٍ إلى بلد فيه الخصيب أميرُ
إذا لم تُرر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب تزورُ^(٢)

ثم يمضى فى مدح الخصيب مطمئنا .

ومهما يكن فأنت تقرأ هذه القصيدة أربعين بيتا فتراها أفكارا متسلسلة مرتبة ، بينها كمال
اتصال أو شبه كمال .

فما سر هذا التطور فى الشعر العباسى ؟

قد يقال إنه أثر من آثار المنطق اليونانى وقد ترجم إلى العربية ، ونحن نشك فى ذلك فقد

(١) الديوان ص ٦ ، ٧ من طبعة مصر ١٣١٣ هـ

(٢) الديوان ص ٤٨٠ - ٤٨١ من طبعة مطبعة مصر ١٩٥٣ والأغاني ج ٢٩ ص ١٠٠١١ من طبعة الشعب .

اشترط أرسطو في كتابه « بوليטיقا » وحدة البيت ، أهو أثر لطبيعته العقلية الآرية ، وشعراء
العصر ، كما ترى ، يجرى في عروقهم الدم الفارسي ؟
ومهما يكن فهذه ظاهرة استخلصناها من مقارنة الشعر الأموي والعباسي فنحن نسجلها
تارकिन التعليل .

البديع

ضروب الخيال والوهم والتصور موجودة بالفطرة في كل إنسان مدنيا كان أم بدويا ، عالما أو سارحا ، رجلا أو طفلا . وما البديع إلا وليد الخيال والوهم والتصور ، فليس من شك في أن البديع كان موجودا في أقدم عصور الشعر العربي ، وزعيم المدرسة البديعية في الجاهلية هو أوس بن حجر ، إلا أن هذا البديع في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، وفي العصر الأموي كان طبيعيا غير متكلف ، لم يكن البديع مذهباً شعريا يقصد إليه لذاته حتى كان العصر العباسي ومال الناس إلى التجديد وسبقهم الشعراء ، فهذا يجدد في المعنى ، وهذا يجدد في الأسلوب . وأول من استكثر من ضروب البديع بشار بن برد ، فلما جاء مسلم بن الوليد جعل هذا البديع مذهباً شعريا وربما ضحى بالمعاني ليكسو الأسلوب محسنات لفظية . تقرأ مسلما فترى فنانا يصنع الشعر صنعا ، كما يصنع المثال تمثالا ، وكما يحوك الحائك بردا . ويظهر لنا أن هذا الإسراف الطبيعي في عصور التجديد والتطور الأدبي ، فقد كان من آثار التجديد في القرن السابع عشر في فرنسا شيء من ذلك ، فقد طلعت على الناس (صالونات الأدب) ولا سيما صالون الماركيزة ، بطائفة من البديعيات تشبه تماما بديع مسلم وأبي تمام ،

La belle inouvante.

فاليد كانوا يسمونها :

Le chez souffrant.

والرجل كانوا يسمونها :

Le trône de la pudeur.

والخد كانوا يسمونه :

Le supplement du soleil.

والشمعة كانوا يسمونها :

Le conseiller des grâces.

والمرآة كانوا يسمونها :

La commodité des conversations.

والمقعد كانوا يسمونه :

Un bain Interieur.

وكوبة الماء

ولما توفيت الماركيزة سنة ١٦٦٥ م وتحول قواد ناديةا إلى ناد (صالون) . طلع الصالون على الأدب ببديعيات أمعن تكلفا حتى ندد به جماعة من الأدباء ، وأسرف مليير في السخرية بهذا البديع عندما كتب Les precieuses ridicules .

هذا البديع على ما فيه من سخف كان أصحابه من أرقى طبقات فرنسا نبلا وثقافة ، ورواد
(صالون) Nv^m de Rambouillet رجال عظام :

Conte de Guiche, Le Rochefoucauld, bondé

ومن السيدات :

M^{eme} de Longueville وأختها M^{eme} de Levigne coneté

و m^{elle} Angelique ومن الكتاب Malherbe و Chapelain و Arthenice, Recan
سكرتير الأكاديمية الفرنسي و M^{elle} Angelique و Ménage
Georges Severy و Madeline Searery و M^m de la Fayhe

ما أشبه هذه الأمثلة من البديع الفرنسي ببديع أبي تمام في قوله :
كم صارمٍ غضبٍ أناف على فتى منهم لأعباء الوغى حمّالٍ
سبق المشيبَ إليه حتى ابتزّه وطن النهى من مفرقٍ وقذال^(١)

يريد بوطن النهى الرأس ، كما ترى ، ما أشبه « وطن النهى » هذا بقول أصحابنا مجددى
الصالونات « عرش الحياء La trône de la pudeur » يريدون به الخد ، وما أشبه هذا
التكلف بتكلف البحترى في بعض بديعه :

قلبٌ يطل على أفكاره ويد تمضى الأمور ونفس لهوها التعب^(٢)
يريد بقوله « قلب يطل على أفكاره » أنه لا يحفل بالخطوب التي تشغل قلوب الناس .
وما أشبه ما يقوله أبو نواس :

بحّ صوت المال مما منك يشكو ويصبح^(٣)
أو قول أبي تمام :

وتقاسم الناس سخاءً مجزاً وذهبت أنت لرأسه وسنامه
وتركت للناس الإهاب وما بقى من فرثه وعروقه وعظامه^(٤)

(١) الديوان ص ٢٣٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ج ٢ ص ٢٠٤ من طبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ

(٣) الديوان ص ٧٠ من طبعة مصر ١٨٩٨ م

(٤) الديوان ص ٢٦٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

أو قول ديك الجن :

لا ومكان الصليب في النحر مِنْ ك ومَجْرَى الزَّئَارِ في الحَصْرِ
والخَالِ في الخَدِّ إِذَا شَبَّهِ وَرْدَةَ مَسْكٍ عَلَى ثَرَى تَبْرِ
وحَاجِبٍ مَذْخَطُهُ قَلَمُ الْحَسِّ مِنْ بَحْرِ الْبَهَاءِ لَا الْحَسْبِ
وَأَقْحَسَانِ بِفَيْكِكَ مِنْتَظَمٍ عَلَى شَبَّهِ مِنْ رَائِقِ الْخَمْرِ^(١)

ما أثقل هذا الرد ، وعندى أن الأمر ليس يعدو أن يكون إسرافا في التقدير ، فقد رأى هؤلاء أن اللغة في القرن السادس عشر أصبحت دارجة إلى حد الإسفاف ، ورأوا أن الأدباء شديدا حرصوا على أساليب خاصة مقتبسة من القديم (اليوناني واللاتيني) فأحبوا أن يجددوا فأساءوا التجديد كطبيب يريد أن يعالج مريضا فيصف له دواء ثقيلا لا تحتمله أمعاؤه فيزيده مرضا ، أو بعبارة أكثر اعتدالا يؤخر شفاؤه .

رأى شعراؤنا في العصر العباسي ما وصل إليه الشعر من جمود منشؤه الحرص على تقليد القدماء في الجرى على أساليب مخصوصة فأحبوا أن يجددوا ، فجدد ابن هرمة وبيشار بمقدار وأسرف مسلم وأبو تمام كل الإسراف .

ويروى الجاحظ أنه أنشد أبا شعبي الفلال قصيدة أبي نواس :
ودار ندامي عطلسوها وأدججوا بها أثر منهم جديد ودارس^(٢)

فقال له : والله يا أبا عثمان إن هذا هو الشعر .

والجاحظ يقول لمن هذه الأبيات ، لا أعرف شعرا يفضلها .

على أن الناس لم يسلموا بهذا التجديد فهم يحافظون ويجددون شأن الناس اليوم والأمس والغد ، فكم قرأنا في الكتب القديمة : أن من أفسد الشعر مسلم وتبعه أبو تمام ، ثم الشعراء بعده حتى انتهى السبق إلى ابن المعتز .

ومن أنصار هذا التجديد إسحاق الموصلي وهو يقول عن مسلم أنه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين فضمنه المعاني اللطيفة وكساه الألفاظ الطريفة ، فله جزالة البدوي ورقة الحضري .

(١) يحيى بن حمزة العلوي : الطراز ج ١ ص ١٧٤ من طبعة المقتطف ١٩١٤

(٢) الديوان ص ٢٩٥ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

وفي الموشى : حدثنا فلان عن فلان . . . قال سمعت ابن الأعرابي يقول : إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل (يريد شعر أبي تمام) .

ولعل أوضح ما يمثل هذه المشادة بين المحافظة والتجديد ما رواه الأغاني من أن مسلما اجتمع وأبو العتاهية في مجلس ، فجرى بينهما كلام ، فقال مسلم : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحمدُ والنعمةُ لك والملكُ لا شريكَ لك
لبيك إن الملكَ لك

لقلت في اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكني أقول :

موفٍ على مُهَجٍ في يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجلُّ يسعى إلى أملٍ
ينال بالرفق ما يَغيا الرجالُ به كالموتِ مُستعجلاً يأتي على مهلٍ
يكسو السيوفَ نفوسَ الناكثين به ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبلِ
فقال له أبو العتاهية : قل مثل قولي « الحمد والنعمة لك » أقل مثل قولك « كأنه أجل
يسعى إلى أمل » (١) .

المشادة بين المحافظة والتجديد قائمة لا بد منها في كل تطور أدبي ، إلا أن هذا المذهب في التجديد ، مذهب البديع ، غلب في هذا غلبة العصر ، غلبة يكفي للدلالة عليها أن أبا نواس ، وهو زعيم مدرسة مجددة لا يمت تجديدها بصلة إلى البديع ، لا يمت بصلة إلى الشكل والصياغة ، بل هو تجديد في الجوهر - أى في المعاني - وأبو نواس ، كما نعرف ، أقرب في شعره إلى الشعبية منه إلى المثالية ، أقول يكفي للدلالة على انتصار هذا المذهب البديعي إلى أن أبا نواس تأثر به تأثرا ظاهرا ، وهو ما نرجو أن نوضحه .

ويخيل إلينا أن غلبة هذا البديع أثر من آثار الفرس الذين امتزجوا بالعنصر العربي في هذا العصر امتزاجا ، وقد اشتهر الإيرانيون بالميل إلى الغلو في التعبير والتهويل .
تنفست نملة في البحر فحولته أتونا مستعرا .

ونلخص ما نريد قوله في أن البديع موجود من أقدم النصوص الأدبية في الشعر الجاهلي ، وفي القرآن وفي الشعر الأموي ، وأنه كان لا يقصد إليه لذاته في الشعر الجاهلي والأموي ، فأصبح في الشعر العباسي صناعة فنية ، إذ يتبين ذلك فيما يلي بأوضح الأمثلة .

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٤٢ من طبعة الشعب

البديع في العصر الجاهلي

الطباقي لأوس بن حجر :
 أَطْعَمَنَا رَبَّنَا وَعَصَاهُ قَوْمٌ فَذُقْنَا طَعْمَ طَاعَتِنَا وَذَاقُوا^(١)
 ولامرئ القيس في الطباقي :
 بِمَاءِ سَحَابٍ زَلٌّ عَنْ ظَهْرِ صَخْرَةٍ إِلَى بَطْنِ أُخْرَى طَيِّبٌ مَاؤُهَا خَصِيرٌ^(٢)
 ولتأبط شرا في الجناس :
 يرى الوحشة الإنسي الأنيس ويهتدى ببحث اهتدت أم النجوم الشوابك
 ولامرئ القيس في الطباقي :
 لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ لِيُلَبِّسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبَّسَا^(٣)
 وقال أمية بن أبي الصلت :
 فَمَا أَعْتَبْتُ فِي النَّائِبَاتِ لِمَعْتَبٍ وَلَكِنَّا طَاشَتْ وَضَلَّتْ حُلُومَهَا
 ولأوس في الجناس :

عُوجُوا عَلَى فَحْيُوا الْحَىَّ أَوْ سَيَرُوا^(٤)

ولعنتره العبسي في الجناس :
 وَذَلِكُمْ أَنَّ ذُلَّ الْجَارِ حَالِفَكُمْ وَأَنْ آفَكُمْ لَا يَعْرِفُ الْأَنْفَا
 وللخنساء في الجناس أيضاً :
 إِنْ الْبِكَاءُ هُوَ الشِّفَا ءَ مِنْ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ^(٥)
 ولامرئ القيس في الجناس :
 وَسِنْ كُسْنَيْقٍ سَنَاءٌ وَسَنَّا ذَعَرْتُ نِمْدَلَاجٍ الْهَجِيرِ نُهُوضٍ^(٦)

(١) الديوان ص ٧٩ من طبعة دار صادر بيروت

(٢) الديوان ص ٨٤ من طبعة حسن السندوي

(٣) الأغاني ج ٩ ص ٣٢٢٠ من طبعة الشعب والديوان ص ٩٩ من طبعة حسن السندوي :

(٤) وصدر البيت : « قد قلت للركب لولا أنهم عَجَلُوا » - الديوان ص ٤٠ من طبعة دار صادر بيروت

(٥) الديوان ص ٢١ من طبعة الزيداني ١٣٢٦ هـ

(٦) الديوان ص ١١١ من طبعة حسن السندوي

ولامرئ القيس في المقابلة :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةٌ وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُسًا^(١)

ولزهير في التقسيم :

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءٌ

فَذَلِكَ مَقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُمْ شَفَاءٌ^(٢)

وكان عمر رضى الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة ويقول : لو أدركت زهيرا لوليته

القضاء .

ولأمية بن أبى الصلت في التقسيم :

لِلَّهِ نَعْمَتَنَا تَبَارَكَ رَبُّنَا رَبُّ الْأَنْعَامِ وَرَبُّ مَنْ يَتَأَبَدُ

ولتأبط شرا في الغلو :

وَيَوْمَ كَيَوْمِ الْعَيْكَتَيْنِ وَعِطْفَةٌ عِطِفَتْ وَقَدْ مَسَّ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرُ

فإن القلوب لا تصل إلى الحناجر ، وهى في القرآن « وبلغت القلوب الحناجر » .

ولامرئ القيس في الترصيع :

سَلِيمُ الشُّظَى عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا لَهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْفَالِ^(٣)

وقوله :

وَأَوْتَادُهُ مَازِيَّةٌ وَعِمَادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ فِيهَا أَسِنَّةٌ قَعَصَبِ^(٤)

وللخنساء في الترصيع :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مُحَمَّدُ الْخَلِيفَةُ مَهْدَى الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارٌ^(٥)

وفيه طباق أيضاً من جهة جمعها بين النفع والضرر .

ولأوس في الترصيع :

هَذَا مُشَافِرُهَا بُحَّا حَنَاجِرُهَا تَرْجَى مَرَابِيعُهَا فِي صَخَصَحٍ ضَاحَى^(٦)

(١) الديوان ص ٩٩ من طبعة حسن السندوى

(٢) شرح الديوان ص ٧٥ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٣) الديوان ص ١٤٤ من طبعة حسن السندوى (٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٨٢

(٤) الديوان ص ٤٠ من طبعة حسن السندوى (٦) الديوان ص ١٧ من طبعة دار صادر بيروت

ولزهير بن أبي سلمى فى الترصيع :

كبداء مُقبِلَةٌ عجزاء مُدْبِرَةٌ عرجاء فيها إذا استعرضتها خَضَعُ^(١)

ولتأبط شرا فى الترصيع :

حمّال ألوية شهاد أندية هبّاط أودية جوّال آفاق^(٢)

وللخنساء فى الترصيع :

فعال سامية وراذ طامية للمجد نامية تعنيه أسفار

جواب قاصية جزاز ناصية عقاد ألوية للخليل جرار

حلو حلاوته فصل مقالته فاش حالته للعظم جبار^(٣)

ولأبى صخر الهذلى فى الترصيع :

وتلك هيكلة خَوْذُ مُبْتَلَةٌ صَفْرَاءُ رِعْبَلَةٌ فى منصب سَنِم

عذب مقبلها خذل مخلصها كالدعص أسفلها مخصورة القدم

سود ذوائبها بيض ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم^(٤)

وقوله :

سمح خلّائقها دُرم مرافقها يُروى معانقها من بارد شنب

ولعنتره فى التصدير :

فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل

ولامرئ القيس فى التصدير :

إذا المرء لم يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَانٍ^(٥)

ولعمرو بن معديكرب :

إذا لم تستطع شيئا فدَعُهُ وجاوزه إلى ما تستطيع

(١) شرح الديوان ص ٢٣٧ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) المفضليات ص ٢٧ من طبعة دار المعارف

(٣) يحيى بن حمزة العلوى : الطراز ج ٣ ص ٤١ من طبعة المقتطف ١٩١٤

(٤) شرح اشعار الهذليين ج ٢ ص ٩٦٨ - مكتبة دار العروبة

(٥) الديوان ص ١٨٤ من طبعة حسن السندوى

ولزهير في التصدير :

والسُّتْرُ دُونَ الفاحشاتِ وما يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ^(١)

ولطرفة في التتميم :

فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةُ تَهْمِي^(٢)

وللخنساء في التتميم :

وإن صَخْرًا لتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٍ^(٣)

يوجد كثير من المحسنات البديعية في الشعر الجاهلي ، وإذا تصفحنا آى الذكر الحكيم وجدناها حافلة بهذه المحسنات ، ففي القرآن الكريم كثير من الطباق كما في قوله تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) و (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) و (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً) .

وفي التنزيل من الجناس (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فالساعة الأولى القيامة ، والثانية الساعة الزمنية ، وقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) و (والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) .

وفي الاستخدام قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فقد أراد بالشهر الهلال وبضميره وقت الصيام المعهود . وفيه من تأكيد المدح بما يشبه الذم قوله جل شأنه (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا) . وبه من القلب ، وهو كون الكلام يقرأ طردا كقراءته عكسا ، (وربك فكبر) و (كل في فلك) .

وفي المذهب الكلامى وهو ذكر الحجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، ومن ذلك قوله تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) أى واللازم وهو الفساد باطل ، فكذا الملزوم ، وهو تعدد الآلهة ، وقوله تعالى (وهو

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٣٧٦٨ من طبعة الشعب وشرح الديوان ص ٩٥ من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤

(٢) شعراء النصرانية ص ٣١٦ من طبعة الآباء اليسوعيين

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ٥٣٦٦ من طبعة الشعب والديوان ص ٥٨ من طبعة الزيداني ١٣٢٦ هـ والبغدادى : خزانة

الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى وكل ما هو أهون فهو أدخل تحت الإمكان
فالإعادة ممكنة .

وفى القرآن غير ذلك من ضروب المحسنات البديعية ما لا يتسع المجال لسردها .

البديع فى العصر الأموى

للفرزدق فى الطباق :

لَعَنَ الْإِلَهُ بَنَى كَلْبٌ أَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ وَلَا يَفُونَ لَجَارِ
يَسْتِيقِظُونَ إِلَى نَهْيٍ حَمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ^(١)
ولجرير مطابقاً :

وَبَاسِطٌ خَيْرٌ فَيْكُمْ بِيَمِينِهِ وَقَابِضٌ شَرٌّ عَنْكُمْ بِشِمَالِيَا^(٢)
فقد جمع فى البيت ثلاثة تطبيقات بين البسط والقبض والخير والشر واليمين والشمال .
وللأخطل فى الطباق :

قُلْتُ الْمُقَامَ وَنَاعِبٌ قَالَ النَّوَى فَعَصَيْتُ قَوْلِي وَالْمُطَاعُ غُرَابٌ^(٣)
وقال الفرزدق مجانسا :
جُفَافٌ أَجَفَّ اللَّهُ عَنْهُ سَحَابُهُ وَأَوْسَعُهُ مِنْ كُلِّ سَافٍ وَحَاصِبٍ^(٤)
وله أيضا :

قَدْ سَادَ فِي أَسْلَاتِنَا أَوْ عَضَّهُ عَضْبٌ بَضْرَتِهِ الْمُلُوكُ ثُقَلٌ^(٥)
وللقطامي فى الجناس :

فَلَا رَدَّهَا فِي الشُّوْلِ شَالَتْ بِذِيَالٍ يَكُونُ لَهَا لِفَاعٌ

(١) الديوان ص ٤٥٠ من طبعة الصاوى

(٢) الديوان ص ٦٠٥ من طبعة الصاوى

(٣) الديوان ص ٣٧٨ من طبعة الصاوى .

(٤) الديوان ص ٢٩ من طبعة الصاوى

(٥) الديوان ص ٧١٥ من طبعة الصاوى

ولجرير في الجناس :

وما زال مَعْقُولاً عن الندى وما زال مَحْبُوساً عن الخير حَابِسٌ^(١)

وقال الكميّ مجانسا :

فقل لجدام قد جذمت وسيلة إلينا كمختارى الرداف على الرجل

وقال النعمان بن بشير لمعاوية :

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا ولُبُّك عما نام قومك نائم

وللخارجية أخت ابن طريف الخارجى في تجاهل العارف :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف^(٢)

ولمجنون بنى عامر في تجاهل العارف :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلي من البشر

ولعمر بن أبي ربيعة في التورية :

أيها المنكحُ الثريا سُهَيْلا عَمْرَكُ الله كيف يَلْتَقِيَانِ

هى شامية إذا ما استقلتُ وسُهَيْلٌ إذا ما استقلَّ يمانى^(٣)

فإذا أراد محبوبته المسماة ثريا وقد تزوجت رجلا اسمه سهيل فهو يورى بالكوكبين المسميين

باسميهما .

ولجرير في الاستخدام وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا^(٤)

فقد ذكر السماء في الشطر الأول بمعنى المطر وأعاد الضمير عليه بمعنى آخر وهو النبات .

ولعمر بن أبي ربيعة في التصدير :

ليتَ هندا أنجزتنا ما تعدُّ وشفتَ أنفُسنا مما نجدُ

(١) الديوان ص ٣٢٦ من طبعة الصاوى

(٢) التبريزى : شرح ديوان أشعار الحماسة ج ٣ ص ٦٥ من طبعة مطبعة بولاق ١٢٩٦ هـ والطبرى ج ٨ ص ٢٥٧ من

الطبعة الثانية بدار المعارف

(٣) الأغاني ج ١ ص ٢٣٤ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣١ من طبعة للطبعة العلمية ١٣١٣ هـ

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد^(١)
وللحطيئة في جناس المضارعة :

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجد^(٢)
ولجrir في الطباق :

كما طرد النهار سواد ليل فآزمع حين حل به الذهاب^(٣)
وله في التصدير :

يلحفها وتحسبه لعباً أساء غلام جيرتك اللعاب^(٤)
وله في المبالغة :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا^(٥)
وله في الاستطراد :

إذا سعلت فتاة بنى تميم تلقم باب عضرطها الترابا
ترى برصاً بأسفل إسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا^(٦)
وله في التشكيك :

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة هم صحبك بالروح^(٧)
وللفرزدق في اللف والنشر المرتب :

جرير وقيس مثل كلب وثلة بيت حواليتها يطوف وينبح^(٨)
ولجrir في التصدير والطنى والنشر المرتب :

بدأنا في الليارة ثم عدنا فلا بدنى جفوت ولا معادي^(٩)

(١) الأغاني ج ١ ص ٢٣١ من طبعة الشعب والديوان ص ١٤٥ من طبعة مطبعة السعادة .

(٢) ابن منظور : مختار الأغاني ج ١ ص ١٨١ من طبعة الدار المصرية .

(٣) الديوان ج ١ ص ٦١ من طبعة الصاوى .

(٤) الديوان ج ١ ص ٦٤ من طبعة الصاوى .

(٥) الأغاني ج ٨ ص ٢٧٥٧ من طبعة الشعب والديوان ج ١ ص ٧٨ من طبعة الصاوى .

(٦) الديوان ج ١ ص ٦٩ من طبعة الصاوى .

(٧) الديوان ج ١ ص ٩٦ من طبعة الصاوى .

(٨) الديوان ج ١ ص ١٥٠ من طبعة الصاوى .

(٩) الديوان ج ١ ص ١١٧ من طبعة الصاوى .

وله في التلميح :

وَشَبَّهْتَ نَفْسَكَ أَشَقَى ثَمُودَ فَقَالُوا ضَلَلْتَ وَلَمْ تَهْتَدِ
وَقَدْ أُجِّلُوا حِينَ حَلَّ الْعَذَابُ ثَلَاثَ لَيَالٍ إِلَى الْمَوْعِدِ^(١)
يشير إلى قوله تعالى في قصة ثمود (فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير
مكذوب)^(٢) .

ولجريد في التشكيك :

أَهْوَى أَرَاكَ بَرَامَتَيْنِ وَقُودَا أُمَ بِالْجُنَّةِ مِنْ مَدَافِعِ أُوْدَا^(٣)
ولعمري بن أبي ربيعة في الطباق :

قَدْ خَلَوْنَا فَتَمَنَّنَا بِنَا إِذْ خَلَوْنَا الْيَوْمَ نُبْدِي مَا نُسِرُ^(٤)

وله في الجناس :

قَالَتْ لِتَرْبِّيَّهَا بِعَمْرَكَمَا هَلْ تَطْمَعَانِ بَأَنْ نَرَى عُمَرَا^(٥)
وأيضا له في الجناس :

بَيْنَا نُحَاوِرُهُنَّ قُمْتُ إِلَى أَقْفَائِهِنَّ لِأَسْمَعَ الْحَوْرَا^(٦)

البديع في العصر الأموي

البديع في شعر بشار بن برد

من شعره في المذهب الكلامي ، وقد كان يفضل إبليس على آدم والنار على الطين .

إِبْلِيسُ خَيْرٌ مِنْ أَيْيَكُم آدَمُ فَتَنَّبَهُوا يَا مَعْشَرَ الْفُجَّارِ
إِبْلِيسُ مِنْ نَارٍ وَآدَمُ طِينَةٌ وَالْأَرْضُ لَا تَسْمُو سُمُو النَّارِ^(٧)

(١) الديوان ج ١ ص ١٢٨ من طبعة الصاوي .

(٢) سورة هود آية ٦٥ .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٢٨٢٩ من طبعة الشعب والديوان ج ١ ص ١٦٩ من طبعة الصاوي .

(٤) الديوان ص ٢٦٣ من طبعة مطبعة السعادة .

(٥) الديوان ص ٢٧١ من طبعة مطبعة السعادة .

(٦) الديوان ص ٢٧٢ من طبعة مطبعة السعادة .

(٧) الديوان ص ٢٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ .

فهذان بيتان قد ضمنهما الدعوى مقرونة بالبرهان الذى أقامه حجة لتدعيم دعواه . أما الدعوى فهي قوله « إبليس خير من أبيكم آدم » ، وأما البرهان فهو فى البيت الثانى ، أى وإذا كانت الأرض لا تسمو سمو النار فما خلق من الأرض وهو آدم لا يسمو سمو من خلق من النار وهو إبليس .

وله فى حسن التعليل :

وإذا جَفَوْتَ قَطَعْتَ عَنْكَ مَنَافِعِي والدَّرُّ يَقْطَعُهُ جَفَاءُ الحَالِبِ (١)

ألا ترى كيف استدل وعلل دعواه فى الشرط الأول وهى إيجاب الجفاء القطيعة ، وعدم الصلة بمثال جزئى مُحَسٍّ ومشاهد وهو ما فى الشرط الثانى من أن الحالب إذا أمسك يده وحبسها فى أثناء الخلب عن ضرع الماشية الحلوب حبست عنه درها فما تبص منه بقطرة .

وله أيضاً فى الترضيع :

وخذى ملابس زينة ومصبغات فهي أفخر
وإذا دخلت تقننى بالخمير إن الحسن أحمر (٢)

وله فى حسن التخلص من الغزل إلى المدح قوله :

يرى الناس ما بُدِى بِزَيْنَبَ إِذْ نَأَتْ عَجِيباً وما يَخْفَى مِنَ الحُبِّ أُعْجَبُ
وَقَائِلَةٍ لى حِينَ اسْتَحِقَّ رَحِيلُنَا وَأَجْفَانُ عَيْنَيْهَا تَجُودُ وَتَسْكُبُ
أَغَادٍ إِلَى حَرَّانَ فى غَيْرِ شِيعَةٍ وَذَلِكَ شَأْوٌ عَنْ هَوَاهَا مُغْرَبُ
(فَقُلْتُ لَهَا كَلَّفْتَنِي طَلَبَ النَّدى وَلَيْسَ وَرَاءَ ابْنِ الخَلِيفَةِ مَطْلَبُ) (٣)

وله فى المبالغة ، وهى بلوغ وصف فى الشدة أو الضعف حدا يبعد أو يستحيل :

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشمسِ أَوْ نُقْطِرُ الدِّمَا
إذا ما أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرًّا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمًا (٤)

وذلك لأنه يبعد على أى مخلوق مهما بلغ شأنه فى الشجاعة والقوة والعلم أن تخترق حجاب الشمس ويهتك سترها ، ومن المستحيل عادة أن تقطر الشمس دما .

(١) الديوان ص ١٦٧

(٢) الديوان ص ٦٤ من طبعة المطبعة العربية

(٣) الديوان ص ٢٩٤

(٤) الديوان ص ٤٣ من المقدمة

وله أيضا في المبالغة ، وبالأخص في نوع منها يسمى الإغراق ، وهو ما إذا كان الوصف ممكنا عقلا .

أولا :

يا واحدَ العرب الذي أمسى وليس له نظيرُ

ثانيا :

لو كان مثلك آخراً ما كان في الدنيا فقيراً^(١)

وله في الجنس المطلق :

رَبَابَةٌ رَبَّةُ البيتِ تَصُبُّ الخَلَّ في الزَّيْتِ

لها عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوتِ^(٢)

وله في التشكيك ، ويسمى تجاهل العارف ، وهو أن يساق المعلوم مساق المجهول لنكتة

كالتعجب :

خَلِيلِيَّ مَا بَالُ الدُّجَى لَا تَرَحَّزُ وَمَا بَالُ ضَوْئِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ
أَصْلُ النَّهَارِ الْمُسْتَنِيرُ طَرِيقَهُ أَمِ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ
كَأَنَّ الدُّجَى زَادَتْ وَمَا زَادَتْ الدُّجَى وَلَكِنْ أَصْلُ اللَّيْلِ هُمْ مُبْرَحٌ^(٣)

ولا يخفى ما في البيت الأخير من الطباق في الشطر الأول وحسن التعليل في الشطر الثاني .

وله في الطباق ، وهي الجمع بين متقابلين في الكلام :

كَأَنَّ لِسَانًا سَاحِرًا فِي كَلَامِهَا أُعِينَ بِصَوْتٍ لِلْقُلُوبِ صَبُودِ
تُمِيتُ بِهِ أَلْبَابَنَا وَقُلُوبَنَا مَرَارًا وَتُحْيِيهِنَّ بَعْدَ هُمُودِ^(٤)

وله في التصدير ، وهو رد أعجاز الكلام إلى صدوره :

سَبَقَتْ بِالْحُبِّ سَلْمَى غَيْرَهَا وَرَفِيعَ الْقَوْمِ عِنْدِي مِنْ سَبَقِ^(٥)

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٢٥ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠٩ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ج ٢ ص ١٠٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤

(٤) الأغاني ج ٣ ص ١٠٣٥ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٧٣ من طبعة المكتبة العربية

وقال مصدرا أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْدَى عَلَى بَنُ بَرْمَكٍ وما كلَّ مَنْ كَانَ الْغِنَى عنده يُجْدِي (١)
وله في التضمنين ، قول امرئ القيس : « اليوم خمر وغدا أمر » .

اليوم خمر ويبدو في غد خبر والدهر ما بين إنعام وإيثاس (٢)
وله :

بَضْرِبٍ يَذُوقُ الْمَوْتَ مِنْ ذَاقِ طَعْمِهِ وتُذَرِّكُ مِنْ نَجَى الْفَرَارُ مَثَالُهُ
فَرَاخُوا فَرِيقٌ فِي الْإِسَارِ وَمِثْلُهُ قَتِيلٌ وَمِثْلٌ لَازٍ بِالْبَحْرِ هَارِبُهُ
إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشِينًا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نَعَاتِبُهُ (٣)
ففي البيت الأول قسمان : موت وحياة ، تورث عارا ، ولا ثالث لهما . وفي البيت الثاني ،
ثلاثة أقسام : أسير وقتيل وهارب ، فاستقصى جميع الأقسام ، ولا يوجد في ذكر الهزيمة زيادة
على ما ذكر .

وله في التقسيم أيضا :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يُسليك أو يتوجع (٤)
فإن صاحب المروءة لا يخلو عند استجدائه من هذه الأحوال الثلاثة حيث لا رابع لها .
وله في الطي والنشر غير المرتب « المعكوس » وهو أن يُذكر متعدد ، ثم يذكر بالكل من
إفراده شائعا من غير تعيين اعتمادا على تصرف السامع في رده ذلك إليه ، من ذلك قوله يهجو
حماد عجرد :

ما لمت حمادا على فسقه يلومه الجاهل والمائق
وما هما من إيريه وإسته ملكه إياهما الخالق
ما بات إلا فوقه فاسق ينيكه أو تحته فاسق (٥)

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٣٨ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٦٩ من طبعة المكتبة العربية

(٣) الأغاني ج ٣ ص ١٠٨٣ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٧٠ من طبعة المكتبة العربية

(٥) الديوان ص ٧٣ من طبعة المكتبة العربية

وله في اللف والنشر غير المرتب :

وضيف عمر وعمر و يسهران معا عمرو لبطنته والضيف للجوع^(١)
وله في ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وهو لين العبارة ورقتها في مواقف الغزل وضخامتها
ومواطن الفخر والحماس ، ففي الغزل قوله :

لم يَطُلْ ليلي ولكن لم أَنَمْ ونفى عني الكرى طيفُ ألمٍ
وإذا قلتُ لها جُودى لنا خرجتُ بالصَّمتِ عن لا ونعم
رَوْحِي عني قليلا واعلمى أننى يا عَبْدَ من لحمٍ ودمٍ
إن في بُرْدَى جسمي ناحِلا لو تَوَكَّأتِ عليه لا نهَدمُ^(٢)

وله في الجناس اللفظي :

خُذِي من يدي ما قلَّ إن زماننا شَمُوسٌ ومعروف الرجال رقيقُ
لقد كنتُ لا أرضى بأدنى معيشة ولا يَشْتِكِي بُخْلا على رقيقُ^(٣)

وله في جناس القلب :

أنا من خراسان وبيتى في الذرا ومن لدى المسعات فرعى قد سَبَقُ
وإني لمن قوم خراسانُ بدارهم كرام وفرعى فيهم ناضر بَسَقُ^(٤)
ومن شعره ملتزما مالا يلزم :

نهاره أخبث من ليله ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيّه حتى يوارى في ثرى رمسه^(٥)
وله في ذلك :

لما طَلَعْنَ من الرقيـ قى على بالبردانِ خمساً
وكأنهنَّ أهْلُة تحت الثيابِ زَفَفْنَ شمساً
باكرنَ عِطَرَ لَطِيمَةٍ وغُمِسْنَ في الجادى غمساً
لما طَلَعْنَ حَفَفْنَهَا وأَصَحْنَ ما يَهْمِسْنَ همساً

(٤) الديوان ص ٧٣ من طبعة المطبعة العربية

(٥) الديوان ص ٢٧ من طبعة المطبعة العربية

(١) الديوان ص ٧٠ من طبعة المكتبة العربية

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٩٩٧ من طبعة الشعب

(٣) الأغاني ج ٣ ص ١٠٨٦ من طبعة الشعب

لَيْتَ الْعَيُونَ الطَّارِفَا تِ طُمِسْنَ عَنَا الْيَوْمَ طَمَسَا^(١)
 وله في الاتهام ويسمى التوجيه ، وهو أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين على السواء ، كهجاء
 ومديح لأجل أن يبلغ القائل غرضه بما لا يمسك عليه :
 خَاطَ لِي عَمَرُو قَبَاءَ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَوَاءَ
 قَلْتُ شِعْرًا لَيْسَ يُدْرَى أَمَدِيحَ أَمْ هِجَاءَ^(٢)

البديع في شعر مسلم بن الوليد

له في الطباق :

هَوَى يَجِدُ وَحَبِيبٌ يَلْعَبُ أَنْتَ لَقِيَ بَيْنَهُمَا مُعَذِّبُ^(٣)
 فقد جمع بين الجد واللعب في الشطر الأول
 وله في الطباق أيضا :

أَرَى بِهِجَةَ الدُّنْيَا رَجِيعَ دَوَائِرَ لَهْنِ اجْتِمَاعِ مَرَّةٍ وَشَتَاتِ^(٤)
 وقوله :

غَدَتُ وَالثَّرَى أَوَّلَى بِهَا مِنْ وَلِيِّهَا إِلَى مَنَزِلٍ نَائٍ لِعَيْنِكَ دَانِي^(٥)
 وقد جمع بين الطباق والتصدير في بيت واحد ، إذ يقول :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ^(٦)
 ففي الشطر الأول طباق بين الجود والضمن (الشح) والتصدير في البيت ظاهر .

وله في المشاكلة ، وهي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته :
 يَقْرَى الْمَنِيَّةُ أَرْوَاحَ الْكُمَاةِ كَمَا يَقْرَى الضُّيُوفُ شُحُومَ الْكُومِ وَالْبُرْلِ^(٧)
 فالمنية لا تطعم ولا تضاف ، ولكنه لما ذكر قرى الضيوف أتى بلفظ في الشطر الأول يناسب

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠١٥ ، ١٠١٦ من طبعة الشعب

(٢) مقدمة الديوان ص ١٤ من طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٣) الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٦٧ من طبعة الشعب

(٤) الديوان ص ٣٠٧ بتحقيق الدكتور سامي الدهان من طبعة دار المعارف

(٥) الأغاني ج ٢١ ص ٧٣٠١ من طبعة الشعب

(٦) الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٦٧ من طبعة الشعب

(٧) الديوان ص ١١ بتحقيق الدكتور سامي الدهان من طبعة دار المعارف

القرى ويشاكله ، وأراد به إسلام أرواح الشجعان إلى المنية ومساعدتها على قطع آجال الكماة .
وله في الترصيع :

مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذى رَهَجٍ كأنه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أَمَلٍ^(١)
وله في التتميم :

يا ليت علته بي غير أن له أجر العليل وأنى غير مأجور^(٢)
فهو يتمنى أن ينتقل المرض من معشوقته إليه ولكنه يريد البرهنة على صدق إخلاصة في
الحب ولو أنه في المودة تَمَّ أمنيته بأن تنزل له عن أجر المرض .
وله في المذهب الكلامي :

فافخرْ فمالك في شِيَانٍ مِنْ مَثَلٍ كَذَاكَ مَا لِبَنِي شِيَانٍ مِنْ مَثَلٍ^(٣)
فهو يقصد أن ممدوحه ليس له من يماثله ويساميه ، ولكنه قد مدحه على وجه يفهم منه
مراده ومقصوده وهو أنه خير قبيلته - بني شيان ، وأن بني شيان خير القبائل . وإذا يفهم مما
ذكر المعنى الذي يقصده وهو أنه خير من بقية أفراد سائر القبائل .
وله في حسن التعليل :

إن يقعدوا فوقى بغير نزاهة وعلو مرتبة وعز مكان
فالنار يعلوها الدخان وربما يعلو الغبارُ عائمُ الفرسانِ^(٤)
فهو يزعم أنه أرجح من غيره عقلا وأعلى مرتبة وأعز مكانا وأنزه أخلاقا وإن تكن صروف
الدهر قد ساعدتهم على التقدم دونه وقادت إليهم رفيع المناصب والرتب ، فليس ذلك يحط
من منزلته أو يذل من مكانته أو يقدح في نزاهته أو ينقص من رجاحة عقله ، ثم علل دعواه
المزعومة بما في البيت الثاني وهو أن العلو شيمة الدخان إياها فهي أطيب منه عنصرا وأعز
نفعاً ، وكذلك عائم الكماة يعلوها الغبار حين شوب نار الهيجاء في حين أن العائم التي تستر
الرءوس المفكرة وتحمي العقول الجبابرة أشرف وأعلى من مثار الغبار الذي يقلب ميدان الوغى
ليلاً مظلماً تنهاوى كواكبه ، وأيضاً فالغبار موطن النعال في حين أن العائم تيجان تزين هامات
الرجال .

(١) الديوان ص ١١ بتحقيق الدكتور سامى الدهان من طبعة دار المعارف

(٢) الديوان ص ٣٢٣ من الطبعة السابقة

(٣) الديوان ص ٢١ من الطبعة السابقة

(٤) الديوان ص ٣٣٤ من الطبعة السابقة

وقال مصدرا :

تَظَلَّمُ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ مَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءِ ظَلَامًا^(١)

وله في حسن التخلص من الغزل إلى المدح :

أَحْبَبُكَ هَلْ تَدْرِينَ إِنَّ غَبْتَ لَيْلَةً كَأَنَّ دَجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ تَنْشُرُ
صَبْرَتِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بَغْرَةً كَغُرَّةٍ يَجِي حِينَ يُذَكِّرُ جَعْفَرًا^(٢)

وله في المقابلة :

وَلَمَّا تَلَاَقَيْنَا قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ بِوَجْهِ لَوْجَةِ الشَّمْسِ مِنْ مَائِهِ مِثْلُ^(٣)

وله :

تَسَاقِطُ يُمْنَاهُ النَّدَى وَشِمَالُهُ الرَّدَى (م) وَعُيُونُ الْقَوْلِ مَنْطِقُهُ الْفَصْلُ^(٤)

وله في الجناس المطلق قوله :

« فَارْفَقَ بِهِ إِنْ نَوْمَ الْعَاشِقِ اللَّوْمُ »

وله في الجناس :

وَلَيْسَ يَبَالِي حِينَ يَحْتَكُ جَمْرَهَا صُدُودُ صُدَاءِ وَاجْتِنَابِ بَنِي جَنْبِ^(٥)
وقال مطابقا :

إِذَا مَا نَكَحْنَا الْحَرْبَ بِالْبَيْضِ وَالْقَنَا جَعَلْنَا الْمَتَايَا عِنْدَ ذَاكَ طَلَاقَهَا^(٦)

وله في الطباق :

شَجَّجَتْهَا بُلْعَابِ الْمُزْنِ فَاعْتَزَلَتْ نَسْجِينَ مَا بَيْنَ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ^(٧)

وله في الترصيع :

يَمْضِي بَعْزُكَ أَوْ يَجْرِي بِشَاوِكَ أَوْ يَفْرِي بِحَدِّكَ كُلُّ غَيْرِ مَحْدُودِ^(٨)

(١) الديوان ص ٦٤ بتحقيق الدكتور سامي الدهان من طبعة دار المعارف

(٢) المصدر السابق ص ٣١٦

(٣) المصدر السابق ص ٢٦١

(٤) الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٩٩ من طبعة الشعب

(٥) الديوان ص ٣٠٥ بتحقيق الدكتور سامي الدهان من طبعة دار المعارف

(٦) المصدر السابق ص ٣٢٨

(٧) المصدر السابق ص ١٥٢

(٨) المصدر السابق ص ١٧٠

وله أيضاً في الترضيع :

تساقط يمناه الندى وشماله الردى (م) وعيون القول منطقته الفصل (١)

البديع في شعر أبي نواس :

من شعره المتضمن للجناس المطلق قوله :

سقى لوجه شبابها بحسنه المنعوت
إذا راح يمشى الهوينا عشية الناعوت

وله في التصدير :

تُعيرني الذنوب وأى حر من الفتیان ليس له ذنوب
غربت بنوبتي ولججت فيها فشقى الآن جيبك لا أتوب (٢)

وله في المبالغة :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تُخلق (٣)

ولأبي تمام في الاقتباس من القرآن :

كان الذي خِفْتُ أن يكونا « إنا إلى الله راجعون » (٤)

وله في التشريع وهو بناء البيت على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما :

على بأهيف قد تناوم لحظه من غير نوم - بل يتيه ويفتن
قلت ألت تخاف حين تزورني سطوان قومي - كم تبوح وتعلن
فأجبتها في نيل وصلك لم أكن لأخاف قومي - فهو عندي هيّن

وله في الترضيع :

سلاف دِنِ كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس ريب فرس حليف سجن

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٧٢٩٩ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٢٤٥ من طبعة إسكندر آصاف

(٣) الديوان ص ٦٢ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨ والأغاني ج ٢٩ ص ٩٨٧٩ من طبعة الشعب

(٤) ينسبه المؤلف لأبي نواس وهو كما أثبتناه لأبي تمام (الديوان ج ٤ ص ٦٧٧ من طبعة دار المعارف)

رأيت عُلجاً بباطر نجا لها توجى فلم يثن
 حتى تبدت - وقد تصدت لنا وملت حلول دن
 فاحت بريح كريح شيخ يوم صبح وغيم دجن
 يسقيك ساق على اشتياق إلى تلاق بماء مزن
 يدير طرفاً يغير حتفا إذا تكفى من الستنى
 على غناء وصوت ناء دواء من التجنى
 ولثم خد كطعم قند لذات قد وهى تغنى
 غنى بدل وضرب طبل وحسن شكل ونخب جنى
 يامن لحانى على زمانى اللهو شانى فلا تلمنى
 أطلت عدلاً فلا تقل لا يريد إلا السلو عنى
 أسخت عينا تراك زينا فأين أين الفرار منى
 هتكت سترى فباح سرى وعيل صبرى بطول حزنى^(١)
 وله فى لزوم مالا يلزم :

اترك الأطلال لاتعنى بها إنها من كل بؤس دانية
 واشرب الخمر على تحريمها إنما دنياك دار فانية
 من عقار من رآها قال لى صيدت الشمس لنا فى آنية^(٢)

وله فى الاقتباس من القرآن :

يعذب من يشاء بمقلىه إذا رننا ويرحم من يشاء^(٣)

وله فى التلميح إلى قصة السامرى مع موسى :

بليت من الشقاء بسامرى يعاملنى الغداة بلا مساس^(٤)

وهو يشير إلى حكاية موسى السامرى الذى أضل قوم موسى عليه السلام حين زين لهم

(١) الديوان ص ٣٤٦ - ٣٤٧ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٢) الديوان ص ٣٥١ من طبعة إسكندر آصاف ١٨٩٨

(٣) الديوان ص ٣٢٨ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

(٤) الديوان ص ٧٠٦ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى

عبادة تمثال العجل ، وهذه القصة مذكورة في قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى)^(١) إلى قوله تعالى (قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه)^(٢)

وله فى لزوم ما لا يلزم :

فتلت تقيلاً على خده و مال منكباً على فراشه
فالسكّر فيما كان من فعله ويذله للحسن الحرشى

وله فى لزوم ما لا يلزم والطى والنشر المرتب :

إن الرقيب وأدمعى سدا على طرق احتيالى
منع الرقيب من الزيارة (م) والدموع من الخيال

وله فى الجناس :

ولى أير لشقوته ألوف ينغص عيشتى عند الوصال
فلو أنى ألفت الهجر يوماً بكيت عليه فى زمن الوصال

وله فى التلميح :

أيا من إليه مقاليد ال علياء عن حق تسلّم
مات السباح فكنت فى حياة عيسى بن مريم

وله فى الغلو فى وصف الخمر :

توهمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئاً ليس يدرك بالعقل
وصفراء أبقي الدهر مكنون روحها وقد مات من محبوبها جوهر الكل
فما يرتقى الكيف منها إلى مدى تحدّبه ألا ومن قبله قبل

فقد جعل الخمر لا تدرك بالعقل ووصفها بالقدم وقوله جوهر الكل والكيف فى غاية التكلف ونهاية التعسف .

(١) سورة طه آيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

(٢) سورة طه آيات ٩٥ - ٩٧

بديعيات أبي تمام :

من شعره الجناسى فى نوع منه يسمى الماثلة أو الجناس التام :

لَيْسَالَيْنَا بِالرُّقَّتَيْنِ وَأَهْلَهَا سَقَى الْعَهْدُ مِنْكَ الْعَهْدَ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ^(١)

العهد الأولى (الوقت) والعهد الثانية (الحفاظ) والعهد الثالثة (الوصية) والعهد الرابعة (المطر) وله فى الجناس المطلق وهو توافق الحروف وترتيبها بدون أن يجمعها اشتقاق :

ما مُقَرَّبٌ يَخْتَالُ فى أَشْطَانِهِ مَلَّانَ مِنْ صُلْفٍ بِهِ وَتَلْهَوْقِ
بِجَوَافِرِ^(٢) خُفْرِ وَصُلْبٍ صُلْبٍ وَأَشَاعِرِ شُعْرِ، وَخُلُقٍ أُخْلَقِ^(٣)

وقال :

مَلَيْتَكَ الْأَحْسَابَ أَيْ حَيَاةٍ وَحَيَا أَزْمَةٍ وَحَيَّةٍ وَادَى
لَوْ تَرَاخَتْ يَدَاكَ عَنْهَا فُوقًا أَكَلَتْهَا الْأَيَّامُ أَكَلِ الْجَرَادِ^(٤)

ومن شعره فى نوع من التجنيس يسمى المضارعة وهو أن يزيد حرفاً أو ينقص آخر .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضٌ^(٥) الصَّفَائِحُ لَا سَوْدُ الصَّحَائِفِ فى بَطُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ^(٦)

وله فى الجناس الخطى :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ^(٧) وَنَضْرَةٍ^(٨) مِنْ شَحُوبٍ^(٩)

وله فى الجناس المذيل ، وهو زيادة حرف فى اللفظ الثانى من لفظين متجانسين :

(١) الديوان ص ١٠٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) جناس تام

(٣) الديوان ص ١٨٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ٧١ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) مضارعة وطباق

(٦) الديوان ص ١٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٧) جناس خطى

(٨) مطابقة

(٩) الديوان ص ٣٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

يَمْدُونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ^(١)

وفى شعره الجناس التام والجناس المطلق فى قوله :

والسيفُ مغفٍ^(٢) غير أن غراره^(٣) يَقِظُ إذا هَادَ هَدَاهُ^(٤) لهاذٍ^(٥)

وله فى الجناس المحرف وهو اختلاف اللفظين فى حركات الحروف :

نَوَارٌ فى صَوَاحِبِهَا نَوَارٌ كَمَا فَجَاكَ سَرْبٌ أَوْ صَوَارٌ^(٦)

وله فى الجناس وإن كان غير ظاهر ، بل الظاهر أنه تكرار ممقوت ومُتَكَلَّف .

فَرَفَدَكَ الزَّائِرُ مَجْدٌ وَلَا كَرَفَدَكَ الزَّائِرِ لِلزَّائِرِ^(٧)

وله أيضا :

بَيِضٌ فَهَنٌ إِذَا رُمِقْنَ سَوَافِرًا صَوْرٌ وَهَنٌ إِذَا رُمِقْنَ صِوَارٌ^(٨)

فى حَيْثُ يُمْتَهَنُ الْحَدِيثُ لَدَى الصَّبَا وَتَحَصَّنَ الْأَسْرَارُ^(٩) وَالْأَسْرَارُ^(١٠)

وله فى الطباق :

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنَّ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطُّ إِلَّا أَنَّ تَلَكْ ذَوَابِلُ^(١١)

وله فى الترديد ، وهو تعليق اللفظ بمعنى ثم تعليقه ذاته بمعنى آخر :

خَفْتُ دَمَوْعَكَ فى أَثَرِ الْحَبِيبِ لَدُنْ خَفْتُ مِنَ الْكُتُبِ الْقَضْبَانُ وَالْكَتَبُ^(١٢)

وله فى المقابلة ، وهى مواجهة كل لفظ بما يستحقه فى الحكم :

لَقَدْ أَصْبَحَ الثَّغْرَانِ سَدَّيْنِ بَعْدَ مَا رَأَوْا سَرَّعَانَ الذِّلَّ فَذَا وَتَوَّما

(١) الديوان ص ٤٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) فيه طباق بين الإغفاء واليقظة

(٣) جناس مضارع

(٤) جناس تام وهادى الثانية بمعنى عنق والأولى بمعنى مرشد

(٥) الديوان ص ١٢٠ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٦) قطيع بقر الوحش - الديوان ص ١٢٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٧) الديوان ص ١٢٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٨) جناس مطلق

(٩) جناس تام والأولى جمع السر - معروف ، والثانية جمع سر وهو الفرج

(١٠) الديوان ص ١٢٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(١١) الديوان ص ٢٢٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(١٢) الديوان ص ٤٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

فكنتَ للناسِهم أباً ، ولكهْلهم أخاً ولذى التَّقْوِيس والكِبَرِ ابناً^(١)
وله في التصدير :

ولم يحفظ مضاعَّ المجدِ شيء من الأشياء كالمال المضاعَّ^(٢)
وله أيضا في التصدير :

نعم الفتى عُمَرُ في كلِّ نائبةٍ نابت وقل له نِعَمَ الفتى عُمَرُ^(٣)
وله في الترصيع وهو تسجيع أجزاء البيت الواحد :

تدبير معتمسم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتهب^(٤)
ومن ترصيعه قوله :

سأحمد نصراً ما حيت وإننى لأعلم أن قد جلَّ نصرٌ عن الحمدِ
تجلَّى به رشدى وأثرت به يدي وفاض به ثدير وأورى به زندي^(٥)
وقال مرصعا :

والبيضُ لامعةٌ والسمُرُ شارعةٌ والأسدُ راتعةٌ والعُرُ منتصبُ^(٦)
وله في الإغراق : وهو الخروج في الوصف عن الواجب والمتعارف :
عن مثل نصلِ السَّيفِ إلا أنه مُدُّ سُلٍّ أَوَّلَ سَلَةٍ لم يُغْمَدِ^(٧)
وله في التشكيك :

فو الله ما أدري أحلامٌ نائمٌ أَلَمَّتْ بنا أمْ كان في الركبِ يوشعُ
وعهدى بها تحيى الهوى وتميَّتهُ وتشعبُ أعشارِ الفؤادِ وتصدعُ^(٨)

في البيت الأول مع التشكيك تلميح وهو الإشارة في الكلام إلى قصة مشهورة وهي أن
النبي يوشع عليه السلام قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أدبرت الشمس خاف أن تغرب قبل أن

(١) الديوان ص ٢٦٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١٧٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ١٣٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ١٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) الديوان ص ١٠٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٦) الديوان ص ٣١٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٧) الديوان ص ١١٣ من طبعة محمد جمال

(٨) الديوان ص ١٦٨ من طبعة بيروت ١٨٨٩

يفرغ من قتالهم ويدخل يوم السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله فأبقى له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

وفي البيت الثاني طباق في كلا الشطرين ، كما لا يخفى .

وله في حسن التعليل :

لست أبكى ذهابَ عيني لعيني غيرَ أنى أبكى لئلا أراكا^(١)

وقوله :

لا تنسينَّ تلكَ العهدَ فإنما سُميتَ إنساناً لأنك ناسي^(٢)

وله في المذهب الكلامي :

إقدمُ عمرو في سماحة حاتمٍ في حلمٍ أحنفَ في ذكاءٍ إياس

لا تنكروا ضربي له مَنْ دُونَهُ مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلَّ لشوره مثلاً من المشكاة والنبراسِ^(٣)

ألا ترى كيف ادعى أن المذكورين دون الممدوح في هذه الأوصاف المنسوبة إليهم ، وأنه لا حرج في أن يشبه بهم ، وإن كانوا أقل وأدون ، ثم يستدل على دعواه بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)^(٤) .

ومثله في المذهب الكلامي قوله للمعتصم حاضاً إياه على الحرب وبينه إلى فضلها :

دع النجومَ لصوفي يعيشَ بها وبالغزائم فأنهَضُ أيُّها الملكُ

إن النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا^(٥)

(١) الديوان ص ٤٠٧ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١٥٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ١٥٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) سورة النور ، آية ٣٥

(٥) ورد الشعر في النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٠٢ وينسب لمجهول .

وقوله :

إن وجه الجمال وجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نهاراً جهارا
لم تشين وجهه المليح ولكن جعلتُ وردَ وجنتيه بهارا^(١)

وله في براعة الاستهلال ، وهو أن يأتي بكلام يناسب المقصود ، كقوله في أول قصيدة رثائية :
كذا فليجل الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يُفَضْ مأوها عُذرُ
توفيتِ الآمالُ بعد محمدٍ وأصبح في شُغلي عن السفرِ السفرُ^(٢)

ولا يخفى ما في آخر البيت من الجناس :

وله في الاقتباس من القرآن :

مِلْءَ عيني ملاحَةً وجمالا وفؤادي مهابةً وجلالا
فاعذلوا فيه كيف شتم وقولوا (وكفى الله المؤمنين القتالا)^(٣)

وله في الطي والنشر المرتب :

جرت له أسماء حبل الشموس والهجر والوصلُ نعيمٌ وبوس^(٤)
وله في ذلك أيضا ولا يبعد أن يكون تقسيما :

الهوى ظالمٌ وأنتَ ظلومٌ كيف يقوى عليكما المظلومُ
لا للهوى جرأة ومنك صدودٌ ليس لي منكما محبٌ رحيمٌ^(٥)

وله في تأكيد المدح بما يشبه الذم :

مجلس لم يكن لنا فيه عيبٌ غير أنا في دعوة الأحلام^(٦)
ومثله قوله :

له خلق نه القرآن عنه وذاك عطاؤه السرف البذاء

يشير إلى قوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) .

(١) الديوان ص ٣٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ٣٢٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ٤٠٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ١٥٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٥) الديوان ص ٤١١ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٦) الديوان ص ٤٦٠ من طبعة محمد جمال

وله في التتميم ، يصف حلة كساه إياها محمد بن الهيثم :
 كالسرّابِ الرّقراقِ في النّعتِ إلا أنه ليس مثله في الخداع^(١)
 فهو قد شبهه بالسرّاب إلا أنه أراد أن ينفي ما يختص بالسرّاب ، وهو أنه يحسبه الظمآن
 ماء ، حتى إذا جاءه لم يحده شيئا ، وهذا هو المذاع ، فأراد تشبيهه به في اللّمعان والصفاء لا
 في الخداع .

وله في التلميح :

عذنا بموسى من زمانٍ أنشرت سطواته فرعونَ ذا الأوتاد^(٢)

وله في الاطراد ، وهو ذكر أعلام متعاقبة من غير حشو :
 عمرو بنُ كلثوم بن مالك بن عتاب م بن سعدٍ سهمكم لا يسهم^(٣)
 فيه تكلف من حيث تنوين مالك مع أنه يجب حذف التنوين :
 وأيضا له في الاطراد :

مطرّدُ الآباءِ في نسبةٍ	كالصبحِ في إشراقهِ الساطعِ
مناسبٌ تحسبُ من ضوئها	منازلا للقمر الطالعِ
كالدلو والحوتِ وأشراطه	والبطن والنجم إلى البالعِ
نوحُ بن حوى بن عمرو	بن حوى بين الفتى المانع ^(٤)

(١) الديوان ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٢) الديوان ص ١١٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٣) الديوان ص ٢٤٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩

(٤) الديوان ص ١٧٦ من طبعة بيروت ١٨٨٩

مقارنة النحو في الشعر الأموي والعباسي

إنك إذا تصفحت دواوين الشعراء في كلا العصرين الأموي والعباسي وجدت بينهما من الفوارق ما يسهل لك الحكم على الشعر الأموي بأنه أكثر شذوذاً وأشد خروجاً على الضوابط الشعرية والأقيسة اللغوية ، ذلك لأن الشعراء في ذلك العصر كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة لكل منها لسان عربي يمتاز به عن نظيراتها من القبائل الأخرى .

وكان الشاعر حراً طليقاً غير مقيد بما يسمونه « النحو » وكل شاعر يرى نفسه إماماً وقدوة في اللغة يسلك في شعره مناحي متشعبة لا يكاد يضبطها قياس أو تحصرها قاعدة ، ومع ذلك فهو غير مؤاخذ على ما يجري على لسانه من الشواذ .

ومن الأسباب الأساسية التي لها عظيم التأثير في كثرة الشواذ في هذا العصر عدم تدوين قانون للعربية يضبط قواعدها ويجمع موادها حتى ينهج الشاعر على سننها ويعقل لسانه عن عصيان نوااميسها والتمرد على سلطانها بخلاف الشعر في العصر العباسي ، فهو شعر سلس الأسلوب مضبوط لا تكاد تجد فيه من الأخطاء والشواذ إلا التزر اليسير ، ذلك لأن مدارس النحو قد أسست في ذلك العصر وضبطت القواعد وصارت علماً خطيراً كان في مقدمة العلوم التي يعنى بها العلماء إبان الخلافة العباسية ، لذلك نجد وضع علم النحو وتدوين قواعده وضبطها في أبواب محصورة وتعليلها بالأقيسة والبراهين المقبولة ، كل ذلك كان سبباً ذا خطر جليل ضبط ألسنة الشعراء العباسيين وعصمهم من التعثر في هذه الشواذ التي وقع فيها الشاعر الأموي ، والفضل في ذلك يرجع إلى العناية بالأقيسة النحوية التي مهدها لهم أساتذة علم النحو في ذلك العصر .

لم نجد من شعراء العصر العباسي من يفرط في الشواذ والأخطاء العربية إلا أبا نواس ومع ذلك فلا تبلغ شواذه المبلغ الذي تجده في شعره الفرزدق أو جرير . وسنسرده لك الشواذ والأخطاء التي وقعت لكل من شعراء العصرين ليتبين لك صدق ما حكمنا به .

الشواذ والأخطاء النحوية في عصر بني أمية

من شواذ عمر بن أبي ربيعة :

وما أنسَ مِ الأشياءِ لأنَّسَ مجلساً لنا مرَّةً منها بقرن المنازل^(١)
فيه حذف الألف من الفعل (أنسى) ولم يتقدمه جازم ، وكذلك في حذف النون من
حرف الجر (من) ، وهذه ضرورة فاحشة . ومثل هذا الحذف حذف النون في (من) من
قوله :

بجنيّ نَقْضِي اللّهُوَ في غير مأثم وإن رَغِمَتْ مِ الكاشحين المعاطس^(٢)
ومن شواذ الأصوص قوله :

ألا يا نخله من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام
والشاذ فيه من حيث تقدم المعطوف على المعطوف عليه .

ومن شواذ الأخطل قوله :

ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنفكم بفتيان قيس والسيوف الصوارم^(٣)
فقد حرك آخر الفعل المضارع (أجدع) مع أنه معطوف على الفعل المجزوم ، ولم يعهد
ذلك إلا في الفعل المعطوف على فعل الشرط إذا تخلل الشرط والجزاء ، فإنه ينصب أو يجزم ،
قال ابن مالك :

وجزم أو نصب لفعل إثر فا أو واو أن بالجملتين اكتنفا
ومن شواذ جميل قوله في مطلع القصيدة :

« رسم دار وقفن في طلبه »

فقد حذف رب ولم توجد الواو أو بل اللتان تنوبان عنها ، ومع ذلك فقد كسر الميم في

(رسم) قال ابن مالك :

وحذفت رب فجرت بعد بل وألفاً وبعد الواو شاع في العمل

(٣) الديوان ص ٣٧٠

(١) الأغاني ج ١ ص ١٨٩ من طبعة الشعب

(٢) الأغاني ج ١ ص ٩٩ من طبعة الشعب

ومن شواذ ذى الرمة :

ولأَعْيَبَ فيها غير أن سَرِيعَهَا قَطُوفٌ وأن لاشيء منهن أُكْسَلُ^(١)
فقد قدم الجار والمجرور (منهن) الذى هو معمول لأفعل التفضيل .

ومن شواذ مجنون ليلي :

فلو أن واشٍ بالجمامة داره ودارى بأعلى حَضَرَ مَوْتَ اهتدى ليا^(٢)
فقد حذف ياء المنقوص مع أنه يجب إظهار الفتح فى النصب

قال ابن مالك :

والثاني منقوص ونصبه ظهر ورفع ينوى كذا أيضاً يحجر

ومن شواذ الفرزدق أو أخطائه النحوية قوله :

إذا قيلَ أىُّ الناسِ شرُّ قَبِيلَةٍ أشارت كَلِيبَ بالأَكْفُفِ الأصابع^(٣)
فإنه يريد أشارت إلى كليب ، ولكنه حذف الجار وأبقى الاسم مجروراً ، ومن ضروراته
الشعرية التى لا تبيحها العربية :

بالباعثِ الوارثِ الأمواتِ قَدْ ضَمِنَتْ إِيَّاهُمْ الأَرْضُ فى دهرِ الدَّهَارِيرِ^(٤)
فيه فصل الضمير (إياهم) فى حين لامسوغ للانفصال ، اللهم إلا أن يكون ضرورة من
ضرورات الشعر ، قال ابن مالك :

وفى اختيار لا يحىء المنفصل إذا تأتى أن يحىء المتصل
ومن شواذ الفرزدق الصرفية ، قوله :

وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم خَضَعَ الرُّقَابَ نواكِسَ الأبْصَارِ^(٥)

فإنه جمع (خاضع) على خضع مع أنه غير قياسى كما قال ابن مالك :

وفعل لاسم رباعى بمد قد زيد قيل لامٍ أعلا لا فقد

ما لم يضاعف فى الأعم ذو الألف

وأيضاً فقد جمع ناكساً الذى هو وصف المذكر العاقل على نواكس فى حين أن فواعل

(١) الديوان ص ٤٦١ من طبعة كمبردج ١٩١٩

(٢) الأغاني ج ٢ ص ٤٨٧ من طبعة الشعب

(٣) الديوان ص ٥٢٠ من طبعة الصاوى

(٤) الديوان ص ٢٦٤ من طبعة الصاوى

(٥) الأغاني ج ٢٥ ص ٨٦١٠ من طبعة الشعب والديوان ص ٣٧٦ من طبعة الصاوى

مفرداته ما ذكرها ابن مالك في قوله :

فواعل لفواعل وفاعل وفاعلاء مع نحو كاهل
وحائض وصاهل وفاعله وشذ في الفارس مع ما مثله
قال ابن هشام في أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك « وشذ في فوارس ونواكس وسوابق
وهوالك »

ومن شواذ جرير قوله :

ذُمَّ المنازلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى والعَيْشَ بَعْدَ أَوَّلِكَ الأَيَّامِ^(١)
فقد أشار إلى الأيام التي هي غير عاقلة بأولاء وهي إنما يشار بها إلى جمع العاقل أو العاقلة
ومن أخطائه النحوية قوله :

ظَلَّ ابْنُ هِنْدَابَةَ الثَّرَمَاءَ مُبْتَرِكًا يَرَوِي لَقَيْنٌ وَمَا يُنْدَبُ لِإِسْعَادِ^(٢)
فقد جزم الفعل (يندب) وليست (ما) هنا من أدوات الجزم هكذا وجدت بديوانه ،
ولعله (ولم يندب) وحيث لا شذوذ ولا خطأ . ومن أخطائه القبيحة التي لا تجوزها الضرورة
النظمية قوله :

وَمَا رَامَ الْأَخْيَطُ مِنْ صَفَاتِي وَقَدْ صَدَّعْتُ صَخْرَةً مِنْ أَرَادِي^(٣)
فإنه حذف نون الوقاية قبل ياء المتكلم التي هي مفعول به ويجب اقترانها بالفعل ولم يعهد
حذف نون الوقاية في مثل هذه المواضع .

ومن شواذ جرير أيضاً قوله :

إِذَا سَايَرْتَ أَسْمَاءَ يَوْمًا ظَعِينَةً فَأَسْمَاءُ مِنْ تِلْكَ الظَّعِينَةِ أَمْلَحُ^(٤)
فقد قدم معمول أفعل التفضيل عليه مع أنه لا يسوغ ذلك إلا في حالة الاستفهام . ومن
شواذه أيضاً كثرة نون جمع المذكر السالم ونون الملحق به في قوله :
عَرَفْنَا جَعْفَرًا وَبَنِي أَبِيهِ وَأَنْكَرْنَا زَعَانِفَ آخَرِينَ

(١) الديوان ص ٥٥١ من طبعة الصاوي

(٢) الديوان ص ١٤٠ من طبعة الصاوي

(٣) الديوان ص ١٤٥ من طبعة الصاوي

(٤) الديوان ص ١٠٧ من طبعة الصاوي

وماذا يَبْتَغِي الشعراء مني وقد جاوزتُ حَدَّ الأربعين^(١)
ومن شواذه أيضاً قوله :

أتمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم علىّ إذن حرام^(٢)
فقد حذف باء الجر وذلك الحذف شاذ عند جمهور النحاة ، وهذا الشذوذ هو ما يسمونه
النصب على التوسع بترع الخافض .

ومن شواذ الفرزدق قوله ، وقد حذف النون من اللذان واللذان :
أبني كليب إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الأبطال^(٣)
وقوله :

هُمَا اللَّتَا لَوْ وَلَدَتْ تَمِيمٌ^(٤)

ومن الشواذ النحوية قال علقمة بن عبدة :
كأن إبريقهم ظبي على شرف مفدّم بسبا الكتّان ملثوم^(٥)
أراد سباسب الكتان فحذف الحرفين الآخرين لأجل ضرورة الوزن .

ومن الأخطاء الصرفية قول القطامي :
وقولُ المرء ينقُذُ بعدَ حينٍ مواضعَ ليس ينقُذُها الإبار^(٦)
وهو يريد جمع الإبرة ، ولم يعهد أن (فِعْلَه) يجمع على فعال .

(١) الديوان ص ٥٧٧ من طبعة الصاوي

(٢) الديوان ص ٥١٢ من طبعة الصاوي

(٣) الأغاني ج ١١ ص ٣٨٤١ من طبعة الشعب

(٤) مطلع البيت للأخطل ، الديوان ص ٣٩٨

(٥) أبو عبيد البكري : سمط اللآلئ في شرح آمالي القالي ج ١ ص ١٣ بتحقيق عبد العزيز الميمني

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ١٩٨ من طبعة مطبعة الاستقامة

الشواذ والأخطاء النحوية

في الشعر العباسي

من هذه الشواذ ما ارتكبه أبو تمام لأجل الضرورة الشعرية في قوله :
أنا أفدى ساجي الجفون مليحاً وكأني بيبعض عبد الحميد^(١)
فقد حذف الفتحة من المنقوص في حالة النصب .
ومن أخطاء أبي نواس النحوية قوله :
كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ^(٢)
وهذا لحن منه فإن أفعال التفضيل إذا أضيف إلى نكرة أو جرد من الإضافة والألف واللام ، وجب إفراده وتذكيره ، وقد أتى به أبو نواس مؤثلاً في هذا البيت ، قال محمد بن مالك في ألفيته :

وإن لمنكور يُضَفُّ أو جرداً ألزمه تذكيراً وأن يوحد
ومن شواذ أبي نواس :
رَشَاءُ تَوَاصِيْنِ الْقِيَانُ بِهِ حَتَّى عَقْدَنْ بِأُذْنِهِ شَفَا^(٣)
فقد أتى بضمير النسوة مع وجود الظاهر (القيان) وكان الواجب حذف النون ، فهلا قال
« رَشَاءُ تَكَلَّفَتْ الْقِيَانُ بِهِ » أو « رَشَاءُ تَعَهَّدَتْ الْقِيَانُ بِهِ » .

ومن شواذه أو قل من خطئه قوله :
ما زال يَظَلُّ مِنْ يَنْتَابِ حَاتِهِ حَتَّى أَتْنِي وَكَانَتْ ذَخْرَ مَوْنَائِي^(٤)
فإنه هنا في هذا البيت قد مدَّ المقصور (موائى) مع أن النحويين لم يجوزوا ذلك حتى في
الضرورات الشعرية إلا نفر قليل منهم (الكوفيون) فقد جوزوه محتجين بأدلة قد تعسفوا فيها
وتكلفوها . ومثل تلك الشواذ قوله ماداً المقصور :

إِنِّي لِأَشْرَبَ مِنْ عَيْنِهِ صَافِيَةً صَرَفًا وَأَشْرَبَ أُخْرَى مَعَ نَدَامَائِي

(١) الديوان ص ٤٣٨ من طبعة محمد جمال

(٢) الديوان ص ٧٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٣) الديوان ص ٤٣٢ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

(٤) أبو هفان : أخبار أبي نواس ص ٣٩ بتحقيق عبد الستار فراج

ولأنّ لأمّني فيه فقلت له إني وعيشك مشغول بمولائي^(١)
ومن أخطاء أبي نواس قوله :

وبذل المجهود من نفسه وصار مملوكاً بلا رقا
هكذا وجدت بديوانه والخطأ فيه ظاهر ولعله هكذا « وصار مملوكاً له رقا » .
ومن أخطاء أبي نواس في النحو :

فلم يجز في مذهبي أخذها بل يصقع اللائط في عنقا
والخطأ في هذا البيت ظاهر ، ومن أخطائه الصرفية قوله :

بميدانٍ جعلنا خيـاً طاساً وأكواساً^(٢)

فإنه يريد جمع الكأس وهو لا يجمع إلا على كؤوس وأكؤوس على أن الكأس وهو مهموز
الأصل ، وجمع التكسير يرد الأسماء إلى أصولها ، فأين همزة الأصل ؟

(١) أبو هفان : أخبار أبي نواس بتحقيق عبد الستار فراج .

(٢) الديوان ص ٢١٧ بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي

اختلاف اللغات وأثر ذلك في الشعر الأموي

كان لاختلاف لغات القبائل في الجاهلية أثره الظاهر في الشعر الأموي ، فكثرة « الغريب » فيه مرجعها - بلا ريب - إلى هذا التعدد في اللغات ، وقد خطر لنا أن نلقى نظرة على « المخصص » فرأينا « للبعير » ألف مرادف وللناقة ٢٥٥ وللماء ١٧٧ وللخمر ١٠٠ وللأسد ١٢١ ورفعها بعضهم إلى ٣٥٥ وبعضهم إلى ٦٠٠ ، وأحصينا للذئب ٧٤ مرادفا وللحية ١١٢ ورفعها بعضهم إلى ٩٠٠ . . إلخ .

وكذلك كثرت صيغ الجمع على غير قياس فناقة مثلاً تجمع على ناقات ونوق وناق وأياقق ونياق وأئيق وأئوق .

ولهذا كثرت الأضداد كذلك فعلى سبيل المثال نقول إن الإسرار هو الكتمان لا الإظهار ، وبعد في بعض اللغات بمعنى قبل وأحمر بمعنى أبيض والبعض بمعنى الكل وقسط بمعنى جار وعدل ، والتد بمعنى الضد والمثل . وولى بمعنى أقبل أو أدبر ، وهل بمعنى قد في بعض اللغات ، والشجاع للقوى وللضعيف ، وفي بعض اللغات بمعنى المنون وفي بعضها بمعنى الأرز وفي بعضها بمعنى الثعبان ، والسدفة للضوء وللظلمة والمساجد في بعض اللغات بمعنى المنتصب . . إلخ .

وقال الواسطي في كتابه « القراءات » إن في لغة القرآن كلمات من أربعين لغة عربية هي : قریش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج . . هذا ولم يكن الخلاف بين اللغات مقصوراً على الكلمات ، إنما تعداها إلى أصول النحو ، قال الأصمعي « جاء عيسى بن عمر ونحن عند أبي عمرو بن العلاء ، فقال يا أبا عمرو ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ قال وما هو قال : بلغني أنك تجيز « ليس الطيب إلا المسك » قال أبو عمرو : نعم وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، ثم قال : قم يحيى - يعني الزيدى - وأنت يا خلف - يعني (خلف) الأحمر فاذهبا إلى المهدي (أعرابي بالحجاز) فلقناه الرفع واذهبا إلى المنتجع (أعرابي من تميم) فلقناه النصب فإنه لا ينصب ، قال : فذهبا فأتيا

أبا المهدي فإذا هو يصلي ، فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟ قلنا جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب ! قال : هاتها . فقلنا كيف نقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال « أتأمران بالكذب على كبرسني » فقال لي خلف ليس الشراب إلا العسل . قال اليزيدي : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فأعادها بالنصب ، فرفعها ثانية ، فقال ليس هذا لحن ولا لحن قومي . قالوا فكتبنا ما سمعنا ، ثم أتينا أبا المنتجع فلقناه النصب وجهدنا به فلم ينصب وأبى إلا الرفع .

ومن اختلاف اللغات استعمال ذوات بمعنى الذي في لغة طييء .

جمعتها من أينق بوارق ذوات ينهضن بغير سائق
بمعنى اللائي - جمع ذات - وطييء تستعملها في معنى التي ، ويقولون ذو بمعنى الذي .
فأما كرام موسرون لقيتهم فحسبي من ذو عندهم ما كفاينا
و « ذو » هذه وردت كذلك في شعر أبي نواس :
حب المدامة ذو سمعت به لم يبق في غيرها فضلا
ومن اختلاف اللغات أن بعض القبائل « الحرث بن كعب وبعض ربيعة » تحذف نون اللتين واللذين في حالة الرفع ، وعلى هذه اللغة يقول الفرزدق :

أبني كُليب إن عَمِيَّ اللذا قتلا الملوك ونكَّكا الأبطالاً^(١)
ويقول الأخطل :

هُمَا اللَّتا لَو وَلَدَتْ تَمِيمٌ لَقِيلَ فَخْرٌ لَهُمُ صَمِيمٌ^(٢)
ومن اختلاف اللغات في الجمع :

تَنْفِي يداها الحصى في كلِّ هاجِرَةٍ نَفَى الدراهم تنقاد الصَّياريفِ^(٣)
وليس يمكن أن يجيزه كضرورة من ضرورات الشعر ولو أن غيرنا أجازاه .
وقول عمر بن أبي ربيعة :

صَدَدَتْ فَأَطَوَلَتْ الصُّدُودَ وصالٌ على طولِ الصُّدُودِ يَدُودِ^(٤)

(١) الأغاني ج ١١ ص ٣٨٤١ من طبعة الشعب

(٢) الديوان ص ٣٩٨

(٣) من أبيات سيويه ، البغدادي : خزانة الأدب ج ٤ ص ٣٢٤ من طبعة السلفية ١٣٥١

(٤) الديوان ص ٥٠٢ من طبعة المكتبة التجارية

وهو قبيح وقد أورده سيويه في كتابه في باب « ما يحتمل من الشعر » .
ومن اللغات ما يحذف النون من حرف الجر « من » مثل « ما أنسى ملاءشياء لا أنس . .
إلخ » ، أى « ما أنسى من الأشياء لا أنسى كذا » وهى لغة شائعة ولا سيما فى شعر عمر وجميل .
وإنما أردت التمثيل والإشارة .

ومجمل القول أن لاختلاف اللغات أثر كبير فى صعوبة الشعر الأموى وتعقيده ولا سيما شعر
البادية ، وكفى بشعر الشماخ بن ضرار وذى الرمة شاهدا على ما نقول . . ومنهم من يقول
« لا أياك » بدلا من « لا أبالك » .

وقد مات شماخ ومات مزرب وأى كريم لا أباك مخلد
وبعد ، فأقول إن اختلاف اللغات كان له أثر كبير فى تعقيد الشعر الأموى وصعوبته ، فلما
كان القرن الثانى ماتت هذه اللغات الضعيفة أو كادت .

الخيال فى الشعر الأموى والعباسى والتشبيهات الجديدة

قيل لابن الرومى : لِمَ لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال لعاذله : أنشدنى من شعره
ماستمعه عنه ، فأنشده فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر^(١)
قال : زدنى ، فأنشده قوله فى الآدريون :

كأن آدريونها والشمس فيه كالبية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالبية^(٢)

فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف بنيه لأنه ابن
خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ إنما أصف ما أرى وأنشده بعض نماذج منها ، قوله فى صانع
رقاق :

(١) نجيب العقيقى : الأدب المقارن ص ١٠٨ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨ ، وأبو عبيد البكرى : سمط اللآلىء ج ١

(٢) الديوان ص ٨٩ من طبعة المكتبة العربية

مائس لا أنسَ خبَّازاً مررتُ به يدحو الرُّقاقة مثلَ الملح والبَصَر
ما بين رؤيتها في كفه كُرَّةً وبين رؤيتها قوراء كالقَمَر
إلا بمقدار ماتنداح دائرة في لُجَّة الماء يلتقي فيه بالحَجَر

وكذلك أقول إن هذه التشبيهات الجديدة التي ازدحمت بها دواوين الشعراء العباسيين وعطلت منها دواوين الأمويين ليست دليلاً على خصب خيال العباسيين وفقر خيال الأمويين أوجموده .

عاش العباسيون في بيئة يقول عنها بشار بن برد :

قد عشت بين الندمان والراح والمزهر في ظل مجلس حسن
فطبعي أن تنشأ هذه التشبيهات الجديدة لأن الحياة الجديدة مليئة بمادتها الطبيعية ، أتظن
رجلا عاش في البصرة أو الكوفة أو بادية العراق أو اليمامة يستطيع أن يقول :
كأن الخزامى أسهم من زبرجد لهم نصل من فضة شابها دم
كأن رسوم الورد والورد فوقها سماء لها من خالص الترب أنجم

فإن ذكرنا أحد دمشق وملاعبها فأنت تعرف أن الشعراء كانوا يشدون الرحال إليها ليمدحوا الخلفاء وأن الشام كان فقيراً من الشعراء .

كيف يستطيع أموى أن يقول :

فحططنا إلى رياض عيون ناضرات ما إن بهن اعورار
فكان الأكفان فيها ايضاض ومكان الأحداق فيها اصفرار
أو :

فتنفت في الكأس إذ مزجت كتنفس الريحان في الأنف
أو :

يا من بمقلته العقار وبوجنتيه الجلنار
أو :

ظبي كأن الله ألبسه قشور الدر جلدًا وترى على وجناته م في أي حين شئت وردا

أو :

أحببت ربما غنجاً ذا وجنة كالذهبة

أو :

وشادن كالقضيب قامتة يسكب لى فضة على الذهب

أو :

بشمائل ومحاجر لكنا قد غشيت حسنا قشور زبرجد

أو :

وجلنار مشرق على أعالي الشجرة

كأن فى رءوسه أحمره وأصفره

قراضة من ذهب فى خرقة معصفرة

أو :

وزهر خشخاش بدا أحمره كأنه فى رونق وابتهاج

أقداح بلور وقد أنزحت عن خمرة لم تختلط بالمزاج

أو :

سقيا لأرض إذا مانمت نبهنى بعد المهجوع بها ضرب النواقيس

كأن سوسنها فى كل شارقة على الميادين أذئاب الطواويس

أو :

ولا زوردية تاهت بزرقها فوق البياض على زرق اليواقيت

كأنها فوق طاقات نهضن بها أوائل النار فى أطراف كبريت^(١)

..... إلخ

أنت ترى أن هذه التشبيهات مقتبسة هى ومادتها من البيئة الجديدة ، والآن نحب أن نوازن بين خيال الأمويين وخیال العباسيين أى بين خيال العرب الخالص والموالى والمولدين . نحب أن نلاحظ أولاً ماهوية الخيال العربى فنقول عن التشبيه فى شعر الأمويين والجاهليين إنه منتزع من البيئة البدوية العربية ، وطبيعى أن يكون كذلك امرؤ القيس يشبه لون الأنف

(١) أبو العتاهية : الأدب المقارن لنجيب العقيقى ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

فيقول « لون كلون دم الغزال » فهذا تشبيه بدوى محض منتزع من صور الصحراء ، لو أن شاعراً عباسياً أحب أن يؤدي هذا المعنى لشبهه بلون الزهر أو الجلنار في غير ما شك .

الأخطل يشبه صوت الخمر وقد صُبَّ عليها الماء فيقول :

غر الشراب فأقبلت مشروبة هدر الدنان بها هدير الأفحل
عربي يشبه لون الأنف وعربي يشبه صوت الخمر وليس بين اللون والصوت جامع ، ومع ذلك فكلاهما ينتزع تشبيهه من الصحراء الغزال والجمل .

شبه الأخطل صوت الخمر بهدير الإبل ، فأبو نواس يؤدي ذلك المعنى نفسه فكيف يؤديه ؟ يقول :

كأن قرقرة الإبريق بينهم رجع المزامير أوتغريد فأفاء^(١)
طبعي ! فأبو نواس يسمع رجع المزامير والأخطل يسمع هدير الإبل .
وأبو تمام يقول في الرثاء :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد^(٢)
أما جرير فيقول :

أمسى بنوه وقد حلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر
أو :

كنا كأنجم ليل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر
أبو تمام رجل متأثر بالحضارة الجديدة يرى « الجواهر » أينما حل ، وجرير رجل بدوى يرى السماء والصحراء فلا يشبه بالجواهر وإنما يشبه بالنجوم والقمر .
ولو أن الشعراء الأمويين عاشوا في البيئة التي عاش فيها العباسيون لأفتنوا في هذه الأوصاف الحضرية وأبدعوا .

ولقد روى عن علي بن الجهم أنه وفد على المتوكل فدحه بقصيدة منها :
أنت كالكلب في حفاظك للود م وكالتيس في قراع الخطوب
فعنف وتلطف المتوكل والتمس له العذر بأنه يستمد تشبيهاته من بيئته البدوية ، وحدث بعد ذلك أن عاش ابن الجهم في بغداد فرق شعره في ذلك العهد وعذب ومن ذلك قوله :

(١) الديوان ص ٢٣٦ من طبعة مصر

(٢) نجيب العتيق : الأدب المقارن ص ١٢٦ من طبعة دار المعارف ١٩٤٨

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسَرِ جَلَبْنَ الْهُوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرَى وَلَا أَدْرَى
 سَلَمْنَ وَأَسَلَمْنَ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقِّفَةِ السَّمَرِ
 أَعْدَنَ لِي الشُّوقَ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ سَلَوْتُ وَلَكِنْ زَدَنَ جَمْرًا عَلَى جَمَرِ
 خَلِيلِي مَا أَحْلَى الْهُوَى وَأَمَرَهُ وَأَعْرِفْنِي بِالْحَلَوِ مِنْهُ وَبِالْمَرِّ
 بَمَا بَيْنَنَا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتُمَا أَرَقَّ مِنَ الشُّكُورِ وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ^(١)
 لكننا لم نعد ذكر أبيات رق لفظها وسلس أسلوبها ، فلنرو لك هذه الأبيات من قصيدة
 له في ذلك العهد حضرية المعاني :

وَطِئْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ عَلَيْنَا الْبَزَاةُ الْبَيْضُ حُمَرُ الدَّرَارِجِ
 وَلَمْ نَحْمِهَا الْأَدْغَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا أَبْحَنَّا حِمَامَهَا بِالْكَلَابِ النَّوَابِجِ
 بُمَسْتَرَوِحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطُونُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ السَّهَامِ الزَّوَالِجِ
 وَمُسْتَشْرِفَاتٍ بِالْهَوَادَى كَأَنَّمَا وَمَا عَقَفْتُ مِنْهَا رَعُوسَ الصَّوَالِجِ
 وَمِنْ دَالِيعَاتِ الْأُسْنَاءِ فَكَأَنَّمَا لَحَى مِنْ رِجَالٍ خَاضِعِينَ كَوَاسِجِ
 فَلَيْنَا بِهَا الْغَيْطَانَ فَلْيَا كَأَنَّمَا أَنَامِلُ إِحْدَى الْغَانِيَاتِ الْخَوَالِجِ^(٢)
 ونلاحظ أن نوع الخيال الذي برع فيه العرب هو الخيال « المصور » ويظهر أن ذلك
 طبيعي ، والعرب قوم تنبسط أمامهم الصحراء انبساطا لانهاية له لا يشغل فضاءها شيء ،
 وإليك صور هذا الخيال :

الراعي يصف ذئبا أنحله الجوع فيقول :
 مَتَوَشَّحَ الْأَقْرَابَ فِيهِ نَهْمَةٌ نَهَشُ الْيَدَيْنِ تَحَالَهُ مَشْكُولًا
 كَدَخَانَ مَرْتَجِلٍ بِأَعْلَى تَلْعَةٍ غَرَّثَانَ ضَرَمَ عَرْفَجًا مَبْلُولًا^(٣)
 أتعرف أجمل من هذا الخيال ؟ ذئب ناحل يعدو يشبهه بالدخان ، تشبيه بدوي محض
 منتزع من صور الحياة اليومية ، لكنني أراه على بساطته لا يتفق إلا لمخيلة فطنة متوقدة . وهالك
 صورة أخرى متحركة من شعر امرئ القيس :

(١) أبو عبيد البكري : سمط اللآلئ ج ١ ص ١٦٢ بتحقيق عبد العزيز الميمنى من طبعة لجنة التأليف والعاملين :
 الكشكول ج ٢ ص ١٣٧

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٣٦٩١ من طبعة الشعب

(٣) شعر الراعي من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٤

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدير معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل^(١)
له أبطلا ظي وساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تنفل
وله : صورتان ، صورة في البيتين الأولين متحركة ، وصورة ثابتة في البيت الأخير .
وأنت تعرف نبوغ ذى الرمة في التصوير الشعري حتى ليجوز أن يقال إنه نابغة الخيال
العربي ، ولا أتعرض له بل أتجاوزه إلى غيره ، فقد كتب عنه بعض زملائنا مافية الكفاية ،
وأحب أن أشير إلى أن الخيال عند ذى الرمة أقرب كذلك إلى البساطة البدوية كتشبيه الطفل
الدارس بالرداء البالي .

والآن أضع بين يديك هذه الصورة من شعر البحترى في وصف بركة المتوكل :
تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من جبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً مثل الجواشين مصقولاً حواشيها
إذا النجوم تراءت في جوائنها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانها
يعمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنفض في جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها إذ انحططن وبهو في أعاليها
صور إلى صورة الدلفين يؤنسها منه أنرواء بعينه يوازيها
محفوفة برياض لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه ويحكيها^(٢)

ذلك هو الشعر الخالد حقاً صور لا تعتمد على طلاء ، وإنما على فكر آخذ بعضها برقاب
بعض ، تمر أمام عينيك كما يمر شريط سينمائي ، وهي بعد رائعة في كل زمن لأنها صور متزعة
مما هو كائن ومما كان ومما يكون .

ثم أحب أن أعرض عليك صوراً أخرى متحركة من شعر بشر بن عوانة^(٣) في وصف

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣١٩٠ من طبعة الشعب والبغدادى : خزانة الأدب ج ٢ ص ٣٦٥ من طبعة مصر

(٢) الديوان ص ٢٤١٩ بتحقيق حسن كامل الصيرفي من طبعة دار المعارف

(٣) بشر بن عوانة العبدي ، اسم اخترعه البديع الهمداني لشاعر وضع له قصة خلاصتها : أنه عرض له أسد وهو ذاهب

يبتغي مهراً لابنة عم له فثبت للأسد وقتله وخاطب أختاً له سماها البديع فاطمة (مقامات بديع الزمان ص ٩٢ ، ٩٣) من

طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ

صراع بينه وبين أسد :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت
إذا لرأيت ليثا زار ليثا
تبهنس حين أحجم عنه مهري
أبل قدمي ظهر الأرض أني
وقلت له وقد أبدى نصالاً
يكفكف غيلة إحدى يديه
يدل بمخلب وبحد ناب
وفي يميني ماضي الحد أبغى
ألم يبلغك ما فعلت ظباه
وقلبي مثل قلبك ليس يخشى
وأنت تروم للأشبال قوتا
فقيم تسوم مثلي أن يولى
نصحتك فالتمس ياليت غيري
فلما ظن أن الغشن نصحي
مشى ومشيت من أسدين راما
هزرت له الحسام فخلت أني
وحدث له بجائشة أرتة
وأطلقت المهند من يميني
فخز مجندلا بدم كآني
وقلت له يعز علي أني
ولكن رمت شيئاً لم يرمه
تحاول أن تعلمني مزاراً
فلا تجزع فقد لاقيت حراً
كأننا في ملعب للوحوش « سيرك » وكأن علجاً من علوج الرياضة البدنية يصارع وحشاً من

وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً
هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
محاذرة فقلت عقرت مهراً
رأيت الأرض أثبت منك ظهراً
محددة ووجهها مكفهرأ
ويبسط للوثوب علي أخرى
وباللحظات تحسبن جمرا
بمضربه قراع الموت أثرا
بكاظمه غداة لقيت عمراً
مصالوة فكيف يخاف ذعراً ؟
وأطلب لابنة الأعمام مهراً
ويجعل في يدك النفس قسراً
طعاماً إن لحمي كان مرأ
ونخالفني كآني قلت هجراً
مراما كان إذ طلباه وعرا
سللت به لدى الظلماء فجرا
بأن كذبتة ما منه عذرا
فقد له من الأضلاع عشرا
هدمت به بناء مشمخرا
قتلت مناسبي جلدأ وفخرا
سواك فلم أطق ياليت صبرأ
لعمر أبيك قد حاولت نكراً
بجاذر أن يعاب فت حراً

الوحوش الضارية ، وكأننا تمثل كل وثبة وكل مراوغة .

هذه صور من الخيال العربى . وليس استعداد العرب الخيالى مقصوراً على هذا الخيال « المصور » بل إن لهم فى الخيال « المؤلف » آيات رائعات ، ومن ذلك الخيال المؤلف قول أبى العباس :

وجداول ماء كالجرة أسبغت بحافات الأنهار من نسجها بسطا
صفا ماؤه حتى كأن انصبابه حسام إذا ما سلَّ أو حية رقطاً
ونكتفى مضطرين حرصاً على الإيجاز بهذه الأمثلة ونعيد ماقلناه ، وهو أن كلا الخيالىين :
الخيال العربى والخيال الأجنبى فى شعر الموالى والمولدين ولاسيما الخيال الآرى يستمد مادته
البيئية التى صبغته بها الأجيال ، وأنت تذكر رأينا فى الوراثة وإيماننا بأن أدق الخصائص
العقلية تورث كما تورث الصفات النفسية والظواهر الجسدية .
لوأن شاعراً غير عربى أراد تشبيه الضباب بماء النهر لما شبهه بالحسام المسلول أو بالحية الرقطاء
إنما بالبلور يجرى أو سبائك تسيل .

لكننا نصر على أن الخيال العربى الخالص أبرع فى الخيالىين « المصور والمؤلف » أما غيرهم
من شعراء العصر العباسى فعمدتهم الخيال « الواهم » وقد عرضنا أمثلة منه ، ونحن الآن نعرض
لخيال أبى نواس فرأيت كيف أنه يشبه الخمر بالعدراء ثم يتخيل أنه يساوم الخمار على مهرها
وأنها زفت إليه بعد ذلك « فى سراويلها » وفى « الزنار » إلى غير ذلك من ضروب الخيال الواهم
وهو لا يقارن بغيره من فنون الخيال إلا إذا كان حلماً من الأحلام معجزاً أو تصوراً لا يمكن أن
يخطر لعامة الناس .

ونحن أبعد الناس عن إطلاق القضايا أحكاماً مطلقة فلسنا نعى بالخيال الأجنبى كل خيال
غير عربى ، إنما نحن نعرف أن ابن الرومى أوتى من قوة التصوير حظاً لم يؤته كثير من العرب
الخالصين ، وبالتحديد أن الخيال العربى خصب فى ناحيتى « التصوير والتأليف » وأن الخيال
الآرى معظمه وهمى ، وقد يبدو ذلك غريباً لأن بلاد إيران غنية بجبالها وهضابها ومناظرها
العجيبة ، لكنه الواقع نلمسه فى شعرائنا المولدين والموالى ، ومنهم من تجرأ فى عروقهم دماء
آرية كما نلمسه فى شعر الفرس الخالصين ، ولو اتسع الوقت والمجال لعرضنا عليك نصوصاً من
الشعر الفارسى تؤيد بها دعوانا فعسى أن يحقق ذلك من يخطر له أن يبحث بحثاً خاصاً موضوعه
« الخيال فى الشعر العربى » أو عسى أن يتيح لنا الأيام فرصة نقوم بها بهذا البحث .

الواقعية في الشعر العباسي

نريد بالواقعية وصف الأشياء كما هي وصفا مفصلا دقيقا يمثل لك الصورة التي أرادها الشاعر تمثيلا ناطقا ، ولسنا نعرف في الشعر الأموي من ذهب هذا المذهب إذا استثنينا عمر بن أبي ربيعة . وإني لأعرض عليك هذه الصورة الواقعية في شعر بشار بن برد ، وهو أول من ذهب هذا المذهب من الشعراء العباسيين :

يا عجباً للخلاف يا عجباً	بني الذي لام في الهوى الحَجَرُ
حَسْبِي وَحَسْبُ الذي كَلِفْتُ به	مِنِّي ومنه الحديث والنَّظَرُ
أو قُبْلَةٌ في خلال ذاك وما	بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأَزْرُ
أو عَضَّةٌ في ذراعها ولها	فوق ذراعي من عَضِّها أثرُ
أو لَمَسَةٌ دون مِرْطَها بيدي	والبابُ قد حال دونه السُّتُرُ
والساقُ بَرَّاقَةٌ مُخْلَخَلُها	أو مَصْرُ رِيقٍ وقد علا البُهرُ
واسترخت الكفُّ للعراك وقا	لَتَ إيه عَنِّي والدَّمْعُ مُنَحْدِرُ
انهَضُ فما أنتَ كالذي زعموا	أنتَ وربِّي مُغَازِلُ أَشِرُ
قد غابَت اليوم عنك حاضِنَتِي	واللهُ لي منك فيك يَنْتَصِرُ
يا ربُّ خُذْ لي فقد ترى ضَرَعِي	من فاسقٍ جاء ما به سَكْرُ
أهْوَى إلى مِعْضَدِي فَرَضُّهُ	ذو قوَّةٍ ما يُطَاقُ مُقْتَدِرُ
أَلصَقَ بي لِحْيَةً له خَشُنَتْ	ذاتَ سوادٍ كأنها الإِبْرُ
حتى عَلَانِي وأُسرَقِي غَيْبُ	وَيَلِي عليهم لو أنهم حَضَرُوا
أُقْسِمُ بالله لا نَجوتَ بها	فاذْهَبْ فأنْتَ المُساوِرُ الظَّفِرُ
كيف بَأْمِي إذ رَأَتْ شَفَتِي	أم كيف إن شاع منك ذا الخَبِرُ
قد كنتُ أخشى الذي ابتَلَيْتُ به	منك فماذا أقولُ يا عِبْرُ
قلتُ لها عند ذاك يا سَكْنِي	لا بأسَ إني مُجَرَّبُ خَبِرُ

قُولِي لَهَا بَقَّةٌ لَهَا ظُفْرٌ إِنْ كَانَ فِي الْبَقِّ مَا لَهُ ظُفْرٌ^(١)
وزعيم هذا المذهب الواقعي بعد بشار هو أبو نواس ، ولتمثل لذلك :

كَانَ الْقَدَمَاءُ يَبْدَعُونَ الْمَدْحَ بِوَصْفِ الطَّلُولِ :
أَتَعْرِفُ مِنْ أَسْمَاءَ بِالْجُدْرَوْسَمَا مُحِيلاً وَنُوباً دَارِساً قَدْ تَهَدَّمَا
وَمَوْضِعَ أَحْطَابٍ تَحْمَلُ أَهْلُهُ وَمَوْقِدَ نَارٍ كَالْحَمَامَةِ أَسْحَا^(٢)
أما صاحبنا فيبدأ بوصف الورد :

كُنْتُ مِنَ الْحُبِّ فِي ذَرَى نَيْقٍ أُرُودُ مِنْهُ مَرَادٍ مَوْمُوقٍ
بِمَجَالٍ عَيْنِي فِي زَاهِرِ الرُّوْضِ وَشَرِيٍّ مِنْ غَيْرِ تَرْنِيقٍ
وَكَانُوا يَنْتَقِلُونَ إِلَى آلَامِ الْهَوَى وَحَرَقِ الْجَوَى ، أما صاحبنا فينتقل بكل بساطة إلى ما هو
« واقع » .

تَشُوبُ عِزًّا بِذَلَّةٍ فَلَهَا ذُلٌّ مَحَبٍّ وَزَهْوٍ مَعْشُوقٍ
وَرَدَفَهَا كَالْكُثِيبِ نَيْطٌ إِلَى خَصْرِ رَقِيقٍ الْلفِّ مَمْشُوقٍ
أَمْشَى إِلَى جَنْبِهَا أَزَاحِمَهَا عَمْدًا وَمَا بِالطَّرِيقِ مِنْ ضَيْقٍ
أَرَأَيْتَ إِلَى أَى حَدِّ كَانَ أَبُو نَوَاسٍ يَدْعُو إِلَى التَّجْدِيدِ وَإِلَى الْمَذْهَبِ الْوَاقِعِيِّ مَعَا .

إنه يمدح فلا يتحدث عن دار هند ودعد بل يتحدث عن الزهر ثم لا يتخرج وهو يمدح
رجلاً كالعباس بن الفضل من وصف مجونه في الطريق ، هو يأبى إلا أن يصور حياته كما هي
ويصور المجتمع الذي يعيش فيه كما هو .

وَإِذَا كَانَ الْقَدَمَاءُ وَالْمُحَدِّثُونَ مِنْ أَنْصَارِ الْقَدِيمِ اتَّخَذُوا النَّاقَةَ وَسِيلَةً إِلَى الْمَمْدُوحِ فَقَالُوا :
هَلْ تُبْلِغُنِي يَزِيداً ذَاتُ مَعْجَمَةٍ كَأَنَّهَا صَخْرَةٌ صَمَاءُ صَيْخُودُ
مِنَ اللَّوَاتِي إِذَا لَأَنْتَ عَرِيكَتُهَا كَانَ لَهَا بَعْدَهُ آلٌ وَمَجْلُودُ
تَهْدِي سَوَاهِمَ يَطْوِيهَا الْعَنِيقُ بَنَا فَالْعَيْشُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابُهَا سُودُ^(٣)
فأبو نواس لا يذكر النوق إنما يذكر الخيل :

إِذَا الْجِيَادُ جَرَتْ يَوْمَ الرِّهَانِ جَرَتْ جَرَى السَّوَابِقِ تَحْنُو فِي نَوَاصِيهَا

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٠٢٩ - ١٠٣٠ من طبعة الشعب

(٢) الأخطل : الديوان ص ٢٤٧

(٣) ديوان الأخطل ص ١٤٨

بحور الشعر واستعمالها

في العصرين

شعراؤنا الفنانون :

الشاعر العباسي فنان يختار لموضوعات الشعر ما يلائمها من بحور العروض ، فمثله كمثل الحائك الخبير بفنون الحياكة يقيس ويقص بمقصفه اللباس لكل قدِّ بمقياس . أو كالمثال يبسط ويجعد الأسارير وينحل ويملاً الخصور .

انظر إلى أبي نواس كيف يعمد إلى البحر « الطويل » الفخم في المدح :

أربع البلى إن الخشوع لبادٍ عليك وإني لم أخنك ودادى
فمعدرة منى إليك بأن ترى رهينة أرواح وصوت غوادى
رأيت لفضل في السباحة بدعة أتاحت لعمرى غيظ كل جواد^(١)

وعندما يذكر الخمر وما إلى الخمر ، يعمد إلى البحر القصير « مجزوء الرمل » والأسلوب المتناسق واللفظ المتقن فكان القطعة أعدت للترنم والغناء لا للإنشاد :

أخى لى يا صاح روحى بغبوق وصبوح
واسقنى حتى ترانى رادعا ردع الجموح
قهوة حمراء حقا غرست أزمان نوح
تشخص الهم ويرتا ح لها قلب الشحيح
تلك لا أعدمنها الله م روحى دون روحى
يجنح القلب إليها فى الهوى أى جنوح
عطفت نفسى عليها بهوى غير نـزوح

وهكذا تراه فى الغزل أو الملح مختارا أقصر البحور كالمضارع والمقتضب والمهزج والمجثث أو مجزوات البحور الطويلة « يا قضييا فى كئيب » و « يالاعبا بحياتى » و « إننى أبصرت شخصا » و « يا من بمقلته يصير » و « اسقنيها يا رفاقه » و « أيامن طرفه سحر » و « قد قلت ليلة ساوا »

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٧٣ من طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣

و «أيامن ريقه خمر» و «حامل الهوى تعب» و «ياسائلى عن هواى» و «شهدت وجه حبيبى» و «طاب الهوى لعميده» و «ياربة الوجه الجميل» .

بحور قصيرة أو مجزوة وأعارىض مشطورة ومنهوكة وأسلوب سلس ، فإنه تحرر من قيد البحور القصيرة والمجزوة فهو لا يتعداه إلا إلى بحر من البحور المتوسطة كالكمال :
ماذا لقيت من الظباء الخرد

أو الوافر : ومقرور مزجت له شمولا

أما الرثاء فأبو نواس فقير فيه ، ومع ذلك فليس من الصعب أن تلاحظ ذوقا فى اختيار بحوره ، فهو يختار من البحور ما كان بطبعه رقيقا لينا كالرمل «مايريد الدهر منى ونحه ؟» أو كالهزج «يا بهجة الدنيا التى» أو الوافر «أعزى يا محمد عنك نفسى» . ومن اليسير كذلك أن نلاحظ ملائمة القوافى :

فاضت دموعى ساكبة حزنا لمصرع والد
وتعال بنا نلق نظرة على شعر أبى تمام فى الرثاء : سنلاحظ للنظرة الأولى أن البحور الغالبة هى : المتقارب «نعاء إلى كل حى نعاء» والوافر «أعيدى النوح معولة أعيدى» والكمال «ما زالت الأيام تخبر سائلا» .

وليس الكامل بحرا لينا لكن فيه من الهدوء ما يجعله صالحا لأكثر من فن ، وأبو العتاهية عندما يتغزل يقول :

ألا ما لسيدتى ما لها دلال^(١) فأحمل أدلالها^(١)

وعندما يمدح الرشيد يقول :

وهَارُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يَشْهَى مِنَ الصَّدَى إِذَا مَا الصَّدَى بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ^(٢)

ويقول :

رحلت عن الربع المحيل قعودى إلى ذى زحوف جمّة وجنود
أما الشعراء الأمويون فلم يفرقوا بين البحور ، فأنت واجد الطويل مثلا فى مساجلاتهم الهجائية ، فللفرزدق : (على مقعد الأستاذ أنتم زعمتمو) واجده وغيره فى المدح لجرير (حيوا أمالة واذكروا عهدا مضى) . وفى الهجاء لجرير (لقد هتف الحمام ليطربا) و (عجبت لهذا الزائر

(١) المرزبانى : الموشح ص ٢٦٠ من طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣

(٢) ابن منظور : مختار الأغاني ج١ ص ٢٢ من طبعة الدار المصرية للتأليف

المتّرب) وفي المدح (أبث بعينيك الدموع السوافحا) . وفي الرثاء (خليلى كم من زفرة قد رددتها) وفي النسيب (تفرق بئين فنهمو) وفي الملح (وعكلىة قالت لجارة بيتها) وفي الحماسة (لقد زادنى حباً لنفسى أننى) .

وأخيراً لسنا ننسى ما قلناه فى حديثنا عن الوليد بن يزيد (باب الخمریات) وقلنا إنه إمام لمدرسة الشعراء العباسيين ، فالوليد أول من حرص على البحور القصيرة فى موضوعات الغزل والخمر وما إليهما ، انظر إلى قوله فى سلامه :

أنا فى يمنى يديها	وهى فى يسرى يديه
إن هذا القضاء	غير عدل يا أخيه
ليت من لام محبا	فى الهوى لا فى منيه
فاستراح الناس منه	ميتة غير سويه

وقوله :

خبّرونى أن سلمى	خسرت يوم المصلى
فإذا طيرٌ مليح	فوق غصن يتفلى
قلت يا طير اذنُ منى	فدنا ثم تدلى
قلت هل تعرف سلمى	قال لا ثم تولى ^(١)

وقوله :

لعل الله يجمعنى بسلمى	أليس الله يفعل ما يشاء
ويأتى بى ويطرحنى عليها	فيوقظنى وقد قضى القضاء
ويرسل ديمة من بعد هذا	فتغسلنا وليس بناء عناء

أوزان وفنون جديدة

ومما استحدثه سلم الخاسر زيادة عما ابتكره أبو العتاهية من الأوزان والبحور الجديدة نوع من بحور الشعر يسمى المقطع فقد مدح سلم موسى الهادى بقصيدة أولها :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر ألوى المر

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٧٦ من طبعة الشعب

كم اعتسر ثم ايتسر وكس قدر ثم غفر
 عدل السير باقى الأثر خير وشر نفع وضر
 خير البشر فرع مضر بدر بدر والمفتخر
 لمن غير^(١)

ومن الأوزان التى ولدها الخليل نوع من البحور يسمى المسند عكس المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن)

قد شجاني حبيبي واعتراى اذكاري ليته إذ شجاني ما شجته الديار

وهناك نوع مما ابتكره شعراء العصر العباسى وقد أسماه «المواليا» (المواويل) وأول من اخترع هذا النوع مولاة للبرامكة حين نكحهم الرشيد ، وكانت ترثيهم به صائحة بعد كل قطعة «وامواليا» فحملت إلى الرشيد لأنه حظر على الشعراء رثاء البرامكة بالشعر أو النثر ، فلما مثلت بين يديه قالت «ليس هذا شعرا لأنه عامى ملحون ، ولم يجر على الأوزان المعروفة ، فعفا عنها ، ومن نظمها من ذلك الحين «المواليا»^(٢) ومن مرأى تلك المرأة قولها :

يادار أين ملوك الأرض أين الفرس أين الذين حموها بالقنا والفرس
 قالت أراهم رمم تحت الأراضى المدرس خفوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرّس
 ومن الجديد ما يسمى «الكان كان» وهو كناية عن الأحاديث التى لا يعتنى بها ، إذ يقال «كان وكان»^(٣) ، وهو من اختراع العصر العباسى ، مثال :

ياقاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
 أفنيت مالك وحالك فيما لا ينفعك ليتك على دى الحالة تقنع عن الأحرار

(١) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ١٢٣ من طبعة الحلبي ١٩٠٧

(٢) المواليا فن من القول يتكون من نظم مداخل أعنى تدخل أشطار مختلفة من قوافى متغيرة . وهذا اللون من القول خلق بأن ينسب إلى الموالى أعنى غير الفصحاء من العرب والموالى بمعنى الدخلاء إلى العربية لا الموالى بمعنى الأسياد . (راجع كتابنا فنون الزجل - سلسلة كتابك بدار المعارف) .

(٣) هذا الفن يلحق بالمواليا فى أنه فن ملحون أعنى أنه يخرج على قواعد الإعراب ثم هو كذلك يخرج على مقاييس اللغة . وهذا النظم خاص بالحكايات والخرافات أعنى أنه بمثابة الشعر المستوعب للقصص والمتضمن سرد الأحداث والخرافات . (راجع المصدر السابق) .

ومما استجد في هذا العهد « القوما » وهو نوع اخترع للتنبيه وإيقاظ النائمين لتناول السحور في رمضان ، وسمى هذا الاسم نسبة إلى قوم المسحرين لقول بعضهم لبعض « قوما لنُسحر قوما » فغلب هذا الاسم على أمثالها ^(١) . وقد مدح بعضهم أحد الخلفاء وهو ينادى بالسحور في رمضان فقال :

لا زال سعدكُ جديد دايماً وحدكُ سعيد
في الدهر انت الفريد وفي صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح وأنت بيت القصيد
وقد استحدث « المسمط » وهو تنصيف مصراعي البسيط « مستفعلاً فاعلاً » مثال له :
يا أصحابنا عرجوا نقف بكم أسبحُ
مهريه دلج في سيرها بعج
طالت بها الرجل

ومن مخترعات الشعر العباسي بحر « المقتضب » وهو في شعر أبي نواس . مثال له :
حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحـب ينتحب
كلما انقضى سبب منك جاءني سبب
تعجبين من سقـمى صحتي هي العجب
وقد اختصروا من البسيط فحذفوا التفعيلة الأخيرة من كل مصراع من مصراعيه ، ثم حذفوا من التفعيلة الباقية آخر الوجد المجموع وسكّنوا ما قبل الآخر من الوجد مع إدخال الخن في هذه التفعيلة ، ومن ذلك قول أبي تمام :

قد كان ما خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعون^(٢)

وقوله :

اختصم الجود والجمال فيك فصارا إلى جدال

(١) راجع ما كتبناه عن القوما - فنون الرجل - سلسلة كتابك بدار المعارف .

(٢) ينسب المؤلف هذا البيت إلى أبي نواس وسبق أن أثبتناه إلى أبي تمام .

فقال هذا يمينه لى للغرف والجلود والنوال
وقال آخر وجهه لى للظرف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراض كلاهما صادق المقال
لانتعرض لما طرأ على القوافى من تغيير فذلك لا يجوز فيما نرى إلا فى بحث عروضى مستقل .

أما بعد وأما قبل

أكتب هذه الكلمة لأقدم هذا البحث بعد ساعة أو ساعتين من الزمان ، وكنت أقدر أني سأقدمها مغتبطا وقريرا فكيف السبيل إلى الغبطة وأنا لا أقدم رسالتي إنما أقدم بعض أجزائها ، والبعض الآخر مبعثر في أوراق وكراسات عن يميني وشمالى .

هجم الوقت هجوما فعمدت إلى ما استطعت استخلاصه من الأبواب المشتتة هنا وهناك وألفت بينها التأليف الممكن ونسقتها دون تجميل أو طلاء وجلست إلى مكتبي أملئ هذا البحث إملاء عجول متتابع النفس ينظر إلى أوراقه تارة ويطويها طيا كلما لمح عقارب الساعة . جلست أملئ وأدفع ما أمليه دون مراجعة ولا نظر . أقدم هذه الرسالة فى شىء من الألم اللاذع وقد كدت أذكر « الألم العميق » لولا ثمرة من الأنفة تذكرنى فى كل أزمة من أزمات نفسى أن ليس فى الحياة ما يستوجب الألم العميق ، وأن الحياة أهون من أن تساويه . أقدمها فى شىء من الألم اللاذع لا لأننى حاولت فيها التويه ، معاذ الخلق ، ولا لأننى ألقى الأحكام كما تلقى الخواطر ، جلّ العلم ، وجلّت الأمانة ! بل لأننى أقدم أجزاء من رسالتي ، وكنت أحب أن أذكر فى هذه الكلمة رعوس المباحث الأخرى وهى مدونة فى أوراقى ، لكننى ذكرت أن هذه الرسالة تقدم فى امتحان رسمى وخشيت أن يؤول كلامى أنواعا من التأويل ، ومثلنا فى مثل هذا الظرف منهم ضنين فطويت فيما طوى غير آسف .

ومها يكن فى هذه الرسالة التى أقدمها اليوم جهد أو جهود ، ولو كان غيرنا لرضى كل الرضا ، لكننى لا أرى الرفق رأيا ولا أصطفيه مذهبا .

أى والله لو أنصفت نفسى لوجب أن أرضى ، فهذا بحث شُغلت به وديجته فى شهور لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا - شهور أى شهور ، شهور كانت أحوج ما تكون إلى بال فارغ إلا من هذا البحث ، ويعلم الله وحده ظروفى المختلفة فيها . وبحث متشعب كهذا يحتاج إلى درس مفصل جدًّا وعميق جدًّا ، وهذا الدرس المفصل العميق يحتاج إلى البال الرخى والزمن المديد ، والزمن ليس يسعفى .

ومع ذلك كله فأنا أرجو أن أكون قد وضعت بهذا البحث الذى أقدمه اليوم لبنة فى ذلك

البناء الشامخ الذى تقوم بنيانه المدرسة الجديدة ، فإن كنت فعلت فى ذلك ما قد يرضينى وإن كنت قد أخلفت فليس ما يؤسفنى ، إنما عملنا وإنما سنعمل لأننا وُجدنا فى هذه الحياة فلا بد من العمل . إنما عملت وإنما سأعمل لأملأ أيامى ، أى لأملأ فراغها ، إما أن تحفل بى الحياة أو أطوى فى صحائفها بين من

مستطوى ومسدّ طوى فذلك أمر ما غطّر ببالى ولا شغلت به ببالى
 وبسم عليك يا قارئ ورحمة الله
 ١٩٣١ / ٤ / ١٧



المراجع

مراجع عربية

- ١ - الآثار الباقية - البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى ٤٤٠ هـ)
طبعة Edward Sachau
- ٢ - أخبار أبي نواس - أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب)
تحقيق عبد الستار فراخ
- ٣ - أخبار البحتري - الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) المتوفى ٣٣٥ هـ
طبعة لجنة التأليف والترجمة
- ٤ - أخبار الرجال - الكشي (محمد بن عمر بن عبد العزيز)
طبعة بومباي
- ٥ - الأخبار الطوال - الدينوري (أحمد بن داود)
طبعة ليدن ١٨٨٨
- ٦ - أخبار النحويين البصريين - السيرافي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله المتوفى ٣٦٨ هـ)
مصر
- ٧ - أدب الكتاب - الصول (أبو بكر محمد بن يحيى)
المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ
- ٨ - أدب مصر الإسلامية - الدكتور محمد كامل حسين
دار الفكر العربي
- ٩ - الأدب المقارن - نجيب العقيلي
دار المعارف ١٩٤٨
- ١٠ - أراجيز العرب - السيد توفيق أحمد البكري
مصر ١٣١٣ هـ
- ١١ - الاشتقاق - ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن المتوفى ٣٢١ هـ)
الخانجي
- ١٢ - الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني
طبعة الشعب ودار الكتب
- ١٣ - ألحان الحان - عبد الرحمن صدقي
دار المعارف ١٩٥٧
- ١٤ - الأمالي - أبو علي القالي
بولاق ١٣٢٤ هـ

- ١٥ - الأمل - السيد المرتضى
الخلي ١٩٠٧
- ١٦ - الإمامة والسياسة - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
الخلي ١٣٢٥ هـ
- ١٧ - بشار بن برد - طه الحاجري
(سلسلة نوايغ الفكر) دار المعارف
- ١٨ - البيان والتبيين - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
المطبعة العلمية بمصر ١٣١١ هـ
- ١٩ - تاريخ الآداب العربية - كارل نالينو
دار المعارف
- ٢٠ - تاريخ آداب اللغة العربية - مصطفى صادق الرافعي
طبعة مطبعة الأخبار ١٩١١
- ٢١ - تاريخ الأمم الإسلامية - محمد الخضرى
مطبوعات الجامعة المصرية
- ٢٢ - تاريخ الأمم والملوك - الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى ٣١٠ هـ)
الطبعة الثانية بدار المعارف
- ٢٣ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام - الخطيب البغدادى (الحافظ أبو بكر أحمد بن على المتوفى ٤٦٣ هـ)
القاهرة ١٩٣١ م
- ٢٤ - تاريخ التمدن الإسلامى - جورجى زيدان
طبعة دار الهلال
- ٢٥ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة - السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين المتوفى ٩١١ هـ) طبعة الحلبي
- ٢٦ * تاريخ دمشق - ابن عساكر (الحافظ أبى القاسم على بن الحسن) تحقيق صلاح المنجد
المجمع العلمى العربى بدمشق
- ٢٧ - تاريخ الشعر السياسى - أحمد الشايب
النهضة المصرية ١٩٤٥
- ٢٨ - تحقيق ماللهند من مقالة مقبولة أو مردولة - البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد)
أوروبا
- ٢٩ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - الدكتور شوق ضيف
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢

- ٣٠ - ثمرات الأوراق - الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى)
طبعة الصاوى
- ٣١ - جمهرة أشعار العرب - (أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشى)
دار نهضة مصر
- ٣٢ - جميل بثينة - عباس العقاد
سلسلة اقرأ بدار المعارف
- ٣٣ - حجج القرآن - الرازى (أحمد بن محمد بن المظفر)
القاهرة ١٣٢٠هـ
- ٣٤ - حديث الأربعاء - الدكتور طه حسين
دار المعارف
- ٣٥ - الحلاج - طه عبد الباقي سرور
المكتبة العلمية
- ٣٦ - خزانة الأدب - البغدادى (الحافظ أبو بكر أحمد بن على ، المتوفى ٤٦٣هـ)
طبعة بولاق
- ٣٧ - ديوان ابن الرومى - (أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى)
المكتبة العربية
- ٣٨ - ديوان أبى تمام - (حبيب بن أوس الطائى)
طبعة دار المعارف وطبعة بيروت ١٨٨٩
- ٣٩ - ديوان أبى العتاهية - (إسماعيل بن القاسم)
طبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٨٧
- ٤٠ - ديوان أبى نواس - (الحسن بن هانئ)
طباعات مختلفة
- ٤١ - ديوان الأخطل - (غياث بن غوث بن الصلت)
طبعة بيروت ١٨٩١
- ٤٢ - ديوان الأعشى - (ميمون بن قيس) تحقيق محمد محمد حسين
مكتبة الآداب
- ٤٣ - ديوان امرئ القيس - (امرؤ القيس بن حجر)
طبعة حسن السندوى
- ٤٤ - ديوان أوس بن حجر
دار صادر بيروت

- ٤٥ - ديوان البحري - (الوليد بن عبيد بن يحيى) تحقيق حسن كامل الصيرفي
دار المعارف وطبعات أخرى مختلفة
- ٤٦ - ديوان بشار - (بشار بن برد بن يرجوخ)
لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ٤٧ - ديوان جرير - (جرير بن عطية الخطفي)
دار المعارف وطبعات أخرى
- ٤٨ - ديوان جميل - (جميل بن عبد الله بن معمر)
طبعة بيروت
- ٤٩ - ديوان حسان بن ثابت
مطبعة السعادة
- ٥٠ - ديوان الخطيئة - (جرول بن أوس)
طبعة أوروبا
- ٥١ - ديوان الخنساء - (تماضر بنت عمرو بن الحارث)
طبعة الزيداني ١٣٢٦ - دار صادر بيروت
- ٥٢ - ديوان دعلج - (دعلج بن علي بن رزين)
طبعة النجف ١٩٦٢
- ٥٣ - ديوان ذي الرمة - (غيلان بن عقبة)
طبعة كمبردج ١٩١٩
- ٥٤ - ديوان زهير بن أبي سلمى
طبعة برلين ١٩٠٥ وطبعة دار الكتب ١٩٤٤
- ٥٥ - ديوان صريع الغواني - (مسلم بن الوليد)
تحقيق سامي الدهان ، بدار المعارف
- ٥٦ - ديوان طرفة بن العبد
طبعة أوروبا ١٨٢٩ ، ١٩٠٠
- ٥٧ - ديوان العباس بن الأحنف
طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
- ٥٨ - ديوان عباس العقاد
طبعة المقتطف
- ٥٩ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - تحقيق محمد يوسف نجم
بيروت

- ٦٠ - ديوان عزيز فهمي
دار المعارف
- ٦١ - ديوان عمر بن أبي ربيعة
مطبعة السعادة
- ٦٢ - ديوان الفرزدق - (همام بن غالب)
المطبعة التجارية وطبعة أوروبا
- ٦٣ - ديوان كثير عزة - تخرج الدكتور إحسان عباس
طبعة لبنان
- ٦٤ - ديوان لبید - (لبید بن ربيعة بن مالك) تحقيق الدكتور إحسان عباس
- ٦٥ - ديوان المجنون - (مجنون بنى عامر - قيس بن الملوح) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية
- ٦٦ - ديوان المعاني - أبو هلال العسكري
طبعة القدس
- ٦٧ - ديوان النابغة - (زياد بن معاوية)
مطبعة السعادة بمصر
- ٦٨ - ذو الرمة - الدكتور يوسف خليف
الطبعة الثانية بدار المعارف
- ٦٩ - رابعة العدوية - طه عبد الباقي سرور
دار الكتاب العربي
- ٧٠ - رسالة الغفران - أبو العلاء المعرى
نشر كامل كيلانى
- ٧١ - الرسالة القشيرية - أبو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى ٤٦٥ هـ
مصر
- ٧٢ - زهر الآداب وثمر الألباب - الحصرى (أبو إسحاق إبراهيم بن على)
طبعة ١٩٥٤
- ٧٣ - سمط اللآلئ فى شرح أمالى القالى - أبو عبيد البكرى
تحقيق عبد العزيز الميمنى
- ٧٤ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ)
مكتبة القدس ١٣٥٠ هـ
- ٧٥ - شرح أدب الكاتب - الجوالقى (أبو منصور موهوب بن أحمد)
مكتبة القدس

- ٧٦ - شرح أشعار الهذليين - (أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري المتوفى ٢٧٥هـ)
دار العروبة
- ٧٧ - شرح ديوان أشعار الحماسة - التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي)
بولاق ١٢٩٦هـ
- ٧٨ - شرح القصائد السبع الطوال - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق عبد السلام هارون
دار المعارف
- ٧٩ - شعر الخوارج - الدكتور إحسان عباس
دار الثقافة ببيروت
- ٨٠ - شعر الراعي - (عبيد بن حصين)
من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٤
- ٨١ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
دار المعارف وبيروت ١٩٦٤
- ٨٢ - شعر القطامي (عمير بن شميم) - تحقيق إبراهيم السامرائي
بيروت ١٩٦٠
- ٨٣ - شعراء النصرانية - لويس شيخو
طبعة الآباء اليسوعيين
- ٨٤ - صبح الأعشى - القلقشندي (أبو العباس أحمد)
دار الكتب المصرية
- ٨٥ - الصبح المنير في شعر أبي بصير ويشمل الأعشييين الآخرين
طبعة فينا ١٩٢٧
- ٨٦ - الصناعتين - أبو هلال العسكري
الآستانة ١٣٢٠هـ
- ٨٧ - ضحى الإسلام - أحمد أمين
الطبعة الثانية ، مصر ١٩٢٤
- ٨٨ - طبقات الشعراء - ابن سلام (محمد بن سلام)
ليدن
- ٨٩ - طبقات الشعراء - ابن المعتز (عبد الله بن المعتز المتوفى ٢٩٦هـ)
الطبعة الثانية بدار المعارف
- ٩٠ - طبقات النحويين واللغويين - الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)
تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف

- ٩١ - الطراز - يحيى بن حمزة العلوى
طبعة المقتطف ١٩١٤
- ٩٢ - العصر العباسى الأول - الدكتور شوقى ضيف
دار المعارف
- ٩٣ - العصر العباسى الثانى - الدكتور شوقى ضيف
دار المعارف
- ٩٤ - عصر المأمون - أحمد فريد رفاعى
دار الكتب المصرية ١٩٢٧
- ٩٥ - العقد الفريد - ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد)
المطبعة الأزهرية ١٢٩٣هـ
- ٩٦ - العمدة - ابن رشيقي (الحسن بن على المتوفى ٤٦٣هـ)
الجلبي ١٩٠٧
- ٩٧ - عوارف المعارف - السهروردى (عمر بن محمد المتوفى ٦٣٢هـ)
القاهرة ١٢٩٢هـ
- ٩٨ - عيون الأخبار - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
دار الكتب المصرية ١٩٢٥
- ٩٩ - فجر الإسلام - أحمد أمين
مطبعة الاعتماد ١٩٢٨
- ١٠٠ - الفرق بين الفرق - البغدادى (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر)
مطبعة المعارف
- ١٠١ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل - ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد)
مصر ١٣١٧هـ
- ١٠٢ - الفكاهة واللائتناس فى مجون أى نواس - جمع منصور عبد المتعال
مصر ١٣١٦هـ
- ١٠٣ - الفهرست - ابن النديم (أبو الفرج بن إسحاق)
طبع أوروبا
- ١٠٤ - فى الأدب الجاهلى - الدكتور طه حسين
دار المعارف
- ١٠٥ - الكامل فى التاريخ - ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم المتوفى ٦٣٠هـ)
مصر ١٣٥٦هـ

- ١٠٦- الكامل في اللغة والأدب - المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)
مطبعة الاستقامة
- ١٠٧- الكشكول - بهاء الدين العاملي ، تحقيق أحمد الزواوي
طبعة الحلبي
- ١٠٨- اللمع في التصوف - السراج الطوسي (أبو نصر عبد الله بن السراج)
لیدن ١٩١٤
- ١٠٩- محاضرات الأدباء - الراغب الأصفهاني
طبعة مصر
- ١١٠- مختار الأغاني - ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصاري ، كمال الدين المتوفى ٧١١هـ)
بولاق
- ١١١- مراجعات في الآداب والفنون - عباس العقاد
المطبعة العصرية
- ١١٢- المرأة في جاهليتها وإسلامها - عبد الله عفيفي
المطبعة الرحمانية ١٩٢١
- ١١٣- مروج الذهب - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المتوفى ٣٤٦هـ)
المطبعة البهية ١٣٤٦هـ
- ١١٤- المستطرف في كل فن مستظرف - الابشيبي (شهاب الدين محمد بن أحمد)
المطبعة المليجية ١٣٣٠هـ
- ١١٥- المعارف - ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
مصر ١٣٠٠هـ
- ١١٦- معجم الأدباء - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي ، المتوفى ٦٢٦هـ)
طبعة أحمد فريد رفاعي ، القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٣٨
- ١١٧- معجم البلدان - ياقوت الحموي
القاهرة ١٩٠٦
- ١١٨- معجم الشعراء - المرزباني (أبو عمرو عثمان بن مرزوق)
تحقيق عبد الستار فراج - دار المعارف
- ١١٩- المعلقات - شرح التبريزي (يحيى بن علي بن محمد)
أوروبا
- ١٢٠- المفضليات - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون
الطبعة الخامسة بدار المعارف

- ١٢١- مقامات بديع الزمان الهمداني
طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ
- ١٢٢- مقدمة ابن خلدون - (عبد الرحمن بن خلدون ، أبو زيد ولي الدين)
مصر ١٣٢٢ هـ
- ١٢٣- الملل والنحل - الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم المتوفى ٥٤٨ هـ)
القاهرة ١٩٤٧
- ١٢٤- الموازنة بين أبي تمام والبحترى - المرزبانى (أبو عمرو عثمان بن مرزوق)
دار المعارف
- ١٢٦- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المقرئى (تقي الدين أحمد بن على ، المتوفى ٨٤٥ هـ)
بولاق ١٢٧٠ هـ
- ١٢٧- الموشح - المرزبانى (محمد بن عمران بن موسى - تحقيق عبد الستار فراج
طبعة جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ
- ١٢٨- الموشى أو الظرف والظرفاء - أبو الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
الخانجى ١٩٥٣
- ١٢٩- النجوم الزاهرة - ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ
دار الكتب المصرية
- ١٣٠- نقائض جرير والأنخل - أبو تمام (حبيب بن أوس)
بيروت ١٩٢٢
- ١٣١- نقائض جرير والفرزدق - رواية السكرى (الحسن بن الحسين)
ليدن ١٩٠٥
- ١٣٢- نقد الشعر - قدامة بن جعفر
مصر ١٩٤٨
- ١٣٣- نكت الهميان فى نكت العميان - الصفدى (خليل بن أيك)
مصر ١٩١١
- ١٣٤- نهاية الأرب فى فنون الأدب - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
دار الكتب المصرية ١٩٢٨
- ١٣٥- الوزراء والكتاب - الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) القاهرة ١٩٣٨
- ١٣٦- الوساطة بين شعر أبي تمام والبحترى - الآمدى (على بن محمد) تحقيق السيد أحمد صقر
دار المعارف
- ١٣٧- وفيات الأعيان - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعى
المتوفى ٦٨١ هـ) طبعة جوتنجن وطبعة مصر

مراجع أجنبية

- Ameer Ali, Sayed:** Short History of the Saracens, London, 1900 —١٣٨
C. Field mysties & Saints of Islam —١٣٩
Le Gouve: Histoire morale de Feumes. —١٤٠
Ms. Millicent Sedinn: Hotes on the development of child —١٤١
Literary History of the Brabs, London 1923 —١٤٢
Renard Persy: The first three years of Children —١٤٣

دوائر معارف

- ١٤٤ دائرة معارف و جدى
Encyclopoedia of Religion, 1921. —١٤٥

الفهارس

١ - الأعلام

(أ)

- أبان بن عبد الحميد اللاحق : ١٤٦ ، ١٥٠ ،
١٦٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٤١
إبراهيم الإمام : ٥١ ، ١٣٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
٢١٤
إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن أبي
طالب : ٢١٨
إبراهيم الفزاري : ٣١٥
إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الحسن : ١٣٥
إبراهيم المهدي : ٢١٥ ، ٢٢١
إبراهيم بن موسى الطالبي : ٢١٥
إبراهيم بن ميمون : ٢٩١
ابن أبي زكريا الطامی : ٢٩٣
ابن أبي عتيق : ٢٥١
ابن الأثير : ٤٧
ابن إسحاق : ٣١٥
ابن الأشعث : ١٨٧ ، ٢٩٤
ابن بسام (شاعر) : ٢٢٤
ابن جنادة العذري : ٨٦
ابن حزم (والى) : ٢٩٢
ابن حصن التميمي : ١٢٣
ابن خلدون : ١٧٠ ، ٢٣٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ،
٣٢٧
ابن ديسان : ٣١٤
ابن رشيق : ٢٣
ابن الرومي : ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥
ابن الزبيرقان : ١٦٨
ابن الزبير (انظر : عبد الله بن الزبير)
ابن زياد : ١٢٣
ابن سعد : ٣١٥
ابن سيار (النظام) : ٢٢٦
ابن عتيق : ٩٧
ابن عساكر : ٣٣٠
ابن عمر : ٢٤٨
ابن قتيبة : ٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤
ابن مالك : ١٨٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
ابن المعتز : ٣٥٣ ، ٣٨٨
ابن المقفع : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٣١٤
ابن مناذر : ١٤٦ ، ٣٠٦
ابن النديم : ٢٩٨ ، ٢٩٩
ابن هرمة : ٣٥٣
ابن هشام : ٣١٥ ، ٣٨٢
ابن يعقوب الرهاوي (الأسقف) : ٣١٧
ابو الأسود الدؤلي : ١٣٥ ، ٣١١ ، ٣١٧
أبو بجير (شاعر) : ١٨٣
أبو بكر الصديق : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٩٧ ،
١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ،
٢٣٢ ، ٣١٧ .
أبو تمام : ١٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٨ ،
٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،
٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ،
٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ .

- أبو جعفر المنصور : ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ،
 ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .
 أبو حفص العليمي (شاعر) : ٨٥
 أبو الخطار بن ضرار الكلبي : ٥٠
 أبو دلف : ٣٠٩
 أبو دهبيل الجمحي (شاعر) : ٨٦
 أبو دلامة : ١٤٦ ، ٢٢٤
 أبو زيد الطائي : ١٨١
 أبو سعد الخزومي : ٢١١
 أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٩ ،
 ٥٤ ، ٦٠
 أبو سلمة الخلال : ٢١٤
 أبو شعبي الفلال : ٣٥٣
 أبو الشيص (شاعر) : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٥٠ ،
 ١٦٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨
 أبو صخر الهذلي : ٣٥٧
 أبو الطيب المتنبي : ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧
 أبو العباس (شاعر) : ٣٩٥
 أبو عبيدة بن الجراح : ٣٩
 أبو عبيدة المثني : ٣١٦
 أبو العتاهية : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ،
 ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٤٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠
 أبو عثمان الدمشقي : ٣١٤
 أبو عمرو الشيباني : ٣١٦ ، ٣٣٠
 أبو العنيس : ٢٠٦
 أبو العلاء المعري : ٢٩٣ ، ٣٢٧
 أبو الفرج الأصفهاني : ٥٥ ، ٦٠ ، ٨٢ ،
 ٨٣ ، ١٢٥ ، ٢٥٢ ، ٢٩٠
 أبو قراط : ١٥٥
 أبو محمد الثقفي : ٢٥٠
 أبو محمد الأيدي : ٣٠١
 أبو محمد اليزيدي : ٣٠٣
 أبو مسلم الخراساني : ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٤ ،
 ٢٤٣
 أبو موسى الأشعري : ١٢٩ ، ١٣٠
 أبو نصر عبد الله بن السراج الطوسي : ٢٣٣
 أبو نواس : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
 ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠٢ .
 أبو هاشم الكوفي : ٢٣٤
 أبو هاشم بن محمد بن الحنفية : ١٣٢
 أبو يحيى يوسف بن بشار : ٢٣٢
 أبو يزيد الأنصاري : ٣١٦
 أحمد أمين (الأستاذ) : ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٨١ ،
 أحمد البدوي (السيد) : ٣٤٩

أحمد زكى (باشا) : ٢٤

أحمد بن محمد بن المظفر الرازى : ١٤٠

الأحنف بن قيس : ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٨٩

الأحوص (محمد بن عبد الله بن عاصم) :

١٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٨٠

الأخطل (غياث بن غوث بن الصلت

التغلى) : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٩

٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٠٩

١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٢

١٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧١

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦

٣٠٧ ، ٣٨٠ ، ٣٩١

أرسطو : ١٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٩٣ ، ٣١٤

٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠

أرسطو طاليس : ٣١٤ ، ٣١٥

أزهر بن السمان : ٣٣٠

أسامة بن زيد : ١٨٥

إسحاق بن حنين : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٥٣

إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي : ٣١٤

إسحاق بن سويد العدوي : ٢٢٩

اسطفان القديم : ٣١٣

الإسكندر : ٣٤٦

إسماعيل بن جعفر الصادق : ١٣٢

إسماعيل بن عمار (شاعر) : ٢٥٤

إسماعيل القراطيسي : ١٦٨ ، ٢٩٠

إسماعيل بن يسار النسائي : ١٨٨

الإسلام : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١

٤٣ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨

٧٩ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٨٠

١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٣٤

٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩

٣١٧ ، ٣٥١

أشجع السلمى : ٣٠٦

الأصمعى : ٣٨٦

الأعشى (أبو بصير) : ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٦

٧٩ ، ٩٩ ، ١٩٦

أعشى ربيعة : ٢٦٤ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠

أغاشير : ١٦١

أفلاطون : ١٦ ، ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣٤٦

إقليدس : ٣١٤

أم البنين (زوجة الوليد بن عبد الملك) : ١٠٦

١٠٧

أم حكيم (زوجة قطرى بن الفجاءة) : ١٢٤

١٢٦

أمرؤ القيس : ٧١ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤

١٥٠ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠

٣٩٢

أمرسون : ٣٢٣

الأمين (انظر : محمد الأمين)

أمية بن أبي الصلت : ٢٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

أوس بن حجر : ٧٧ ، ٨١ ، ٣٥١ ، ٣٥٥

٣٥٦

أوسكار وايلد : ٢٩٣

أيمن بن خريم الأسدي : ١٣٤ ، ٣٠٧

أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٧

(ب)

بشينة (معشوقة جميل) : ٨١ ، ٨٣ ، ٨٨

٩٠ ، ٩٤

البحترى : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٨٤ ، ٣٠٨

٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٩٣

بختيشوع السرياني النسطور : ٣١٣ ، ٣١٥

براون : ١٢٥

برناردشو : ١٥٨

بروننج : ٣٢٣

بشار بن برد : ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ،

٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ،

٢٣٠ ، ٢٧٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥١ ،

٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

بشار المرعب : ١٦٨

بشر بن عوانه : ٣٩٣

بشر بن مروان : ٥٤ ، ٥٥ ، ٣٠٧

بشير بن سعد : ٣٩

بصبص (قينة) : ٢٥٥

بطليموس : ٣١٤

البعيث : ١٠٩

البغدادى : ١٢٥

بغض بن لأى : ٣٠٦

بقراط : ٣١٤

بكر بن وائل : ١٢٦

بوران بنت الحسن بن سهل : ٢١٥

بولص الأجانسطى : ٣١٥

بيان (زعيم البيانية) : ١٣٩

بيان بن سمعان : ٢٤٢

بيكون : ٣٢٤

(ت)

تأبط شرا : ٣٥٦ ، ٣٥٧

تروان (شريعة) : ٧٨

تولستوى : ١٩

(ث)

ثابت قطنة (شاعر) : ١٤١ ، ١٨٥

الثنوية (ديانة) : ٣٣

(ج)

جالينوس : ٢٧٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥

الجاهلية : ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ،

٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،

٣١١ ، ٣٥١ ، ٣٨٦

جبرة (زوجة محمد بن هشام) : ١٠٨

جبله بن الأيهم : ٢٥٠

الجحاف (شاعر) : ٤٧

جرير بن عطية الخطفى : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٥٠ ،

١٨٢ ، ٢٦١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ،

٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٣٩١

جعفر البرمكى : ٢١٥

جعفر الصادق : ١٣٢ ، ١٣٩

جلبان (أم أبي نواس) : ١٩٧

الجلندى (شاعر) : ٢٣٢

جميل بن محفوز : ١٦٨

جميل بن معمر : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٦١ ،

٣٨٨

الجمهور بن منصور الكلبي : ٥١

الحسن بن وهب : ٢٩٠ : ٢٩١
 الحسين بن الضحاك : ١١٦ ، ٢٧٤
 الحسين بن علي بن أبي طالب : ٤١ ، ١١٩ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣
 الحسين بن منصور الخلاج : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
 الخطيئة : ٢٢٤ ، ٣٠٦ ، ٣٦١
 حفص بن أبي وردة : ١٦٨
 حفص الكوفي : ١٧٨
 الحكم بن أبي العاص : ٥٢
 الحكم بن قنبر المازني (شاعر) : ٢٠٨ ، ٢٠٩
 حلان الدمشقي : ٢٤٤
 حماد بن أبي ليلى (الراوية) : ١٦٨
 حماد بن حماد : ٣٣٠
 حماد بن زيد : ٣٣٠
 حماد عجرد : ١٤٦ ، ١٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
 ٣٦٥
 حمزة بن أكرك : ٢٣٢
 حمزة بن بيض (شاعر) : ٥١
 حمزة بن عبد المطلب : ٦٠
 حنين بن إسحاق العبادي : ٣١٤

(خ)

خالد البرمكي : ٢٥٥
 خالد بن عبد الله القسري : ٤٩ ، ٥٠ ، ٣٠٦
 خالد بن يزيد : ٤٦ ، ٣١٣
 الخريمي (أبو يعقوب إسحاق بن حسان
 بن قوهي) : ٢٠٢
 الخصيب : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٤٩
 خلف الأحمر : ٣١٦ ، ٣٨٦
 خليفة (مغنية) : ٢٥١

جميلة (مغنية) : ٢٥١ ، ٢٥٢

جندل : ١٥٠

الجنيد : ٢٣٣

جهم بن صفوان الأنصاري : ٢٣٠

جواس بن قعطل (شاعر) : ٤٧

جورجي زيدان : ٧٥ ، ٧٨ ، ١٦٨ ، ٣٣٤

جوستاف لوبون : ١٦١

(ح)

حاتم طيبي : ٥٢

الحادرة : ١٥٠

الحارث بن غزوان : ٨٤

حبابة (مغنية) : ٢٥١

حبش الأعشم الدمشقي : ٣١٤

الحجاج بن مطر : ٣١٤

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٨ ،

١٢٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٩٤

حجر بن عدي : ١٣١

حرب الفجار : ٢٥٠

الحريث بن كعب : ٣٨٧

حزبن الكناني : ٣٠٧

حسان بن ثابت : ٣٠ ، ٦٠ ، ١١٥ ، ٢٥٠ ،

٢٧٨

حسيوبه بن معبد (قائد) : ٢٣٢

الحسن البصري : ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦

الحسن بن دعلج : ٢٥٥

الحسن العسكري : ١٣٢

الحسن بن علي : ٤١ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ٢١٤ ،

٢٤٣

الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب : ١٣٩

- الخليل بن أحمد : ٣١٦ ، ٤٠١
 الخنساء : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 الخيزران : ١٤٦
 ربيعة (جارية) : ٢٥٤
 الرجعة (مذهب) : ١٣٦ ، ١٣٧
 رسكن : ٣٢٣
 الرشيد (انظر : هارون الرشيد)
 الرقاشي : ١٤٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٣٠٦ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٣
 رملة بنت عبد الله بن خلف : ١٠٠
 رملة بنت معاوية : ٤٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٥
 الرهين المرادي (شاعر) : ١٢٧
 روفائيل (رسام) : ١٩
 الرياشي : ١٤٦
 ريو : ٣١
 رينان : ٣٢٥
 دارون : ١٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 ديبس : ٢٩١
 دريد بن الصمة : ١٠٨ ، ٢٥٠
 دعبل بن علي الخزاعي : ١٥٠ ، ١٦٧ ،
 ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٩٠ ، ٣٢٧
 دنائير (قينة) : ٢٥٥
 دوجال : ٢٨٢
 دوزي : ٤٥
 ديك الجن (عبد السلام بن رغبان) : ١٤٦ ،
 ١٦٩ ، ٢١٩ ، ٣٥٣
 ديمستانس : ٣٤٦
 ديوجونيس : ٣٤٦
 ديوسقورس : ٣١٥
 (ذ)
 ذات الخلا (قينة) : ٢٥٥
 ذو الرمة : ٣٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٩ ،
 ١٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣٨١ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩٣
 ذو النون المصري : ٢٣٣ ، ٢٣٩
 (ر)
 رابعة العدوية : ٢٤٠
 الراعي (عبيد بن حصين) : ٣١ ، ٥٦ ،
 ٦٤ ، ٩٦ ، ١٥٠ ، ٣٠٨ ، ٣٩٢
- (ز)
 زبيدة (السيدة) : ٢٠٧
 الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن) : ٣٠١
 الزبير : ١٢٩ ، ٢٤٩
 الزجاج : ٣١
 الزرقاء (جارية) : ٢٥٤
 زفر بن الحارث الكلابي : ٤٦ ، ٤٧ ، ١١٦
 زهير أبي سلمى : ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٧
 زولا : ١٩
 زياد بن أبيه : ١٨٩
 زياد الأصفر : ١٢١
 زياد بن الأعجم (شاعر) : ٦١
 زيد بن علي بن الحسين : ١٣١
 زينب بنت موسى الجمحية : ١٠٠

(س)

- سارتل مارتل : ١٨٨
 سبنسر : ١٥٦
 سديف بن ميمون : ١٣٥
 سراقه البارقي : ٥٣
 سعد بن عبادة : ٣٩
 سعدة (جارية) : ٢٥٤
 سعدى الشيرازي : ٢٤٢
 سعيد (غلام) : ٢٩٠
 سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :
 ٢٩٢ ، ٢٩٥
 سعيد بن مسجح : ٢٤٩
 سعيد بن وهب : ٢٩٥
 سعيدة الزرقاء (مغنية) : ٢٥١
 سقراط : ٢٩٣
 سقيفة بن ساعدة : ٣٩
 سكينه بنت الحسين : ١٠٠
 سلم الخاسر : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ٤٠٠
 سلمى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان : ٢٦٦ ،
 ٢٦٨
 سليمان بن عبد الملك : ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٨ ،
 ٢٤٩ ، ٢٨٦
 سليمان بن وهب : ٢٩١
 سهل بن حنيف : ١٢٩
 سهل بن هارون : ٣١٩
 سلامة (أم المنصور) : ١٤٦
 سلامة القس : ٢٥١
 سيويه : ٢٠٠ ، ٣٨٨
 السيد الحميري (شاعر) : ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٥ ، ٣٠٩
 سيرين (مغنية) : ٢٥٠

(ش)

- شبيب : ١٢٤
 شجرة بن جندب : ١٨٩
 شفيع غلام : ٢٨٧
 شقران : ٢٨٤
 شلى : ٣٢٤
 الشماخ بن ضرار : ٣٨٨
 الشماسية (مغنية) : ٢٥١
 الشنقيطى : ٧٢
 شهاب الدين الطوسي : ٢٤٠
 شهدان : ٢٨٤

(ص)

- صاحب بن زرارة : ٧٧
 صالح بن عبد القدوس : ٢٦٩ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩
 صريع الغواني (انظر : مسلم بن الوليد)
 صعصعة بن ناجية : ٦٢ ، ٧٥
 الصولى : ٢٩٨

(ض)

- الضحاك بن قيس : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٤٦

(ط)

- طرفة بن العبد : ٧٣ ، ١٥٠ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ،
 ٣٥٨
 الطرماح بن حكيم : ٥٢ ، ١٢٧ ، ٢٠٨ ،
 ٢١١ ، ٣١٠
 طلحة بن فهد (شاعر) : ١٢٩ ، ٢٣٢
 طه حسين (الدكتور) : ٤٥ ، ٧٣ ، ٢٦٥ ،
 ٣٢٣
 طويس : ٢٩٢

(ع)

عاتكة بنت يزيد بن معاوية : ١٠٦

عائشة (السيدة) : ١٢٩

عائشة بنت طلحة : ١٠٠

العباس بن الأحنف : ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ،

١٤٥ ، ١٦٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٩

عباس العقاد : ٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،

٢٢٥

العباس بن الفضل : ٣٩٧

عبد الله بن إياض : ١٢٢

عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي : ٢٩٢

عبد الله بن أبي السرح : ١٣٠

عبد الله بن أبي الشعبي : ١٥٠

عبد الله بن جدعان : ٢٥٠

عبد الله بن جعفر : ١١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٩٢

عبد الله بن حميد بن قحطبة : ٣١٤

عبد الله بن رواحة (شاعر) : ٣٠

عبد الله بن الزبير : ٢٩

عبد الله الزبير : ٤١ ، ٤٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٨

عبد الله بن سبأ : ١٣٦

عبد الله السفاح : ١٩١ ، ٢١٤ ، ٢١٥

عبد الله بن عامر : ١٢٩

عبد الله بن عباس : ٤١ ، ١٢٩

عبد الله بن مصعب : ٢٥٥

عبد الحميد العبادي (الأستاذ) : ٤١ ، ٤٥

عبد الرحمن بن أرطاة : ٢٥١

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت (شاعر) :

٣٠ ، ٤٤ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ٢٩٢

عبد الرحمن بن الحكم : ٣٠

عبد الرحمن الغافقي : ١٨٨

عبد الرحمن بن ملجم : ١٢١ ، ١٣٠

عبد العزيز بن مروان : ١٠٦

عبد العزيز بن الوليد : ٣٤٩

عبد الملك بن رامين : ٢٥٤

عبد الملك بن مروان : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ،

١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ٢٦٢

عبد الملك بن هشام : ١٨٦

عبيد الله بن زياد : ١٣٢

عبيد الله بن قيس بن الرقيات : ١٠٦ ، ١١٦ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ٢٥١

عثمان بن حذيفة : ١٢٩

عثمان بن عفان : ٤١ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١١٦ ،

١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٩ ، ٢١٦ ، ٣١١

عدى بن أرطاة : ٧٩

عدى بن زيد : ٢٦٢ ، ٢٦٤

العرجي (عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان

ابن عفان) : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٨

العرم (سيل) : ٣٣

عروة بن أدية : ١٢٣

عزة الميلاء : ٨٣ ، ٩٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢

عطية الخطفي : ٦٤

علقمة بن عبدة : ٣٨٣

العكوك : ١٤٦ ، ٣٠٩

علي بن أبي طالب : ٤١ ، ٦٣ ، ١١٦ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢١٤ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٣١٧

علي بن الجهم (شاعر) : ٢٢٩ ، ٢٩١ ، ٣٩١

علي الحنفي : ١٣٢

علي بن الحليلي : ١٦٨

(غ)

غالب بن صعصعة : ٦٣ ، ٧٧
غزوة الفتح : ٢٤٦

(ف)

فاطمة (بنت رسول الله ﷺ) : ١٢٨ ،
١٣٢ ، ٢٤٣ ، ٣٤٢
فاطمة بنت الأشعث : ١٠٠
فاطمة بنت عبد الملك بن مروان : ١٠٠ ، ١٠٧
فتنة ابن الأشعث : ٤٩ : ١٨٧
الفرزدق : ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١١٨ ، ٢٥١ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ،
٣٥٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٣٩٩

فرعة (مغنية) : ٢٥١

الفرهة (مغنية) : ٢٥١

فرويد : ٢٨٢

الفضل بن سهل : ١٦٧

الفضل بن العباس بن عتبة : ١٣٥

فكتور هيجو : ٢٩٣

فلهوزن : ٤٥

فوز (جارية) : ٢٥٩

فولتير : ١٥٣

فون فولتن : ٥٢

فون كرامر : ١٧٠ ، ٢٨٦

فيروز الفارسي (أبو لؤلؤة) : ١٨١

(ق)

قتيبة بن مسلم : ٤٨ ، ١٨٧
قدامة بن جعفر : ١٩ ، ٢٣ ، ٨٤
قرقيوس الصوري : ٣١٤

على الرضا : ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٢٢١

عمارة بن حمزة : ١٦٨

عمارة بن شهاب : ١٢٩

عمر بن أبي ربيعة : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٩٥ ،

٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

عمر بن أبي عمر اليوناني : ١٧١

عمر بن الخطاب : ٣٩ ، ٤١ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٣٥٦

عمر بن عبد العزيز : ٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٨٩ ، ٢٤٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٣

عمر بن لجأ : ٥٩

عمران بن حطان (شاعر) : ١٢١ ، ١٢٤ ،

١٢٦

عمرو بن بحر الجاحظ : ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ،

٣٥٣ ، ٣٣٠

عمرو بن الجلي الكلي : ٤٧

عمر بن صغد : ٢٣٢

عمرو بن العاص : ٤١ ، ١٢١ ، ١٣٠ ،

عمرو بن عبيد : ٢٢٧

عمرو بن العلاء : ٣٨٦

عمرو بن كلثوم : ٦٥ ، ٧٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،

٣٧٨

عمرو بن معديكرب : ٣٥٧

عمرو بن هند : ٦٥

عنان : ٢٥٤

عنزة العبيسي : ٩٢ ، ٩٤ ، ٢٦٤ ، ٣٥٥ ،

٣٥٧

عيسى بن عمر : ٣٨٦

عيسى بن مريم (المسيح) : ٢٣٦ ، ٢٤٣

القشيري : ٢٣٣

قضاة بن معد : ٨١

القطامي (عمير بن شميم) : ١٥٠ ، ٣٥٩ ،

٣٨٣

قطرب (مؤدب الأمين) : ٢٨٥

قطري بن الفجاءة : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦

قيس بن سعد : ٨٠ ، ٩٢ ، ١٢٩

قيصر : ١٣١ ، ٣٣١

(ل)

لبابة بنت عبد الله بن العباس : ١٠٠

ليد (الشاعر) : ٣٢٦

لمبروز : ١٥٩

لذة العيش (مغنية) : ٢٥١

لومبارد (شريعة) : ٧٨

ليلي العامرية : ٨٠ ، ١٠١

(م)

ماسرجويه : ٣١٣

ماسينيون : ٢٣٧

المأمون : ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٧ ،

٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ،

٢٤٣ ، ٢٨٦ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،

٣٣٠

المانوية (شريعة) : ٧٨ ، ٣١٤

ماني : ١٤٧ ، ٢٨٤

المتوكل (الخليفة) : ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٢ ،

٢٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

مجنون بني عامر : ٨٠ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ٣٨١ ،

٣٦٠

محمد بن إبراهيم : ٣٣٠

محمد بن إدريس الشافعي : ٣٣٠

محمد الأمين : ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٦٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٣٤٠

محمد الباقر : ١٣٢

محمد بن بشير (شاعر) : ١٨٣

محمد التقي : ١٣٢

محمد بن الحنفية : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٤٢

(ك)

كافور الإخشيد : ٣٠٤

كثير عزة : ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

١٣٧ ، ١٣٨

كثيرة (امرأة) : ١١٧

الكرخي : ٢٣٣

الكرماني : ١٩١

الكسائي : ٢٨٥ ، ٣١٦

كسرى : ١٣١ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ،

٢٠٤ ، ٢٧٦ ، ٣٣١

كعب بن جعيل (الشاعر) : ٤٤ ، ٥٩ ،

١١٢ ، ١١٥

كعب بن زهير (الشاعر) : ٢٩ ، ١٥٠

كعب بن مالك (الشاعر) : ٣٠

الكلبي : ١٨١

كلثم بنت سعد المخزومي : ١٠٠

كلثوم بن عياض القشيري : ١٢٣

الكميت بن زيد (الشاعر) : ٥٢ ، ١٣٣ ،

١٣٤ ، ٣١٠ ، ٣٦٠

كنفوشيوس (شريعة) : ٧٨

المسيحية : ٤٠ ، ١٣٦ ، ٢٣٦
 مسيلمة : ٤٠
 مشدود : ٢٩١
 مشيل أنجلو : ١٩
 مصطفى صادق الرافعي : ٣٦
 مصعب بن الزبير : ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٩٥
 مصقلة بن هبيرة الشيباني : ١٣١
 مطيع بن إلياس : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٨٧ ، ٣٢٩
 معاذ بن جوين الخارجي : ١٢١
 معاوية بن أبي سفيان : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
 ٥٢ ، ٦٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦
 معاوية الثاني : ٤٦ ، ٣١٣
 المعتصم (الخليفة) : ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٢ ، ٣٧٦
 معن بن زائدة الشيباني : ٢١٢
 المقنع (زعيم فرقة المقنعية) : ٢٤٣
 مكحول (القاضي) : ١٨٩
 ملر : ٤٥
 مليير : ٣٥١
 المنخل الإشكري (شاعر) : ٢٦٢ ، ٢٧٨
 منصور النمرى (شاعر) : ١١٩ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨
 منقذ بن عبد الرحمن الهلالي : ١٦٨
 منكة الهندي : ٣١٤
 المهدي : ٢١٦ ، ٣١٣ ، ٣٣٧
 المهدي (أعرابي بالحجاز) : ٣٨٦ ، ٣٨٧
 المهلب بن أبي صفرة : ٥٢
 المهلي : ١٥٠
 موسى (عليه السلام) : ٣٧١

محمد الحضري (الأستاذ) : ٣٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨
 محمد بن عبد الله بن الحسن : ١٣٥ ، ١٣٦
 محمد بن عبد الله بن عباس : ١٣٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥
 محمد بن القاسم بن مهرويه : ٢٢٢
 محمد بن منصور : ٢٥٨
 محمد المهدي : ١٣٢
 محمد بن الهذيل العلاف : ٢٢٧
 المخبل السعدي : ٧٤
 المختار بن أبي عبيد : ١٣٢
 المختار بن عبيد الثقفي : ١٣٢ ، ٢٩٥
 مخلد بن يزيد المهلي : ٣١٠
 مراجل (أم المأمون) : ١٤٦
 مرداس بن أدية : ١٢٣
 المرقش الأكبر : ٧٤
 مروان بن أبي حفصة : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ٣٠٦ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٢
 مروان الأول : ٥٢
 مروان بن الحكم : ٤٦ ، ٥١ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ،
 ١٩٧ ، ٢٢٦ ، ٣١٣
 مريانوس (راهب رومي) : ٣١٣
 مسعود المارداني : ١٩٧
 مسكين الدارمي (شاعر) : ١١٣ ، ١١٤ ،
 ٣٠٥
 مسلم بن الوليد : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧
 مسلمة بن عبد الملك : ٤٩
 المسيح (انظر : عيسى بن مريم)

- موسى بن خالد : ٣١٤
 موسى السامري : ٣٧١
 موسى الكاظم : ١٣٢
 موسى الهادي : ١٤٦ ، ٤٠٠
 موسيه : ٢٦٨ ، ٢٦٩
 مى : ٨٥
 ميسون بنت بحدل (زوجة معاوية) : ٤٤
 النعمان بن المنذر : ٢٦٢
 النفس الزكية (انظر : محمد بن عبد الله)
 النمر بن تولب : ٧٤
 نوبخت : ٣١٤
 نولدكه : ٢٣٣
 نيتشه : ١٥٨
 نيكلسن : ٢٣٣ ، ٢٣٦

(هـ)

- هارفي : ١٥٥
 هارون بن رامين : ٣١٣
 هارون الرشيد : ٤٤ ، ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٧١ ،
 ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠١
 هارون بن سعيد العجلي : ١٣٩
 هاشم بن حديج : ٢١٠ ، ٢١١
 هاشم بن محمد بن الحنفية : ٢٤٢
 هاكل : ١٥٥ ، ١٥٦
 هانت : ٣٢٣

- هدبة بن خشرم : ٨١
 هشام بن عبد الملك : ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٨ ،
 ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٦
 هشام بن محمد بن الحنفية : ١٣٣ ، ١٣٨ ،
 ٢١٤

- هند بنت عتبة : ٦٠
 هيت : ٢٩٢
 الهيثم بن عدي : ٢٠١
 هيجل : ١٥٢ ، ١٥٦

(ن)

- الناطقة الجعدى : ٢٦٥ ، ٣٠٤
 الناطقة الديباني : ٣٢٧ ، ٣٣٠
 نابليون : ٢٩٣
 نافع بن الأزرق : ١٢١
 نائلة (زوجة عثمان بن عفان) : ١٣١
 النبي محمد ﷺ : ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ،
 ٧٨ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٨٢ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
 ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ،
 ٣٤٢

- نبيلة (مغنية) : ٢٥١
 نبيه الأسود : ٩٢
 النجاشي العلوي : ١١٣
 نجدة بن عامر : ١٢١ ، ١٢٢
 نزار بن معد : ٨١
 نسيم : ٢٨٤
 نصر بن سيار : ٤٩ ، ١٤١ ، ١٩٠
 النصرانية (انظر : المسيحية)
 النصر بن شميل : ٣١٦
 النعمان بن بشير (شاعر) : ٤٤ ، ٤٥ ، ١٠٥ ،
 ١١٥ ، ١٥٠ ، ١٨١ ، ٢٩٥ ، ٣٦٠

يحيى بن البطريق : ٣١٤
 يحيى بن زياد : ١٦٧ ، ٢٨٧
 يحيى الزيدى : ٣٨٦ ، ٣٨٧
 يحيى بن عبد الله : ٢١٥
 يحيى بن الفضل : ٣٤٦
 يحيى بن نفيس : ٢٥٤
 يحيى بن يعمر : ٣١١
 يزجرد بن شهریار : ١٨١
 يزيد بن بكر بن دأب اللثي : ٢٩٢
 يزيد الثالث : ٥١
 يزيد بن عبد الملك : ٢٦٣
 يزيد بن الفيضى : ١٦٨
 يزيد بن معاوية : ٤٥ ، ٤٦ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٧٤
 يزيد بن المهلب : ٤٩
 يزيد بن الوليد : ٥١ ، ٢٢٦
 يعقوب بن زيد الفارسى : ٣٣
 اليهودية (ديانة) : ١٣٦
 يوسف بن خالد : ٣١٤
 يوسف بن عمر الثقفى : ٤٩ ، ٥١
 يوشع (عليه السلام) : ٣٧٥
 يوم دولاب : ١٢٦
 يوم ذى قار : ١٨٠
 يونس بن أبى فروة : ١٦٨
 يونس بن حبيب : ٣١٦

(و)

الواثق : ٢٢٢
 الواسطى : ٣٨٦
 واصل بن عطاء : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩
 الواقدى : ٣١٥
 والبة بن الحباب : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠١ ،
 ٢٨٧
 وايزمان : ١٥٦ ، ١٥٧
 وضاح اليمن (شاعر) : ١٠٧
 الوليد بن أبى عتبة بن أبى سفيان : ١٠٠
 الوليد بن طريف : ٤٤
 الوليد بن عبد الملك : ٤٨ ، ٨٢ ، ١٠٧ ،
 ٢٩٢
 الوليد بن يزيد : ٥٠ ، ٥١ ، ١٠٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٤٠٠

(لا)

لامارتين : ٣٢٤
 لامارك : ١٥٦

(ى)

يحيى بن أكثم : ٢٩١

٢ - شعوب وفرق وقبائل

الأنجلوسكسون : ٢٤٥	(١)
الإنجليز : ٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦١	الإباضية (فرقة) : ١٢٢ ، ١٢٧
الأندلسيون : ١٨٨	الاثني عشرية (فرقة) : ١٣٢
الأنصار : ٣٠ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥	الأرمن : ١٤٦
٦٠ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٨٥	الآريون : ١٦٢
٢٠٩ ، ٢١٠	الأزارقة : ١٢١
أهل السند : ١٤٦	الأزد : ٣٢ ، ٤٠ ، ١٢٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢
الأوس : ٣٩ ، ٥٢	أسد (قبيلة) : ٣٢ ، ٣٦
أولاد إلياس : ١٨١	الإسماعيلية (فرقة) : ١٣٢
الإيرانيون : ٣٥٤	الآشوريون : ٢٤٥
(ب)	الأعاجم (انظر : العجم)
البابليون : ٢٤٥	آل أبي عينة : ١٥٠
باهلة : ٢٠٠	آل البيت : ١٢٨ ، ٢١٤
بجيلة (قبيلة مصرية) : ٤٩	آل دارم : ٦٣
البرامكة : ١٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٥٨	آل المعدل : ١٥٠
٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠١	آل المهلب : ٤٩ ، ٣٠٦
البربر : ١٢٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨	الألمان : ١٥٨ ، ١٦١
بكر : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٣١٦	الأمويون : ٤٦ ، ٤٨ ، ١١٢ ، ١١٥
بنو أسد : ٢١٠	١١٦ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤
بنو أمية (انظر : الأمويون)	١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ١٩١
بنو تميم : ٣١٢	٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
بنو حنيفة : ٤٠	٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٦
بنو شيان : ٣٦٨	٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩
بنو الفيد : ١٨٢	٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٣٨٠
بنو كليب : ٥٧	٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٩
	الأنباط : ١٩٧

الحلاجية (فرقة) : ٢٤٣

(خ)

خثعم : ٣٨٦

الخراسانيون : ١٤٦ ، ٢٨٥

خزاعة : ٧٤

الخرز : ١٨١

الخزرج : ٣٩ ، ٢٥١ ، ٣٨٦

الخطابية : ٢٤٣

الخلفاء الراشدون : ١٨٥ ، ١٨٦

الخوارج : ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٧ ، ٢٢٧ ،

٢٢٩ ، ٢٣٢

(د)

دارم : ٥٢

(ذ)

ذبيان : ٣٢ ، ٤١ ، ٥٢

(ر)

الرافضة : ١٣٩

ربيعة : ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٥١ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٢ ،

٣٨٧

الرزامية (فرقة) : ٢٤٣

الروم : ٣٣ ، ١٤٦ ، ١٨٠ ، ٢٤٦ ، ٢٨٥

(ز)

الزيريون : ٤٢ ، ٤٦ ، ١٠٦ ، ١١٢ ،

بنو كلاب : ٣١٦

بنو هاشم : ١٣٤ ، ٢٠٣ ، ٣١٥

بنو هلال : ٣١٦

البيانية (فرقة) : ١٣٨ ، ٢٤٢

(ت)

الترك : ١٤٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٥

تغلب (قبيلة) : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ،

٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٥ ،

٣٠٤

تميم (قبيلة) : ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٣١٦

تنوخ : ٣٢

التوابين : ١٣٢

(ث)

ثمود : ٣١

(ج)

الجاهليون : ١٠٨ ، ٣٤٧ ، ٣٩٠

جلديس : ٣١

جذام : ٣٢

الجرمانيون : ٢٤٥

الجناحية (فرقة) : ٢٤٣

جهينة : ٣٢

(ح)

الحلمانية (فرقة) : ٢٤٤

الحمزية (فرقة) : ٢٣٢

حمير (قبيلة) : ٣١ ، ٣٢ ، ٨١

١١٦ ، ١١٨ ، ٢١٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣

الزراذشتية : ١٣٦

الزئوج : ١٤٦ ، ١٦١

الزريدية (فرقة) : ١٣٢

(ط)

طسم : ٣١

طبيئ : ٣٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٣٨٧

(ع)

عاد : ٣١

عاملة : ٣٢

العباسيون : ١١١ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٨٦ ،

٢١٤ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ،

٢٦٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٤٢ ،

٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠

عبد شمس : ٥٢

عبد القيس (قبيلة) : ١٢٦ ، ١٨٣

عبس : ٣٢ ، ٤١ ، ٥٢

العجم : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٣١٧

العدنانيون : ٣٢ ، ٥٢ ، ٨١ ، ٢١١

عذرة : ٣٢

العرب : ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ،

٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ،

٧٧ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

١٧١ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،

٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ،

٢٥٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ،

٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٥٤ ،

٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠

(س)

الساسانيون : ١٨١

السبئية (فرقة) : ١٣٦

السجستانية (فرقة) : ١٢٢

السريان : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧

السوريون : ٣٢٣

(ش)

الشراة : ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢١٣

الشطار : ٢٢٢

الشيعة : ١١٨ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،

٢٢٩ ، ٢٩٥ ، ٣١٧

(ص)

الصابئة : ٤٠

الصحابية : ٢٣٣ ، ٣١١

الصغد : ١٨٧ ، ٢٠٢

الصفريية (فرقة) : ١٢١ ، ١٢٢

الصقالبة : ٢٨٥

الصوفية : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣

الصينيون : ٢٤٥

- العرب الأندلسيون : ١٨٧
 العلويون : ١١٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
 العمرية : ٢٢٧
- (غ)
 الغساسنة : ٣٣
 غطفان : ٣٢
- (ف)
 الفاطميون : ٢١٩ ، ٣٤١
 الفرس : ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ،
 ١٤٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٥٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠١
 الفرنج : ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٥
 الفرنسيون : ٧٩ ، ٢١٥ ، ٢٦٩
- (ق)
 القبط : ١٨١ ، ١٤٦
 قحطان : ٣١
 القديلية (فرقة) : ١٢٢
 القديريون : ٢٣٢
 القرامطة : ٢٩٣
 قریش : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ،
 ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
 ٩٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٨٦ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٣١١ ،
 ٣٨٦
- قضاة : ٣٢ ، ٣٦ ، ٨١
 القعدة : ١٢٥
 قيس : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ٣١٦
- (ك)
 كلب (قبيلة) : ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢
 الكلدان : ٣١٧
 كنانة : ٣٢ ، ٧٤ ، ٣٨٦
 كهلان : ٣١
 الكوفيون : ١٣٢ ، ٣٨٤
 الكيسانية (فرقة) : ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧
- (ل)
 لحم : ٢١٢
 اللاتينيون : ١٦١
 اللومبارديون : ٢٤٥
- (م)
 مجاشع : ٥٧ ، ٦٣
 المجوس : ١٩٦
 المحمدية (فرقة) : ١٣٦
 مذحج : ٣٢
 المرجثة : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١
 المسلمون : ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٠ ،
 ٧٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٩١ ،
 ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥
 المصريون : ٢٠ ، ٣٤ ، ٢٤٥
 مضر : ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ١١٦ ، ١٩٠ ،

١٩١

المعتزلة : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣١٨

معد (انظر : العدنانيون)

المقنعية (فرقة) : ٢٤٣

المناذرة : ٣٢

المهاجرون : ١٨٥

(ن)

النجدية (فرقة) : ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥

التزاريون (انظر : العدنانيون)

النساطرة : ٣١٣

النصارى : ٢٩

النميرية (فرقة) : ٢٤٣

(هـ)

هاشم : ٥٢

المعجم (قبيلة) : ٦١

هذيل : ٣٢ ، ٢٢٦ ، ٣١٦ ، ٣٨٦

الهنود : ١٣٦ ، ١٦١ ، ٢٤٥

هوازن : ٣٢ ، ٣١٦

(و)

الواصلية : ٢٢٦ ، ٢٢٧

وائل : ٣٢

الوهاييون : ١٢٥

(ي)

يربوع : ٥٢

اليمنيون : ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٦ ،

١٩١ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

اليهود : ٢٩ ، ٤١ ، ٢٨٠

اليونانيون : ٧٧ ، ١٠٩ ، ١٤٦ ، ٢٨٦ ،

٢٩٣ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٤٥

٣ - الأماكن

١٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٣١٨ ،

٣٨٩

بغداد : ٢٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ،

٣٢٩ ، ٣٩١

بواتيه : ١٨٨

البويب (موقعة) : ١٨١

بلاد الروم : ١٨٠ ، ٢٥٤

بلاد العرب : ٣٣

بلاد الفلرا : ١٦١

بلاط الشهداء (موقعة) : ١٨٧

بين النهرين : ٣١٤

(ت)

تركيا : ٢٥٤

(ج)

الجابية : ٤٦

جرجان : ١٦٧

الجزائر : ١٢٧

الجزيرة العربية : ٣١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤١

الجسر (موقعة) : ١٨١

جلق : ٢٤

الجمل (موقعة) : ١٢٩ ، ١٣١

(١)

أثينا : ٢٤٥

أحد (موقعة) : ٦٠

أرمينيا : ٤٨ ، ١٨١ ، ٢٥٤

أزدشير : ١٣١

إسبانيا : ٢٩٣

إسبرطة : ٧٧

آسيا : ٢٩٣

أصفهان : ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٥٠

الأكاديمية الفرنسية : ١٩

ألمانيا : ٢٩٣

أمريكا : ١٦١

إنجلترا : ٢٩٣

الأندلس : ٤٨

الأهواز : ١٢٣ ، ١٩٧

أوروبا : ٤٤ ، ٧٨ ، ١٥٨ ، ١٨٨

إيران : ٣٩٥

(ب)

باب الكرخ : ٢٥٥

باريس : ١٧٠ ، ١٨٨

البحرين : ٤٠ ، ١٧٠

بدر (موقعة) : ٤٥ ، ٢٤٦ ، ٣١١

البرازيل : ١٦١

برلين : ١٧٠

البصرة : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٩ ،

- (ح)
 حاجر (جبل) : ١٣٦
 الحبشة : ١٧٠ ، ٢٥٤
 الحجاز : ٩٧ ، ٩٩ ، ١٨٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،
 ٢٨١ ، ٣٨٧
 الحجر الأسود : ١٠٠ ، ٢٥٦
 حران : ٥١
 الحرة (موقعة) : ٤٥
 حصن النجير : ٤١
 حمص : ٥١
 الحميمة : ٢١٤
 حوض السند : ٤٨
 الحيرة : ٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٣١٤
- (خ)
 خراسان : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٨ ،
 ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،
 ٢٣٢ ، ٣٦٦
 خرشنة : ١٤٦
 خير : ٢٤٨
 الخيمة : ١٣٣
- (د)
 دار الرقيق : ٢٦٠
 دبا (موقعة) : ٤١
 دمشق : ٥١ ، ١٩٧ ، ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ٣٨٩
 دهلك (جزيرة) : ٤٩ ، ١٠٦
 الدولة الاسلامية : ٤١
 الدولة الأموية : ٢١٣ ، ٢١٤
 الدولة العباسية : ٥١ ، ٢١٣
 دولة المناذرة : ٣٢
- (ر)
 روسيا : ١٧٠
- (ز)
 زبيد : ٣٣
 زمزم : ٣١٢
- (س)
 سان دومنج : ١٦١
 سجستان : ٢٣٢
 سد مأرب : ٣٣
 سر من رأى : ٢٠٦
 سلموس : ٢٤٥
 سوريا : ٢٣٦
- (ش)
 الشاذياخ : ٢٢٩
 الشام : ٣٣ ، ٣٥ ، ٥١ ، ١١٦ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٨٩
 شبام : ٣٣
 الشراة : ١٩١
- (ص)
 صعدة : ٣٣
 صفين : ١٢٠ ، ١٣٠
 صنعاء : ٣٣
 الصيمرة : ٢٢٢
 الصين : ٧٨ ، ١٧٠

(ط)

الطائف : ٤٠ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
طوس : ٢٢١ ، ٢٨٦

(ع)

عدن : ٣٣

العراق : ٣٢ ، ٥١ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩١ ،
٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ،

٣٨٩

عقرباء (موقعة) : ٤١

عمان : ٤٠

(ف)

فارس : ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢٤٩ ، ٣١٣

فرنسا : ١٤٨ ، ٢٩٣ ، ٣٥٢

فلسطين : ٢٣٤

(ق)

القادسية : ١٢٤

قبرص : ٢٤٥

قرطبة : ١٨٨

قنسرين : ٥١ ، ٣١٤

قهستان : ٢٣٢

القوقاز : ٤٨

(ك)

كربلاء : ١٣٢ ، ٢٢٥

كرمان : ١٧٠ ، ٢٣٢

كريت : ٢٩٣

الكعبة : ٨٣ ، ١٠٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ،

٣١٢ ، ٢٦٧ .

كلية الآداب : ٣١٧

الكوفة : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ٢١٤ ، ٣١٨ ، ٣٨٩

(ل)

لندن : ١٧٠

ليدن : ٢٩٠

(م)

ما وراء النهر : ٤٨

المدائن : ٢٠٦ ، ٢١٢

مدرسة الإسكندرية : ٣١٣

مدرسة الرها : ٣١٤

المدينة : ٤٠ ، ٤٥ ، ٩٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢١٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢

المربد : ٥٣

مرج راهط : ٤٦

مرو : ١٩٠

مصر : ٢٤ ، ٩٠ ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٩٣

المغرب : ٤٨ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٨٧

مقدور (موقعة) : ١٢٣

مكة : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ،

١٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٣١٢

ميدان الكاظمية : ٢٢٥

(ن)

ناريون : ١٨٧

نجد : ١٣٦

نصيبين : ٣١٤	يوم البثر (موقعة) : ٤٧
نهاوند : ١٨١	يوم السكير (موقعة) : ٤٧
نهر الزاب : ١٩١	يوم الشرعية (موقعة) : ٤٧
نهر الفرات : ٢٦٢	يوم الفدين (موقعة) : ٤٧
نهر اللوار : ١٨٨	يوم ماكسين (موقعة) : ٤٧
النهران (موقعة) : ١٢١	يوم المعارك (موقعة) : ٤٧
النوبة : ٢٣٩	اليامة : ٤٠ ، ١٨٥ ، ٣٨٩
نيسابور : ١٧٠	اليمن : ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ،
	٥٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٩٠ ،
	٢١٢ ، ٢١٢ ، ٢١٥
	اليونان : ٢٤٥ ، ٢٩٣
(هـ)	
الهند : ١٧٠ ، ٢٥٤ ، ٣١٣	

(ى)

يوم الثرثار الأول (موقعة) : ٤٧
يوم الثرثار الثانى : ٤٧

فهرس قوافى الشعر

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١٩٥	خفيف	عذراء		(الهمزة)	
٢٧١	»	هواء	٩٩	الطويل	خلاء
٢٧١	»	ذكاء	٣٦٧	مجزوء المديد	سواء
٣٣٣	»	خلاء	٣٤٤ ، ٢٤٧	بسيط	أشياء
			٢٧٥	»	الماء
	(الألف)		٣٣٠	»	عذراء
٩٨	طويل	أخرى	٢٧٧	»	حواء
١٧٣	»	يهوى	٢٧٩	»	إغضاء
١٩٨	»	كسرى	٣٩١ ، ٢٦٩	»	فأفاء
٢٧١	»	الكبرى	٣٨٤	»	موتانى
			٣٨٤	»	ندامانى
	(الباء)		٤٠٠ ، ٣٧١	وافر	يشاء
٧٩	طويل	زينبا	٢٧٨	»	اللقاء
٢٢٨	»	المهذبا	١٣٥	»	افتراء
٢٥٨	»	المخضبا	٣٣٦	»	انتشاء
٨٧	»	سباب	٣٥٦	»	جلاء
٧٩	»	يشرب	٣٧٧	»	البذاء
١٣٤	»	وأغضب	٣٣٩	كامل	بالإغفاء
٣٧٤	»	قواضب	٣٤٢	»	آناء
٣٦٣	»	أعجب	٣٤٥	»	بالأسماء
٣٣٩ ، ٢٢١	»	لب	٣٤٨	»	عزاء
٣٤١	»	العرب	٨٠	مجزوء الكامل	قضائى
٣٣١	»	وكعوب	١١٦	خفيف	شعواء
٣٠٣	»	ينجب	١١٧	»	الظلماء

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٢٨٥	بسيط	والذبيـ	٣٠٣	طويل	هيوبـ
٣٥٧	»	شنيـ	٣٥٦	»	قعضبـ
٣٧٣	»	واللعبـ	٩٨	»	أجيبـ
٣٧٥	»	مرتهبـ	٦٣	»	الضرائبـ
٣٩٠	مخلع البسيط	الذهبـ	٩٥	»	مرقبـ
٥٦	وافر	كلابا	١٣٤	»	وأرحبـ
٥٦	»	شابا	٢٩٥	»	والحربـ
٦٤ ، ٣٦٠ ،	»	غضابا	٣٢٧	»	الرحبـ
٣٦٦ ، ٣٤٥			٣٣٤	»	كوكبـ
٣٦٦	»	الترابا	٣٥٩	»	وحاصبـ
٣٦٦	»	اللعايا	٣٦٩	»	بنى جنبـ
٣٦٦	»	الذهابا	٢٤٢	مجزوء المديد	حى
١١٥	»	العجيبا	٢٢٠	بسيط	الوصبا
١٩٤	»	الخطوبـ	٢٧٤	»	ثقبا
٣٧٠	»	ذنوبـ	١١٦	»	احتلبوا
٢٢٩	»	يابـ	١١٥	»	خربوا
٢٠١	مجزوء الوافر	الرطبـ	١٧٣	»	يسكبـ
١٠٠	كامل	ربا	١٩٠	»	الغضبـ
٢٥٨	»	وتركبا	٣٤٧	»	وتعذيبـ
٣٠٤	»	كربـ	٣٥٢	»	التعبـ
٣٥٩	»	غرابـ	٣٧٤	»	الكتبـ
٥٩	»	الكتابـ	٣٧٥	»	متصبـ
٨١	»	يجوايـ	١٠٩ ، ٢٧٩	»	والذهبـ
١٦٧	»	حبائبـ	١١٨	»	مغلوبـ
٢٢٤	»	المشجبـ	١٨٢	»	والحسبـ
٢٥٨	»	اللاعب	٢٠١	»	العربـ
٢٧٥	»	النسبـ	٢٢٨	»	خطبـ
٣٠٤	»	ومشطبـ	٢٧٤ ، ٣٨٤	»	الذهبـ
٣٤٦	»	المتغايـ	٢٧٦	»	الحقبـ

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٢٩٩	كامل	المبقات	٣٦٣	كامل	الحالب
٣٠٠	»	أبيات	٩٩	مجزوء الكامل	ثيابها
٣٧٠	مجزوء الكامل	المنعوت	٣٦٧	رجز	معذب
٧٥	رجز	وبيت	٢٨٩	»	واذهي
١٩٥	»	عانات	٢٩٩	مجزوء الرجز	الكتب
٣٣١	مجزوء الرجز	أنست	١٧٨	رمل	ذيابا
٢٣٧	سريع	أنت	٢٣٨	سريع	الثاقب
٢٧٢	»	الحوت	١١٧	منسرح	والكتب
٧٥	مقارب	البنات	١٧٥	»	فاللب
	(الثاء)		١٧٢	خفيف	الكعاب
١٧٦	بسيط	تأنيثا	١٧٢	»	العقاب
	(الجيم)		١٨٩	»	الأنساب
٩٦	طويل	وحجيج	٣٧٣	»	شحوب
٣١	»	سحرج	٣٩٧	»	الخطوب
٣٩٢	»	الدراج	٤٠٢	مقتضب	الطرب
١٩٨	مديد	الديباجا	٢٥٠	مقارب	العرب
٢٠٠	مجزوء المديد	زجاج	٣٠٢	»	تثيب
٢٥٠	بسيط	غنج	١٠٢	»	عاتبا
٢٤١	مخلع البسيط	اختلج	٢٩١	»	متجنبنا
٣٠٦	كامل	المنهاج		(الثاء)	
١٠٨	رجز	تخرجي	٨٤	طويل	استحلت
٢٥١	»	الوهج	٩٦	»	ملت
١٠٠	سريع	منهج	٩٦	»	حلت
٣٩٠	»	ابتهاج	٣٦٧	»	وشتات
١٩٨	خفيف	الديباجا	٢٨٩	بسيط	جراحات
٢٥١	مقارب	الخزرج	٢٧٨	»	المصبيات
			٣٩٠	»	اليواقيت
			٣٦٤	مجزوء الوافر	الزيت

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١١٣	طويل	وأذود		(الحاء)	
٢٧٣	»	وتزيد	١٠١	طويل	يراحُ
٢٧٣	»	يد	٣٦٤	»	يتوضحُ
٣٠٦	»	يحمد	٣٦٦	»	وتنبج
٣٦٤	»	صيود	٣٨٢	»	أملح
٣٧٣	»	والعهد	٨٤	»	بالقوادح
٧٣	»	مرد	٩٣	»	الذراح
٨٠	»	وحدى	٢٧٦	مجزوء المديد	ونوحا
٩٨	»	توسد	٣٥٢	»	ويصبح
١٧٩	»	غد	٢٧٦	»	نوح
١٢٥	»	لقاعد	٣٩٨	»	وصبوح
٢٣٠	»	والزند	٢٧٢	بسيط	مصباح
٢٥٦	»	القصد	٣٣٩	»	وأقداح
٣٢٦	»	اليد	٣٣٩	»	بالراح
٣٢٦	»	التجلد	٣٤٣	»	مجروح
٣٣٨ ، ٣٤٧ ،	»	ودادى	٣٥٦	»	ضاحى
٣٩٨	»	الزند	١٩٥	وافر	الشحيح
٣٤٣	»	مبدد	٢٦٣	»	الفلاح
٣٤٤	»	بسرمد	٣٠٦	»	راح
٣٤٤	»	لم تهتد	٣٦٦	»	بالرواح
٣٦٢	»	يجدى	٢٧٦	كامل	باحا
٣٦٥	»	الجد	٣٥٥	مجزوء الكامل	الجوانح
٣٦٦	»	الحمد	٣٣٢	منسرح	الفصح
٣٧٥	»	وجنود	٩٧	خفيف	السطوح
٣٩٩	»	تجد		(الدال)	
٣٦٠	مديد	يستبد	٩٦	طويل	قعودا
٣٦٦	»	الخلد	٢٦١	»	المشهدا
١٧٧	»	وزاد	٨٩	»	ويزيد
٢٦٦	مجزوء المديد	بعدى			
٢٨٤	»				

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٢٢١	كامل	محمد	٢٢٥ ، ١٤١	بسيط	أحدا
٢٦٠	»	العاهد	٢٢٢	»	أحد
٣٠٥	»	متعبد	٣٣٥	»	تتقد
٣٤٦	»	تدرى	٣٤٦	»	يعد
٣٧٤	»	لهاد	١٩٣	»	البلد
٣٧٥	»	لم يغمد	١٩٩ ، ١٩٦	»	القد
٣٩٠	»	زبرجد	٢١٠	»	بالسد
٢٨٠	مجزوء الكامل	مسود	٢١١	»	لم يبد
٨١	رجز	الأسد	٢٧٢	»	السند
٣٨٤	»	يوحدا	٣٢٧	»	وحد
٣٤٣	مجزوء الرجز	المتجرد	٣٣٢	»	كالورد
١٧٨	مجزوء الرمل	بليد	٣٦٧	»	الجود
٣٩١	سريع	الحياد	٣٦٩	»	محدود
٧٣	»	جلد	٣٦٩	»	ومعقود
٣٨٨	»	مخلد	٣٨٢	»	لإسعاد
١٠٠	»	مسجد	٣٩٧	»	صبيخود
١٧٣	سريع	عيد	٣٨٩	مخلع البسيط	جلدا
٢٧٠	»	تجدى	٣٣٢	»	وحدى
٣٧٨	»	الأوتاد	١٧٧	»	حديد
١٦٤	خفيف	يفيدا	١٧٧	»	تقود
٢٠٥	»	وأجودا	٢٢٢	»	العبيد
٣٠٩	»	العباد	٧٥	»	لحد
٣١٠	»	العواد	١٨٣	»	أبو الوليد
٣٧٣	»	وادی	٢١٧	»	دعد
٣٨٤	»	عبد الحميد	٣٦٦	»	معادى
٣٤٦	متقارب	الجاحد	٣٨٢	»	أرادى
٤٠٣	قوما	سعيد	٣٦٢	كامل	أودا
			٣٥٦	»	يتأبد
			٢٣٠	»	يغمد

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٩١	طويل	يتمرمر	(الذال)		
٩٨	»	القطر	٢٠٠	طويل	تنبد
١٦٤	»	النسر			
١٦٥	»	الجهر	(الراء)		
١٩٥	»	والستر	٢٧٧	طويل	هدير
٢٧٢	»	قدر	٣٠٣	»	جدير
٢٧٤	»	كفر	٣٠٤	»	يصير
٢٧٤	»	البدر	٣٣٤	»	حمر
٣٦٩	»	تنشر	٣٤٠	»	فالعبير
٣٧٧	»	عذر	٣٤٩	»	عسير
٣٩٩	»	حناجره	٣٥٥	»	خصر
٣٩	»	بكر	٣٥٦	»	الحناجر
٩٠	»	حشرى	٩٨	»	سارا
١١٠	»	والخمر	٩٩	»	السوارا
١١٠	»	النشر	١٣٩	»	منكرا
١٦٦	»	الدهر	١٦٥	»	نكرا
١٧٥	»	وقار	١٩٩	»	وقرقرا
١٨٣	»	البرابر	٢٢٨	»	شهر
١٨٣	»	تاجر	٢٤٥	»	قسرا
١٩٣	»	والخطر	٢٦٥	طويل	يتذكرا
٢٢٣	»	شاطر	٢٧٣	»	العطرا
٢٥٩	»	والهجر	٢٩١	»	ظهرا
٢٦٠	»	المزامر	٣٣١	»	وقيصرا
٢٧٦	»	الصبر	٣٣٨	»	الخمرا
٢٧٦	»	الهواجر	٣٤	»	مصر
٢٧٦	»	بذاكر	٦٢	»	يمطر
٢٧٧	»	الذكر	٦٦	»	جبر
٤٠١	مديد	الديار	٧٤	»	الصهر
٢٦٥	»	وحضر	٨٦	»	تجور

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٢٠٢	بسيط	الخبر	١٩٩	مجزوء المديد	دارا
٢٢١	»	العبر	٢٧١	»	وقارا
٢٢٨	»	تقدير	٢٧٢	»	نارا
٢٣٧	»	مأمور	٢٦٦	»	ليسار
٢٧١	»	الجارى	٢٧٥	»	شعر
٢٧١	»	قار	٥٧	بسيط	جفارا
٢٧١	»	بدينار	٥٩	»	تعتصر
٢٧١	»	مكار	١٠٣	»	عطر
٢٧٢	»	النار	١١٥	»	نصروا
٢٧٧	»	تهدار	١٨٦	»	ظفروا
٢٨٩	»	والعبر	٢٣٠	»	النار
٣٤٤	»	القار	٢٤٩	»	والزير
٣٥٣	»	الخصر	٢٨٨	»	الذكر
٣٦٠	»	البشر	٣٠٦	»	قدروا
٣٦٨	»	مأجور	٣٠٧	»	صبروا
٣٨١	»	الدهارير	٣٠٧	»	كدر
٣٨٩	»	والبصر	٣٥٦	»	وضرار
٣٩٢	»	أدرى	٣٥٧	»	أسفار
٣٩٦	مخلع البسيط	الحجر	٣٥٨	»	نار
٣٠٤	»	شكرى	٣٧٥	»	عمر
١٧٥	وافر	القرار	٣٩١	»	القمر
٢٠٠	»	الإزار	٦٠	»	الكفر
٢٥٠	»	النشور	٦١	»	النار
٢٥٧	»	الوقار	٦٢	»	للسارى
٢٩٧	»	السرور	٦٥	»	جارى
٣٨٣	»	الإيار	٦٨	»	الدهر
٢٢٧	»	غفورا	١١٥	»	الثرار
٣٠٨	»	اعتذارا	١٢٣	»	وأبشار
٣٩٤	»	بشرا	١٦٦	»	زوارى

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١٣٤	مجزوء الكامل	المصاير	٢٣٢	وافر	الأمير
٢٥٣	»	الذكور	٣٤٦	»	خيار
٢٦٢	»	المطير	٧٥	»	بقبر
٢٧٨	»	والسدير	١١٥	»	بنى بشير
٢٨٧	»	المنير	١١٩	»	الأمر
٢٨٧	»	بالعبير	١١٩	»	الصغير
٢٠١	رجز	تحصر	١٨٩ ، ١٩٢	»	وجار
٤٠٠	»	المرر	١٩٤	»	والقرار
١٠٨	»	سفر	٣٢٧	»	بالنهار
٣٨١	»	يحر	٣٤١	»	للذكور
٣٨٩	مجزوء الرجز	الجلنار	٢٥٣	مجزوء الوافر	البصر
٣٦٢	سريع	عمرا	٣٦٢	كامل	الجوارا
١٩٩	»	خلار	٨٥	»	فيصبر
٣٠٣	»	بحر	٣٧٤	»	صوار
١٠٥	»	أمير	٨٣	»	يقدر
١٧٣	»	بتصوير	٨٥	»	النار
١٧٣	»	والحور	٨٩	»	كأشهر
٣٣٢	»	الخمار	٨٩	»	المكثر
٣٣٦	»	القطر	١٠٥	»	الأنصار
٣٥٨	»	ستر	١٢٠	»	ضار
٣٧٤	»	للزائر	١٢٤	كامل	الصارف
٣٨٨	»	عنبر	١٦٤	»	الدار
٢٧٥	منسرح	شرر	١٩٢	»	فافخر
٣٢٨	»	بأنبار	٢٣٠	»	الفجار
٢٠٩	خفيف	الأحرار	٣٠٨	»	الأقذار
١٩٩	»	دار	٣٥٩	»	لجار
٢٢٣	»	الشاطار	٣٨١	»	الأبصار
٣٧٧	»	جهارا	٣٦٣	مجزوء الكامل	أفخر
٣٣٠	»	نهار	٣٦٤	»	نظير

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٣٦٦	مجزوء الكامل	خمسا	٣٦٢	خفيف	نسر
٢٧٩	هزج	كاسا	٣٨٩	»	اعورار
٣٨٥	»	وأكواسا	٢٧١	»	الغبار
٢٥٨	»	عباس	٢٧٤	»	بإزار
١٦٨	مجزوء الهزج	إيليس	٣٢٨	»	والأكوار
٣٧٧	رجز	بوس	٢٩٠	مقارب	الإزارا
٢٩٨	»	بالأخس	١٩٥	»	بنى الأصفر
٢٣٨	مجزوء الرجز	تهويس	٢٨٧	»	المشير
٣٣٣	سريع	جلس	٤٠١	كان كان	الأحجار
٢٢١	»	تسخطوا		(السين)	
٢٠٤	خفيف	وعبس	٣٥٦	طويل	أنفسا
٢٠٥	»	وأنس	٣٥٥	»	تلبسا
٢٠٦	»	وكس	١٩٥	»	فارس
٢٥٩	»	براسي	٣٨٠	»	المعاطس
٤٠١	مواليا	والفرس	٣٥٣	»	دارس
	(الصاد)		٣٦٠	»	حابس
١٢٧	بسيط	تنغيصا	٣٩٥	بسيط	بسطا
٢٥٥	سريع	تشخصا	٣٦٥	»	وايثاس
	(الضاد)		٣٩٠	»	النواقيس
٣٥٥	طويل	نهوض	٢٥٥	مخلع البسيط	انقباض
٢٠	»	بعض	٣٣٣	»	بالبوس
٣٤٤	بسيط	عرض	٢١١	وافر	نواس
٣٠١	كامل	غضا	٢٨٦	»	بالنفوس
٢٥٥	سريع	قراض	٣٧١	»	بلا مساس
	(الطاء)		٣٧٦ ، ٢٠٧	كامل	إياس
١٩٧	رجز	سناط	٢٠٨	»	أوسى
			٢٤٠	»	جلوسى
			٣٧٦	»	ناسى

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١٠١	»	تشرف	(العين)		
١١٠	»	ونقذف	٢٢٣	طويل	فتشجعا
٣٦٠	»	ابن طريف	٣٢٩	»	سلعا
٣٥٥	بسيط	الأنفا	٥١	»	ستقلع
١٠٩	»	وإيجاف	٥٣	»	الخروع
١٢٧	»	المطارف	٥٦	»	البراقع
٢٧٢	»	أجواف	٣٣٧	»	قناع
٣٨٧	»	الصياريف	٣٦٥	»	يتوجع
٣٨٩	»	الأنف	٣٧٥	»	يوشع
٢٨٥	مخلع البسيط	ظرف	٣٨١	»	الأصابع
١٢٥	وافر	الضعاف	٢٢٤	بسيط	فدع
٣٤٤	»	لطيف	٣٠٨	»	يتتفع
٣٤٤	كامل	خفيفا	٣٠٨	»	منخلع
٣٨٤	»	شنفا	٣٥٧	»	خضع
٣٣٧	»	قصف	٣٦٦	»	للجوع
٣٨٠	رجز	اكتنفا	٣٥٩	وافر	لفاعا
٣٨١	»	الألف	٣٥٧	»	نستطيع
٣٣٥	سريع	النصف	١٢٦	»	تراعى
٢٧٣	منسرح	أصداف	٣٧٥	»	المضاع
٣٣٣	»	بوقاف	٥٨	كامل	الأرفع
١٢٩	متقارب	الحجف	٥٨	»	الأصبع
	(القاف)		٢٢٩	»	الساعى
٢٧٤	طويل	عقيق	٣٧٨	سريع	الساطع
٣٦٦	»	رقيق	٣٧٨	خفيف	الخداع
٥٧	»	وتحمقوا	٣٠٧	متقارب	أوسع
٨١	»	فيخلق		(الفاء)	
٨٩	»	تعنق	١٨٤	طويل	وقف
١٧١	»	واثق	٨٢	طويل	المتلهف

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
	(الكاف)		٢٩٤	طويل	ينطق
٢٧٧	طويل	الفلكا	٣٥	»	بالمعازق
٨٦ ، ٨٥	»	ببالك	١٩٩	»	بصادق
٣٥٥	»	الشوابك	١٩٢	مديد	الحمق
٣٧٦	بسيط	المليك	٣٦٦ ، ٣٦٤	»	سبق
١٧٤	وافر	المليك	٣٣٢	بسيط	البواشيق
١٠٢	مجزوء الوافر	حذرک	٣٥٧	»	آفاق
١٧٤	مجزوء الرجز	من ملك	٣٥٥	وافر	وذاقوا
٢٤١	»	الحمد لك	٢٦٠	»	الرقيق
٣٥٤	»	الملك لك	٢٧٩	»	باق
١٧٥	مجزوء الرمل	لعلك	٢٢١	كامل	مائق
٢٧٤	منسرح	الفلك	٢٥٥	»	بتلاق
٣٧٦	خفيف	أراك	٢٧٣	»	الفائق
٢٤٠	متقارب	لذاکا	٢٩٦	»	بفرق
	(اللام)		٣٧٠ ، ٣٠٩	»	تخلق
١٢١	طويل	يترحلا	٣٧٣	»	وتلهوق
٢٦٨	»	عقلا	٣٨٥	»	رق
٣٨٧	»	الأبطالا	٢٩٧	رجز	رقيق
١٠٢	بسيط	طفلا	٣٨٧	»	سائق
٢٢٨	»	مثلا	٣٩٧	»	مرموق
٢٥١	»	صحلا	٣٦٥	سريع	والمائق
٣٨٧	»	فضلا	٢٥٥	»	مشتاق
٣٤٣	مجزوء المديد	أقلا	٢٨٥	مجزوء السريع	حلق
٦٠	كامل	الأغلا لا	١٩٨	منسرح	السوق
١١٠	»	نخيلا	٢٣٦	خفيف	طرق
١٦٨	»	ظلالا	٢٦٢	»	التصفيق
٢٨١	»	وكمالا	٢٧٣	»	الراووق
٢٩٤	»	حويلا	٢٦٧ ، ٥١	»	عميقاً

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١٠٠	طويل	الرجال	٣٨٣	كامل	الأبطال
١٠٣	»	المتفضل	٣٩٢	»	مشكولا
١٢٧	»	طائل	٥٠	وافر	غزالا
١٦٧	»	النجل	٥٩	»	رحالا
١٩	»	محول	٢٧٣	»	العقولا
٢٧٧	»	البعل	٢٧٧	»	يطولا
٢٨٠	»	الهطل	٢٢٩	سريع	مجهولا
٢٨٨	»	مثال	٣٧٧	خفيف	وجلالا
٣١١	»	الرسائل	٨٤	متقارب	جميلا
٣٢٦	»	فحومل	٣٤	طويل	أفعل
٣٣٠	»	برحيل	٨٦	»	تفعل
٣٥٦	»	القال	٨٨	»	رسول
٣٦٠	»	الرحل	٨٩	»	أفضل
٣٨٠	»	المنازل	٩٠	»	ومجذل
٣٩٢	»	هيكل	٩١	»	يتهيل
١٩٧	مديد	أجل	٩٤	»	موكل
٢٩	بسيط	مأمول	٩٥	»	جميل
٤٦	»	والجبل	٢٠٢	»	الجهل
٣٤٠	»	جمل	٢٦٣	»	تتآكل
٣٧٠ ، ٣٦٩	»	الفصل	٢٦٣	»	ومفصل
٦٣	»	هلال	٣٦٩	»	مثل
٧٢	»	والكفل	٣٧٤	»	ذوابل
٣٠٩ ، ١٧٢	»	حال	٣٨١	»	أكسل
٢٧٨	»	الحجل	٢١	»	القتل
٣٢٩	»	البالي	٧١	»	معول
٣٦٨ ، ٣٥٤	»	أمل	٨٨	»	بنجيل
٣٦٧	»	والبزل	٨٨	»	مهل
٣٦٨	»	مثل	٨٨	»	فضل
٤٠٣	مخلع البسيط	جدال	٩٨	»	عقلى

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١١٩	منسرح	بالحامل	١٣٧	وافر	السؤال
٣٠٢	سريع	العاجل	٢٠٣	»	الحجول
٤٠٠	خفيف	المصلى	٢٠٣	»	دمول
٢٩٥	»	عطبول	٣٢٧	»	المميل
١٩٨	متقارب	ذهول	٣٧٢	»	الوصال
			٥٨	كامل	وتسفل
	(الميم)		٦٣	»	وأطول
١٩٢	طويل	العلم	١٠٦	»	موكل
٥٤	»	المناسما	٢٢٣	»	جليل
٥٥	»	لهازما	٣١٢	»	نهشل
٥٥	»	الجماجا	٣٥٩	»	تقتل
٣٦٣	»	الدماء	٥٧	»	الأخوال
٣٧٤	»	وتوأما	٥٨	»	الأنفال
٣٩٧	»	تهدما	٥٩	»	مبلول
٤٥	»	العمائم	٧٦	»	وطلول
٤٧	»	لائم	٨٧	»	واصل
١٠٩	»	مقسم	٩٠	»	قفول
٣٠٥	»	معدم	٩٥	»	سبيل
٣٦٠	»	نائم	٣٢٧	»	وحلال
٣٨٧	»	يدوم	٣٤٥	»	غوال
٣٨٩	»	دم	٣٥٢	»	حمال
٢٠	»	يظلم	٣٥٧	»	المنهل
٤٨	»	المصالم	٣٧٢	»	بالعقل
٥٥	»	للخراطيم	٣٩١	»	الأفحل
٥٥	»	عارم	٣٧٢	مجزوء الكامل	احتيالى
٥٦	»	المطاعم	٣٨١	رجز	المتصل
١١٤	»	التنسم	٣٨٢	»	كاهل
١٢٦	»	أم حكيم	٣٨٠	»	العمل
١٣٨	»	ظالم	٢٨٨	منسرح	الحمل

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٢٦٠	وافر	والسلام	٢٠٣	طويل	بدرهم
٢٧٠	»	عظامي	٢٠٩	»	مجرم
٢٧٨	»	الرخام	٢١١	»	ملوم
٣٠٦	»	اللاثام	٢١٨	»	بسالم
٣٣٢	»	الحرام	٣٢٦	»	فالمتثلّم
٢١٦	كامل	درهما	٣٨٠	»	الصوارم
٨٦ ، ٨٥	»	يكرم	٣٦٦	مديد	ألم
٢٥٣	»	يارامي	٣٦٩	بسيط	ظلاما
٢٦٤	»	المعلم	٣٠٧	»	والخدم
٣٤٢	»	الأعمام	٥٧	»	الحرم
٣٨٧	رجز	صميم	١٢٨	»	ومعتصم
٢٠٦	مجزوء الرجز	تحتكم	١٨٨	»	تسليمي
٢٠٦	»	تلتقم	١٨٨	»	بمهدوم
٢٩٩	»	شتم	٣٥٧	»	سئم
٣٣٠	رمل	السقم	٣٥٨	»	تهمي
٣٧٨	سريع	لا يسهم	٣٨٢	»	الأقوام
٣٧٢	خفيف	تسلم	٣٨٣	»	ملثوم
٣٣٦	»	شميا	٢٥٣	مخلع البسيط	حاكم
٣٧٧ ، ١١٧	»	المظلوم	٣٦٩	»	اللوم
٢٧٥	»	الحتام	١٣٧	وافر	المقاما
١٧٤	»	تحريم	٣٠٨	»	وصاما
٢٦٨	»	أم حكيم	٣٨٠ ، ١٩٠	»	السلام
٣٧٧	»	الأحلام	٣٨٣	»	حرام
٣٣٤	مجزوء الخفيف	أعجا	٥٦	»	الأحلام
١٩٢	متقارب	العلم	١٠٢	»	وسلمي
٦١	»	صائم	١٧٢	»	الحرام
			١٧٦	»	للغلام
	(النون)		١٧٦	»	الكلام
٢١٢	طويل	تلين	٢٢٩	»	إمام

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
١٣٨	وافر	أجمعينا	٣٧٠	طويل	ويغتن
٢٦٢	»	ماروينا	٣٦	»	مكان
٢٦٤	»	الأندرينا	٨٩	»	صليبي
٢٦٥	»	وقاصرينا	١٦٦	»	سنان
٣٨٢	طويل	آخرين	٢٧٠	»	بدين
١٦٩	»	عاني	٣٥٧	»	بجزان
١٩٦	»	اليمني	٣٦٧	»	داني
٦٤	كامل	فيينا	٢٣٧	مديد	بدنا
٥٥	»	النشوان	١٩٦	مجزوء المديد	آذريون
٥٥	»	السلطان	١٩٦	»	ياسمين
٦١	»	الألوان	٢٦٩، ١٩٦	»	أصبهاني
٢٢٧	»	بالمأمون	١٠١	بسيط	زمننا
٣٦٨	»	مكان	١٠١	»	سكنا
٢٥٩	مجزوء الكامل	وزينا	١٢١	»	إنسانا
٣٧٠	رجز	عدن	١٣٥	»	مدفونا
٢٥٤	»	المساكين	١٤١	»	ومرجونا
٣٧٠	مجزوء الرجز	راجعونا	١٧٤	»	رهبان
٣٨٩	منسرح	حسن	١٩٧	»	ضغنوا
١٠٥	خفيف	جيرون	١٣٥	»	الحزن
٢٣٩	»	يهون	١٩٨	»	وسوسان
٣٣٧	»	يصطلونا	٢٣٧	»	برهان
٣٥٨	»	يلهينا	٢٥٣	»	عيني
٢٥٩	»	حزين	٢٥٤	»	رامين
١٠٥	»	بالتمني	٣٠٨	»	اثنان
١٦٦	»	القيان	٣٤٢	»	أعطاني
٢٣٩	»	أجفاني	٤٠٢	مخلع البسيط	راجعونا
٢٦٤	»	المنون	٣٥	وافر	ترانا
٣٦٠	»	يلتقيان	٧٣	»	الكاشحينا
			١٢٣	»	أربعونا

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٣٥٢	كامل	وسنامه	١١٢	متقارب	كارهونا
١٠٧	»	بعلها	١١٣	»	تحذرونا
٢٧٢	»	جرياها			
٣٠٣	»	فأحالها		(الهاء)	
٣٠٨	»	قالها	٧٩	طويل	بارقه
٣٢٦	»	فرجامها	٢٩٦	»	هوالكه
٣٣٨	»	تنساها	٢٩٦	»	تاركه
٣٤٢	»	هالها	٣٤١	»	مالكه
١٧٠	مجزوء الكامل	متتالية	٤٧	»	همومها
١٧٦	»	فتاة	٩١	»	حينها
٢٢٥	»	الزكية	٩٣	»	غريمها
٣٧٢	»	فراشه	١٩٥	»	ذونها
٧٢	»	ثيابها	٣٥٥	»	حلومها
٧٦	رجز	وطارقه	٣٦٩	»	طلاقها
١٢٤	»	وغسله	٣٧١ ، ٣٣١	مديد	دانيه
٢٩٨	»	ودمنه	٣٩٠	»	الشجرة
٣٩٩	»	والده	٢٢٤	مجزوء المديد	قعيده
٣٨٥	»	عنقها	٢٨٩	»	وحاجه
١٧٣	مجزوء الراجز	زانيه	١٧٨	»	وصلوه
٢٠٦	رمل	ثمره	٤٠٠	»	يديه
١٢٨	سريع	تأويله	٢٩١	بسيط	شاربه
١٧٧	»	دكته	٣٨٨	»	كالبه
٢٣٩	»	كده	٢٥٩ ، ٨٦	»	فينعاها
٢٨٨	»	مقلته	٢٤٦	»	مواليها
٣٤٣	»	أجزائها	٣٩٣	»	مجرها
٣٩٠	مجزوء السريع	كالذهب	٣٩٧	»	نواصيا
٣٤٥	منسرح	كذب	٣٣٣	مخلع البسيط	ومكاها
٣٩٩	متقارب	أدلالها	٢٨٩	وافر	الفلاة
٣٦٦	»	أمسه	١٠٦	مجزوء الوافر	موكبها

الصفحة	البحر	القافية	الصفحة	البحر	القافية
٣٨١ ، ١٠١	طويل	ليا		(الياء)	
٣٣١	»	الدنيا	٤٦	طويل	تماديا
٣٥٩	»	بشماليا	٤٧	»	باقيا
٣٨٧	»	كفانيا	٨٣	»	هيا
٢٨٦	مجزوء المديد	دينا	٨٣	»	المراميا
٢٩٥	مخلع البسيط	الدنيا	٩٢	»	باديا
١٣٥	وافر	عليا	٩٣	»	صافيا
٨٥	كامل	هيا	٩٣	»	قؤاديا
٢٨٧	سريع	راسيا	٩٨	»	ورائيا
			٩٩	»	دعائيا

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

٥ تقديم
١٥ مقدمة المؤلف
	سبيلنا في البحث ١٦ - حرية البحث ١٨ - المثالية الكمالية ١٩ - الدراسات المختلفة في هذا البحث ٢٢

الكتاب الأول الشعر الأموى

٢٩ تمهيد
	العصية القبلية ٣١ - العصية والخلافة ٣٩ - العصية والردة ٤٠ - صراع بين الزبيرية والأموية ٤٢ - العصية والخوارج ٤٣ - العصية والعصر الأموى ٤٤ - هشام ابن عبد الملك ٤٩ - الوليد بن يزيد ٥٠ - مروان بن محمد بن الحكم ٥١
٥٢ نظرات في الشعر القبلى
	هجاء البخل ٦١ - الفخر القبلى ٦٢ - المفاخرة بالأيام ٦٥ - الشاعر وتعدد الخصومات ٦٦
٦٩ الفنان الجديدان - الغزل - السياسة
	الغزل ٧١ - الغزل الجاهلى ٧١ - المرأة العربية في الجاهلية ٧٨ - الغزل الأموى ٧٩
٨١ جميل بن معمر
	العاشق الطفل ٨٣ - طبيعة الحب عند جميل ٨٣
٩٢ الجاهلية والقصص الغرامى
	غزل البادية المصطنع ٩٥ - غزل الحجاز الحضرى ٩٧ - العاشق الحضرى ومناورته ١٠٠ - الغزل السياسى ١٠٤ - غزل المقدمة أو غزل العراق ١٠٨
١١٢ الشعر السياسى
	الأخطل ١١٤ - أنصار ابن الزبير ١١٦
١٢٠ الخوارج
	حروب الخوارج وشعرهم ١٢٢ - القعدة ١٢٥
١٢٨ الشيعة
	آراء الشيعة ١٣٣ - شعراء الشيعة ١٣٣ - الشيعة والبدع ١٣٦ -

المرجئة	١٣٩
---------------	-----

الكتاب الثاني

الشعر العباسي في العصر الأول

تطور الشعر ١٤٥ - التوليد ١٤٦ - الحلية البشرية ١٥١ - قوانين الوراثة ١٥٢ - الاستثناءات ١٥٤ - نظرية الوراثة ١٥٤ - نظرية الحركات الانتقالية ١٥٥ - الصفات المكتسبة ١٥٦ - شيعه النفس ١٥٦ - التناقض الخلقى ١٥٧	
التوليد	١٥٨
رأى المحدثين ١٥٨ - لكل أمة عقلها ومزاجها ١٥٩ - التوالد ١٦٠ - آثار التوليد بالتدرج ١٦٢	
الأثر العام للتوليد	١٦٤
الأثر الخاص للتوليد أو أثر التوليد في نفوس الشعراء	١٧٢
أثر التوليد في الحس ١٧٦ - أثر التوليد في المزاج وفي طبيعة النفس ١٧٧ - التوليد والنفسية السوداء ١٧٨	
الشعوية	١٨٠
وثبة الموالى على العرب ١٩٠ - حظ العصبية العربية من القوة أو الضعف ٢٠٠ - الشعوية المعتدلة أو التسوية ٢٠٢ - بحور المفاخرة ٢٠٣ - الشعوية تنصرف ٢٠٧ - العصبية القبلية في العصر العباسي ٢٠٨	
الشعر السياسى والفرق الدينية	٢١٣
الشعر السياسى فى العصر العباسى ٢١٣ - الشيعة والعصر العباسى ٢١٤ - الشعراء ٢١٦ - بشار ٢١٨ - ديك الجن ٢١٩ - دعبل ٢١٩	
المعتزلة	٢٢٦
الصوفية	٢٣٢
الفرق بين الزهد والتصوف	٢٣٤
الصوفية فى القرن الثانى والثالث	٢٣٥
ذو النون ٢٣٩ - رابعة العدوية ٢٤٠ - الشعر الصوفى ٢٤١	
الفرق الحلولية	٢٤٢

٢٤٥ الغزل
	كلمة عن الرق ٢٤٥ - الرق في الجاهلية ٢٤٥ - الإسلام والرق ٢٤٦
٢٤٨ الغناء والموسيقا
	القيان ٢٥٠ - القيان في صدر الإسلام ٢٥٠ - القيان في العصر الأموي ٢٥١ - الغزل العباسي ٢٥٦ - العباس بن الأحنف ٢٥٨
٢٦١ الفنون الجديدة
	الخمريات ٢٦١ - خمريات الأمويين ٢٦٢ - الوليد بن يزيد ٢٦٣ - الخمر عند الجاهليين ٢٦٤ - خمريات العباسيين ٢٦٩ - أبو نواس والسلف ٢٧٠ - أثر الفلسفة اليونانية ٢٧٩ - الغلانيات ٢٨٢ - الزهد ٢٩٤ - النظم التعليمي ٢٩٨ - الصناعة ٣٠٠ - الألغاز ٣٠١ - المدح ٣٠٢ - رواج المدح في العصرين والمقابلة ٣٠٥
٣١١ تدوين العلوم
	الفلسفة اليونانية وأثرها ٣١٢ - الثقافة الفارسية ٣١٢ - تدوين الكيمياء ٣١٣ - تدوين التاريخ ٣١٥ - تدوين الشعر ٣١٦ - تدوين البلاغة ٣١٦ - تدوين النحو ٣١٦
٣١٨ أثر الفلسفة اليونانية
	البلاغة ٣١٨ - في النحو ٣١٨ - في علم الكلام ٣١٨

الكتاب الثالث

المقارنة الفنية بين الشعر الأموي والعباسي

	ما الشعر ٣٢٣ - الثورة على القديم ٣٢٦ - التزعة إلى الجديد والثورة على القديم في العصر العباسي ٣٢٨ - فلسفة أبي نواس ٣٣٠
٣٤١ أثر الفلسفة اليونانية في الشعر العباسي
	الحكم اليونانية ٣٤٦
٣٤٧ مقارنة الأسلوب في الشعر الأموي والعباسي
	البدیع ٣٥١ - البدیع في العصر الجاهلي ٣٥٥ - البدیع في العصر الأموي ٣٥٩ -
٣٦٢ العصر العباسي
	البدیع في شعر بشار ٣٦٢ - البدیع في شعر مسلم بن الوليد ٣٦٧ - البدیع في شعر أبي نواس ٣٧٠ - بديعيات أبي تمام ٣٧٣
٣٧٩ مقارنة النحو في الشعر الأموي والعباسي
	الشواذ والأخطاء النحوية في عصر بني أمية ٣٨٠ - الشواذ والأخطاء النحوية في الشعر العباسي ٣٨٤

صفحة

٣٨٦	اختلاف اللغات وأثر ذلك في الشعر الأموي
٣٨٨	الخيال في الشعر الأموي والعباسي والتشبيهات الجديدة
٣٩٦	الواقعية في الشعر العباسي
٣٩٨	بحور الشعر واستعمالها في العصرين
		شعراؤنا الفنانون ٣٩٨ - أوزان وفنون جديدة ٤٠٠

٤٠٤	أما بعد وأما قبل
-----	-------	------------------

المراجع :

٤٠٩	مراجع عربية
٤١٨	مراجع أجنبية

الفهارس :

٤٢١	١ - الأعلام
٤٣٥	٢ - شعوب وفرق وقبائل
٤٤١	٣ - الأماكن
٤٤٥	قوافي الشعر

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٣٢١٠
الترقيم الدولي - ٤٥ - ٧٣٣٠ - ٢٤٧ - ISBN٩٧٧	

١ / ٧٩ / ٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)